(فهرسة سراج الملوك)

صحيفة	
٦	الباب الاول فى مواعظ الملوك
٢٩	الباب الثانى فى مقامات العلماء والصالحين عند الامراء والسلاطين
٣٩	الباب الثالث فيما جاء فى الولاة والقضاة وما فى ذلك من الغرر والخطر
٤٣	الباب الرابع فى بيان معرفة ملك سليمان بن داود عليهما السلام ووجه طلبه الملك وسؤاله أن لا يوتى لاحد من بعده
٤٤	الباب الخامس فى فضل الولاة والقضاة اذا عدلوا
٤٦	الباب السادس فى ان السلطان مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح
٤٧	الباب السابع فى بيان الحكمة فى كون السلطان فى الارض
٤٨	الباب الثامن فى منافع السلطان ومضاره
٤٩	الباب التاسع فى بيان منزلة السلطان من الرعية
٥٠	الباب العاشر فى بيان معرفة خصال ورد الشرع بها فيها انظام الملك والدول
٥١	الباب الحادى عشر فى بيان معرفة الخصال التى هى قواعد السلطان ولاثبات له دونها
٥٤	الباب الثانى عشر فى التنصيص على الخصال التى زعم الملوك أنها أزالت دولتهم وهدمت سلطانهم
٥٦	الباب الثالث عشر فى الصفات الراتبة التى زعم الحكماء أنه لا تدوم معها مملكة
٥٨	الباب الرابع عشر فى الخصال المحمودة فى السلطان
٥٩	الباب الخامس عشر فيما يعز به السلطان
٥٩	الباب السادس عشر فى ملاك أمور السلطان
٦٠	الباب السابع عشر فى خير السلطان وشر السلطان
٦١	الباب الثامن عشر فى منزلة السلطان من القرآن
٦١	الباب التاسع عشر فى خصال جامعة لامر السلطان
٦٢	الباب الموفى عشرين فى الخصال التى هى أركان السلطان
٦٣	الباب الحادى والعشرون فى بيان حاجة السلطان الى العلم
٦٤	الباب الثانى والعشرون فى وصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب
٦٥	الباب الثالث والعشرون فى العقل والدهاء والخبث
٦٩	الباب الرابع والعشرون فى الوزراء وصفاتهم والجلساء وآدابهم
٧٢	الباب الخامس والعشرون فى الجلساء وآدابهم
٧٤	الباب السادس والعشرون فى بيان معرفة الخصال التى هى جمال السلطان
٧٨	الباب السابع والعشرون فى المشاورة والنصيحة
٨٠	فصل فى النصيحة

صحيفة

٨١ الباب الثامن والعشرون فى الحلم
٨٧ الباب التاسع والعشرون فيما يسكن الغضب
٨٨ الباب الثلاثون فى الجود والسخاء
٩٥ الباب الحادى والثلاثون فى بيان الشح والبخل وما يتعلق بهما
٩٦ الباب الثانى والثلاثون فى الصبر
٩٧ فصل فى أقسام الصبر
١٠٣ الباب الثالث والثلاثون فى كتمان السر
١٠٥ الباب الرابع والثلاثون فى بيان الخصلة التى هى رهن بسائر الخصال وزعيم بالمزيد من النعماء والآلاء من ذى الجلال
١٠٧ فصل فى الشكر على الجوارح
١٠٧ فصل فى الكلام على الزيادة
١١١ الباب الخامس والثلاثون فى بيان السيرة التى يصلح عليها الامير والمأمور ويستريح اليها الرئيس والمرؤس مستخرجة من القرآن العظيم
١١٢ الباب السادس والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها غاية كمال السلطان وشفاء الصدور وراحة القلوب وطيبة النفوس
١١٣ الباب السابع والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها ملجأ الملوك عند الشدائد ومعقل السلاطين عند اضطراب الامور وتغير الوجوه والاحوال
١١٤ الباب الثامن والثلاثون فى بيان الخصال الموجبة لذم الرعية للسلطان
١١٤ الباب التاسع والثلاثون فى مثل السلطان العادل والجائر
١١٥ الباب الموفى أربعين فيما يجرى على الرعية اذا جار السلطان
١١٦ الباب الحادى والاربعون فى كما تكونوا يولى عليكم
١١٦ الباب الثانى والاربعون فى بيان الخصلة التى تصلح بها الرعية
١١٨ الباب الثالث والاربعون فيما يملك السلطان من الرعية
١١٩ الباب الرابع والاربعون فى التحذير من صحبة السلطان
١٢٠ الباب الخامس والاربعون فى صحبة السلطان
١٢٢ الباب السادس والاربعون فى سيرة السلطان مع الجند
١٢٢ الباب السابع والاربعون فى سيرة السلطان فى استيفاء الخراج
١٢٤ الباب الثامن والاربعون فى سيرة السلطان فى بيت المال
١٢٦ فصل يتضمن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف من أموال مصر
١٢٩ الباب التاسع والاربعون فى سيرة السلطان فى الانفاق من بيت المال وسيرة العمال
١٣٣ الباب الموفى خمسين فى سيرة السلطان فى تدوين الدواوين وفرض الارزاق وسيرة العمال

صحيفة	
١٣٥	الباب الحادى والخمسون فى أحكام أهل الذمة
١٣٧	فصل فى نقض الذمى العهد
١٣٨	فصل فى تقدير الجزية
١٣٨	الباب الثانى والخمسون فى بيان الصفات المعتبرة فى الولاة
١٤١	الباب الثالث والخمسون فى بيان الشروط والعهود التى تؤخذ على العمال
١٤٣	الباب الرابع والخمسون فى هدايا العمال والرشا على الشفاعات
١٤٤	الباب الخامس والخمسون فى معرفة حسن الخلق
١٤٩	فصل فى الفرق بين المداهنة والمداراة
١٥٠	الباب السادس والخمسون فى الظلم وشؤمه وسوء عاقبته
١٥٤	الباب السابع والخمسون فى تحريم السعاية والنميمة وقبحهما وما يؤول اليه أمرهما من الافعال الرديئة والعواقب الذميمة
١٥٧	الباب الثامن والخمسون فى القصاص وحكمته
١٦٠	الباب التاسع والخمسون فى الفرج بعد الشدة
١٧١	الباب الستون فى بيان الخصلة التى هى أم الخصال وينبوع الفضائل ومن فقدها لم يكمل فيه خصلة وهى الشجاعة ويعبر عنها بالصبر ويعبر عنها بقوة النفس
١٧٣	الباب الحادى والستون فى ذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها
١٨١	الباب الثانى والستون فى القضاء والقدر والتوكل والطلب
١٨٥	الباب الثالث والستون وهو جامع من أخبار ملوك العجم وحكاياتهم
١٩١	فصل من نوادر بزرجمهر الخ
١٩٢	فصل ومن حكم شاباق السندى الخ
١٩٤	فصل قال غيره لا ينبغى للملك أن يكون له أيام معلومة يظهر فيها الخ
١٩٤	فصل من نوادر كلام العرب
١٩٦	الباب الرابع والستون مشتمل على حكم منثورة

(تمت)

سراج الملوك للامام العالم العلامة الثبت الثقة
الحجة الفهامة العارف بالله أبي بكر محمد بن
محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي
المالكي نفعنا الله به
آمين

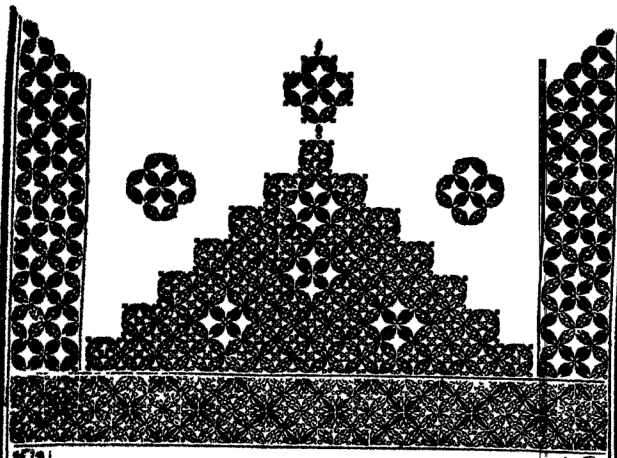

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يزل ولا يزال وهو الكبير المتعال خالق الاعيان والآثار ومكور النهار على الليل والليل على النهار العالم بالخفيات وما تنطوي عليه الارضون والسموات سواء عنده الجهر والاسرار ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير خلق الخلائق بقدرته وأحكمهم بعلمه وخصصهم بمشيئته ودبرهم بحكمته لم يكن له في خلقهم معين ولا في تدبيرهم مشير وظهير وكيف يستعين من لم يزل بمن لم يكن أو يستظهر من تقدس عن الذلة بمن دخل تحت ذل التكوين ثم كلفهم معرفته وجعل علم العالمين بعجزهم عن ادراكه ادراكا لهم ومعرفة العارفين بتقصيرهم عن شكره شكرا لهم كما جعل اقرار المقربين بوقوف عقولهم عن الاحاطة بحقيقته آيانا لهم لا يلزمه لم ولا يجاوزه اين ولا يلاصقه حيث ولا يحده ما ولا يعده كم ولا يحصره متى ولا يحيط به كيف ولا يناله أي ولا يظله فوق ولا يقله تحت ولا يقابله حد ولا يزاحمه عند ولا يأخذه خلف ولا يحده امام ولم يظهره قبل ولم يبعنه بعد ولم يجمعه كل ولم يوجده كان ولم يفقده ليس وصفه لا صفة له وكونه لا أمد له ولا تخالطه الاشكال والصور ولا تغيره الايام والغير ولا تجوز عليه المماسة والمقاربة وتستحيل عليه المحاذاة والمقابلة ان قلت لم كان فقد سبق العلل ذاته ومن كان معلولا كان له غيره علة يسابقه في الوجود وهو قبل جميع الاعيان بلا علة فقدرة الله في الاشياء بلا مزاج وصنعه فيها بلا علاج وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه فان قلت أين هو فقد سبق المكان وجوده فمن أين الاين لم يفتقر وجوده الى أين هو بعد خلق المكان غني بنفسه كما كان قبل خلق المكان وكيف يحل فيما منه بدا أو يعود اليه ما هو أنشأ وان قلت ما هو فلا ماهية لوجوده وما موضوعة للسؤال عن الجنس والقديم تعالى لا جنس له لان

الجنس مخصوص بمعنى داخل تحت المائية وان قلت كم هو فهو أحد فى ذاته منفرد بصفاته وان قلت متى كان فقد سبق الوقت كونه وان قلت كيف هو فمن كيف الكيف لا يقال له كيف ومن جازت عليه الكيفية جاز عليه النعت وان قلت طوقالها والوا وخلقه بل ألزم الكل الحدث كما قال بعض الاشياخ لان القدم له فالذى بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه والذى بالاداة اجتماعه فقوا هاتمسكه والذى يؤلفه وقت يفرقه وقت والذى يقيمه غيره فالضرورة تمسه والذى الوهم يطرقه فالتصوير يرتقى اليه ومن آواه محل أدركه أين ومن كان له جنس طلبه كيف وجوده اثباته ومعرفته توحيده وتوحيده تميزه من خلقه ما تصور فى الاوهام فهو بخلافه لاتحاذيه العيون ولاتخالطه الظنون ولاتصوره الاوهام ولاتحيط به الافهام ولايقدر قدره الانام ولايحويه مكان ولا يقارنه زمان ولا يحصره امد ولابسعه ولد ولايجمعه عدد قربه كرامته وبعده اهانته علوه من غير توقل ومجيئه من غير تنقل هو الاول والآخر والظاهر والباطن القريب البعيد الذى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وأشهد له بالربوبية والوحدانية وبما شهد به لنفسه من الاسماء الحسنى والصفات العلى والنعت الاوفى أزاله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وأومن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون وأشهد أن محمدا عبده المصطفى وأمينه المرتضى أرسله الى كافة الورى بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين وأصحابه المنتخبين وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين (أما بعد) فانى نظرت فى سير الامم الماضية والملوك الخالية وماوضعوه من السياسات فى تدبير الدول والتزموه من القوانين فى حفظ النحل فوجدت ذلك نوعين أحكاما وسياسات فاما الاحكام المشتملة على ما اعتقدوه من الحلال والحرام والبيوع والاحكام والانكحة والطلاق والاجارات ونحوها والرسوم الموضوعة لها والحدود القائمة على من خالف شأنها فأمر اصطلحوا عليه بعقولهم ليس على شئ منه برهان ولا أنزل الله به من سلطان ولا أخذوه عن تدبر ولا اتبعوا فيه رسولا وانما هى صادرة عن خزنة النيران وسدنة بيوت الاصنام وعبدة الاسداد والاوثان وليس يعجز احد من خلق الله ان يصنع من تلقاء نفسه أمثالها وأشباهها وأما السياسات التى وضعوها فى التزام تلك الاحكام والذب عنها والحماية لها وتعظيم من عظمها واهانة من استهان بها وخالفها فقد سار وا فى ذلك بسيرة العدل وحسن السياسة وجمع القلوب عليها والتزام النصفة فيما بينهم على ما توجبه تلك الاحكام وكذلك فى تدبير الحروب وامن السبل وحفظ الاموال وصون الاعراض والحرم كل ذلك فقد سار وا فيه بسيرة جميلة لا يتناقى العقول شئ منه لو كانت الاصول صحيحة والقواعد واجبة فكانوا فى حسن سيرتهم بحفظ تلك الاصول الفاسدة كمن زخرف كنيفا أو بنى على ميت قصرا منيفا

ولو لبس الحمار ثياب خز * لقال الناس يالك من حمار

فجمعت محاسن ما انطوى عليه سيرهم خاصة من ملوك الطوائف وحكام الدول فوجدت ذلك فى ستة من الامم وهم العرب والفرس والروم والهند والسند والسندهند فاما ملوك الصين وحكامهم فلم يصل الى أرض العرب من سياساتهم شئ كثير لبعد المشقة وطول المسافة وأما من عداهؤلاء من الامم فلم يكونوا أهل حكم بارعة وقرائح نافذة واذهان

ثاقبة وانما صدر عنهم الشئ اليسير من الحكمة فنظمت ما ألفيت فى كتبهم من الحكمة البالغة والسير المستحسنة والكلمة اللطيفة والطريقة المألوفة والتوقيع الجميل والاثر النبيل الى ما رويته وجمعته من سير الانبياء عليهم السلام وآثار الاولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء وما انطوى عليه القرآن العزيز الذى هو بحر العلوم وينبوع الحكم ومعدن السياسات ومغاص الجواهر المكنونات ان اختصر فلعصمة الله واشارة خفية وان اطال فالفاظ بارعة وآيات معجزة هو الهادى من الضلالة والحاوى لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة (ورتبته) ترتيبا أنيقا وترجمته تراجم بارعة حاوية لمقاصدها ناطقة بحكمها ومضمونها يلج الاذن من غير اذن ويتوغل التامور من غير استئمار الفاظها قوالب لمعانيها ليس الفاظها الى السمع بأسرع من معانيها الى القلب فانتظم الكتاب بحمد الله وعونه واحسانه غاية فى بابه غريبا فى فنونه واسمابه خفيف المحمل كثير الفائدة لم يسبق الى مثله اقلام العلماء ولا جالت فى نظمه افكار الفضلاء ولا حوته خزائن الملوك والرؤساء فلا يسمع به ملك الا استكتبه ولا وزير الا استحبه ولا رئيس الا استحسنه واستوسده عصمة لمن عمل به من الملوك وأهل الرياسة وجنة لمن تحصن به من أولى الامر والسياسة وجمال لمن تحلى به من أهل الآداب والمحاضرة وعنوان لمن فاوض به من أهل المجالسة والمذاكرة (وسميته سراج الملوك) يستغنى به الحكيم بدراسته عن مباحثة الحكماء والملوك عن مشاورة الوزراء (واعلموا) وفقكم الله ان احق من أهديت اليه الحكم وأوصلت اليه النصائح وجلت اليه العلوم من آتاه الله سلطانا فتنفذ فى الخلق حكمه وجاز عليهم قوله (ولما رأيت) الاجل المأمون تاج الخلافة عز الاسلام فخر الانام نظام الدين خالصة أمير المؤمنين أبا عبد الله محمد الاموى ادام الله اعزازا لدين نصره وأنفذ فى العالمين بالحق أمره وأوزع كافة الخلق شكره وكفاهم فيه محذوره وضره فقد تفضل الله تعالى به على المسلمين فبسط فيهم يده ونشر فى مصالح أحوالهم كلمته وعرف الخاص والعام منه وبركته وتقلد امور الرعية وسار فيهم على أحسن قضية متحريا للصواب راغبا فى الثواب طالبا سبيل العدل ومناهج الانصاف والفضل رغبت ان اخصه بهذا الكتاب رجاء لطف الله تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ولتذكر فضائله ومحاسنه ما بقى الدهر كما قيل

الناس يهدون على قدرهم * لكننى اهدى على قدرى
يهدون ما يفنى وأهدى الذى * يبقى على الايام والدهر

فان العلم عصمة الملوك والامراء ومعقل السلاطين والوزراء لانه يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويكرموا حمله ويستبطنوا أهله (وهذه) أبواب هذا الكتاب وعدتها أربعة وستون بابا الباب الاول فى مواعظ الملوك الباب الثانى فى مقامات العلماء والصالحين عند الامراء والسلاطين الباب الثالث فيما جاء فى الولاة والقضاة وما فى ذلك من الغرر والخطر الباب الرابع فى معرفة ملك سليمان بن داود ووجه طلبه للملك وسؤاله أن لا يؤتاه أحد من بعده الباب الخامس فى فضل

الولاة والقضاة اذا عدلوا الباب السادس فى ان السلطان مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح الباب السابع فى بيان الحكمة فى كون السلطان فى الارض الباب الثامن فى منافع السلطان ومضاره الباب التاسع فى معرفة منزلة السلطان من الرعية الباب العاشر فى معرفة خصال ورد الشرع بها قيها نظام الملك والدول الباب الحادى عشر فى معرفة الخصال التى هى قواعد السلطان ولاثبات له دونها الباب الثانى عشر فى معرفة الخصال التى زعم الملوك انها ازالت دولتهم وهدمت سلطانهم الباب الثالث عشر فى معرفة الصفات الراتبة التى زعم الحكماء انها لاتدوم معها مملكة الباب الرابع عشر فى الخصال المحمودة فى السلطان وقد اتفقت الحكماء والعلماء عليها الباب الخامس عشر فى معرفة الخصال التى يعزبها السلطان الباب السادس عشر فى معرفة الخصال التى هى ملاك امور السلطان الباب السابع عشر فى معرفة خير السلطان وشر السلطان الباب الثامن عشر فى معرفة منزلة السلطان من القرآن الباب التاسع عشر فى معرفة خصال جامعة لامر السلطان الباب العشرون فى معرفة الخصال التى هى اركان السلطان الباب الحادى والعشرون فى بيان حاجة السلطان الى العلم الباب الثانى والعشرون فى وصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لكميل بن زياد فى العلم الباب الثالث والعشرون فى معرفة العقل والدهاء والمكر الباب الرابع والعشرون فى الوزراء وأوصافهم الباب الخامس والعشرون فى الجلساء وآدابهم الباب السادس والعشرون فى معرفة الخصال التى هى جمال السلطان الباب السابع والعشرون فى المشاورة والنصيحة الباب الثامن والعشرون فى الحلم ومحاسنه ومحمود عواقبه الباب التاسع والعشرون فيما يسكن به الغضب الباب الثلاثون فى الجود والسخاء الباب الحادى والثلاثون فى معرفة الشح والبخل وما يتعلق بهما الباب الثانى والثلاثون فى معرفة الصبر وجميل عواقبه الباب الثالث والثلاثون فى كتمان السر ومحاسنه الباب الرابع والثلاثون فى بيان الخصلة التى هى رهن لسائر الخصال وزعيم بالمزيد من الآلاء والنعماء من ذى الجلال وهى الشكر الباب الخامس والثلاثون فى بيان السيرة التى يصلح عليها الامير والمأمور وتسهل صحبة الخلائق أجمعين الباب السادس والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها غاية كمال السلطان وشفاء الصدور وراحة القلوب وطيبة النفوس الباب السابع والثلاثون فى معرفة الخصلة التى هى ملجأ الملوك عند الشدائد ومعقل السلاطين عند اضطراب الممالك الباب الثامن والثلاثون فى بيان الخصلة الموجبة لدوام الرعية للسلطان الباب التاسع والثلاثون فى مثل السلطان العادل والجائر الباب الاربعون فيما يجب على الرعية اذا جار السلطان الباب الحادى والاربعون فى كائنا كونوا يولى عليكم الباب الثانى والاربعون فى بيان الخصلة التى بها تصلح الرعية الباب الثالث والاربعون فيما لملك السلطان من الرعية الباب الرابع والاربعون فى التحذير من صحبة السلطان الباب الخامس والاربعون فى صحبة السلطان الباب السادس والاربعون فى سيرة السلطان مع الجند الباب السابع والاربعون فى سيرة السلطان فى استجياء الخراج الباب الثامن والاربعون فى سيرة السلطان فى الانفاق من بيت المال الباب التاسع والاربعون فى سيرة السلطان فى بيت المال الباب الخمسون فى سيرة

السلطان في تدوين الدواوين وفرض الارزاق وسيرة العمال الباب الحادي والخمسون
في أحكام أهل الذمة الباب الثاني والخمسون في بيان الصفات المعتبرة في الولاة الباب
الثالث والخمسون في بيان الشروط والعهود التي تؤخذ على العمال الباب الرابع والخمسون
في هدايا العمال والرشا على الشفاعات الباب الخامس والخمسون في معرفة حسن الخلق
الباب السادس والخمسون في الظلم وشؤمه وسوء عاقبته الباب السابع والخمسون في السعاية
والنميمة وقبحهما ومايؤول اليه أمرهما من الافعال الرديئة والعواقب الذميمة الباب الثامن
والخمسون في القصاص وحكمته الباب التاسع والخمسون في الفرج بعد الشدة الباب الستون
في الشجاعة وغراتها الباب الحادي والستون في الحروب وتدبيرها الباب الثاني والستون
في القضاء والقدر وأحكامهما الباب الثالث والستون وهو جامع من أخبار ملوك العجم
وحكاياتهم الباب الرابع والستون يشتمل على حكم منثورة وهو آخر الكتاب وكمال الابواب

(الباب الاول في مواعظ الملوك)

لقد خاب من كان حظه من الله الدنيا اعلم أيها الرجل وكل ذلك الرجل ان عقول الملوك وان
كانت كبارا الا انها مشغوفة بكثرة الاشغال فيستدعي من الموعظة مايتوج على تلك الافكار
ويتغلغل في مكامن تلك الاسرار فيرفع تلك الاستار ويفك تلك الاكنة والاقفال ويصقل
ذلك الصدأ والران قال الله تعالى قل متاع الدنيا قليل فوصف الله تعالى جميع الدنيا بانها متاع
قليل وأنت تعلم انك ماأوتيت من ذلك القليل الا قليلا ثم ذلك القليل ان تمتعت به ولم تعص
الله فيه فهو لهو ولعب قال الله تعالى انما الحياة الدنيا لهو ولعب ثم قال وان الدار الآخرة
لهي الحيوان لو كانوا يعلمون فلا تبغ أيها العاقل لعبا قليلا يفنى بحياة الابد حياة لاتفنى
وشبابا لايبلى كما قال الفضيل رحمه الله لو كانت الدنيا ذهبا يفنى وكانت الآخرة خزفا يبقى
لوجب ان تختار خزفا يبقى على ذهب يفنى فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى تأمل
بعقلك هل آتاك الله من الدنيا ما آتى سليمان بن داود عليهما السلام حيث آتاه ملك جميع الدنيا
والانس والجن والطير والوحش والريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ثم زاده الله ماهو
أعظم منها فقال تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فوالله ماعدها نعمة
كما عددتموها ولا حسبها رفعة ومنزلة كما حسبتموها بل قال عند ذلك هذا من فضل ربي ليبلوني
أأشكر أم أكفر وهذا فصل الخطاب لمن تدبر أن يقول لربه في معرض المنة هذا عطاؤنا
فامنن أو أمسك بغير حساب ثم خاف سليمان عليه السلام أن يكون استدراجا من حيث لا يعلم
هذا وقد قال لك ولسائر أهل الدنيا فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقال وان كان
مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين تأمل بعقلك ماروي عن النبي عليه السلام انه
قال لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء وألقى سمعك الى ماتزل به
جبريل عليه السلام من عند الله تعالى على محمد عليه السلام فقال يامحمد ان الله يقول لك عش
ماشئت فانك ميت وأحبب من شئت فانك مفارقه واعمل ماشئت فانك مجزي به فاقطر
ما اشتملت عليه هذه الكلمات من تصرم العمر وفراق الاحبة والجزاء على الاعمال فلو لم
ينزل من السماء غيرها لكانت كافية انظر بفهمك الى ماروى الحسن أن النبي عليه السلام مر

بمنزل قوم قد ارتحلوا عنه واذا طائر مطروح فقال اترون هذا هان على أهله فقالوا من هوانه عليهم القوه قال فوالذى نفسى بيده لالدنيا أهون على الله من هذا على أهله فجعل الدنيا أهون على الله من الجيفة المطروحة وقال أبو هريرة قال لى النبى عليه السلام ألا أريك الدنيا جمعا بحافيرها قلت بلى قال فأخذ بيدى وأتى بى الى واد من أودية المدينة فاذا مزبلة فيها رؤس الناس وعذرات وخرق بالية وعظام البهائم ثم قال يا أبا هريرة هذه الروس كانت تحرص على الدنيا كحرصكم وتأمل آمالكم ثم هى اليوم تساقط جلدا بلا عظم ثم هى صائرة رمادا رمددا وهذه العذرات الوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها فى بطونهم فاصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية رياشهم ولباسهم ثم أصبحت والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا يتجعون عليها اطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك قال فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا (وقال ابن عمر) أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض جسدى فقال يا عبد الله كن فى الدنيا كانك غريب أو كعابر سبيل واعدد نفسك فى الموتى يا أيها الرجل ان كنت لا تدرى متى يفجؤك الاجل فلا تغتر بطول الامل فانه يقسى القلب ويفسد العمل وقد عير الله أقواما مد لهم فى الاجل فقست منهم القلوب وطال منهم الامل فقال تعالى الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتى به القدر

وسالمتك الليالى فاغتررت بها * وعند صفو الليالى يحدث الكدر

يا أيها الرجل ألق الى سمعك وأرعنى لبك

فان كنت لا تدرى متى الموت فاعلمن * بانك لا تبقى الى آخر الدهر

ابن آدم أين آدم أبو الاولين والآخرين أين نوح شيخ المرسلين أين ادريس رفيع العالمين اين ابراهيم خليل الرحمن اين موسى الكليم من بين النبيين والمرسلين اين عيسى روح الله وكلمته رأس الزاهدين وامام السائحين اين محمد خاتم النبيين وحبيب رب العالمين وسيد الاولين والآخرين اين أصحابه الابرار المنتخبون اين الامم الماضية اين الملوك السالفة أين القرون الخالية اين الذين نصبت على مفارقهم التيجان اين الذين اغتروا بالاجناد والسلطان أين أصحاب السطوة والولايات اين الذين خفقت على رؤسهم الالوية والرايات أين الذين قادوا الجيوش والعساكر أين الذين عمروا القصور والدساكر أين الذين أعطوا النصر فى مواطن الحروب والمواقف أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب أين الذين تمتعوا فى اللذات والمآرب أين الذين أسرفوا على الخلائق كبرا وعتيا أين الذين راحوا فى الحلل بكرة وعشيا أين الذين استلانوا الملابس اثاثا وريا أين الذين ملكوا ما بين الخافقين فخرا وعزا أين الذين فرشوا القصور خزا وبزا أين الذين تضعضعت لهم الارض هيبة وهزا أين الذين استذلوا العباد قهرا وقزا هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا أفناهم والله معفى الاعم وأبادهم مبيد الرمم واخرجهم من سعة القصور وأسكنهم فى ضنك القبور تحت الجنادل والصخور فاصبحوا الاترى الامساكنهم فعفا الدود فى أجسادهم واتخذ مقيلا فى ابدانهم فسالت

العيون على الخدود وامتلأت تلك الافواه بالدود وتساقطت الاعضاء وتمزقت الجلود وتناثرت اللحوم وتقطعت البطون فلم ينفعهم ما جمعوا ولا أغنى عنهم ما كسبوا أسلمك الاحبة والاولياء وهجرك الاخوان والاصفياء ونسيك القرباء والبعداء فاصبحت ولو فطنت لانشدت قولنا في سكان الثرى ورهائن الترب والبلا

مقيم بالجنون رهين رمس * وأهلي راتحون بكل واد
كأني لم أكن لهم حبيبا * ولا كانوا الاحبة في السواد
فعوجوا للسلام فان أبيتم * فأوموا بالسلام على بعاد
فان طال المدى وصفا خليل * سوانا فاذكروا صفو الوداد
وذلك أقل مالك من حبيب * وآخره الى يوم التناد
فلو أنا بموقفكم وقفنا * سقينا الترب من مهج الفؤاد

(وقال) مكرم بن يوسف العابد أوحى الله الى نبي من أنبياء بني اسرائيل ان قف على المدائن والحصون وأبلغهم عني حرفين لاتأكلوا الاطيبا ولاتتكلموا الا بالحق ولما دخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز قال عظني يا يزيد قال يا أمير المؤمنين اعلم انك أول خليفة تموت فبكا عمر وقال زدني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم الا أب ميت فبكا وقال زدني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بين الجنة والنار منزل فسقط مغشيا يا أيها الرجل لاتغفلن عن ذكر ما تيقنه من خوف الفناء وتقضي المسار بذهاب اللذات وانقضاء الشهوات وبقاء التبعات وانقلابها حسرات وان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادي من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له من صح فيها سقم ومن سلم فيها هرم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها فتن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب من ساعاها فاتته ومن قعد عنها أتته ومن نظر اليها أعمته ومن بصر بها بصرته لاخير هابدوم ولاشرها يبقى ولافيها لمخلوق بقاء يا أيها الرجل لاتخدعن كما خدع من قبلك فان الذي أصحت فيه من النعم انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج من بديك بمثل ما صار اليك فلو بقيت الدنيا للعالم لم تصر للجاهل ولو بقيت للاول لم تنتقل الى الآخر يا أيها الرجل لو كانت الدنيا كلها ذهبا وفضة ثم سلمت عليك بالخلافة وألقت اليك مقاليدها وافلاذ كبدها ثم كنت طريدة للموت ما كان ينبغي لك أن تتهنا بعيش لانخر فيما يزول ولا تغتر فيما لايبقى وهل الدنيا الا كما قال الاول قد رتغلى وكنيف يملا وكما قال الشاعر

ولقد سألت الدار عن أخبارهم * فتبسمت عجبا ولم تبدي
حتى مررت على الكنيف فقال لي * أموالهم ونوالهم عندي

ولقد أصاب ابن السماك لما قال له الرشيد يا ابن السماك عظني وبيده شربة من ماء فقال يا أمير المؤمنين أرأيت لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفتدي بها بملكك قال نعم قال يا أمير المؤمنين فلو حبس عنك خروجها أكنت تفتدي بملكك قال نعم قال فلا خير في ملك لايساوي شربة ولا بولة أيها الشاب لاتغتر بشبابك فان أكثر من يموت الشباب والدليل عليه ان أقل الناس الشيوخ يا أيها الشاب كم من جعل في التنور وأبوه يرعى وكم من طفل في التراب وجده يحيي

وقال

وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه لا سقف قد أسلم عظمي قال يا أمير المؤمنين ان كان الله عليك ضن ترجو قال أحسنت فزدني قال ان كان الله معك ضن تخاف قال أحسنت فزدني قال أحسب ان الله قد غفر ذنب المذنبين اليس قد فاتهم ثواب المحسنين قال حسبي حسبي وبكى أربعين صباحا وقال الحسن قدم صعصعة يعني عم الفرزدق على النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه يقرأ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره فقال حسبي حسبي لا ابالي ان لا أسمع آية غيرها وقال سليمان بن عبد الملك لجيد الطويل عظني فقال ان كنت اذا عصيت الله ظننت انه يراك فلقد اجترأت على رب عظيم وان كنت تظن انه لا يراك فلقد كفرت برب عظيم وكتب علي بن الحسين رضي الله عنه الى سلمان انما مثل الدنيا كمثل الحية لمسها لين ويقتل سمها فاعرض عنها وعما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها وكن اسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فان صاحبها كلما اطمأن فيها الى سرور أشخص منها الى مكروه وقال ابو العتاهية

هي الدار دار الاذى والقذا * ودار الفناء ودار الغير
ولو نلتها بحذافيرها * لمت ولم تقض منها وطر
أيا من يؤمل طول الحياة * وطول الحياة عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب * فلا خير في العيش بعد الكبر

والمبلغ مراده من الدنيا افضل ما سمت اليه نفسه ورقت اليه همته رفضها ونبذها وقال هذا سرور لولا انه غرور ونعيم لولا انه عديم وملك لولا انه هلك وغناء لولا انه فناء وجسيم لولا انه ذميم ومحمود لولا انه مفقود وغنى لولا انه مني وارتفاع لولا انه اتضاع وعلاء لولا انه بلاء وحسن لولا انه حزن وهو يوم لو وثق له بغد يا أيها الرجل لا تكن كالمخل يرسل الطيب ما فيه ويمسك الخبائث واعلم ان من قساقلبه لا يقبل الحق وان كثرت دلائله قال الله تعالى فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة وذلك ان كثرة الذنوب مانعة من قبول الحق القلوب ولولوج المواعظ فيها قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون أي غطاها وغشيها فلا تقبل خيرا ولا تصيخ لموعظة جاء في التفسير اذا اذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء ثم اذا اذنب نكتت نكتة سوداء حتى يسود القلب وقال حذيفة القلب كالكف فاذا اذنب العبد انقبض وقبض اصبعا ثم اذا اذنب انقبض وقبض اصبعا أخرى ثم كذلك في الثالث والرابع حتى ينقبض الكف كله ثم يطبع الله عليه فذلك هو الران وقال بكر بن عبد الله اذا اذنب العبد صار في قلبه كوخز الابرة ثم كلما أذنب صار فيه كوخز الابرة ثم كلما اذنب صار فيه كوخز الابرة حتى يعود القلب كالمخل وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب وقال ابن شبرمة اذا كان البدن سقيما لم ينفعه الطعام واذا كان القلب مغرما بحب الدنيا لم تنفعه الموعظة وفيه قيل

ولا أرى أثر اللذكر في خلدي * والحبل في الصخرة الصماء أثر
اذا قسا القلب لم تنفعه موعظة * كالارض ان سبخت لم ينفع المطر

ويروى ان أبا العتاهية مر بدكان الوراق وادا كتاب فيه بيت من الشعر

لمن ترجع الانفس عن غيها * ما لم يكن منها لها زاجر

فقال لمن هذا فقيل لابى نواس قال ودت انه لى بنصف شعرى قال الاصمعى ان النعمان الذى هو احد ملوك الفرس الاكبر الذى بنى الخورنق أشرف على الخورنق يوما فاعجبه ما أوتى من الملك والسعة ونفوذ الامر واقبال الوجوه نحوه فقال لاصحابه هل اوتى احد مثل ما اوتيت فقال له حكيم من حكماء اصحابه اهذا الذى أوتيت شئ لم يزل ولا يزال ام شئ كان لمن كان قبلك زال عنه وصار اليك قال بل شئ كان لمن قبلى زال عنه وصار الىّ وسيزول عنى قال فسررت بشئ تذهب عنك لذته وتبقى تبعته قال فاين المهرب قال اما ان تقيم وتعمل بطاعة الله او تلبس اسماحا وتلحق بالجبل وتعبد ربك فيه وتفر من الناس حتى ياتيك أجلك قال فاذا كان ذلك فمالى قال حياة لاموت فيها وشباب لاهرم فيه وصحة لاسقم فيها وملك جديد لايلى قال فاى خير فيما يفنى والله لاطلبن عيشا لايزول أبدا وملكا جديدا فانقطع من ملكه ولبس الاسحاح وسار فى الارض وتبعه الحكيم وجعلا يعبدان الله حتى ماتا وفيه يقول عدى بن زيد

وبنين رب الخورنق اذ أكثر يوما والهدى تذكير
سره ماله وكثرة ما يم ـ لك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقد قال ما غب ـ طة حتى الى الممات يصير
أين كسرى كسرى الملوك انوشر * وان أم ابن قبله سابور
وبنو الاصفر الكرام ملوك الـ روم لم يبق منهم مذكور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ ـشمالك عنه فبابه مهجور

وفيهم يقول الاسود بن يعفر

ولقد علمت سوى الذى انباتنى * ان السبيل سبيل ذى الاعواد
ماذا أؤمل بعد آل محرق * تركوا منازلهم وبعد اياد
أرض الخورنق والسدير وبارق * والقصر ذى الشرفات من سنداد
نزلوا بانقرة تسيل عليهم * ماء الفرات يجىء من أطواد
آرض يحبوها لطيب مقيلها * كعب بن مالك وابن أم دواد
جرت الرياح على محل ديارهم * فكانهم كانوا على ميعاد
فأرى النعيم وكل ما يلهى به * يوما يصـ ـير الى بلى ونفاد

(وقال) وهب بن منبه أصيب على غمدان وهو قصر سيف بن ذى يزن بارض صنعاء اليمن وكان من الملوك الاجلة مكتوبا بالاقلم المسند فترجم بالعربية واذا هى أبيات جليلة وموعظة عظيمة

باتوا على قلل الاجبال تحرسهم * غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم * فاسكنوا حفرا يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا * أين الاسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت محجبة * من دونها تضرب الاستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم * تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

قد طال ما أكلوا يوما وما شربوا * فأصبحوا بعد ذا الأكل قد أكلوا

قال شيخنا فرئ على القاضي أبي الوليد الباجي وأنا أسمع لبعض الشعراء

ويحك يا اسماء ما شانى * أضللتنى والله ماشانى
الموت حق فاعلى نازل * قرب لى لحدى واكفانى
قد كنت ذا مال فلا والذى * أعطانى العيش وأغنانى
ماقرت العين به ساعة * الا تذكرت فاشجانى
عملى بأنى صائر للبلى * وفاقد أهلى وجيرانى
ونازل مالى على حاله * نهبا لشيطان ابن شيطان
لامر أة ابنى أو لزوج ابنتى * يالك من غنى وخسران
يسعد فى مالى وأشقى به * قوم ذوو غل وشنآن
ان أحسنوا كان لهم أجره * وخف من ذلك ميزانى

* ومن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وفناءها ونقصها وزوالها ابراهيم بن أدهم بن منصور من أبناء الملوك ملوك خراسان من كورة بلخ. ولما زهد فى الدنيا زهد عن ثمانين سريرا قال ابراهيم بن بشار سألت ابراهيم بن أدهم كيف كان بدء أمرك حتى صرت الى هذا قال غير هذا أولى بك قلت برحمك الله لعل الله ينفعنى به يوما ثم سألته ثانية فقال ويحك اشتغل بالله تعالى ثم سألته ثالثة فقلت ان رأيت برحمك الله أن تخبرنى لعل الله أن ينفعنى فقال كان أبى من ملوك خراسان وكان من المياسير وكان قد حبب الى الصيد فبينا أنا راكب فرسا وكلبى معى وأثرت أرنبا أو ثعلبا فحركت فرسى فسمعت نداء من ورائى يا ابراهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فوقفت وقلت أنظر عنقه ويسرة فلم أر أحدا فقلت فى نفسى لعن الله الشيطان ثم حركت فرسى فسمعت نداء أقوى من الاول يا ابراهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فوقفت مقشعرا لأنظر عنقه ويسرة فلم أر شيأ فقلت لعن الله ابليس ثم حركت فرسى فسمعت من قربوس سرجى يا ابرهيم ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فوقفت وقلت هيهات جاءنى النذير من رب العالمين والله لا عصيت ربى ما عصنى بعد يومى هذا فتوجهت الى أهلى وخلفت فرسى وجئت الى بعض رعاة أبى فأخذت جبته وكساءه وألقيت اليه ثيابى فلم أزل أرض تقلنى وأرض تضعنى حتى صرت الى العراق فعملت بها أياما فلم يصف لى شئ من الحلال فسألت بعض المشايخ عن الحلال فقال عليك بالشام قال فانصرفت الى مدينة يقال لها المنصورية وهى المصيصة فعملت بها أياما فلم يصف لى شئ من الحلال فسألت بعض المشايخ فقال ان أردت الحلال فعليك بطرسوس فان المباحات بها والعمل كثير قال فبينا أنا قاعد على باب البحر اذ جاءنى رجل فاكتراني أنظره بستانا فتوجهت معه فكنت فى البستان أياما كثيرة فاذا أنا بخادم قد أظل ومعه أصحاب له ولم يعلم أن البستان لخادم انظره فقعد فى مجلسه ثم قال يا ناطور فأجبته قال فاذهب فأتنا بما كبر رمان تقدر عليه وأطيبه فأتيته برمان فاخذ الخادم رمانة فكسرها فوجدها حامضة فقال يا ناطور ما هذا أنت منذ كذا وكذا فى بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماننا لا تعرف الحلو من الحامض قلت والله ما أكلت من فاكهتكم شيأ وما أعرف الحلو من الحامض قال فغمز الخادم أصحابه

وقال ألا تعجبون من هذا ثم قال لي لو كنت ابراهيم بن أدهم ما زاد على هذا فلما كان من الغد حدث الناس في المسجد بالصفة فجاء الناس عنقا الى البستان فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون وأنا هارب منهم وكان ابراهيم بن أدهم يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين والعمل في الطين وكان يوما يحفظ كرما فمر به جندي فقال اعطنا من هذا العنب فقال ما أمرني صاحبه فأخذ يضربه بالسوط فطار رأسه وقال اضرب رأسا طالما عصى الله فانخجز الرجل ومضى وقال سهل بن ابراهيم صحبت ابراهيم بن أدهم فرضت فانفق على تفقته فاشتهيت شهوة فباع حماره وأنفق ثمنه علي فلما تماثلت قلت يا ابراهيم أين الحمار فقال بعناه فقلت فعلام أركب قال يا أخي على عنقي قال فحملني ثلاث منازل رحمه الله وأنشدوا شعرا

أيها المرء ان دنياك بحر * طافح موجه فلا تأمنها

وسبيل النجاة فيها مبين * وهو أخذ الكفاف والقوت منها

* ويلغني أن بالهند يوما يخرج الناس فيه الى البرية فلا يبقى في البلد بشر من طين لا شيخ كبير ولا مولود صغير وهذا اليوم يكون بعد انقراض مائة سنة من يوم مثله فاذا اجتمع الخلق في صعيد واحد نادى منادي الملك لا يصعد هذا الجبل هنا المنصوب الامن حضر في الجمع الاول الذي قد خلا من مائة سنة فر بما جاء الشيخ الهرم الذي قد ذهبت قوته وعمي بصره وفني شبابه وتجيء الجبوز تزحف لم يبق منها الا رسمها وقد أخنى الدهر عليها فيصعدان على الجبل الذي هنالك ويقول الشيخ حضرت الجمع الاول منذ مائة سنة وأنا طفل صغير وكان الملك فلانا ويصف الجيوش الماضية والامم الخالية وكيف طحنهم البلى وصاروا تحت أطباق الثرى ويقوم خطيبهم فيعظ الناس ويذكرهم صرعة الموت وحسرة الفوت فيبكي القوم ويتوبون من المظالم ويكثرون الصدقات ويخرجون عن التبعات ويصلحون على ذلك مدة ثم وقال وهب بن منبه صحب رجل بعض الرهبان سبعة أيام ليستفيد منه شيأ فوجده مشغولا عنه بذكر الله تعالى والفكر لا يفقر التفت اليه في اليوم السابع فقال يا هذا قد علمت ما تريد حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد في الدنيا رأس كل خير والتوفيق تتاح كل خير فاحذر رأس كل خطيئة وارغب في رأس كل خير وتضرع الى ربك أن يهب لك تتاح كل خير قال فكيف أعرف ذلك قال كان جدي رجلا من الحكماء قد شبه الدنيا بسبعة أشياء فشبهها بالماء الملح يغر ولا يروي ويضر ولا ينفع وبسحاب الصيف يغر ولا ينفع ويظل الغمام يغر ويخذل وبزهر الربيع ينضر ثم يصفر فتراه هشيما وبأحلام النائم يرى السرور في منامه فاذا استيقظ لم يكن في يده الا الحسرة وبالعسل المشوب بالسم الذعاف يغر ويقتل فتدبرت هذه الاحرف السبعة سبعين سنة ثم زدت حرفا واحدا فشبهتها بالقول التي تم لك من أجابها وتترك من أعرض عنها فرأيت جدي في المنام وقال يا بني أشهد انك مني وأنا منك هي والله القول التي تم لك من أجابها وتترك من أعرض عنها قلت فبأي شيء يكون الزهد في الدنيا قال باليقين واليقين بالصبر والصبر بالعين والعين بالفكر ثم وقف الراهب وقال خذ هذا منا فلا أراك خلي الا متجردا بفعل دون قول فكان ذلك آخر العهد به قلت وقد وصف الله تعالى الدنيا وأهلها بصفة أعم من هذه الصفة فقال سبحانه اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل

غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد والكفار ههنا الزراع كما ان الزرع يكون في أول نباته أخضر ناعما اهتزت الارض به بعد يبسها فجاءت في العيون كالعلم ما يكون ثم يهيج فتراه مصفرا أي يكبر ويستوى فيجف ويحترق ويتكسر أعلاه ويستقل بسنبله ثم يداس فيكون حطاما أي تبنا متكسرا متقطعا وهذا مثل ضربه الله لبني آدم اذ كانوا أطفالا أول الولادة وفي حال الطفولية كاحسن مرأى يعجبون الآباء ويفتنون ذوي الاحلام والنهى ثم يكبرون فيصيرون شيوخا منكسة رؤسهم مقوسة ظهورهم قد ذهب حسنهم ونعومتهم وفني شبابهم وجمالهم وذوت غضارتهم وفضارتهم واستولى عليهم الهرم والشيب ثم يموتون فيصيرون حطاما في القبور كالتبن في الحريق هذا بعد ما وصفها بخمس صفات مذمومة لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر وكان الصدر الاول يسمي الدنيا خنزيرة ولو وجدوا اسما أقبح منه لسموها به وكانوا يسمونها أم ذفر والذفر النتن وقال مالك بن انس بلغني أن ملكا من ملوك بني اسرائيل ركب يوما في زي عظيم فتشرف له الناس ينظرون اليه أفواجا حتى مر برجل يعمل شيأ مكانه فلم يلتفت اليه ولا رفع رأسه اليه فوقف الملك عليه وقال كل الناس ينظرون الي الا أنت فقال الرجل اني رأيت ملكا مثلك وكان على هذه القرية فمات هو ومسكين فدفن الى جنبه في يوم واحد وكانا نعرفهما في الدنيا باجسادهما ثم كانا نعرفهما بقبريهما ثم نسفت الريح قبريهما وكشفت عنهما فاختلطت عظامهما فلم أعرف الملك من المسكين فذلك أقبلت على عملي وتركت النظر اليك وروى أن داود عليه السلام بيناهو يسيح في الجبال اذ وافى على غار فاذا فيه رجل عظيم الخلق من بني آدم واذا عند رأسه حجر مكتوب بكتاب محفور فيه أنا رستم الملك ملكت ألف عام وفتحت ألف مدينة وهزمت ألف جيش وافترعت ألف بكر من بنات الملوك ثم صرت الى ما ترى فصار التراب فراشي والحجارة وسادي فمن رآني فلا تغره الدنيا كما غرتني وقال وهب بن منبه خرج عيسى بن مريم عليه السلام ذات يوم مع جماعة من أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أمكن من الفرك فقالوا يا نبي الله انا جياع فاوحى الله اليه أن ائذن لهم في اقواتهم فاذن لهم فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون فبيناهم كذلك اذ جاء صاحب الزرع وهو يقول زرعي وأرضي ورثته عن آبائي باذن من تأكلون يا هؤلاء قال فدعا عيسى ربه فبعث الله تعالى جميع من ملك تلك الارض من لدن آدم الى ساعته فاذا عند كل سنبلة ألف أو ما شاء الله رجل أو امرأة كلهم ينادون زرعي وأرضي ورثته عن آبائي ففزع الرجل منهم وكان قد بلغه أمر عيسى عليه السلام وهو لا يعرفه فلما عرفه قال معذرة اليك يا رسول الله اني لم أعرفك زرعي ومالي لك حلال فبكى عيسى عليه السلام وقال ويحك هؤلاء كلهم قد ورثوا هذه الارض وعمروها ثم ارتحلوا عنها وأنت مرتحل عنها وبهم لاحق ليس لك أرض ولا مال وقال أبو العتاهية

وعظتك أجداث صمت * ونعتك أزمنة خفت

وتكلمت عن أوجه * تبلى وعن صور سبت

وارتك قبرك في القبو * ر وأنت حي لم تمت

* يا شامتا بمنيتي * ان المنية لم تمت

ولربما انقلب الشما * تخل بالقوم الشمت

روى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما رأى فاطمة رضي الله عنها مسجاة بثوب بها بكى حتى دلق له ثم قال

لكل اجتماع من خليلين فرقة * وان الذي دون الممات قليل
أرى علل الدنيا علي كثيرة * وصاحبها حتى الممات عليل
وان افتقادي واحدا بعد واحد * دليل على أن لا يدوم خليل

وقال

ألا أيها الموت الذي ليس تاركي * أراحني فقد أفنيت كل خليل
أراك بصيرا بالذين أحبهم * كأنك تنحوهم وهم بدليل

لما نقض يديه من ترابها تمثل بقول بعض بني أمية

أقول وقد فاضت دموعي حسرة * أرى الارض تبقى والاخلاء تذهب
أخلاي لو غير الحمام أصابكم * عتبت ولكن ما على الموت معتب

وقال العتابي قلت للفرقدين والليل ملق * سودا كأنه على الآفاق
ابقيا ما بقيتما فسيرمى * بين شخصيكما بسهم الفراق
غر من ظن أن يفوت المنايا * وعراها قلائد الاعناق
كم صفيين متعا باجتماع * ثم صارا لغربة وافتراق
لا يدوم البقاء للخلق لكن * دوام البقاء للخلاق

وأنشدني بعض الادباء

أسعداني يا خلتي حلوان * وارثيا لي من ريب هذا الزمان
ولعمري لو ذقتما حرق الفر * قة ابكاكما الذي أبكاني
واعلما ان بقيتا ان نحسا * سوف يا تيكما فتفترقان

ولما سافر الرشيد الى طوس وعدل في طريقه من حر أصابه فقال له الطبيب لا يريك الا الجار النخل وكان نزوله قريبا من هاتين النخلتين فامر بقطع جار احدى النخلتين فلما مثل بين يديه أنشده بعض الجلساء هذه الابيات لبعض الشعراء في هاتين النخلتين فقال الرشيد لو سمعتهما ما أمرت بقطعهما ولما مات الاسكندر قال ارسطاطاليس أيها الملك لقد حركتنا بسكونك وقال بعض الحكماء من أصحابه كان الملك أمس انطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس فنظمه أبو العتاهية فقال

كفى حزنا بدفنك ثم أني * نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت من حياتك لي عظات * فانت اليوم أوعظ منك حيا

ووجد مكتوبا على قبر قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة (وقال عبد الله بن المعتز)

نسير الى الآجال في كل ساعة * وأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم ار مثل الموت حقا كانه * اذا ما تخطته الاماني باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبا * فكيف به والشيب في الرأس شامل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى * فعمرك أيام تعد قلائل

ولما دخل أبو الدرداء الشام قال يا أهل الشام اسمعوا قول أخ لكم ناصح فاجتمعوا عليه فقال مالي أراكم تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا شديدا وأملوا بعيدا وجمعوا كثيرا فاصبح أملهم غرورا وجمعهم بورا ومساكنهم قبورا * وروى الحافظ قال وجد مكتوبا في حجر ابن آدم لو رأيت يسيرا مما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجو من أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت عن حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب فلا أنت في عملك زائد ولا الى أهلك عائد * وقال مالك بن أنس بلغني ان امرأتين أتتا عيسى عليه السلام فقالتا يا روح الله ادع الله لنا أن يخرج لنا أبانا فانه هلك ونحن نغاث بنا عنه قال تعرفان قبره فقالتا نعم فذهب معهما فاتيا قبرا فقالتا هذا هو فدعا الله فاخرج لهما فاذا هو ليس به فدعا فردشم دلاتاه على قبر آخر فدعا أن يخرج فخرج فاذا هو فازمناه وسلمنا عليه ثم قالتا يا نبي الله يا معلم الخير ادع الله أن يبقيه معنا فقال وكيف أدعوه ولم يبق له رزق يعيش به ثم رده وانصرف وانشد في بعض الادباء

وأسى من فراق قوم * هم المصابيح والحصون
والمزن والمدن والرواسي * والخير والامن والسكون
لم تتغير بنا الليالي * حتى توفيهم المنون
فكل جمر لنا قلوب * وكل ماء لنا عيون

(وروى) ان النعمان بن المنذر خرج متصيدا ومعه عدي بن زيد فمروا بشجرة فقال عدي بن زيد أيها الملك أتدري ما تقول هذه الشجرة قال لا قال انها تقول

من رآنا فليحدث نفسه * انه موف على قرب سؤال
وصروف الدهر لا يبقى لها * ولما تأتي به صم الجبال
وبدركب قد أناخوا حولنا * يشربون الخمر بالماء الزلال
عمروا الدهر بعيش حسن * آمن دهرهم غير مجال
عصف الدهر بهم فانقرضوا * وكذاك الدهر حالا بعد حال

قال ثم جاوزوا الشجرة فمروا بمقبرة فقال له عدي أيها الملك أتدري ما تقول هذه المقبرة قال لا قال انها تقول

أيا الراكب المحبونا * على الارض المجدونا
كما أنتم كذا كنا * كما نحن تكونونا

فقال النعمان قد علمت أن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان وقد علمت انك انما أردت تعظني فجزاك الله عني خيرا فما السبيل الذي تدرك به النجاة قال تدع عبادة الاوثان وتعبد الله وحده قال فما في هذه النجاة قال ثم فترك عبادة الاوثان وتنصر يومئذ وأخذ في العبادة والاجتهاد (وقال) عبد الله بن المعلم خرجنا من المدينة حجاجا فلما كنا بالروينة نزلنا فوقف بنا رجل عليه ثياب رثة ليس له منظر وهيئة فقال من يبيع خادما من يبيع ساقيا فقلت دونك هذه القربة فاخذها فانطلق فلم يلبث الا يسيرا حتى أقبل وقد امتلأت أنواعا طيبا فوضعها كالمسرور الفاضح ثم قال لكم غير هذا قلنا لا وأطعمناه قرصا باردا فأخذه وحمد الله تعالى وشكره ثم اعتزل وتعدفا كله أكل جائع فادركتني عليه الرأفة فقمت اليه بطعام طيب كثير فقلت له قد علمت أنه لم يقع عنك القرص بموقع

فدونك هذا الطعام فنظر فى وجهى وتبسم وقال يا عبد الله اغاهى فورة جوع فما أبالى بأى شئ رددتها فرجعت عنه فقال لى رجل الى جنبى أتعرفه قلت لا قال انه من بنى هاشم من ولد العباس ابن عبد المطلب كان يسكن البصرة فتاب فخرج منها فتفقدته فما عرف له أثر ولا وقفت له على خبر فاعجبنى قوله ثم اجتمعت به وآنسته وقلت له هل لك أن تعادلنى فان معى فضلا من راحلتى فخزانى خبزا وقال لو أردت هذا لكان لى معداثم أنس الى فجعل يحدثنى فقال أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة وكنت ذا كبر شديد وبذخ وانى أمرت خادما لى أن تحشو فراشا لى من حرير بمخدة بورد تفرفعلت وانى لنائم اذا بقمع وردة قد أغفلته الخادم فقمت اليها فاوجعتها ضربا ثم عدت الى مضجعى بعد اخراج القمع من المخدة فاتانى آت فى منامى فى صورة فظيعة فهزنى وقال أفق من غشيتك أبصر من حيرتك ثم أنشأ يقول

يا خدنا ان توسد لينا * وسدت بعد الموت صم الجندل
فامهد لنفسك صالحا تسعد به * فلتندمن غدا اذا لم تفعل

فانتبهت فزعا فخرجت من ساعتى هاربا الى ربى (وقال) عبد الواحد بن زيد ثم كرلى أن فى جوانب الابلة جارية مجنونة تنطق بالحكمة فلم أزل أطلبها حتى وجدتها فى خربة جالسة على حجر وعليها جبة صوف وهى محلوقة الرأس فلما نظرت الى قالت من غير أن أكلمها مرحبا بك يا عبد الواحد فقلت لها مرحب الله بك وعجبت من معرفتها ولم ترنى قبل ذلك فقالت ما الذى جاء بك ههنا فقلت جئت لتعظينى فقالت واعجبا لواعظ يوعظ ثم قالت يا عبد الواحد اعلم أن العبد اذا كان فى كفاية ثم مال الى الدنيا سلبه الله حلاوة الزهد فيظل حيرانا والهافان كان له نصيب عند الله عاتبه وحيا فى سره فقال عبدى أردت ان أرفع قدرك عند ملائكتى وحملة عرشى واجعلك دليلا لاوليائى وأهل طاعتى فى أرضى فلت الى عرض من أعراض الدنيا وتركتنى فورثتك بذلك الوحشة بعد الانس والذل بعد العز والفقر بعد الغنى عبدى ارجع الى ما كنت عليه ارجع الى ما كنت تعرفه من نفسك ثم تركتنى وولت عنى وانصرفت عنها وبقلبى حسرة منها وأنشدوا

انك فى دار لها مدة * يقبل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطا بها * يقطع فيها أمل الآمل
تجهل الذنب بما تشتهى * وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتى بعد ذا غفلة * ماذا بفعل الحازم العاقل

* ولما نزل سعد بن ابى وقاص الحيرة قيل له ههنا عجوز من بنات الملوك يقال لها الحرقة بنت النعمان بن المنذر وكانت من اجل قبائل العرب وكانت اذا خرجت الى بيعتها تشرت عليها ألف قطيفة حرير ودبياج ومعها الف وصيف ووصيفة فارسل اليها سعد فجاءت كالشن البالى فقال يا سعد كانما ولدك هذا المصر قبلك يحمل البناخراجه ويطبعنا اهله مدة من المدد حتى صاح بنا صائح الدهر فشتت شملنا والدهر ذو نوائب وصروف فاورثنا ضنا من أمنا الارعدت فرائصك فزعا منا فقال لها سعد ما أنعم ما تنعمتم به قالت سعة الدنيا علينا وكثرة الاصوات اذا دعونا ثم انشأت تقول

وبنا نسوس الناس والامر أمرنا * اذا نحن فيهم سوقة لنا نصف

فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها * تقلب تارات بنا وتصرف

ثم قالت يا سعد انه لم يكن أهل بيت خير الاوالدهر يعقبهم غيره حتى يأتي أمر الله على الفريقين فاكرمها سعد وأمر بردها فلما أرادت القيام قالت يا سعد لا أزال الله عنك نعمة ولا جعل لك الى لئيم حاجة ولا أزال عن كريم نعمة ولا أزال عن عبد صالح نعمة الا جعلك الله سببا الى ردها عليه ولبعضهم

من كان يعلم ان الموت يدركه * والقبر مسكنه والبعث مخرجه

وأنه بين جنات ستبهجه * يوم القيامة أو نار ستنضجه

فكل شئ سوى التقوى به سجج * وما أقام عليه منه أسبجه

ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنا * لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

(وروى) ان عيسى عليه السلام كان مع صاحب له يسيحان فاصابهما الجوع وقد انتهيا الى قرية فقال عيسى لصاحبه انطلق فاطلب لنا طعاما من هذه القرية وقام عيسى يصلى فجاء الرجل بثلاثة ارغفة فابطأ عليه انصراف عيسى فاكل رغيفا فانصرف عيسى فقال أين الرغيف الثالث فقال ما كانا الا رغيفين قال فقرا على وجوههما حتى مرا بظباء ترعى فدعا عيسى عليه السلام ظبيا منها فذكاه فاكلا منه ثم قال عيسى عليه السلام للظبي قم باذن الله فاذا هو يشتد فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى بالذى اراك هذه الآية من صاحب الرغيف قال ما كانا الا اثنين قال فضيا على وجوههما فقرا بنهر عجاج عظيم فاخذ عيسى عليه السلام يده فمشى به على الماء حتى جاوزا الماء فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى عليه السلام بالذى أراك هذه الآية من صاحب الرغيف قال ما كانا الا اثنين فخر جا حتى أتيا قرية عظيمة خربة واذا قريب منها لبن ثلاث من ذهب فقال الرجل هذا مال فقال عليه السلام أجل هذا مال واحد لى وواحد لك وواحد لصاحب الرغيف فقال أنا صاحب الرغيف فقال عليه السلام هى لك كلها ففارقه فاقام عليها ليس معه ما يحملها عليه فتربه ثلاثة نفر فقتلوه وأخذوا اللبن فقال اثنان منهم لواحد انطلق الى القرية فأتنا بطعام فذهب فقال احد الباقيين تعال نقتل هذا اذا جاء ونقسم هذا بيننا قال الآخر نعم وقال الذى ذهب يشترى الطعام أجعل فى الطعام سما فاقتلهما وآخذ اللبن ففعل فلما جاء قتلاه واكلا من الطعام الذى جاء به فماتا فمر بهم عيسى عليه السلام وهم حولها منصرعين فقال هكذا تفعل الدنيا باهلها (وقال عبد الملك) بن عمير رأيت فى هذا القصر عجبا رأيت رأس الحسين على نوبين مصبوغين بين يدى ابن زياد ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدى المختار ثم رأيت رأس المختار بين يدى المصعب بن الزبير ثم رأيت رأس المصعب بن الزبير بين يدى عبد الملك بن مروان (وقال الاصمعى) لما زخرف الرشيد مجالسه وتحرم فيها وزوقها وصنع فيها طعاما كثيرا ارسل الى ابى العتاهية وقال صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال

عش ما بدا لك سالما * فى ظل شاهقة القصور

يسعى عليك بما اشتهيت لدى الرواح وفى البكور

واذا النفوس تقعقعت * فى ضيق حشرجة الصدور

فهنالك تعلم موقنا * ما كنت الا في غرور

فبكى هرون فقال الفضل بن يحيى بعث اليك أمير المؤمنين لتسره فاحزنته فقال هرون دعه فانه رآنا في ضلالة وعمى فكره أن يزيدنا عمى (ويروى) ان سليمان بن عبد الملك لبس أفخر ثيابه ومس أطيب طيبه ونظر في مرآته فأعجبته نفسه وقال أنا الملك الشاب ثم خرج الى الجمعة وقال بلسان حاله كيف ترين فقالت

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لا بقاء للانسان

ليس فيما بدا لنا منك عيب * عابه الناس غير أنك فاني

فاعرض بوجهه ثم خرج فصعد المنبر وصوته يسمع آخر المسجد فركبته الحمى فلم يزل صوته ينقص حتى ما سمعه من حوله فصلى ورجع بين اثنين يسحب رجليه فلما صار على فراشه قال للجارية ما الذي قلت لي في صحن الدار قالت ما رأيتك ولا قلت شيأ وأتى لي بالخروج الى صحن الدار فقال انا لله وانا اليه راجعون نعيت الي نفسي ثم عهد عهده وأوصى وصيته فلم تدر عليه الجمعة الاخرى الا وهو في قبره (ووجد) مكتوبا على قصر سيف بن ذي يزن

من كان لا يطأ التراب برجله * وطئ التراب بناعم الخد

من كان مهده في التراب وبيته * شبران كان بغاية البعد

لو بعثرت للناس أطباق الثرى * لم يعرف المولى من العبد

(وقال الهيثم بن عدي) وجدوا غارا في جبل لبنان زمان الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب وعند رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه بالرومية أنا سبأ بن نواس بن سبا خدمت عيسى بن اسحق بن ابراهيم خليل الرب الديان الملك الاكبر وعشت بعده عمرا طويلا ورأيت عجبا كثيرا ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبر أحبائه ويعلم انه صائر اليهم ثم لا يتوب وقد علمت ان الاجلاف الجفاة سيتولون عن سريري ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان وتتأمر الصبيان ويكثر الحدثان فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلا ومات ذليلا (ويروى) ان الاسكندر مر بمدينة قد ملكها أملاك سبعة وبادوا فقال هل بقي من نسل الاملاك الذين ملكوا هذه المدينة أحد قالوا رجل يكون في المقابر فدعا به وقال له ما دعاك الى لزوم المقابر قال أردت أن أعزل عظام الملوك من عظام عبيدهم فوجدت ذلك سواء قال فهل لك أن تتبعني فأحيي لك شرف آبائك ان كانت لك همة قال ان همتي لعظيمة ان كانت بغيتي عندك قال وما بغيتك قال حياة لا موت فيها وشباب لا هرم فيه وغنى لا يتبعه فقر وسرور لا يعتريه مكروه قال ما أقدر على هذا قال فانفذ لشأنك وخلني أطلب بغيتي ممن هي عنده فقال الاسكندر هذا أحكم من رأيت (وروى) في الاسرائيليات ان عيسى بن مريم عليه السلام بينما هو في بعض سياحته اذ مر بجمجمة نخرة فأمرها أن تتكلم فقالت يا روح الله أنا بوام بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة وولد لي ألف ذكر وافتضضت ألف بكر وهزمت ألف عسكر وقتلت ألف جبار وافتتحت ألف مدينة فلم ير لي فلا يغترن بالدنيا كما غرتني فما كانت الا كلم نائم فبكى عيسى عليه السلام (ووجد) مكتوبا على قصر بعض الملوك وقد باد أهله وأقفرت ساحته

هذى منازل أقوام عهدتهم * يوفون بالعهد مذ كانوا وبالذمم
تبكى عليهم ديار كان يطربها * ترنم الجسد بين الحلم والكرم

(وقال) عبد الله بن أبى نوح نزل حى من العرب شعبا من شعاب اليمن فتشاحنوا فيه واختلفوا واستعدوا للقتال فاذا صائح يصيح ياهؤلاء على رسلكم سلام القتال فى فوالله لقد ملكنى سبعون أعور كلهم اسمه عمرو

(فصل) أيها الرجل اعتبر بمن مضى من الملوك والاقيال وخلا من الامم والاجيال وكيف بسطت لهم الدنيا وأنست لهم الآجال وانفسح لهم فى المنى والآمال وأمدوا بالآلات والعدد والاموال كيف طحنهم بكلكله المنون واختدعهم بزخرفه الدهر الخؤون وأسكنوا بعد سعة القصور بين الجنادل والصخور وعاد العين أثرا والملك خبرا فاما اليوم فقد ذهب صفو الزمان وبقى كدره فالموت اليوم تحفة لكل مسلم كأن الخير أصبح خاملا والشر أصبح ناظرا وكأن الغى أصبح ضاحكا والرشد باكيا وكأن العدل أصبح غائرا وأصبح الجور عاليا وكأن العقل أصبح مدفونا والجهل منشورا وكأن اللؤم أصبح باسقا والكرم خاويا وكأن الود أصبح مقطوعا والبغضاء موصولة وكأن الكرامة قد سلبت من الصالحين ونوخيها الاشرار وكأن الخب أصبح مستيقظا والوفاء نائما وكأن الكذب أصبح مثمرا والصدق ماحلا وكأن الاشرار أصبحوا يسامون السماء وأصبح الاخيار يردون بطن الارض أما ترى الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق الخجول تخبرها يسير وعيشها قصير واقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك ولا تنافس أهل الدنيا فى خفض عيشهم ولين رياشهم ولكن انظر الى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم قال الشاعر

رب مغرور يعاش به * عدمته عين مغترسه
وكذاك الدهر مأتمه * أقرب الاشياء من عرسه

وقد قال اليمامى

تنافس فى الدنيا غرورا وانما * قصارى غناها أن تزول الى الفقر
وانا لفى الدنيا كركب سفينة * تظن وقوفا والزمان بها يجرى

ولبعض الشعراء

تروح لك الدنيا بغير الذى غدت * وتحدث من بعد الامور أمور
وتجرى الليالى باجتماع وفرقة * وتطلع فيها أنجم وتغور
فمن ظن أن الدهر باق سروره * فذاك محال لايدوم سرور
عفا الله عمن صبر الهم واحدا * وأيقن ان الدائرات تدور

(وقال وهب بن منبه) قرأت فى كتب بعض الانبياء عليهم السلام أن المسيح اجتاز بجمجمة هائلة عظيمة نخرة فقال له اصحابه يا روح الله لو سألت الله تعالى أن يستنطق هذه الجمجمة فعسى تخبرنا بما رأته من العجائب ففعل فانطقها الله تعالى فقالت يا روح الله انى عشت ألف سنة

واستولدت ألف ذكر وافتتحت ألف مدينة وهزمت ألف جيش وقتلت ألف جبار وصحبت الدهر واختبرته وامتحنت تقلبه وانقلابه فلم أر شيأ أشد من طالح يلي أمر صالح ولم أجد لها الدهر شيأ أنفع من الصبر ومسالمة أهله ولم أر هلاك أهله الا في الحرص والطمع ووجدت العز في الرضا بالقسم (وقال محمد) بن أبي العتاهية آخر شعر قاله أبي في مرضه الذي توفي فيه رحمه الله

الهي لا تعذبني فاني * مقر بالذي قد كان مني
فما لي حيلة الا رجائي * وعفوك ان عفوت وحسن ظني
وكم من زلة لي في البرايا * وأنت علي ذو فضل ومن
اذا فكرت في قدمي عليها * عضضت أناملي وقرعت سني
أجن بزهرة الدنيا جنونا * وأقطع طول عمري بالتمني
وبين يدي ميقات عظيم * كأني قد دعيت له كأني
ولو أني صدقت الله فيها * قبلت لاهلها ظهر المجن

(وقال ابن عباس) لما ورد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ايكم يعرف قس بن ساعدة قالوا كلنا نعرفه يا رسول الله قال رجل لست انساه بعكاظ على جمل أحمر وهو يخطب الناس ويقول ايها الناس اجتمعوا فاذا اجتمعتم فاسمعوا فاذا سمعتم فعوا فاذا وعيتم فقولوا فاذا قلتم فاصدقوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت ان في السماء لخبرا وان في الارض لعبرا مهاد موضوع وسقف مرفوع ونجوم تمور وبحر لا يغور أقسم قس قسم حق لا كذب فيه ولا اثم ليكونن سخطا ان لله دينا هو أحب اليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فاقاموا أم تركوا على خالهم فناموا ثم قال ايكم يروي شعره فأنشدوه

في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا * للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها * تمضي الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضي اليّ ولا من الباقين غابر
سكنوا البيوت قوطنوا * ان البيوت هي المقابر
أيقنت أني لا محا * لة حيث صار القوم صائر

ثم قال الرجل لقد رأيت منه عجبا اقتحمت واديا فاذا انا بعين جارية وروضة مدهامة وشجرة عادية واذا بقس بن ساعدة قاعد في اصل الشجرة وبيده قضيب وقد ورد على العين سباع كثيرة فكلما ورد سبع على صاحبه ضربه بالعصا وقال تنح حتى يشرب الذي ورد قبلك فلما رأيت ذلك ذعرت ذعرا شديدا فالتفت الي وقال لا تخف فالتفت فاذا بقبرين بينهما مسجد فقلت ما هذان القبران قال هما قبرا اخوي كانا يعبدان الله تعالى معي في هذا الموضع وأنا أعبد الله بينهما حتى ألحق بهما فقلت له ألا تلحق بقومك فتكون في جيرتهم فقال لي شكلتك أمك الم ما علمت ان ولد اسمعيل تركت دين ابيها واتبعت الاصنام وعظمت الانداد ثم تركني

وأقبل على القبرين وقال

خليلي هبا طالما قد رقدتما * أجدّ بكما ما تقضيان كراكما
أرى النوم بين الجلد والعظم منكما * كأنّ الذي يسقى العقار سقاكما
ألم تعلما أني بسجمان مفرد * ومالي فيه من خليل سواكما
مقيم على قبر بكما لست نازحا * طوال الليالي أو يجيب صداكما
أ أبكيكما طول الحياة وما الذي * يردّ على ذي غصة ان بكاكما
كأنكما والموت أقرب غاية * بروحي في قبر بكما قد أتاكما
سلام وتسليم وروح ورحمة * ومغفرة المولى على ساكنا كما
فلو جعلت نفس لنفس وقاية * لجدت بنفسي أن تكون فداكما

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان قس بن ساعدة يبعث أمة وحده يعني ان كل أمة آمنت بنبيها تبعث أمة وحدها الا يخالطها غيرها ويبعث قس أيضا وحده أمة ليس معه أحد (ويروى) ان المهدي نام يوما فأنشد في نومه هذه الابيات

كأني بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه ركنه ومنازله
فلم يبق الا ذكره وحديثه * ينادي بليل معولات ثواكله

فما أتت عليه عاشر عشرة سنين مات (وأنشدني) القاضي أبو العباس الجرجاني رحمه الله بالبصرة هذه الابيات

بالله ربك كم قصر مررت به * قد كان يعمر باللذات والطرب
طارت عقاب المنايا في جوانبه * فصاح من بعده بالويل والحرب

وأنشدني أيضا

أيها الرافع البناء رويدا * ان تذود المنون عنك المباني
ان هذا البناء يبقى ويفنى * كل شئ أبقى من الانسان

(وقال الحكم بن عمرو) قال أبو جعفر المنصور عند موته اللهم ان كنت تعلم أني ارتكبت الامور العظام جراءة مني عليك فانك تعلم أني قد أطعتك في أحب الاشياء اليك شهادة أن لا اله الا الله منا منك لا منا عليك * وكان سبب احرامه من الخضراء أنه كان يوما نائما فاتاه آت في منامه فقال

كأني بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه أهله ومنازله
وصار عميد القصر من بعد بهجة * الى تربة تسفي عليه جنادله

فاستيقظ مرعوبا ثم نام فأنشد

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت * سنوك وأمر الله لابد واقع
فهل كاهن أعددته ومنجم * أبا جعفر عنك المنية دافع

فقال يا ربيع ائتني بطهوري فقام واغتسل ولبى وتجهز للحج ثم قال يا ربيع القني في حرم الله تعالى (وأنشدني) القاضي أبو العباس الجرجاني بالبصرة

ان كنت تسمو الى الدنيا وزينتها * فانظر الى ملك الاملاك قارون

زمّ الامور فاعطته مقادتها * وحضر الناس بالتشديد واللين
حتى اذا ظن أن لا شئ غالبه * ومكنت قدماه أى تمكين
راحت عليه المنايا روحة تركت * ذا الملك والعز تحت الماء والطين

وأنشدنى أبو محمد التميمى ببغداد

لمن أجنى لمن أسمو المطايا * لمن استأنف الشئ الجديدا
اذا ما صار اخو انى رفاتا * وصرت لفقدهم فردا وحيدا
أعاين معشرا لهم شكول * وأشكالى قد اعتنقوا اللسودا

(ومن زهد فى الدنيا) وأبصر عيوبها من أبناء الملوك أبو عقال علوان بن الحسن من بنى الاغلب وهم ملوك المغرب وكان ذا نعمة وملك وله قوة ظاهرة فتاب الى ربه ورجع عن ذلك رجوعا فارق نظراءه فرفض المال والاهل وهجر البناء والوطن وبلغ من العبادة مبلغا أربى فيه على المجتهدين وعرف باجابة الدعوة وكان عالما أديبا قد صحب عدة من أصحاب سحنون وسمع منهم ثم انقطع الى بعض السواحل فصحب رجلا يكنى أبا هرون الاندلسى منقطعا متبتلا الى الله تعالى فلم ير منه كبير اجتهاد فى العمل فبينا أبو عقال يتهجد فى بعض الليالى وأبو هرون نائم اذ غلبه النوم فقال لنفسه يا نفس هذا عابد جليل القدر ينام الليل كله وأنا أسهر الليل كله فلو أرحت نفسى فوضع جنبه فرأى فى منامه شخصا قتلا عليه أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات الى آخر الآية فاستيقظ فزعا وعلم أنه المراد فأيقظ أبا هرون وقال له سألتك بالله هل أتيت كبيرة قط قال لا يا ابن أخى ولا صغيرة عن تعمد والحمد لله فقال أبو عقال لهذا تنام أنت ولا يصلح لمثلى الا الكد والاجتهاد ثم دخل الى مكة ولزم بيت الله الحرام وحج مرارا وأربى على عباد المشرق وكان يعمل بالقربة على ظهره بقوته ومات بمكة وهو ساجد فى صلاة الفريضة بالمسجد الحرام سنة ست وتسعين ومائتين وقال له رجل كان يصحبه يوما لى اليك حاجة فقال له بعد الجهد به حاجتك مقضية قال ان كان لك شهوة أخبرنى بها قال نعم أشتهى أن آكل رأسا قال فاشتريت له رأسين ولففتهما فى رقاق وجئته بهما ثم سألته بعد أيام هل طاب لك الرأسان قال لا ماهو الا الآن فتحتهما فاذا هما محشوان دودا ليس فيهما البتة لحم الا الدود فاتيت الرآس فاخبرته فأطرق متعجبا ثم قال ما ظننت أن فى زماننا أحدا يحمى عن الحرام هذه الحماية تلك الرؤس كانت من غنم انتهبها بعض العمال ثم أعطانى رأسين من غير تلك الغنم فاتيت بهما أبا عقال فاكلهما فاخبرته بما قال الرآس فبكى ثم قال يا رب ما كان يستحق عبدك أبو عقال مثل هذه الحماية ولكنه يا رب فضلك وكرمك فلك الحمد على أن لا آكل طعاما بشهوة أشتهيها حتى ألقاك ان شاء الله تعالى وكانت له أخت متعبدة فلما مات لحقت قبره بمكة وبكت عليه وكتبت عليه هذه الابيات

ليت شعرى ما الذى عاينته * بعد دوم الصوم مع نفى الوسن
مع عزوف النفس عن أوطارها * والتخلى عن حبيب وسكن
يا شقيق ليس فى وجدى به * علة تمنعنى أن أجن
وكما تبلى وجوه فى الثرى * فكذا يبلى عليها الحزن

(وروى) ان رجلين تنازعا فى ارض فانطق الله لبنة من جدار تلك الارض فقالت انى كنت ملكا من الملوك ملكت الدنيا ألف سنة ثم مت وصرت رميما ألف سنة فاخذنى خزاف واتخذنى خزفا ثم أخذنى وضربنى لبنا وأنا فى هذا الجدار كذا وكذا سنة فلم تتنازعان فى هذه الارض (ومن العجب) ماروى فى الاسرائيليات ان ابنة من بنات الملوك تزهدت فى الدنيا وتابت وخرجت من ملكها ففقدت فلم يسمع لها خبر ولا علم لها أثر وكان هناك دير للمتعبدين فلحق بهم شاب يتعبد فابصر وامنه من الاجتهاد والبلد فى العمل وملازمة الاوراد ومواصلة الاعمال مافاق به جميع من فى الدير واقام على ذلك ماشاء الله تعالى الى ان انقضت ايامه ووافاه حمامه فقضى الفتى نحبه فخزن له اهل الدير من الزهاد والعباد والمنقطعين وآذر واعليه الدموع ثم اخذوا فى غسله واذا هو امرأة فتحصوا عن امره واذا هى بنت الملك فزادهم ذلك اعجابا به وتعظيما له ونشاوروا فى امره ماذا يحدثون له من الكرامة ثم اجمعوا امرهم أن لا يدفنوها تحت الثرى وان يحملوها فوق اكفهم فغسلوها وكفنوها وجهزوها وصلوا عليها ثم اقبلوا يحملونها على الاكف والسواعد كلما ضجر واحد جاء واحد يحمل مع من يحمل وكل من انقطع فى الدير لعبادة ربه جعل معهم الى أن بليت وتقطعت أوصالها مع طول الزمان فدفنت حينئذ رحمة الله عليها (وكان) فى بلاد الروم مما يلى ارض الاندلس رجل نصرانى قد بلغ فى التخلى من الدنيا مبلغا عظيما واعتزل الخلق والتزم قلل الجبال والسياحة فى الارض الى الغاية القصوى فورد على المستعين بن هود فى بعض الامر فاكرمه ابن هود ثم اخذ يبده ويجعل يعرض عليه ذخائر ملكه وخزائن امواله وماحوته من البيضاء والحمراء واجلها لياقوت والجواهر وامثالها ونفائس الاعلاق والجوارى والخشم والاجناد والكراع والسلاح فاقاموا فى ذلك اياما فلما انقضت قال له كيف رأيت ملكى قال قد رأيت ملكا ولكنه يعوزك فيه خصلة ان انت قدرت عليها فقيها تنظام ملكك وان لم تقدر عليها فهذا الملك لاشئ قال وما تلك الخصلة قال تعمد فتصنع غطاء عظيما حصينا قويا وتكون مساحته قدر البلد ثم تكبه على البلد حتى لا يجد ملك الموت مدخلا اليك فقال المستعين سبحان الله أويقدر البشر على هذا فقال العلج ياهذا اتفتخر بامر تتركه غدا ومثال من يفتخر بما يفنى كمن يفتخر بما يراه فى النوم (ويروى) ان ملكا من الملوك بنى قصرا وقال انظر وامن عاب منه شيا فأصلحوه وأعطوه درهمين فأتاه رجل فقال ان فى هذا القصر عيبين قال وما هما قال يموت الملك ويخرب القصر قال صدقت ثم اقبل على نفسه وترك الدنيا (ومن عجائب) اخبار الخضر عليه السلام قالوا سئل الخضر عليه السلام عن اعجب شئ رأيته فى الدنيا فى طول سياحتك وكثرة خلواتك وقطعك القفار والفلوات قال أعجب ما رأيته أنى مررت على مدينة لم ار على وجه الارض احسن منها فسألت بعضهم متى بنيت هذه المدينة قالوا سبحان الله مايذكر آباؤنا ولا اجدادنا متى بنيت هذه المدينة ومازالت كذلك من عهد الطوفان ثم غبت عنها نحوا من خمسمائة عام وعبرت عليها بعد ذلك واذا هى خاوية على عروشها ولم ار أحدا أسأله واذا رعاة غنم قد نوبت منهم فقلت أين المدينة التى كانت ههنا قالوا سبحان الله مايدرك آباؤنا ولا اجدادنا انه قط كانت ههنا مدينة فغبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها فاذا موضع تلك المدينة بحر واذا غواصون

يخرجون منه شبه الحلية فقلت لبعض الغواصين منذ كم كان هذا البحر ههنا فقال سبحان الله ما زلنا آباؤنا ولا أجدادنا الا ان هذا البحر منذ بعث الله الطوفان ثم غبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها واذا ذلك البحر قد غاض ماؤه واذا مكانه غيضة ملتفة بالقصب والبردى والسباع واذا صيادون يصيدون السمك فى زوارق صغار فقلت لبعضهم أين البحر الذى كان ههنا فقال سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا أجدادنا انه كان ههنا قط بحر فغبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم أتيت الى ذلك المكان فاذا هو مدينة على حاله الاولى والحصون والقصور والاسواق قائمة فقلت لبعضهم أين الغيضة التى كانت ههنا ومتى بنيت هذه المدينة فقالوا سبحان الله ما يذكر احدا الا ان هذه المدينة على حالها منذ بعث الله الطوفان فغبت عنها نحوا من خمسمائة عام ثم انتهيت اليها فاذا اعاليها سافلها وهى تدخن بدخان شديد فلم أر أحدا أسأله ثم رأيت راعيا فسألته اين المدينة التى كانت ههنا ومتى حدث هذا الدخان فقال سبحان الله ما يذكر آباؤنا ولا اجدادنا الا ان هذا الموضع كان هكذا منذ كان فهذا اعجب شئ رأيته فى سياحتى فى الدنيا فسبحان مبيد العباد ومفنى البلاد ووارث الارض ومن عليها ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم (قال الشاعر)

قف بالديار فهذه آثارهم * تبكى الاحبة حسرة وتشوقا
كم قد وقفت بها أسائل مخبرا * عن اهلها او ناطقا او مشفقا
فاجابنى داعى الهوى فى رسمها * فارقت من تهوى فعزا الملتقى

(ومن الشعر) المستحسن فى هذه الابيات قول القائل

رب ورقاء هتوف بالضحى * ذات شجو صدحت فى فنن
ذكرت إلفا ودهرا صالحا * فبكت حزنا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها * وبكاها ربما أرقنى
فاذا تسعدنى أسعدها * واذا اسعدها تسعدنى
ولقد تشكو فما افهمها * ولقد اشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها * وهى ايضا بالجوى تعرفنى

(ونظر) رجل من العباد الى باب ملك من الملوك وقد شيده وأتقنه وزوقه فقال باب حديد وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد (ولما نقل) عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوى يده توبا فقال ودت أنى كنت غسالا لا املك ما يملك هذا يوما فبلغ ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذى يجعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا ننتهى عند ما هم فيه (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع (وقال) عيسى عليه السلام اوحى الله الى الدنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه يا دنيا تمرى على اوليائى ولا تحلولى لهم فتفتنيهم (وقال) مؤرق العجلى يا ابن آدم فى كل يوم يؤتى برزقك وتحزن وينقص عمرك وانت لا تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك لا بقليل تقنع

ولا بكثير تشبع (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته ايها الناس ان الايام تطوى والاعمار تفنى والابدان فى الثرى تبلى وان الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفى ذلك عباد الله ما الهى عن الشهوات ورغب فى الباقيات الصالحات (وقال) بعض الحكماء الدنيا كالماء المالح كلما ازداد صاحبه شربا ازداد عطشا وكالكاس من العسل فى اسفله السم للذائق منه حلاوة عاجلة وله فى اسفله الموت الذعاف وكالاحلام للنائم التى تفرحه فى منامه فاذا استيقظ انقطع الفرح وكالبرق الذى يضئ قليلا ويذهب وشيكا ويبقى رائيه فى الظلام مقيما وكدودة الابريسم التى لا يزداد الابريسم على نفسها الفا الا ازدادت من الخروج بعدا (وفيه قال القائل)

كدود كدود القز ينسج دائما * ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

ومثال من يستعجل زهرة الدنيا ويعرض عن الدار الاخرة مثل رجلين لقطا من الارض حبتى عنب فأما أحدهما فجعل يمص الحبة التى اذا ابتاعها ثم بلعها وأما الاخر فزرع الحبة فلما كان بعد زمان التقيا فأما الذى زرع الحبة وجدها قد صارت له كرما وكثرت ثمرته وفكر الاخر فى صنعه فى الحبة فوجدها قد صارت عذرة وليس عنده منها شئ الا الحسرة على تفريطه والغبطة لصاحبه (وقال) وهب بن منبه أوحى الله تعالى الى نبى من أنبياء بنى اسرائيل ان أردت ان تسكن معى فى حضرة القدس فكن فى الدنيا وحيدا فريدا مهموما وحشيا بمنزلة الطير الوحدانى الذى يظل فى الارض الفلاة ويأكل من رؤس الشجر ويشرب من ماء العيون فاذا كان الليل أوى وحده ولم يأو مع الطيار استئناسا به (ولبعضهم)

كم للحوادث من صروف عجائب * ونوائب موصولة بنوائب
ولقد تقطع من شبابك وانقضى * مالست أعلمه اليك بآيب
تبغى من الدنيا الكثير وانما * يكفيك منها مثل زاد الراكب

(وقال مالك بن أنس) بلغنى ان عيسى عليه السلام انتهى الى قرية قد خربت حصونها وجفت أنهارها وتشعث شجرها فنادى يا خراب أين أملاكك فلم يجبه أحد ثم نادى يا خراب أين أهلك فلم يجبه أحد فنودى عيسى بن مريم بادوا وقتلتهم الارض وعادت أعمالهم قلائد فى أعناقهم الى يوم القيامة فبكى عيسى عليه السلام (قال مالك) سئلت امرأة من بقية قوم عاد يقال لها هرمة أى عذاب الله رأيت أشد قالت كل عذاب الله شديد وسلام الله ورحمته على ليلة لا ريح فيها ولقد رأيت العير تحملها الريح بين السماء والارض (وقال) مجاهد كان طعام يحيى بن زكريا العشب وان كان ليبكى من خشية الله تعالى مالو كان القار على عينيه لاحرقه ولقد كانت الدموع اتخذت مجرى فى وجهه (ومر) بعض الملوك بسقراط الحكيم وهو نائم فركضه برجله وقال قم فقام غير مرتاع منه ولا ملتفت اليه فقال له الملك ما تعرفنى قال لا ولكن أرى فيك طبع الدواب فهى تركض بارجلها فغضب وقال أتقول لى هذا وأنت عبدى فقال له سقراط بل أنت عبد عبدى قال وكيف ذلك قال لان شهوتك قد ملكتك وأنا ملكت الشهوات فقال أنا الملك بن الاملاك السادة أملك من البلاد كذا ومن الاموال والرجال كذا قال أراك تفتخر على بما ليس من نفسك وانما سبيلك أن تفتخر على بنفسك

ولكن تعال نخلع ثيابنا ونلبس جميعا ثوبا من ماء في هذا النهر وتتكلم اذ يتبين الفاضل من المفضول فانصرف الملك خجلا * وهاأنا أحكي لك أمر أصابني طيش عقلي وبلبل حرمي وقطع نياط قلبي فلا يزال مرآة لي حتى يواريني التراب وذلك أني كنت يوما بالعراق وأنا أشرب ماء فقال لي صاحب لي وكان له عقل يا فلان لعل هذا الكوز الذي تشرب فيه الماء قد كان انسانا يوما من الدهر فمات فصار ترابا فاتفق للفخاري أن أخذ تراب القبر وضربه خزفا وشواه بالنار فانتظم كوزا كما ترى وصار آنية يمتهن ويستخدم بعد أن كان بشرا سويا يأكل ويشرب وينعم ويلذ ويطرب فاذا الذي قاله من الجائزات فان الانسان اذا مات عاد ترابا كما كان في النشأة الاولى ثم قد يتفق أن يحفر لحده ويحثن بالماء ترابه فيتخذ منه آنية فتمتهن في البيوت أو لبنة فتبنى في الجدار أو طين به سطح البيت أو يفرش في البلد فيوطأ بالاقدام أو يجعل طينا على الجدار وقد يجوز أن يغرس عند قبره شجرة فيستحيل تراب الانسان شجرة وورقا وثمرة فتقرى البهائم أوراقها ويأكل الانسان ثمرها فينبت منها لحمه وينشر منها عظمه أو تأكل تلك الثمرة الحشرات والبهائم فينما كان يقتات صار قوتا وبينا كان يأكل صار مأكولا ثم يعود في بطن الانسان رجيعا فيقذف في بيت الراحة أو يعرا ينبذ بالعراء ويجوز اذا حفر قبره ان تسفي الرياح ترابه فتتفرق اجزاؤه في بطون الاودية والتلول والوهاد أليس في هذا ما أذهل العقول وطيش الحلوم ومنع اللذات وهان عنده مفارقة الاهلين والمال والعوق بقلل الجبال والانس بالوحوش حتى يأتي أمر الله أليس في هذا ما صغر الدنيا وما فيها أليس في هذا ما حقر الملك عند من عظمه والمال عند من جمعه أليس في هذا ما زهد في اللذات وسلى عن الشهوات (وقال) كم من مستقبل يوما لا يستكمله ومنتظر غدا وليس من أجله انكم لو ابصرتم الاجل ومسيره لابغضتم الامل وغروره (ولما) بنى المأمون بن ذي النون وكان من ملوك الاندلس قصره وأنفق فيه بيوت الاموال جاء على أكمل بنيان في الارض وكان من عجائبه أن صنع فيه بركة ماء كلها بحجرة وبنى في وسطها قبة وساق الماء من تحت الارض حتى علا على رأس القبة على تدبير قد أحكمه المهندسون وكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض فكانت القبة في غلالة من ماء سكالا يفتر والمأمون قاعد فيها فروى عنه أنه بينما هو نائم اذ سمع منشدا ينشد هذين البيتين

أتبني بناء الخالدين وانما * بقاؤك فيها لو عقلت قليل
لقد كان في ظل الاراك كفاية * لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فلم يلبث بعدها الا يسيرا حتى قضى نحبه (ووجد) مكتوبا على قصر قد باد أهله وأقفرت منازله

هذي منازل أقوام عهدتهم * في خفض عيش نفيس ماله خطر
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا * الى القبور فلا عين ولا أثر

ولو قيل للدنيا صفي نفسك لما عدت هذا البيت

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض * على الماء خانته فروج الاصابع

(وروي) أن الحجاج قال في خطبته أيها الناس ان ما بقي من الدنيا أشبه بما مضى من الماء بالماء

ولو أعطيت ما مضى من الدنيا بعد امتى هذه ما قبلته فكيف آسى على ما بقى منها (وروى) ان النبى صلى الله عليه وسلم ضرب مثلا لابن آدم عند الموت كمثل رجل له ثلاثة أخلاء فلما حضره الموت قال لاحدهم قد كنت لى خليلا مكرما موقرا وقد حضرنى من أمر الله تعالى ماترى فماذا عندك فيقول هذا أمر الله غلبنى عليك لا أستطيع أن أنفس كربك ولكن ها أنا بين يديك فخذ منى زادا يتقعك ثم يقول الثانى قد كنت عندى آثر الثلاثة وقد نزل بى من أمر الله تعالى ماترى فماعندك قال هذا امر الله غلبنى عليك ولا أستطيع ان أنفس كربك ولكن سأقوم عليك فى مرضك فاذا مت أتقنت غسلك وجودت كسوتك وسترت جسدك وعورتك وقال للثالث قد نزل بى من أمر الله ماترى وكنت أهون الثلاثة على فماذا عندك قال انى قرينك وحليفك فى الدنيا والآخرة أدخل معك قبرك حين تدخله وأخرج معك حين تخرج منه ولا أفارقك أبدا فقال النبى صلى الله عليه وسلم الاول ماله والثانى أهله والثالث عمله (ولما) لقى ميمون بن مهران الحسن البصرى قال له قد كنت أحب لقاءك فعظنى فقرأ الحسن أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون فقال عليك السلام أبا سعيد فقد وعظت أحسن موعظة وأبجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الاخرى وهو يرى الاولى وأبجبا كل العجب للشاك فى قدرة الله تعالى وهو يرى خلقه وأبجبا كل العجب للمكذب بالنشور وهو يموت فى كل يوم وليلة ويحيا وأبجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور وأبجبا كل العجب للمختال الفخور وانما خلق من نطفة ثم يعود جيفة وهو بين ذلك لا يدرى ما يفعل به (وروى) ان الله تعالى أوحى الى آدم عليه السلام جماع الخير كله فى أربع واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة بينك وبين الناس فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيأ وأما التى لك فاعمل ما شئت فانى أجزيك به وأما التى بينى وبينك فعليك الدعاء وعلى الاجابة وأما التى بينك وبين الناس فكن لهم كما تحب أن يكونوا لك (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام أوتينا ما أوتى الناس ومالم يؤتوا وعلمنا ما علم الناس ومالم يعلموا فلم نجد شيأ أفضل من خشية الله تعالى فى الغيب والشهادة وكلمة الحق فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر (وكتب) معاوية الى عائشة رضى الله عنها ان اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى على فكتبت اليه سلام عليك أما بعد فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس والسلام (ولما) ضرب ابن ملجم عليا رضى الله عنه دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق ودعا الحسن والحسين رضى الله عنهما (فقال) أوصيكما بتقوى الله والرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا ولا تأسفا على شئ فاتكما منها اعملا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا ثم دعا محمدا وقال له أما سمعت ما أوصيت به اخويك قال بلى قال فانى أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ولا تقطع أمرا دونهما ثم أقبل عليهما فقال أوصيكما به خيرا فانه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان ان أباكما كان يحبه فأحباه ثم قال يا بنى أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة وكلمة الحق فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الصديق والعدو والعمل فى النشاط والكسل والرضا عن الله فى الشدة والرخاء * يا بنى ما شر بعده الجنة بشر ولا خير بعده

النار بخير وكل نعيم دون الجنة حقير وكل بلاء دون النار عافية * يابني من أبصر عيب نفسه شغل عن عيب غيره ومن رضي بقسم الله لم يحزن على ما فاته ومن سل سيف البغي قتل به ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيها ومن هتك حجاب أخيه انكشفت عورات بيته ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره ومن أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط الأنذال احتقر ومن جالس العلماء وقر ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم ومن يحب صاحبا صالحا يغنم ومن دخل مداخل السوء اتهم ومن لا يملك نفسه ندم ومن مزح استخف به ومن أكثر من شئ عرف به ومن كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار * يابني الأدب خير ميراث وحسن الخلق خير قرين * يابني العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت الا عن ذكر الله تعالى والواحدة في ترك مجالسة السفهاء * يابني لا شرف أعلى من الاسلام ولا كرم أعلى من التقوى ولا معقل أحرز من الورع ولا شفيع أنجح من التوبة ولا لباس أجمل من العافية الحرص مفتاح التعب ومطية النصب التدبير قبل العمل يؤمنك من الندم ينس الزاد للمعاد العدوان على العباد فطوبى لمن أخلص لله عمله وعمله وحبه وبغضه وأخذه وتركه وكلامه وصمته وقوله وفعله (وروى) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما طعن دعا بلبن فشربه فخرج من طعنته فقال الله أكبر فجعل جلساؤه يثنون عليه فقال وددت أن أخرج منها كفافا لا كما دخلت فيها والآن لي اليوم ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع (قال) ابن عمر ولما حضرت الوفاة عمر غشي عليه فأخذت رأسه فوضعته في حجري فقال ضع رأسي بالارض لعل الله يرحمني فسح خده بالتراب وقال ويل لعمر وويل لامه ان لم يغفر له فقلت وهل تخذى والارض الا سواء أبتاه فقال ضع رأسي بالارض لا أم لك كما آمرك فاذا قضيت فأسرعوا بي في حفرتي وانما هو خير تقدمون اليه أو شر تضعونه عن رقابكم ثم بكى فقيل له ما يبكيك قال خبر السماء لا أدري الى جنة يطلق بي أم الى نار (ولما) حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قال اللهم انك أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت وأنعمت علي فأفضلت فان عفوت فقد مننت وان عاقبت فما ظلمت ألا اني أشهدك أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ثم قضى رحمه الله (ولما) حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر الى أهله يبكون حوله فقال جادلكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكا وترك لكم ما جمع وتركتم عليه ما حمل ما أعظم منقلب هشام ان لم يغفر الله له (ودخل) على المأمون في مرضه الذي مات فيه فاذا هو قد أمر أن يفرش له جل الدابة ويبسط عليه الرماد وهو راقد عليه يتضرع ويقول يا من لا يزول ملكه ارحم من يزول ملكه (وروى) أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال طوبى لك يا طائر تطير وتقع على الشجر وتأكل من الثمر وليس عليك حساب ولا عقاب يا ليتني كنت مثلك والله لوددت أني شجرة الى جنب طريق فمر علي بعير فأخذني فلاكني ثم ازدردني ثم أخرجني بعرا ولم أك بشرا (وقال) عاصم بن عبد الله أخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبنة من الارض فقال يا ليتني كنت مثل هذه التبنة يا ليتني لم تلدني أمي يا ليتني كنت نسيا منسيا (وقال) ابن مسعود وددت أني طائر في منكبي ريش

(وسمع) رجلا يقول يا ليتني كنت من أصحاب اليمين فقال ابن مسعود يا ليتني اذا مت لم أبعث (وقال) عمران بن حصين لوددت اني رماد فتنسفني الرياح في يوم عاصف (وقال) أبو الدرداء يا ليتني كنت شجرة تعضد وتؤكل ولم أكن بشرا (وروى) ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما رجع من صفين فدخل أوائل الكوفة فاذا هو بقبر فقال قبر من هذا فقالوا قبر خباب بن الارت فوقف عليه وقال رحم الله خبابا أسلم راغبا وهاجر طائعا وعاش مجاهدا وابتلي في جسمه آخرا الاولن يضيع الله أجر من أحسن عملا ثم مضى فاذا قبور بفجاة فوقف عليها فقال السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع وبكم عما قليل لاحقون اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى ثم قال يا أهل القبور أما الازواج فقد نكحت وأما الديار فقد سكنت وأما الاموال فقد قسمت فهذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ثم التفت الى أصحابه وقال أما انهم لو تكلموا لقالوا وجدنا أن خير الزاد التقوى

(الباب الثاني في مقامات العلماء والصالحين عند الامراء والسلاطين)

دخل الاحنف بن قيس على معاوية وعليه شملة ومدرعة صوف فلما مثل بين يديه اقتحمته عينه فاقبل عليه وقال مه فقال الاحنف يا أمير المؤمنين أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع الحمول واتصال من الذحول فالمكثر منها قد اطرق والمقل منها قد أملق وبلغ به الخرق فان رأى أمير المؤمنين أن ينعش الفقير ويجبر الكسير ويسهل العسير ويصفح عن الذحول ويداوي الحمول ويأمر بالعطاء ليكشف البلاء وتزول اللأواء الاوان السيد من يغمر ولا يحص ويدعو الجفلى ولا يدعو النقرى ان أحسن اليه شكر وان أسيء اليه غفر ثم يكون من وراء الرعية عادا يدفع عنهم الملمات ويكشف عنهم المعضلات فقال معاوية هاهنا يا أبا بحر ثم قرأ ولتعرفنهم في لحن القول (وقال) سفيان الثوري لما حج المهدي قال لابتلى من سفيان فوضع الى الرصد حول البيت فاخذوني بالليل فلما مثلت بين يديه اذا بي ثم قال لاري شيئا لاتاتيا فقلت تشير لي في أمرنا فما أمرتنا من شيء صرنا اليه ومانهيتنا عن شيء انتهينا عنه فقلت له كم أنفقت في سفرك هذا قال لا أدري لي امناء ووكلاء قلت فاعذرك غدا اذا وقفت بين يدي الله تعالى فسأله عن ذلك لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حج قال لغلامه كم أنفقت في سفرنا هذا قال يا أمير المؤمنين ثمانية عشر دينارا قال ويحك أجحفنا ببيت مال المسلمين (وقال) الزهري ما سمعت بأحسن من كلام تكلم به رجل عند سليمان بن عبد الملك فقال يا أمير المؤمنين اسمع مني أربع كلمات فهن صلاح دينك وملكك وآخرتك ودنياك قال لا تعد احدا عدة وأنت لا تريد انجازها ولا بعزتك مر تقي سهل اذا كان المنحدر وعرا واعلم ان الاعمال جزاء فاحذر العواقب والدهر تارات فكن على حذر (ولما دخل) ابن السماك على هرون الرشيد قال له عظني قال يا أمير المؤمنين ان الله لم يرض لخلافته في عباده غير ك فلا ترض من نفسك الا بما رضي الله به عنك فانك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت أولى الناس بذلك يا أمير المؤمنين من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله كان خليقا أن يعتق نفسه يا أمير المؤمنين من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه اليها أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها

يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن تقدم الى جنة عرضها السموات والارض وقد دعيت اليها وليس لك فيها سبب يا أمير المؤمنين ان لك قوت وحدك وتحاسب وحدك وانك لا تقدم الا على نادم مشغول ولا تخلف الا مفتونا مغرورا وانك وايانا في دار سفر وجيران ظعن (ولما) حج سليمان ابن عبد الملك استحضر أبا حازم فقال له تكلم يا أبا حازم فقال فيم أتكلم قال في الخروج من هذا الامر قال يسيران أنت فعلته قال وماذا قال لا تأخذ الاشياء الا بحقها ولا تضعها الا في أهلها قال ومن يقوى على ذلك قال من قلده الله من الامر ما قلدك قال عظني يا أبا حازم قال يا أمير المؤمنين ان هذا الامر لم يصل اليك الا بموت من كان قبلك وهو خارج عنك بمثل ما صار اليك ثم قال يا أمير المؤمنين نزه ربك في عظمته عن أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك يا أمير المؤمنين انما أنت سوق فما نفق عنك جعل اليك من خير أو شر فاختر لنفسك أيهما شئت قال فما لك لا تأتينا قال وما أصنع بإتيانك ان أدنيتني فتنتني وان اقصيتني أحزنتني وليس عندي ما أخافك عليه ولا عندك ما أرجوك له قال فارفع الينا حوائجنا قال قد رفعتها الى من هو أقدر منك عليها فما أعطاني منها قبلت ومامنعني منها رضيت يقول الله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا فمن ذا الذي يستطيع أن ينقص من كثير ما قسم الله أو يزيد في قليل ما قسم الله قال فبكى سليمان بكاء شديدا فقال رجل من جلسائه اسأت الى أمير المؤمنين قال أبو حازم اسكت فان الله تعالى أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ثم خرج من عنده فلما وصل الى منزله بعث اليه بمال فرده وقال للرسول قل له يا أمير المؤمنين والله ما ارضاك لك فكيف أرضاه لنفسي (وقال) الفضل بن الربيع حج هرون الرشيد فبينا انا نائم ليلة اذ سمعت قرع الباب فقلت من هذا فقال أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعا فاذا أنا بأمير المؤمنين فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت الي أتيتك فقال ويحك قد حالت في نفسي شئ لا يخرجه الا عالم انظر لي رجلا أسأله قلت له ههنا سفيان بن عيينة قال امض بنا اليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك قال جئتك لما جئتك فحادثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم قال يا عباسي اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عني صاحبك شيأ فانظر لي رجلا أسأله فقلت ههنا عبد الرزاق ابن همام قال امض بنا اليه نسأله فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت الي أتيتك فقال جئتك لما جئتك فحادثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم فقال يا عباسي اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عني صاحبك شيأ فانظر لي رجلا أسأله فقلت ههنا الفضيل بن عياض قال امض بنا اليه فأتيناه واذا هو قائم يصلي في غرفة يتلو آية من كتاب الله ويرددها فقرعت الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال مالي ولامير المؤمنين فقلت سبحان الله أما عليك طاعة فقال أو ليس قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس للمؤمن ان يذل نفسه فنزل ففتح الباب ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ الى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بايدينا فسبقت كف الرشيد كفي اليه فقال أوه من كف ما ألينها ان نجت غدا من عذاب الله تعالى قال فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب نقي فقال جئتك لما جئتك له يرحمك

الله قال وفيم جئت حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو ألقيتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك شقصا من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حبا لك أشدهم هربا منك ثم قال ان عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم اني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال له سالم بن عبد الله ان أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن افطارك فيها الموت وقال له محمد بن كعب ان أردت النجاة من عذاب الله غدا فليكن كبير المسلمين لك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم ولدا فأبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك وقال له رجاء بن حيوة ان أردت النجاة من عذاب الله غدا فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم متى شئت مت واني لاقول لك هذا واني لاخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الاقدام فهمل معك رجلك الله مثل هذا القوم من يأمرك بمثل هذا فبكى هرون بكاء شديدا حتى غشي عليه فقلت ارفق بأمير المؤمنين فقال يا ابن ام الربيع قتلته انت واصحابك وأرفق به انا ثم افاق فقال زدني فقال يا امير المؤمنين بلغني ان عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا اليه سهرا فكتب اليه عمر بن عبد العزيز يا اخي اذكر سهر اهل النار في النار وخلود الابد فان ذلك يطرد يك الى ربك نائما ويقظان واياك ان تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر ما اقدمك قال له خلعت قلبي بكتابك لا ولیت لك ولاية أبدا حتى ألقى الله تعالى فبكا هرون بكاء شديدا ثم قال زدني فقال يا أمير المؤمنين ان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم جاءه فقال يا رسول الله أمرني على امارة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا عباس يا عم النبي نفس تحييها خير من أمارة لا تحصيها ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال زدني يرحمك الله قال يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة فان استطعت ان تقي هذا الوجه من النار فافعل واياك ان تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك فان النبي صلى الله عليه وسلم قال من اصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة فبكى هرون بكاء شديدا ثم قال عليك دين قال نعم دين لربي لم يحاسبني عليه فالويل لي ان سألني والويل لي ان ناقشني والويل لي ان لم يلهمني حجتي قال انما أعني دين العباد قال ان ربي لم يأمرني بهذا أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره فقال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فقال له هذه ألف دينار خذها فانفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك فقال سبحان الله انا أدلك على النجاة وتكافئني بمثل هذا سلك الله ورفيقك ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فقال لي هرون اذا دلتني على رجل فدلني على مثل هذا سيد المسلمين اليوم (وروي) ان امرأة من نسائه دخلت عليه فقالت له يا هذا قد تري ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال ففرجنا به فقال انما مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه موتوا يا أهلي جوعا ولا تذبحوا فصيلا فلما سمع الرشيد ذلك قال ادخل فعسى أن يقبل المال قال فدخلنا

فلما علم الفضيل خرج وجلس على التراب على السطح فجاء هرون الرشيد فجلس الى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينا كذلك اذ خرجت جارية سوداء فقالت ياهذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف يرحمك الله فانصرفنا (ووعظ) شبيب بن شبة المنصور فقال يا أمير المؤمنين ان الله لم يجعل فوقك أحدا فلا تجعل فوق شكر الله شكرا (ودخل) عمر بن عبيد على المنصور فقرأ والفجر وليال عشر حتى بلغ ان ربك لبالمرصاد فلما فعل مثل فعالهم فاتق الله يا أمير المؤمنين فان بيابك نيرانا تأجج لا يعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسول الله وأنت مسؤل عما اجترحوا وليسوا مسؤلين عما اجترحت فلا تصلح دنياهم الا بفساد آخرتك أما والله لو علم عمالك أنه لا يرضيك منهم الا العدل لتقرب به اليك من لا يريده فقال له سلمان بن مجالد اسكت فقد غممت أمير المؤمنين حتى أردت أن تحول بينه وبين من ينصحه اتق الله يا أمير المؤمنين فان هؤلاء قد اتخذوك سلما الى شهواتهم فانت كالماسك بالقرون وغيرك يحلب وان هؤلاء لن يغنوا عنك من الله شيأ (وقال) الاوزاعي المنصور في بعض كلامه يا أمير المؤمنين أما علمت انه كان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لانملا قلوبهم رعبا فكيف من سفك دماء المسلمين وشق أستارهم وانتهب أموالهم ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا الى القصاص من نفسه بخدشة خدشها اعرابيا من غير تعمد فقال له جبريل عليه السلام ان الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون رعيتك يا أمير المؤمنين لو أن ثوبا من النار نشر على ما في الارض لاحتنثه فكيف بمن يتقمصه ولو أن ذنوبا من النار صب على ما في الارض لاحتنثه فكيف بمن يتجرعه ولو ان حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن يسلسل فيها ويرد فضلها على عنقه (ودخل) بعض العقلاء على سلطان فقال له ان أحق الناس بالاحسان من أحسن الله اليه وأولاهم بالانصاف من بسط يديه بالقدرة فاستدم ما أوتيت من النعم بتاديه ما عليك من الحق (وروى) ان اعرابيا قام بين يدي هشام بن عبد الملك فقال أيها الامير أتت على الناس سنون ثلث أما الاولى فاكلت اللحم وأما الثانية فاذابت الشحم وأما الثالثة فهاضت العظم وعندك فضول أموال فان كانت لله فاقسمها بين عباده وان كانت لهم فلم تحصرها عليهم وان كانت لكم فتصدقوا فان الله يجزي المتصدقين فامر هشام بمال فقسم بين الناس وأمر للاعرابي بمال فقال ألكل المسلمين منك مثل هذا قال لا يقوم بذلك بيت المال قال لا حاجة لي فيما يبعث لائمة الناس على أمير المؤمنين (وقال) رجل لعمر بن عبد العزيز يا أمير المؤمنين اذكر لنا شيأ من هذا لا يشغل الله عنك كثرة من يخاصم من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنب فبكا عمر بكاء شديدا ثم استرده الكلام فجعل يردده وعمر يبكي ويتحب ثم قال ما حاجتك قال عاملك باذربيجان أخذ مني اثني عشر ألف درهم قال ألا تكتب له حتى يرد عليه ماله (ولما) دخل زياد على عمر ابن عبد العزيز قال يا زياد الا ترى ما ابتليت به من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال زياد يا أمير المؤمنين والله لو ان شعرة منك قطعت ما بلغت كنه ما أنت فيه فاعمل لنفسك في الخروج

عما أنت فيه يا أمير المؤمنين كيف حال رجل له خصم الد قال سيئ الحال قال فان كان له خصمان الدان قال اسوأ حالا له قال فان كانوا ثلاثة قال لا يهنئه عيش قال فوالله ما احد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم الا وهو خصمك قال فبكى حتى تمنيت أن لا أكون قلت له ذلك (وقال) محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز يا أمير المؤمنين انما الدنيا سوق فمنها خرج الناس بما ربحوا فيها الآخرتهم وخرجوا بما يضرهم فكم من قوم غرهم مثل الذي أصبحنا فيه حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا مرهنين لم يأخذوا من الدنيا للآخرة فاقتسم مالهم من لا يحمدهم وصاروا الى من لا يعذرهم فانظر الى الذي تحب ان يكون معك فقدمه بين يديك حتى تخرج اليه وانظر الى الذي تكره ان يكون معك اذا قدمت فابتغ به البدل حيث يجوز البدل ولا تذهبن الى سلعة قد بارت على غيرك ترجو جوازها عنك يا أمير المؤمنين افتح الابواب وسهل الحجاب وانصر المظلوم (وحضر) رجل بين يدي بعض المأمون فأغلظ له السلطان فقال له الرجل انما أنت كالسماء اذا أرعدت وأبرقت فقد قرب خيرها فسكن غيظه وأحسن اليه * ولما احتاج المنصور بن أبي عامر ملك الاندلس ان يأخذ أرضا مخمسة ويعاوض عنها خيرا منها استحضر الفقهاء في قصره فأتوا بانه لا يجوز فغضب السلطان وأرسل اليهم رجلا من الوزراء مشهورا بالحدة والعجلة فقال لهم يقول لكم أمير المؤمنين يا مشيخة السوء يا مستحلي أموال الناس يا آكلي أموال اليتامى ظلما يا شهداء الزور يا آخذي الرشا ومتلقي الخصوم وملقمي الشرور وملبسي الامور وملقسي الروايات لاتباع الشهوات تبالكم ولا رائكم فهو أعزه الله واقف على فسوقكم قديما وخونكم لامانا نكم مغض عنه صابر عليه ثم احتاج الى دقة نظركم في حاجة مرة واحدة في دهره فلم تسعفوا ارادته ما كان هذا ظنه بكم والله لبعارضنكم وليكشفن ستوركم ولينا محن الاسلام فيكم والخمش عليهم بهذا ونحوه فاجابه شيخ منهم ضعيف المنسة فقال نتوب الى الله مما قاله أمير المؤمنين ونسأله الاقالة فتودد عليه زعيم القوم محمد بن ابراهيم بن حبيونه وكان جلدا صارما فقال للمتكلم مم تتوب يا شيخ السوء نحن برآء من متابك ثم أقبل على الوزير فقال يا وزير بئس المبلغ أنت وكلا نسبته الينا عن أمير المؤمنين فهو صفتكم معاشر خدمه فانتم الذين تأكلون أموال الناس بالباطل وتستحلون ظلمهم بغير حق وتتحيفون معايشهم بالرشا والصانعة وتبغون في الارض بغير الحق وأما نحن فليست هذه صفاتنا ولا كرامة لا يقولها لنا الامتهم في الديانة فنحن أعلام الهدى وسرج الظلمة يا ينحصن الاسلام ويفرق بين الحلال والحرام وتنفذ الاحكام وبنا تقام الفرائض وتثبت الحقوق وتحقن الدماء وتستحل الفروج فهلا ذعتب علينا سيدنا أمير المؤمنين بشئ لا ذنب فيه لنا وقال بالغيظ ما قاله ثابت لا بلاغنا رسالته بأهون من اخافتك وعرضت لنا بانكاره حتى فهمنا منك فأجبناك عنه بما يصلح الجواب عنه به فكنت ترين على السلطان ولا تنفسي سره وتستحيينا بما استقبلتنا به فنحن نعلم ان أمير المؤمنين لا يتمادى على هذا الرأي فينا ولا يعتقد هذا المعتقد في صفاتنا وانه سيراجع بصيرته في ايثارنا وتعزيزنا فلو كنا عنده على هذه الحال التي وصفتها عنا والعياذ بالله من ذلك لبطل عليه كل ما صنعه وعقده من أول خلافته الى هذا الوقت فما يثبت له كتاب من حرب ولا سلم ولا شراء ولا بيع ولا صدقة ولا حبس

ولاهبة لا عتق ولا غير ذلك الا بشهادتنا هذا ما عندنا والسلام ثم قاموا منصرفين فلم يكادوا يبلغوا باب القصر الا وارسل تناديهم فادخلوا القصر فتلقاهم الوزراء الاعظام ورفعوا منازلهم واعتذروا اليهم مما كان من صاحبهم وقالوا لهم أمير المؤمنين يعتذر اليكم من فرط موجدته ويستجير بالله من الشيطان الرجيم ونزغته التي حملته على الجفاء عليكم ويعلمكم انه نادم على ما كان منه اليكم وهو مستبصر في تعظيمكم ورقضاء حقوقكم وقد أمر لكل واحد منكم ما ترون من صلة وكسوة عامة لرضاه عنكم فدعوا له وقبضوا ما أمر لهم وانصرفوا غالبين لم يمسسهم سوء (ولما) نظر مالك بن دينار الى المهلب بن أبي صفرة يجر اذياله وينتحر في أثواب خيلائه ناداه ان ارفع من ثيابك فقال له المهلب أوما تعرفني قال له مالك بلى اني أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة ويروى ان رجلا قال لعبيد الله العمري هذا هرون الرشيد في الطواف قد دخلي له المسعى فقال له لا جزاك الله عني خيرا كلفتني أمرا كنت عنه غنيا ثم جاء اليه فقال له يا هرون فلما نظر اليه قال لبيك يا عم قال كم ترى ههنا من خلق الله فقال لا يحصيهم الا الله عز وجل فقال اعلم أيها الرجل ان كل واحد منهم يسئل عن خاصة نفسه وأنت واحد تسئل عنهم كلهم فانظر كيف تكون قال فبكى هرون وجلس وجعل يعطونه منديلا منديلا للدموع ثم قال له فيما قال ان الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه فكيف فيمن أسرع في مال المسلمين فيقال ان هرون كان يقول بعد ذلك اني أحب ان أج في كل عام وما يمنعني من ذلك الا عبيد الله العمري ويروى ان الحسن ابن محمد بن الحسين رضي الله عنهم دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له يا عمر ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان فقال له عمر يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة وجنا على ركبتيه فقال الحسن من اذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ومن اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ومن اذا قدر لم يتناول ما ليس له (ولما) ولي عمر بن عبد العزيز وفدت الوفود من كل بلد فوفد عليه الجاثيون فقدم غلام منهم للكلام وكان حديث السن فقال له عمر لينطق من هو أسن منك فقال الغلام اصلح الله أمير المؤمنين انما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فاذا منح الله عبدا لسانا لافظا وقلبا حافظا فقد استحق الكلام وعرف فضله من سمع خطابه ولو أن الامر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الامة من هو أحق بمجلسك هذا منك فقال صدقت قل ما بدا لك فقال الغلام اصلح الله أمير المؤمنين نحن وفدنا ثلثة لا وفد مرزئة وقد أتيناك لثلث الله الذي من علينا بك ولم يقدمنا اليك رغبة ولا رهبة أما الرغبة فقد أتينا الثمن بلادنا وأما الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك فقال له عمر عظني يا غلام فقال الغلام اصلح الله أمير المؤمنين ان ناسا من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت بهم الاقدام فهووا في النار فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك فتزل بك قدمك فتلحق بالقوم فلا جعلك الله منهم وألحقك بصالحي هذه الامة ثم سكت فسأل عمر الغلام عن سنه فاذا هو ابن احدى عشرة سنة ثم سأل عنه فاذا هو من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فقتل عمر عند ذلك فقال

تعلم فليس المرء يولد عالما * وليس أخو علم كمن هو جاهل
وان كبير القوم لا علم عنده * صغير اذا التفت عليه المحافل

وفى مثل هذا قيل للعتابى وكان لا يبالى ما لبس مالك لا تجيد الملبوس فقال انما يرفع الرجل ادبه وعقله لا حليته وحلته لحى الله أمرا أرضى ان ترفعه هيئته وجماله لا والله حتى يشرفه أصغراه لسانه وقلبه ويعلوبه أكباراه همته ولبسه ولما دخل ضمره بن ضمرة على المنذر بن المنذر وهو ملك وكان ضمرة ذا رأى وعقل احتقرته عيناه لدمامته فقال لان تسمع بالمعيدى خير من أن تراه فقال ضمرة أبيت اللعن ان القوم ليسوا بعجزور تجزر انما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فاذا نطق نطق ببيان واذا قاتل قاتل بجنان والرجال لا تكال بالقفزان ولا توزن بالقبان فأعجب المنذر بكلامه وروى ان روح بن زنباع وكان فى طريق مكة فى يوم شديد الحر مع أصحابه فنزلوا فضربت لهم الخيام والظلال وقدم اليهم الطعام والشراب المبرد فبينما هم كذلك اذ اهم براع فدعاه للطعام فأبى وقال انى صائم فقال له روح فى مثل هذا اليوم الحار قال أفادع أيامى تذهب باطلا قال روح لقد ضننت بأيامك يا راعى اذ جاد بها روح بن زنباع وروى ان اعرابيا قام بين يدى سليمان بن عبد الملك وقال يا أمير المؤمنين انى مكلمك بكلام فاحتمله ان كرهته فان وراءه ما تحب ان قبلته قال هات يا اعرابى قال ساطلق لسانى بما خرست به الالسن اداطلق الله ولحق امانتك انك قد اكتنفتك رجال اساؤا الاختيار لانفسهم واشاعوا دنياك لدينهم ورضوا بسخط ربهم خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك فلا تصلح دنياك بفساد آخرتك فاعظم الناس غبنا يوم القيامة من باع آخرته بدنيا غيره فقال له سليمان اما أنت فقد نصحت وارجو ان الله سيعيننا على ما قلدنا وقد جردت لسانك فهو سيفك فقال أجل يا أمير المؤمنين وهو لك لا عليك وقال ابن أبى عروبة حج الحجاج فنزل ببعض المياه بين مكة والمدينة ودعا بالغداء وقال لحاجبه انظر من يتغدى معى واسأله عن بعض الامر فنظر فنحو الجبل واذا هو براع بين سخلتين نائم فضربه برجله وقال له ائت الامير فأتاه فقال له الحجاج اغسل يدك وتغد معى فقال دعانى من هو خير منك فأجبته قال ومن هو قال الله تعالى دعانى الى الصيام فصمت قال فى هذا الحر الشديد قال نعم صمت ليوم هو أشد منه حرا قال فافطر وصم غدا قال ان ضمنت لى البقاء الى غد قال ليس ذلك الى قال فكيف تسألنى عاجلا بآجل لا تقدر عليه قال لانه طيب قال لم تطيبه أنت ولا الطباخ ولكن طيبه العافية ولما حج هرون الرشيد بعث الى مالك ابن أنس يكيس فيه خمسمائة دينار فلما قضى نسكه وانصرف ودخل المدينة بعث الى مالك بن أنس ان أمير المؤمنين يحب ان تنتقل معه الى مدينة السلام فقال للرسول قل له ان الكيس بخاتمه وقال الرسول عليه السلام والمدينة خيرا لهم لو كانوا يعلمون وقال وهب بن منبه ان ملكا كان يفتن الناس ويحملهم على أكل لحم الخنزير فأتى برجل أفضل أهل زمانه فاعظم الناس مكانه وهالهم أمره فراوده على أكل لحم الخنزير فلم يفعل فرق له صاحب شرطة الملك فقال له أنا آتيك بيدى تذبحه بما يحل لك أكله فاذا دعا الملك بلحم خنزير أتيتك به ففعل ثم أتى به الملك فدعا بلحم الخنزير فأتى صاحب الشرطة بذلك الجندى فأمر به الملك ان يأكله فأبى ان يأكله فجعل صاحب الشرطة يغمزه ان يأكله فأبى ان يأكله فأمر الملك صاحب الشرطة ان يقتله فلما ذهب به قال ما منعك ان تأكل وهو لحم الذى ذبحته أنت أظننت انى جئت بغيره قال لا قد علمت انه هو ولكنى خفت أن يفتن الناس بى فان أكرهوا على أكل الخنزير فالوا قد أكله فلان فيستن

فى فأكون فتنة لهم فقتل رحمه الله وروى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب الاحبار يا كعب خوفنا قال أوليس فيكم كتاب الله وسنة رسوله قال بلى يا كعب ولكن خوفنا قال يا أمير المؤمنين اعمل عمل رجل لو اقيمت يوم القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملهم مما ترى فنكس عمر رأسه طويلا ثم أفاق ثم قال يا كعب خوفنا فقال يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق وجعل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها فنكس عمر ثم أفاق فقال يا كعب زدنا فقال يا أمير المؤمنين ان جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل الا خر على ركبتيه حتى يضر ابراهيم خليل الرحمن على ركبتيه يقول يا رب لا أسألك اليوم الا نفسى واستأذن أبو دهمان على بعض الامراء فحجبه ثم أذن له فلما دخل قال ان هذا الامر الذى صار اليك قد كان فى يد غيرك فامسوا والله حدينا فان خيرا فخير وان شرا فشر فتعجب الى عباد الله بحسن البشر ولين الجانب وتسهيل الحجاب فان حب عباد الله موصول بحب الله وبغضهم موصول ببغضه لانهم شهداء الله على خلقه (ولما) دخل محمد بن واسع سيد العباد فى زمانه على بلال بن أبى بردة أمير البصرة وكان نوبه الى نصف ساقه فقال له بلال ما هذه الشهرة يا ابن واسع فقال له ابن واسع أنتم شهرتمونا هكذا كان لباس من مضى وانما أنتم طولتم ذيولكم فصارت السنة بينكم بدعا وشهرة واما انا فما دخلت على ملك مصر وهو الافضل بن أمير الجيوش فقلت سلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد السلام على نحو ما سلمت رد اجميلا وأكرم اكراما جزيلا وأمرنى بدخول مجلسه وأمر فى بالجلوس فيه فقلت ما يها الملك ان الله سبحانه وتعالى قد احلك محلا عاليا شامخا وأنزلك منزلا شريفا باذخا وملكك طائفة من ملكه وأشركك فى حكمه ولم يرض ان يكون أمر احد فوق امرك فلا ترض ان يكون احد اولى بالشكر منك وان الله تعالى قد ألزم الورى طاعتك فلا يكونن أحد اطوع لله منك وان الله تعالى أمر عباده بالشكر وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعال والاحسان قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا واعلم ان هذا الملك الذى أصبحت فيه انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يدك مثل ما صار اليك فاتق الله فيما خولك من هذه الامة فان الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل قال الله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقال تعالى وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين واعلم أيها الملك ان الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام مسخرله الانس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم ومسخرله الريح تجرى بامره رخاء حيث أصاب ثم رفع عنه حساب ذلك اجمع فقال له هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب فوالله ما عدد هانعمة كما عددتموها ولا حصرها كما حسبتموها بل خاف ان تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به فقال هذا من فضل ربى ليبلونى ءاشكر ام اكفر فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم اعانك الله على ما قلدك وجعلك كهفا للملهوف واما نا للخائف ثم اتممت المجالس بان قلت قد دخت البلاد شرقا وغربا فما اخترت مملكة تزوجت فيها وولدت فى غير هذه المملكة ثم انشدت شعرا

والناس اكيس من ان يحمدوا رجلا * حتى يروا عنده آثار احسان

وكتب حكيم الى حكيم انى سائلك عن ثلاثة اشياء ان اجبت عنها صرت لك تلميذا اى الناس

أولى بالرحمة ومتى تضيع أمور الناس وبم تتلقى النعمة من الله تعالى فكتب اليه ان أولى الناس بالرحمة ثلاثة البر يكون فى سلطان فاجر فهو الدهر حزين لمايرى ويسمع والعاقل يكون فى تدبير الجاهل فهو الدهر مغموم والكريم يحتاج الى اللئيم فهو الدهر خاضع له ذليل وتضيع أمور الناس اذا كان الرأى عند من لايقبل منه والسلاح عند من لايستعمله والمال عند من لاينفقه وتتلقى النعمة من الله تعالى بكثرة شكره ولزوم طاعته واجتناب معصيته فصار تلميذا له الى ان مات (وقال يحيى بن سعيد) جلس سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز فلما أشرفا على عقبة عسفان نظر سليمان الى السراد فقال قد ضربت له فقال له ياعمر كيف ترى قال أرى دنيا عريضة يأكل بعضها بعضا وأنت المسؤل عنها المأخوذ بها فبينما هما كذلك اذ طار غراب من سراد فقال سليمان فى منقاره كسرة فصاح فقال سليمان مايقول هذا الغراب قال عمر ما أدرى مايقول ولكن ان شئت أخبرتك بعلم قال أخبرنى قال هذا غراب طار من سراد فانك فى منقاره كسرة أتت بها مأخوذ وعنها مسؤل من أين دخلت ومن أين خرجت قال انك لتخبرنا بالعجائب قال أفلا أخبرك بأعجب من هذا قال بلى قال من عرف الله كيف عصاه ومن عرف الشيطان كيف أطاعه ومن ايقن بالموت كيف يهنيه العيش قال لقد غنمت علينا مانحن فيه ثم ضرب فرسه وسار (ويروى) ان بلال بن ابى بردة خرج فى جنازة وهو أمير على البصرة فنظر الى جماعة وقوفا فقال ماهذا فقالوا مالك بن دينار يذكر الناس فقال لوصيف معه اذهب الى مالك بن دينار فقل له يرتفع الينا الى القبر فجاء الوصيف فاذى الرسالة الى مالك فصاح به مالك مالى اليه حاجة فأجبته فيها فان تكن له حاجة فليجئ الى حاجة نفسه فلما دفنوا ميتهم قام بلال بمن معه الى حلقة مالك فلما دانا منه نزل ونزل من معه ثم جاء يمشى الى الحلقة حتى جلس فلما رآه مالك بن دينار سكت فاطال السكوت فقال له بلال يا أبا يحيى ذكرنا فقال مانسيت شيأ فاذكر لنا به قال فحدثنا قال اما هذا فنعم قدم علينا أمير من قبلك على البصرة فمات فدفناه فى هذه الجبانة ثم انتبنا بن نجبى فدفناه الى جنبه فوالله ما أدرى أيهما كان أكرم على الله سبحانه فقال بلال يا أبا يحيى أتدرى ما الذى جرأك علينا وما الذى اسكتنا عنك لانك لم تأكل من دراهمنا شيأ اما والله لو أخذت من دراهمنا شيأ ما اجترأت علينا هذه الجرأة فافادنا هذا الحديث علما ألا فاتقوا دراهمهم (ودخل) ابن شهاب على الوليد بن عبد الملك فقال يا ابن شهاب ما حديث يحدث به أهل الشام قال وما هو يا أمير المؤمنين قال حدثونا ان الله تبارك وتعالى اذا استرعى عبدا رعية كتب له الحسنات ولم يكتب عليه السيآت قال كذبوا يا أمير المؤمنين أبى خليفة أقرب الى الله أم خليفة ليس بنبى قال بل نبى خليفة قال فانا أحدثك يا أمير المؤمنين بما لاتشك فيه قال الله تعالى لنبيه داود يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب يا أمير المؤمنين فهذا وعيد الله لنبى خليفة فما ظنك بخليفة غير نبى فقال الوليد ان الناس ليغرونا عن ديننا (وروى) زياد عن مالك بن أنس قال بعث الىّ أبو جعفر والى ابن طاوس فدخلنا عليه فاذا هو جالس على فرش قد نضدت وبين يديه انطاع قد بسطت وبين يديه جلاوزة بأيديهم السيوف يضربون الاعناق وأوما الينا ان اجلسا فجلسنا فاطرق عنا طويلا ثم رفع رأسه والتفت الى ابن طاوس

وقال حدثنا عن أبيك قال نعم انى سمعت أبي يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى ملكه فادخل عليه الجور فى حكمه فامسك أبو جعفر ساعة قال مالك فضممت ثيابي مخافة ان ينخنى بدمه فامسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه ثم قال يا ابن طاوس ناولنى هذه الدواة فامسك عنه ثم قال ناولنى هذه الدواة فامسك عنه ثم قال ما يمنعك ان تناولنيها قال اخشى ان تكتب بها معصية فاكون شريكك فيها فلما سمع ذلك قال قوما عنى قال ابن طاوس ذلك ما كانبئى منذ اليوم قال مالك فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم (وقال أحمد بن أبى الحوارى) سمعت رجلا يحدث عن ابن السماك قال بعث الى هرون فلما انتهيت الى باب القصر أخذ حرسيان بضبعى فاعجلانى فى دهليز القصر فلما انتهيت الى باب القاعة لقينى خصيان فاخذانى من الحرسيين فاعجلانى فى قاعة القصر فانتهيت الى البهو الذى هو فيه فتلقانى خصيان دونهما فاخذانى فاعجلانى فى البهو فقال لهما هرون ارفقوا بالشيخ فلما وقفت بين يديه قلت له يا أمير المؤمنين ما هربى يوم منذ ولدتنى أمى أتعب فيه من يومى هذا فاتق الله فى خلقه واحفظ محمدا فى أمته وانصح لنفسك فى رعيتك فان لك مقاما بين يدى الله تعالى انت فيه اذل من مقامى هذا بين يديك فاتق الله واعلم ان من اخذ الله وسطوته على اهل المعصية كيت وكيت قال فاضطرب على فراشه حتى نزل الى مصلى بين يدى فراشه فقلت يا امير المؤمنين هذا ذل الصفة فكيف ولو رأيت ذل المعاينة قال فكادت نفسه تخرج فقال يحيى للخصيين أخرجوه فقد أبكى امير المؤمنين ثم دخل مرة اخرى فقال عظنى واوجز قال يا امير المؤمنين ان الذى اكرمك بما اكرمك به لحقيق ان تحب ما يحب وتبغض ما يبغض فوالله لقد احب الله دارا وابغضها وابغض دارا واحبها كأنما اردت خلاف ربك اواردت سواه واعلم يا أمير المؤمنين ان الذى فى يدك لو بقى على من كان قبلك لم يصل اليك فكذلك لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك فاتق الله فى خلقه واحفظ وصية محمد صلى الله عليه وسلم فى امته * ودخل هرون على بعض النساك فسلم عليه فقال وعليك السلام ثم قال أيها الملك تحب الله قال نعم قال فتعصيه قال نعم قال كذبت والله فى حبك اياه انك لو احببته اذا ما عصيته ثم انشأ يقول

تعصى الاله واانت تظهر حبه * هذا العمرى فى المقال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته * ان المحب لمن يحب مطيع
فى كل يوم يبتديك بنعمة * منه وأنت لشكره مضيع

(وروى زيد بن أسلم عن أبيه) قال قلت لجعفر بن سليمان بن عبد الله بن أبى طالب الهاشمى والى المدينة احذر ان يأتى رجل غدا ليس له فى الاسلام نسبة ولا أب ولا جد فيكون أولى برسول الله صلى الله عليه وسلم منك كما كانت امرأة فرعون أولى بنوح ولوط عليهما السلام من زوجيهما وكما كانت زوجة نوح ولوط أولى بفرعون من زوجته من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه * وقال بشر بن السرى بينا الحجاج جالس فى الحجر اذ دخل رجل من أهل اليمن فجعل يطوف فوكل به بعض من معه فقال اذا خرج من طوافه فاتنى به فلما فرغ من طوافه اتاه به فقال له ممن أنت قال من أهل اليمن قال أفلك علم بمحمد بن يوسف قال نعم قال فاخبرنى عنه قال لقد تركته أبيض بياضا حسنا طويلا عريضا قال ويلك ليس عن هذا أسألك قال

فعمه قال عن سيرته وطعمته قال فأجروا السر وأخبث الطعم واعدى العداة على الله وأحكامه قال فغضب الحجاج وقال ويلك أما علمت أنه أخي قال بلى قال أفاتت ماعلمت ان الله ربي والله لهو امنع بي منك أكثر منك لاخيك قال أجل أرسله يا غلام (وقال الاصمعي) حدثني رجل من أهل المدينة قال سمعت محمد بن ابراهيم يحدث قال شهدت أبا جعفر بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين ليسوا القريش فقالوا لابي جعفر اجعل بيننا وبينهم ابن أبي ذئب قال أبو جعفر لابن أبي ذئب ماتقول في بني فلان قال أشرار من أهل بيت أشرار قالوا سله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد وكان عامله على المدينة قال ماتقول في الحسن قال يأخذ بالاحنة ويقضي بالهوى فقال الحسن والله يا أمير المؤمنين لوسألته عن نفسك لرماك بالداهية ونعتك بشر قال ماتقول في قال اعفني يا أمير المؤمنين قال لابد ان تقول قال انك لا تعدل في الرعية ولا تقسم بالسوية فتغير وجه أبي جعفر وقام ابراهيم بن محمد بن علي صاحب الموصل وقال طهرني بدمه يا امير المؤمنين قال له ابن أبي ذئب اقعد يا بني فليس في دم رجل بشهادتك لا اله الا الله طهور ثم تدارك ابن ابي ذئب الكلام فقال دعنا يا أمير المؤمنين مما نحن فيه بلغني انك رزقت ابنا سماه الحبا بالعراق يعني المهدي قال أما ان قلت ذلك انه ليصوم اليوم البعيد ما بين الطرفين قال ثم قام ابن أبي ذئب فخرج فقال ابو جعفر اما والله ماهو بمستوثق العقل ولقد قال بذات نفسه (ودخل ابو النصر) سالم مولى عمر بن عبيد الله على عامل الخليفة فقال له يا ابا النصر انه تأتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها ولا نجد بدا من انفاذها فما ذا ترى قال ابو النصر قد اتاك كتاب الله قبل كتاب الخليفة فايهما اتبعت كنت من اهله

(الباب الثالث فيما جاء في الولاة والقضاة وما في ذلك من الغرر والخطر)

قال الله تعالى يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله جاء في التفسير من اتباع الهوى ان يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذي لك منه خاصة وبهذه الخصلة سلب سليمان بن داود عليهما السلام ملكه قال ابن عباس رضي الله عنهما كان الذي أصاب سليمان بن داود عليهما السلام ان ناسا من أهل جرادة امرأته وكانت من أكرم نسائه عليه تحاكموا اليه مع غيرهم فاحب أن يكون الحق لاهل جرادة فيقضي لهم فعوتب حين لم يكن هواه فيهم واحدا ومن ذلك آية الملوك التي أنزلها الله تعالى في السلاطين لما اقتضته من السياسة العامة التي فيها بقاء الممالك وثبوت الدول قال الله تعالى ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ثم سمى المنصورين وأوضح شرائط النصر فقال تعالى الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ففي هذه الآية تعالى النصر للملوك وشرط عليهم شرائط كما ترى فتى تضعضعت قواعدهم وانتقص عليهم من اطراف مما لكهم او ظهر عليهم عدو أو باغ فتنة أو حاسد نعمة أو اضطربت عليهم الامور أو رأوا أسباب الغير فليلجؤا الى الله تعالى ويستجنوا من سوء أقداره باصلاح ما بينهم وبينه باقامة الميزان القسط الذي شرعه الله تعالى لعباده وركوب سبيل العدل والحق الذي قامت به السموات والارض واظهار شرائع الدين ونصر المظلوم والاخذ على يد الظالم وكف يد القوي عن الضعيف ومراعاة الفقراء والمساكين وملاحظة ذوي الخصاصة

والمستضعفين وليعلموا انهم قد أخلوا بشئ من الشرائط الاربع التى شرطت فى النصر (وروى) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ألا كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فالامام الذى على الناس راع وهو مسؤل عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤل عن رعيته والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها وهى مسؤلة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤل عنه ألا كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فجعل النبى صلى الله عليه وسلم كل ناظر فى حق غيره راعيا له واللفظ مأخوذ من الرعاية والمراعاة فاذا تقدم لرعاية غيره من يأكله فهو الهلاك كما قال الشاعر

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها * فكيف اذا الذئاب لها رعاء

(وروى مسلم) فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مامن امرئ يلى أمر المسلمين ثم لم يجتهد لهم وينصح الا لم يدخل الجنة معهم وقال معقل بن يسار سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول مامن عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه الا لم يجد رائحة الجنة (وروى) عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أعطيتها عن مسئلة وكلت اليها وان اعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها (وروى) أبو هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال انكم ستحرصون على الامارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة وقال أبو ذر رضى الله عنه قلت أمرنى يا رسول الله قال انها أمانة وانها حسرة وندامة يوم القيامة الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها (وروى البخارى) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال تجدون من خير الناس أشد الناس كراهية لهذا الامر حتى يقع فيه (وفى الحديث) من ولى من أمر المسلمين شيأ ثم لم يحطهم بنصحه كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار * وروى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث الى عاصم يستعمله على الصدقة فابى وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالى فيوقف على جسر جهنم فيامر الله سبحانه الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عظم منه عن مكانه ثم يامر الله العظام فترجع الى مكانها ثم يسائله فان كان لله تعالى طائعا اخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته وان كان لله عاصيا خرق به الجسر فيهوى به فى جهنم مقدار سبعين خريفا فقال عمر سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم مالم أسمع قال نعم وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان اى والله يا عمر ومع السبعين سبعين خريفا فى واد يلتهب التهابا فقال عمر بيده على جبهته انا لله وانا اليه راجعون من يأخذها بما فيها قال سلمان من سلب الله أنفه والصق خده بالارض (وروى) ان العباس رضى الله عنه قال أمرنى يا رسول الله فاصيب واستريش فقال له يا عباس يا عم النبى صلى الله عليه وسلم نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها الا احد ثكم عن الامارة اولها ملامة واوسطها ندامة وآخرها حسرة يوم القيامة (وروى) أبو داود فى السنن جاء رجل فقال يا رسول الله ان أبى عريف على الماء وانى أسالك ان تجعل لى العرافة من بعده فقال النبى صلى الله عليه وسلم العرافة فى النار (وروى) الساجى عن أبى سعد الخدرى قال قال النبى صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذابا يوم القيامة الامام الجائر * وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ليس من وال ولا قاض الا يؤتى به يوم القيامة حتى يقف بين يدى الله سبحانه على الصراط ثم تنشر الملائكة سيرته فيقرؤنها على رؤس الخلائق فان كان عادلا نجاه الله

بعدله وان كان غير ذلك انتفض به الصراط انتفاضة صار بين كل عضو من أعضائه مسيرة سنة ثم يخرق به الصراط فما يلقى قعر جهنم الا بحر وجهه (وروى) معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان القاضي ينزل في مزلقة أبعد من عدن في جهنم (وقالت) عائشة رضي الله عنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى في شدة الحساب على ما قاضى حتى يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة (وروى) الحسن البصري ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله فقال يا رسول الله خلني فقال اقعد في بيتك (وروى) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ليودن اقوام يوم القيامة لو وقعوا من الثريا ولم يكونوا امراء على شيء وكم من متخول في مال الله ومال رسوله له النار غدا (وفي) الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال صنفان من امتي لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة امام ظالم غشوم وغال في الدين مارق منه (وقال) أبو هريرة رضي الله عنه ما من امير يؤمر على عشرة الا جيء به يوم القيامة مغلولا تنجيه عمله أو أهلكه (وقال) طاوس لسليمان بن عبد الملك هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله في ملكه فجار في حكمه فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي وما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه (وقال) حذيفة بن اليمان من اقتراب الساعة ان يكون امراء فجرة وقراؤه كذبة وامناؤه خونة وعلماؤه فسقة وعرفاؤه ظلمة (وقال) عبيد بن عمير ما ازداد رجل من السلطان قربا الا ازداد من الله بعدا ولا كثر أتباعه الا كثر شيطانه ولا كثر ماله الا كثر حسابه (وفي الحديث) عن النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة اثنان في النار وواحد في الجنة رجل قضى بغير علم فهو في النار ورجل قضى بعلم فجار فهو في النار ورجل قضى بالحق فهو في الجنة رواه بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم (وقال) ابن سيرين جاء صبيان الى عبيدة السلماني يتخايرون اليه في ألواحهم فلم ينظر فيها وقال هذا حكم ولا أتولى حكما أبدا (وتخاير) غلامان الى ابن عمر فجعل ينظر الى كتابتهم وقال هذا حكم ولا بد من النظر فيه * والمصنفون يرسلون في كتبهم حديثا مرفوعا رواه أبو داود في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قدم الى القضاء فقد ذبح بغير سكين (وفي أخبار) القضاة ان قاضيا قدم الى بلد فجاءه رجل له عقل ودين فقال له أيها القاضي أبلغك قول النبي صلى الله عليه وسلم من قدم للقضاء فقد ذبح بغير سكين قال نعم قال فبلغك ان أمور الناس ضائعة في بلدنا فجئت تجبرها قال لا قال أفأكرهك السلطان على ذلك قال لا قال فاشهد أني لا أطالبك مجالسا ولا أودي عندك شهادة أبدا (وروى) ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال في بعض خطبه ان الملك اذا ملك زهده الله في ماله ورغبه فيما في يد غيره واشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل ويسخط الكثير جذل الظاهر حزين الباطن فاذا وجبت نفسه ونضب عمره ومحي ظله حاسبه الله فاشد حسابه وأقل عفوه (وذكر) السلطان لاعرابي فقال والله لئن عززا في الدنيا بالجور لقد ذللوا في الآخرة بالعدل وبقليل فان رضوا عن كثير باق وانما يكون الندم حين لا ينفع الندم (وقال) أبو بكر بن أبي مريم حج قوم فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فاتاهم رجل فقالوا دلنا على الماء قال احلقوا الى ثلاثا وثلاثين يمينا انه لم يكن فيكم صرافا ولا مكاسا ولا عريفا ولا بريدا ويروى ولا عرافا فأتاد لكم على الماء فحلقوا له ثلاثا وثلاثين يمينا فدلهم على الماء ثم قالوا له عاونا على غسله فقال احلفوا لي ثلاثا وثلاثين يمينا

كما تقدم كره فخالفوا له فأعلمهم على غسله ثم قالوا تقدم وصل عليه قال لا حتى تحملوا الى أربعا وثلاثين نبيا كما تقدم فصلى عليه ثم التفتوا فلم يجدوا أحدا وكانوا يرون انه الخضر عليه السلام (وقال) ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتل نبيا أو قتله نبي وامام ضلالة وممثل من الممثلين (وقال) أبو ذر قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ست أيام عقل يا أبا ذر ما أقول لك ثم لما كان في اليوم السابع قال أوصيك بتقوى الله في أمر سرك وعلانيتك فاذا أسأت فاحسن ولا تسألن أحدا وان سقط سوطك ولا تؤمرن أمانة ولا تؤمرن يتيما ولا تقضين بين اثنين (وقال) أبو ذر أيضا قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر اني أحب لك ما أحب لنفسي واني أراك ضعيفا لا تأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم (وروى) أبو ذر أيضا قلت يا رسول الله الا تستعملني فضرب بيده على منكبي وقال لي يا أبا ذر انك ضعيف وانها أمانة وانها يوم القيامة خزي وندامة الا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها (وروى) علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن وأنا حديث السن فقلت يا رسول الله انك تبعثني الى قوم شيوخ ذوي أسنان ولا علم لي بالقضاء فقال ان الله سبحانه هاد قلبك ولسانك فاذا جلس الخصمان فلا تقض للاول حتى تسمع كلام الآخر فانك اذا سمعت ذلك عرفت كيف تقضي (فان قال قائل) كيف نهى أبا ذر عن القضاء وأمر عليا بالقضاء مع ما فيه من التغرير وما روي بان من قدم للقضاء فقد ذبح بغير سكين وفيه البعد عن حضرته والتمرن بالمشاهدة وتعلم سننه وشرائع دينه والتخلق باخلاقه وشيمه وايهما أفضل المثول بين يديه والكون بحضرته ومشاهدته والصلاة خلفه أو القضاء في غيبته مع البعد عنه (قلنا) انما نهى أبا ذر لعنى فيه يقصر به عن رتبة القضاء مما كان ضده في علي رضي الله عنه ثم قال في آخره الا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها فاستدللنا بذلك على أن من استجمعت فيه شروط القضاء وكان قويا على انفاذه ليدخل تحت النهي ومما يعد ضعفا عن القضاء طلبه اياه اذ ليدر عواقبه وقد وصف الله سبحانه المتسرع الى الامانة بالجهل فقال تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا اى ظلوما لنفسه جهولا بعاقبة امره والدليل على صحة هذا التاويل قول النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة اثنان في النار وواحد في الجنة رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس على جهل فهو في النار (قلت) فهذان الرجلان ضعيفان عن رتبة القضاء احدهما بغشه وظلمه والآخر بجهله وقد عابت جهلة بني اسرائيل طالوت فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال فعابوه بخمسة من الفقر وأنه ليس من سبط المملكة فقال لهم نبيهم ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم فبين شروط الولايات والممالك وانها تفتقر الى العلم الذي به يحكم والى القوة التي بها تنفذ الاحكام دون ما ظنه بنو اسرائيل * وأما قولك أيهما أفضل القضاء في غيبته أو الحضور بين يديه والكون في حضرته * فالجواب ان أوامره عليه السلام فرض يعصى بتركه والكون في حضرته مستحب بعد الهجرة لا يعصى بتركه فعلمنا بهذا انه انما بعث عليا رضي الله عنه للقضاء لانه

أفضل من سكاه بحضرته لانه مبلغ عنه الى الخلائق شريعته التي بعثه الله بها فهو خليفته في ذلك يدل على هذا انه اوجب الجنة لمن قضى بالحق

* (الباب الرابع في بيان معرفة ملك سليمان بن داود عليهما السلام ووجه طلبه الملك وسؤاله أن لا يؤتى لاحد من بعده) *

قال هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي فطلب الملك ثم زاد على ذلك بان لا يؤتى مثله أحد بعده وكان ظاهره يؤذن بالبخل * والكلام على هذه الآية من وجوه (أحدها) انه انما سأل هذا بعد أن سلبه الله تعالى ملكه ثم أعاده اليه فحين طلب الملك كان ملكا فكأنه قال هذا الملك الذي جدد تلي هبه لي على صفات لا أعصيك فيها فتسلبني اياه وتعاقبني يدل عليه انه بدأ بالمغفرة فقال رب اغفر لي وهب لي ملكا أي ملكا لا أعصيك فيه فتؤاخذني والدليل على صحة هذا قوله تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فكأنه أجاب دعاءه فقال تصرف كيف شئت فلا حساب عليك فيه * وقيل ان أعطيت أجرت وان أمسكت فلا تبعة عليك فيه وهذا تخصيص لسليمان ابن داود عليهما السلام ولم يخص به أحد من ولد آدم سواه لان الله تعالى قال للخلائق فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون * وأما قوله لا ينبغي لاحد من بعدي فمعناه لا أسلبه في باقي عمري فيصير لغيري كما سلبته فيما مضى من عمري وقيل لا تسلط على قتله شيطانا مثل الذي قد سلطت علي وقيل انما سأل ذلك ليكون علما على المغفرة وقبول التوبة فاجيب الى ذلك فعلم أنه قد غفر له وقيل انما سأل ذلك ليكون آية لنبوته وعلما على معجزته * وقال مقاتل كان سليمان بن داود ملكا ولكنه أراد بقوله لا ينبغي لاحد من بعدي تسخير الرياح والطير يدل عليه ما بعده وهو قوله تعالى فسخرنا له الريح الى آخر الآية وقيل ان سليمان كان ملكه في خاتمه ولهذا ذهب ملكه بذهاب خاتمه فقال لا ينبغي لاحد من بعدي يعني اجعل ملكي في نفسي لا في خاتمي حتى لا يملكه أحد غيري فان ابليس لما أخذ خاتم سليمان تحول ملك سليمان الى ابليس وتعدى كرسيه يحكم فيه حتى أنكرت بنو اسرائيل احكامه وكان قد ألقى على مشبهه (وقال) عمرو بن عثمان المكي انما أراد به ملك النفس وقهر الهوى يدل عليه ما روى سلامان الشعباني قال بلغني ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أربع سليمان وما آتاه الله من ملكه فانه لم يرفع طرفه الى السماء تخشعا لله تعالى حتى قبضه الله تعالى * وزاد غيره انما أراد ملك النفس وقهرها لئلا يفتتن بالمملكة ولهذا قدم سؤال المغفرة على طلب المملكة * وقال بعض الوعاظ انما أراد حتى أنتقم لآدم من ابليس وذريته حيث كان سببا في اخراجه وذريته من الجنة (وروى) البخاري في صحيحه ان النبي عليه السلام قال ان عفريتا من الجن جعل يتفلت علي البارحة ليقطع علي صلاتي وان الله تعالى أمكنني منه فصرعته ولقد هممت ان اربطه الى سارية من سواري المسجد حتى يصبح فتنظروا اليه كلكم فذكرت قول سليمان هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي فرده الله خاسئا (فان قيل) فما معنى قول يوسف عليه السلام اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم (قلت) يستفاد من الآية ان من حصل بين يدي ملك لا يعرف قدره او أمة لا يعرفون فضله فخاف على نفسه او اراد ابراز فضله جاز له ان ينبههم على مكانه وما يحسنه دفعا للشر عن نفسه او اظهارا للفضل فيجعل في مكانه * وفيه فائدة اخرى وهو أنه اذا رأى الامور في يد الخونة واللصوص ومن لا يؤدي

الامانة ويسلم من نفسه اداء الامانة مع الكفاية جازله ان ينبه السلطان على اهانته وكفايته ولهذا قال بعض العلماء من أصحاب الشافعي من كمل فيه الاجتهاد وشروط القضاء جازله ان ينبه السلطان على مكانه ويخطبه خطبة القضاء وقال بعضهم بل يجب ذلك عليه اذا كان الامر في يدي من لا يقوم به

(الباب الخامس في فضل الولاة والقضاة اذا عدلوا)

قال الله تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض يعني لولا أن الله تعالى اقام السلطان في الارض يدفع القوي عن الضعيف وينصف المظلوم من الظالم لاهلك القوي الضعيف ولما رتب الخلق بعضهم على بعض فلا ينتظم لهم حال ولا يستقر لهم قرار فتفسد الارض ومن عليها ثم منّ الله تعالى على الخلق باقامة السلطان فقال تعالى ولكن الله ذو فضل على العالمين يعني في اقامة السلطان فبأمن الناس به فيكون فضله على الظالم كف يده عن المظلوم وفضله على المظلوم كف يد الظالم عنه (وروى) ابو هريرة ان النبي عليه السلام قال ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم (وروى) ان النبي عليه السلام قال سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال اني اخاف الله ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه (وروى) كثير بن مرة قال قال النبي عليه السلام السلطان ظل الله في ارضه يأوي اليه كل مظلوم من عباده فاذا عدل كان له الاجر وعلى الرعية الشكر واذا جار كان عليه الاصر وعلى الرعية الصبر (وروى) أبو هريرة يرفعه قال لعمل الامام العادل في رعيته يوما أفضل من عبادة العابد في اهله مائة سنة أو خمسين سنة (وقال) قيس بن سعد ليوم من امام عادل خير من عبادة رجل في بيته ستين سنة (وروى) ان سعد بن ابراهيم وابا سلمة بن عبد الرحمن ومحمد بن مصعب بن شرحبيل ومحمد بن صفوان قالوا لسعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت للقضاء يوم بالحق أفضل عند الله من صلاتك عمرك وستتضح لك صحة هذه الاقوال اذا وقفت على ما قالته الرعية من الصلاح بصلاح السلطان (واعلم) أرشدك الله ان الانسان اعز جواهر الدنيا واغلاها قدرا واشرفها منزلة وبالسلطان صلاح الانسان اذ فهو أعز اعلاق الدنيا وانعمها بركة ولذلك خلق الله تعالى دارين دار الدنيا دار الآخرة ثم لما كان السلطان صلاح الدارين فاخلق بشخص يعم نفعه العباد والبلاد ويصلح بصلاحه الدنيا والآخرة أن يكون شرفه عند الله عظيما كما كان قدره في العقول جسيما ومقامه عند الله كريما كما كان نفعه عميما وعلى قدر عموم المنفعة يشرف الاعمال وعلى قدر النعمة تكون المنة ألا ترى ان الانبياء عليهم السلام أعم خلق الله نفعا فهم اجل خلق الله قدرا لانهم تعاطوا اصلاح الخلائق واخراجهم من الظلمات الى النور كذلك سلطان الله في الارض هو خلافة النبوة في اصلاح الخلائق ودعائهم الى فناء الرحمن واقامة دينهم وتقويم أودهم وليس فوق السلطان العادل منزلة الا نبي مرسل او ملك مقرب فانخذ عظم قدر السلطان عندك حجة لله تعالى على نفسك وناصحه على قدر ما نفعك وليس نفعه مقصورا على عمالة من حطام الدنيا يحولك بها ولكن صيانة بجمعتك

فناء بكسر الفاء

وصيانة حريمك وحراسة مالك عن البغاة أعم نفعا لمالك ان عقلت وليس لله سلطان الا وقد اخذ عليه شرائط العدل ومواثيق الانصاف وشرائع الاحسان وكما أنه ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة كذلك ليس دون رتبة السلطان الشرير الجائر رتبة لشرير لان شر وبيم كما ان خير الاول يم وكما ان بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد وتنال الرقى الى الله تعالى والفوز بجنة المأوى كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد وتقترف المعاصى والآثام وتورث دار البوار وذلك ان السلطان اذا عدل انتشر العدل فى رعيته فأقاموا الوزن بالقسط وتعاطوا الحق فيما بينهم ولزموا قوانين العدل فمحت الباطل وذهبت رسوم الجور وانتعشت قوانين الحق فارسلت السماء غيثها واخرجت الارض بركاتها ونفقت تجاراتهم وزكت زروعهم وتناسلت انعامهم وودرت ارزاقهم ورخصت اسعارهم وامتلأت اوعيتهم فواسى الجميل وأفضل الكريم وقضيت الحقوق واعيرت المواعين وتهادوا فضول الاطعمة والتحف فهان الحطام لكثرته وذل بعد عزته فتماسكت على الناس مروآتهم وانحفظت عليهم أديانهم وبهذا تبين لك ان الوالى ماجور على ما يتعاطاه من اقامة العدل وماجور على ما يتعاطاه الناس بسببه واذا جار السلطان انتشر الجور فى البلاد وعم العباد فرقت أديانهم واضمحلت مروآتهم ففشت فيهم المعاصى وذهبت أماناتهم فضعفت النفوس وقنطت القلوب فمنعوا الحقوق وتعاطوا الباطل وبخسوا المكيال والميزان وجوزوا البهرج فرفعت منهم البركة وأمسكت السماء غيثها ولم تخرج الارض ريعها ونباتها فقل فى أيديهم الحطام فتقنطوا وأمسكوا الفضل الموجود وتأخروا عن المفقود فمنعوا الزكوات المفروضة وبخلوا بالمواساة المسنونة وقبضوا أيديهم عن المكارم وتنازعوا المقدار اللطيف وتجاحدوا القدر الحسيس ففشت فيهم الايمان الكاذبة والختل فى البيع والخداع فى المعاملة والمكر والحيلة فى القضاء والاقتضاء ولا يمنعه من السرقة الا العار ومن الزنا الا الحياء فيظل أحدهم عاريا عن محاسن دينه ومتجردا عن جلباب مروآته وأكثرهم قوت دنياه وأعظم مسراته من هذا الحطام ومن عاش كذلك فبطن الارض خير له من ظاهرها (قال) وهب بن منبه اذا هم الوالى بالجور أو عمل به ادخل الله النقص فى أهل مملكته فى الاسواق والزرع والضرع وكل شئ واذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة فى أهل مملكته كذلك وقال عمر بن عبد العزيز تهلك العامة بعمل الخاصة ولا تهلك الخاصة بعمل العامة والخاصة هم الولاة وفى هذا المعنى قال الله سبحانه واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (وقال) الوليد بن هشام ان الرعية لتفسد بفساد الوالى وتصلح بصلاحه (وقال) سفيان الثورى لابى جعفر المنصور انى لاعلم رجلا ان صلح صلحت الامة قال ومن هو قال أنت (وقال) ابن عباس ان ملكا من الملوك خرج يسير فى مملكته مستخفيا فنزل على رجل له بقرة فراحت البقرة فحلبت له قدر حلاب ثلاثين بقرة فعجب الملك لذلك وحدث نفسه باخذها فلما راحت عليه من الغد حلبت على النصف مما حلبت بالامس فقال له الملك مابال حلابها نقص أرعت فى غير مرعاها بالامس قال لا ولكن أظن ملكا هم باخذها فنقص لبنها فان الملك اذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة فعاهد الملك الله سبحانه فى نفسه ان لا يأخذها فراحت من الغد فحلبت حلاب ثلاثين بقرة فتاب الملك وعاهد ربه لا عدلن

مابقيت * من المشهور في أرض المغرب ان السلطان بلغه ان امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وان عصيبة منها تعصر قدحا فعزم على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك فقالت نعم انها عصرت قصبة فلم تبلغ نصف قدح فقال لها أين الذي كان يقال فقالت هو الذي بلغك الا ان يكون السلطان قد عزم على أخذها مني فارتفعت بركتها فتاب السلطان وأخلص فيه نيته ان لا يأخذها ابدا ثم أمر بها فعصرت فجاء ملء القدح * وحدثني بعض الشيوخ ممن كان يروي الاخبار بمصر قال كان بمصر سيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب تمرا ولم يكن في الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فغصبها السلطان فلم تحمل في ذلك العام شيأ ولا تمرة واحدة (قال) شيخنا رحمه الله قال لي شيخ من أشياخ الصعيد أعرف هذه النخلة في الغربية تجني عشرة أرادب ستين ربية وكان صاحبها يبيعها في سنين الغلاء كل ربية بدينار (قال) الشيخ رضي الله عنه وشهدت انا بالاسكندرية والصعيد في الخليج مطلق للرعية والسمك فيه يغلي الماء به كثرة ويصيده الاطفال بالخرق ثم حجره الوالي ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يرى فيه الا الواحدة تأتي يوما هذا وهكذا تتعدى سرائر المولى وعزائمهم ومكنون ضمائرهم الى الرعية ان خيرا فخير وان شرا فشر (وروى) أصحاب التواريخ في كتبهم قالوا كان الناس اذا أصبحوا في زمان الحجاج يتلاقون يتساءلون من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وامثال ذلك وكان الوليد صاحب ضياع واقطاعات مصانع فكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الانهار وغرس الاشجار ولما ولي سليمان بن عبد الملك وكان صاحب نكاح وطعام فكان الناس يتحدثون في الاطعمة الدقيقة ويتوسعون في الانكحة والسراري ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك ولما ولي عمر بن عبد العزيز كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم ورد لك في كل ليلة وكم يحفظ فلان وفي يختم وكم تصوم من الشهر وامثال ذلك

(الباب السادس في ان السلطان مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح)

اعلموا أرشدكم الله ان السلطان خطره عظيم وبليته عامة وقد يطرقه من الآفات ويحوشه من الامور المهلكة ما يجب على كل ذي لب ان يستعيذ بالله مما حمله ويشكره على ما عصمه لا تهدأ فكره ولا تسكن خواطره ولا يصفو قلبه ولا يستقر له الخلق في شغل عنه وهو مشغول بهم والرجل يخاف عدوا واحدا وهو يخاف ألف عدو والرجل يضيق بتدبير أهل بيته وانابة ضيعته وتقدير معيشته وهو مدفوع لسياسة جميع اهل مملكته وكلما رتق فتقا من حوائج مملكته انفتق آخر وكلما رم منها شعثا رث آخر وكلما قمع عدوا أرصد له أعداء الى سائر ما يعانيه من اخلاق الناس وبقاسيه من خصومائه ونصب الولاة والقضاة وبعث الجيوش وسد الثغور واستجباء الاموال ودفع المظالم ثم من العجب العجاب ان له نفسا واحدة وانه برز أمن الدنيا قوتها كما يرزأ آحاد الرعايا ثم يسأل غدا عن جميعهم ولا يسألون عنه فيا لله ويا للعجب من رجل رضي ان ينال رغيفا ويحاسب عنها على آلاف آلاف رغيف ويأكل في معاء واحد ويحاسب على آلاف آلاف معاء ويستمتع بنفس واحدة ويحاسب على آلاف آلاف من الانفس وعلى هذا الغط في جميع أحواله يحمل اثقالهم ويريح اسرارهم ويجاهد عدوهم ويسد ثغورهم ويدافع منايهم ومناصبهم ويعصي ربه فيهم ويخالف

امره ويركب نهيه من أجلهم ويقتحم جرائمهم حتى ينتهم على بصيرة نيهم ثم تجدهم له قالين وعنه غير راضين ولولا ان الله تعالى يحول بين المرء وقلبه لم يرض عاقل بهذه منزلة ولا اختارها لبيب مرتبة وكل ماذكرته في هذا الباب احكمه النبي عليه السلام في كلمة فقال ما لكم ولامرائي لكم صفو أمرهم وعليهم كدره ومثال السلطان مع الرعية كالطباخ مع الاكلة له العناء ولهم الهناء وله الخبار ولهم القار طلب لقومه الراحة فحصل على التعب وطلب لهم النعيم فاخطأ الصراط المستقيم وعن هذا قالوا سيد القوم اشقاهم وفي الحديث ساقي القوم آخرهم شربا * وكان بعض سلاطين المغرب يسير يوما وبين يديه الوزراء اذ نظر الى بساعة من التجار فقال لوزيره انحب ان اريك ثلاث طوائف طائفة لهم الدنيا والآخرة وطائفة لهم دنيا ولا آخرة وطائفة لا دنيا ولا آخرة قال وكيف ذلك ايها الملك فقال الذين لهم الدنيا والآخرة فهؤلاء التجار يكسبون أقواتهم ويصلون صلاتهم ولا يؤذون احدا وأما الذين لا دنيا ولا آخرة فهؤلاء الشرط والخدمة الذين بين أيدينا وأما الذين لهم دنيا بلا آخرة فأنت وسائر السلاطين فحق على جميع الورى ان يعبدوا السلطان بالمناصحات ويخصوه بالدعوات ويعينوه على سائر المحاولات ويكرنوا له أعينا ناظرة وايديا باطشة وجنانا واقية وألسنة ناطقة وقوادم تنهضه وقوائم تقله وهيهات منه السلامة وأنى له بالسلامة وعن هذا قال بعض السلاطين يوما لاصحابه اعلموا ان السلطان والجنة لا يجتمعان (قال) شيخنا رحمه الله وحدثني رجل له قدر قال ارسل الي السلطان أن طلق امرأتك وكان قد أرادها البعض أصحابه فابيت ذلك وراجعت الرسل غير مرة فقال لي ناصح منهم خذ الامر مقبلا فانه لا حيلة لك فان السلطان لا يخاف في الدنيا عارا ولا في الآخرة نارا ففارقتها (وروى) عن عبد الملك بن مروان انه لما ولي الخلافة أخذ المصحف فوضعه في حجره ثم قال هذا فراق بيني وبينك ولما حج هرون الرشيد لقيه عبد الله العمري في الطواف فقال له يا هرون قال لبيك يا عم قال كم ترى ههنا من الخلق قال لا يحصيهم الا الله فقال اعلم أيها الرجل ان كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه وانت واحد تسأل عنهم كلهم فانظر كيف تكون فبكى هرون وجلس يحملوا يعطونه منديلا منديلا للدموع ثم قال له والله ان الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه فكيف بمن أسرع في مال المسلمين * ويقال ان هرون كان يقول والله اني أحب ان احج كل سنة وما يمنعني الا رجل من ولد عمر يسمعني ما أكره وقال مالك بن دينار قرأت في بعض الكتب القديمة يقول الله تعالى من احق من السلطان ومن اجهل ممن عصاني ومن اعز ممن اعتزني اياراعي السوء قعدت لبدك غمامسا ناصحا فاكلت اللحم وشربت اللبن واتخذت السمن ولبست الصوف وتركتها عظاما تقعقع ولم تأوالضالة ولم تجبر الكسير اليوم انتقم لها منك

(الباب السابع في بيان الحكمة في كون السلطان في الارض)

اعلموا ارشدكم الله ان في وجود السلطان في الارض حكمة لله تعالى عظيمة ونعمة على العباد جزيلة لان الله سبحانه جبل الخلق على حب الانتصاف وعدم الانصاف ومثلهم بلا سلطان مثل الحيتان في البحر يزدرد الكبير الصغير فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر ولم يستقم لهم معاش ولم يهنؤا بالحياة ولهذا قال بعض القدماء لو رفع السلطان من الارض ما كان لله في اهل الارض من حاجة ومن الحكم التي في اقامة السلطان انه من حجج الله تعالى على وجوده

سبحانه ومن علامانه على توحيده لانه كما لايمكن استقامة أمور العالم واعتداله بغير مدبر يتفرد بتدبيره كذلك لايتوهم وجوده وترتيبه وما فيه من الحكمة ودقائق الصنعة بغير خالق خلقه وعالم اتقنه وحكيم دبره وكما لايستقيم سلطانان فى بلد واحد لايستقيم الهان للعالم والعالم باسره فى سلطان الله تعالى كالبلد الواحد فى يد سلطان الارض ولهذا قال على بن أبى طالب رضى الله عنه امران جليلان لايصلح احدهما بالتفرد ولايصلح الآخر بالمشاركة وهما الملك والرأى فكما لايستقيم الملك بالشركة لايستقيم الرأى بالانفراد به ومثال السلطان القاهر لرعيته والرعية بلا سلطان مثال بيت فيه سراج منير وحوله قثام من الخلق يعالجون صنائعهم فبينما هم كذلك طفئ السراج فقبضوا أيديهم للوقت وتعطل جميع ما كانوا فيه فتحرك الحيوان الشرير وخشخش الهام الخسيس فدبت العقرب من مكمنها وفسقت الفارة من جحرها وخرجت الحية من معدنها وجاء اللص بحيلته وهاج البرغوث مع حقارته فتعطلت المنافع واستطارت فيهم المضار كذلك اذا كان قاهر الرعيته كانت المنفعة به عامة وكانت الدماء فى أهلها محقونة والحرم فى خدورهن مصونة والاسواق عامرة والاموال محروسة والحيوان الفاضل ظاهر والمرافق حاصلة والحيوان الشرير من أهل الفسوق والدعارة خامل واذا اختل أمر السلطان دخل الفساد على الجميع ولو جعل ظلم الناس حولا فى كفة كان هرج ساعة أعظم وأربح من ظلم السلطان حولا وكيف لا وفى زوال السلطان أوضعف شوكته سوق اهل الشر ومكسب الالحاد ونفاق اهل العيارة والسوقة واللصوص والمناهبة * وقال الفضيل جور ستين سنة خير من هرج سنة ولا يتمنى زوال السلطان الا جاهل مغرور او فاسق يتمنى كل محذور فحقيق على كل رعية ان ترغب الى الله تعالى فى اصلاح السلطان وان تبذل له نصحه وتخصه بصالح دعائها فان فى صلاحه صلاح العباد والبلاد وفى فساده فساد العباد والبلاد * وكان العلماء يقولون اذا استقامت لكم امور السلطان فاكثروا حمد الله تعالى وشكره وان جاءكم منه ماتكرهون وجهوه الى ماتستوجبونه بذنوبكم وتستحقونه بآثامكم واقبلوا عذر السلطان لانتشار الامور عليه وكثرة مايكابده من ضبط جوانب المملكة واستئلاف الاعداء وارضاء الاولياء وقلة الناصح وكثرة التدليس والطمع * وفى كتاب التاج هموم الناس صغار وهموم الملوك كبار وألباب الملوك مشغولة بكل شئ والباب السوقة مشغولة بايسر شئ والجاهل منهم يعذر نفسه مع ماهو عليه من الراحة ولا يعذر سلطانه مع شدة ماهو عليه من المؤنة ومن هنا لم يعز الله سلطانه ويرشده وينصره وعن هذا قالت حكماء العجم لاتستوطن الابلد افيه سلطان قاهر وقاض عادل وسوق قائمة وطبيب عالم ونهر جار

* (الباب الثامن فى منافع السلطان ومضاره) *

(قال) حكماء العرب والعجم مثل مضار السلطان فى جنب منافعه مثل الغيث الذى هو سقيا الله تعالى وبركات السماء وحياة الارض ومن عليها وقد يتأذى به المسافر ويتداعى له البنيان وتكون فيه الصواعق وتدرسوله فمن لك الناس والدواب والذخائر ويموج له البحر فتشتد بليته على أهله ولايمنع ذلك الخلق اذا نظروا الى آثار رحمة الله تعالى فى الارض التى أحيا والنبات الذى أخرج والرزق الذى بسط والرحمة التى نشر أن يعظموا رحمة ربهم

ويشكر بتها ويلفوا ذكر خواص الاذية التي دخلت على خواص الخلق (ومثاله) أيضا مثل الرياح التي يرسلها الله تعالى نشرا بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحا للثمرات ورواحا للعباد ويتنسمون منها ويتقلبون فيها وتجري بها مياههم وتقد بها نيرانهم وتسير بها في البحر أفلاكهم وقد تضر بكثير من الناس في برهم وبحرهم وتخلص الى أنفسهم فيشكرها الشاكرون وقد يتأذى بها كثير من الناس ولا يزيلها ذلك عن منزلتها من قوام عباده وتمام نعمته (ومثاله) أيضا مثال الشتاء والصيف الذي جعل الله حرهما وبردهما صلاحا للحرث والنسل وتاجا للعب والثمر يجمعهما البرد باذن الله ويخرجهما الحر باذن الله فينضج على اعتدال الى غير ذلك من منافعهما وقد يكون الاذى في حرهما وبردهما وسمومهما وزمهريرهما وهما مع ذلك لا ينسيان الى الصلاح والخير وقد غمر صلاحهما اذيتهما ومثاله أيضا مثل الليل الذي جعله الله تعالى سكنا ولباسا ونوما وراحة وسباتا وقد يستوحش له أخو الفقر ويسارع فيه أهل الدعارة والفساد واللصوص وتعدو فيه السباع وتنتشر فيه الهوام وذوات الحمة والسموم القاتلة ثم لا ينسى العباد نعم الله تعالى عليهم به ولا يزل أصغر ضرره بكبير نفعه (ومثاله) أيضا مثال النهار الذي جعله الله ضياء ونورا ونشورا واكتسابا وانتشارا وقد تكون فيه الحروب والغارات والتعب والنصب والشخوص والخصومات فتستريح الخلق منه الى الليل ثم لم ينس العباد نعمة الله عليهم فيه وهكذا كل جسيم من أمور الدنيا يكون ضرره خاصا ونفعه عاما فهو نعمة عامة وكل شئ يكون نفعه خاصا فهو بلاء عام ولو كانت نعم الدنيا صفوا من غير كدر وميسورها من غير معسور لكانت الدنيا هي الجنة التي لا تعب فيها ولا نصب (وقد قال الشاعر)

لا ترج شيأ خالصا نفعه * فالغيث لا يخلو من العيب

(الباب التاسع في بيان منزلة السلطان من الرعية)

اعلموا ان منزلة السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد فاذا صفت الروح من الكدر سرت الى الجوارح سليمة وسرت في جميع أجزاء الجسد فأمن الجسد من الغير فاستقامت الجوارح والحواس وانتظم أمر الجسد وان تكدرت الروح أو فسد مزاجها فاليوبح الجسد فتسري الى الحواس والجوارح كدرة وهي منحرفة عن الاعتدال فاخذ كل عضو وحاسة بقسطه من الفساد فمرضت الجوارح وتعطلت فتعطل نظام الجسد ويجر الى الفساد والهلاك (ومثال) السلطان أيضا مثال النار ومثال الخلق مثال الخشب فما كان منها معتدلا لم يحتج الى النار وما كان منها متأودا احتاج الى النار ليقام أوده فيعدل عوجه فان أفرطت النار احترق الخشب قبل ان يستقيم أوده وان قصرت النار لم يلن الخشب لقبول الاعتدال فيبقى متأودا واذا كانت النار معتدلة اعتدل الخشب كذلك السلطان في أطواره ان أفرطت أهلك الخلق وان فرط لم يستقيموا وان اعتدل اعتدلوا (ومثاله) أيضا مثال عين خوارة في أرض خوارة فان حلا مشربه وعذب طعمه وسلمت من الكدر والفساد أوصافه اختلج في الارض فاتخذت صافيا صرفا ثم شربته عروق الاشجار فاغتذت به كذلك فغلظت سوقها وفرعت أغصانها وامتدت أفنانها ثم اخرجت أوراقها وأبرزت أزهارها ثم قذفت

ثمارها فجاءت على أتم طبيعتها كبرا وطعما ولونا ورائحة فتقوت بها العباد وأكلت حظوظها البهائم والحشرات وسقط عليها الطير فاحرز كل منها قوته واستقام النظام وان كان في حيوانى الارض ما يدق عن الانبات والنفع ويكدى عن الزكاة والريع أو كان فيها من الشجر ما يبير زرعه ويقل ريعه اعطى كل ذلك الغاية من نفسه وأطلع ما في قواه ولم يغادر تمكنا الا وفاه وان كان في العين كدر أو فساد ومل شربتها الاشجار كذلك ففسد مزاجها وأضر الجزء الفاسد بالطيب فرقت سوقها وضعفت أغصانها وتغيرت أوراقها وقلت ازهارها وثمارها ودخل الفساد على جميع ذلك فجاءت الثمرة وهي نزرة قدرها ردى مطعمها كاسف لونها فدخل بذلك من النقص على جميع الحيوان مثل ما دخل عليهم في الاولى ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم ان الحشرات لتموت في أجحرتها هزلا بذنب ابن آدم يعني اذا كثرت المعاصي في الارض حبست السماء غيثها ومنعت الارض نباتها فهلك الهوام والحشرات والدواب

* (الباب العاشر في بيان معرفة خصال ورد الشرع بها فيما انتظام الملك والدول) *

وهي ثلاثة اللين وترك الفظاظة والمشاورة وان لا يستعمل على الاعمال والولايات راغب فيها ولا طالب لها واعلم الله تعالى ما فيها من انتظام أمر الملة واستقامة الامر نص عليها الله سبحانه ورسوله * اعلم ان هذه الخصال من أساس الممالك وقل من يعمل بها من الملوك اثنتان نزلتا من السماء وواحدة قالها الرسول صلى الله عليه وسلم اما الالهية فقال الله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر وفي الآية اشارتان * احداهما ان الفظاظة تنفر الاصحاب والجلساء وتفرق الجموع والجشم وانما الملك ملك بجلسائه وأصحابه وحشمه واتباعه وأخلق بخصلة تنفر الاولياء وتطمع الاعداء فتهن بكل سلطان رفضها والاحتراز من سوء مغبتها ولتكن كما قال الله تعالى واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * وروى ان النبي صلى الله عليه وسلم كان جالسا مع أصحابه فجاء رجل فقال أيكم ابن عبد المطلب فقالوا هذا الابيض المتكئ فقال الرجل يا ابن عبد المطلب فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد أجبتك دل الاثر على انه ما استأثر بشرف المجلس ولا فاتهم برئ ولا مقعد وقد يبلغ بالين ما لا يبلغ بالغلظة ألا ترى أن الرياح تهون أصواتها فيتداخل لها الشجر وتتعطف الافنان والاغصان وفي الفرط تتكسر الاغصان والماء بلينه في أصول الشجر يقلعها من أصلها واذا كانت الحية مع صعوبتها وسمها وتغيبها في بحرها ترقى بالكلام حتى تستعطف فتخرج فالانسان أحرى ان يستمال بلين القول وحسن المنطق فاذا أردت ان تتفهم من يسيء اليك فكافئه بكل كلمة سوء قالها كلمة جميلة وحسن ثناء عليه * والاشارة الثانية انه قال وشاورهم في الامر فاذا قبل لنا كيف يشاورهم وهو نبيهم وامامهم وواجب عليهم مشاورته وان لا يفصلوا أمرا دونه قلنا هذا أدب أدب الله تعالى نبيه عليه السلام به ومعلوم أن مادبة لسائر الملوك والامراء والسلاطين لما علم الله تعالى ما في المشاورة من حسن الادب مع الجليس ومساهمته في الامور فان نفوس الجلساء والنصحاء والوزراء تصلح عليه وتميل اليه وتخضع عنوة بين يديه شرعة انبيه عليه السلام ولذوي الامر من أهل ملته صلى

الله عليه وسلم ألا ترى ان النبي عليه السلام كان في غزوة فأمرهم بالنزول فقال له سعد يارسول الله ان كان هذا بامرك فسمع وطاعة وان كان غير ذلك فليس بمنزل فسمع منه النبي عليه السلام وقال ارتحلوا * ومن أقبح ما يوصف به الرجال ملوكا كانوا أو سوقة الاستبداد بالرأي وترك المشاورة وسنعقد للمشاورة بابا ان شاء الله تعالى * والخصلة الثالثة مما روى البخاري ومسلم وغيرهما ان رجلا قال يارسول الله استعملني فقال النبي عليه السلام انا لا نستعمل على عملنا من اراده والسر فيه ان الولايات امانات وتصرف في ارواح الخلائق وأموالهم والتسرع الى الامانة دليل على الخيانة وانما يخطبها من يريد أكلها واذا ائتمن خائن على موضع الامانات كان كاسترعاء الذئب على الغنم ومن هذه الخصلة تفسد قلوب الرعايا على ملوكها لانه اذا اهتضمت حقوقهم وأكلت أموالهم فسدت نياتهم واطلقوا ألسنتهم بالدعاء والتشكي وذكر وا سائر الملوك بالعدل والاحسان فكانوا كالبيت السائر الذي أنشدناه

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها * فكيف اذا الرعاة لها ذئاب

فاذا خان أهل الامانات وفسد أهل الولايات كان الامر كما قال الاول

بالملح يصلح ما يخشى تغيره * فكيف بالملح ان حلت به الغير

(وقال آخر)

ذئب تراه مصليا * فاذا مررت به ركع

يدعو وجل دعائه * ما للغريسة ما تقع

عجل بها ياذا العلا * ان الفؤاد قد انصدع

*ومن اشراط الساعة التصدي للامانة وخطبة الولاية (وروى) عن النبي عليه السلام انه قال من اشراط الساعة ان تكون الزكاة مغرما والامانة مغنما فحينئذ يدعو عليه الضعيف وأهل الصلاح ويتعدله بالمراصد الشرير ويحاصر عليه القوي ويقبح ثناؤه عند الجماعة ويتمنوا الراحة منه وينتظرون من يصلح لها سواه

(الباب الحادي عشر في بيان معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ولاثبات له دونها)

فاقول الخصال وأحقها بالرعاية العدل الذي هو قوام الملك ودوام الدول وأس كل مملكة سواء كانت نبوية أو اصلاحية * اعلم أرشدك الله ان الله تعالى أمر بالعدل ثم علم سبحانه ان ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الاحسان وهو فوق العدل فقال ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى فاوسع الخلق العدل ما قرن الله به الاحسان ثم لم يصلح حتى يزاد على العدل كيف يصلح اذا لم يبلغ به العدل والعدل ميزان الله في الارض الذي به يؤخذ للضعيف من القوي وللمحق من المبطل وليس موضع الميزان بين الرعية فقط بل بين السلطان والرعية أيضا فمن أزال ميزان الله الذي وضعه من القيام بالقسط فقد تعرض لسخط الله تعالى * واعلم أيها الوالي ان الملك بمنزلة رجل فرأسه أنت وقلبه وزيرك ويداه أعوانك ورجلاه رعيتك وروحه عدلك وما بقاء جسد بلا روح واذا أردت ذروة العدل فاعلم ان الرعية ثلاثة أنفس كبير وصغير ووسط فاجعل كبيرهم أبا ووسطهم أخا وصغيرهم ابنا فبر أباك وأكرم أخاك وارحم ابنك فانك واصل بذلك الى بر الله وكرامته ورحمته * واعلم ان عدل الملك

يوجب الاجتماع عليه وجوره يوجب الافتراق عنه عدل الملك حياة رعيته * وفى منشور الملك سلطان جائر أربعين عاما خير من رعية مهملة ساعة واحدة من النهار اذا عدل السلطان فما قرب منه صلح له ما بعد عنه فضل الملوك فى الاعطاء وشرفها فى العفو وعزها فى العدل عدة السلطان ثلاثة مشاورة النصحاء وثبات نيات الاعوان واقامة سوق العدل افضل الازمنة ازمنة ائمة العدل ثم العدل ينقسم قسمين قسم الهى جاءت به الرسل والانبياء عليهم السلام عن الله تعالى والثانى ما يشيه العدل وهو السياسة الاصلاحية التى هرم عليها الكبير ونشأ عليها الصغير وبعيد أن يبقى سلطان أو تستقيم رعية فى حال ايمان أو كفر بلا عدل قائم ولا ترتيب للامور ثابت فذلك ما لا يجوز ولا يكن * وقد ذكرنا فى أول الكتاب ان سليمان بن داود سأل ملكه حين جلس الخصمان بين يديه وكان لاحدهما خاصة بسليمان فقال فى نفسه وددت أن يكون الحق لخاصتى فاقضى له فسلبه الله تعالى ملكه وقعد الشيطان على كرسيه فاجعل العدل رأس سياستك فتسقط عنك جميع الآفات المفسدة للسياسة وتقوم لك جميع الشرائط التى تقوم بها المملكة * قال على بن أبى طالب رضى الله عنه امام عادل خير من مطر وابل وأسد حطوم خير من سلطان ظلوم وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم وقال ابن مسعود اذا كان الامام عادلا فله الاجر وعليك الشكر وان كان جائرا فعليه الوزر وعليك الصبر * وقال سليمان بن داود عليهما السلام الرحمة والعدل يحرزان الملك واتفق حكماء العرب والعجم على هذه الكلمات فقالوا الملك بناء والجند أساسه فاذا قوى الاساس دام البناء وان ضعف الاساس انهار البناء فلا سلطان الا بجند ولا جند الا بمال ولا مال الا بعمارة ولا جباية الا بعمارة ولا عمارة الا بعدل فصار العدل أساسا لسائر الاساسات * فاما العدل النبوى فأن يجمع السلطان الى نفسه جملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه وهم الادلاء على الله تعالى والقائمون بأمر الله والحافظون لحدود الله والناصحون لعباد الله * وروى أبو هريرة ان النبى عليه السلام قال ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم فاتخذ أيها الملك العلماء شعارا والصالحين دثارا فتدور المملكة بين نصائح العلماء ودعوات الصلحاء وأخلق بالملك يدور بين هاتين الخصلتين ان تقوم عمده ويطول أمده وكيف لا وقد فرقهم الله فى سلطانه واصطفاهم بخالص معرفته فقال جل من قائل شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط فبدأ بنفسه وثنى بملائكته وثلث بأولى العلم وهم ورثة الانبياء عليهم السلام المرفوعون عن الله تعالى لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم ففى تعظيمهم وتقريبهم امتثال لامر الله تعالى وتعظيم لمن أثنى الله عليه ويجب ترفيع مجالسهم وتمييز مواضعهم عن سواهم قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وفيه استمالة قلوب الرعية وخلوص نياتهم لسلطانهم واجتماعهم على محبته فواجب على السلطان أن لا يقطع امرا دونهم ولا يفصل حكما الا بمشاورتهم لانه فى ملك الله يحكم وفى شريعته يتصرف وأقل الواجبات على السلطان ان ينزل نفسه مع الله منزلة ولا نه معه أليس اذا خالف والبه أمره ومارسمه له من الاحكام عزله وعاقبه ولم يأمن سطوته واذا امتثل أوامره

وازدجر من زواجره حل منه محل الرضا فواعجبا لمن يغضب على واليه اذا خالفه ثم لا يخاف سطوة ربه عليه اذا خالفه فهذا طريق اقامة العدل الشرعي والسياسة الاسلامية الجامعة لوجوه المصلحة الآخذة لازمة التدبير السالمة من العيوب المهدة لاستقامة الدنيا والدين * وكما أن الملك الحازم لا يتم حزمه الا بمشاورة الوزراء والاخيار كذلك لا يتم عدله الا باستفتاء العلماء الابرار وقد وقع المأمون في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة يا عمرو اعمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها وفي اشاعة العدل قوة القلب وطيبة النفس ولزوم اليقين وامان من العدو ولما استأذن الهرمزان على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يجد عنده حاجبا ولا بوابا فتقبل له هو في المسجد فاتى المسجد فوجده مستلقيا متوسدا كوما من الحصباء ودرته بين يديه فقال له عدلت فامنت فنمت وقال الحسن رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد جمع الحصباء في مسجد النبي عليه السلام عند رأسه وقد وضع احد جانبي ردائه عليه وهو يومئذ أمير المؤمنين ما عند أحد من الناس ودرته بين يديه وكتب عامل حمص الى عمر بن عبد العزيز ان مدينة حمص قد تهدمت واحتاجت الى اصلاح فكتب اليه عمر حصنها بالعدل وبق طرقها من الجور والسلام وقالت الحكماء من حرم العدل فلا خير فيه ولا للناس في سلطانه وقال يحيى بن اكثم ماشيت المأمون في بستان والشمس عن يساري والمأمون في الظل فلما رجعنا وقعت الشمس أيضا علي فقال لي المأمون تحول مكاني وانا تحول مكانك حتى تكون في الظل كما كنت وأقيك الشمس كما وقيتني فان أول العدل ان يعدل الرجل على بطانته ثم الذين يلونهم حتى يبلغ العدل الطبقة السفلى فعزم علي فتحولت وكان يقال ليس شيء أبعد من بقاء ملك الغاصب وقيل للاسكندر ولأكثرت من النساء حتى يكثر نسلك ويحيا ذكرك فقال انما يحيي الذكر الافعال الجميلة والسيرة الحميدة ولا يحسن بمن يغلب الرجال ان تغلبه النساء وقال الحكيم من اتخذ العدل سنة كان له أحسن جنة ومن استشعر حلة العدل استكمل زينة الفضل وقال أبو عبيد ابن عبد الله بن مسعود ان الامام العادل ليسكت الاصوات عن الله وان الامام الجائر لتكثر منه الشكاية الى الله تعالى وقال الحكيم لا يزال السلطان مهملا حتى يتخطى الى أركان العمارة ومباني الشريعة فحينئذ يرجع الله منه وقالوا لا تظلم الضعفاء فتكون من لئام الاقوياء وقال بعض الحكماء أمير بلا عدل كغيم بلا مطر وعالم بلا ورع كارض بلا نبات وشاب بلا توبة كشجر بلا ثمر وغنى بلا سخاء كقفل بلا مفتاح وفقير بلا صبر كسراج بلا ضوء واعجب أن بلا حياء كطعام بلا ملح وقال كسرى اتفقت ملوك العجم على أربع خصال ان الطعام لا يؤكل الا على شهوة والمرأة لا تنظر الا الى زوجها والملك لا يصلحه الا الطاعة والرعية لا يصلحها الا العدل واحق الناس باجبار نفسه على العدل الملوك الذين بعدلهم يعدل من دونهم والذين اذا قالوا وفعلوا كان نافذا غير مردود وقالت الحكماء ما شئت بالانصاف وأنا زعيم لك بالظفر به والظلم ادعى شيء الى تغيير نعمة أو تعجيل نقمة وقال الحكيم شر الزاد الى المعاد الذنب بعد الذنب وشر من هذا العدوان على العباد ومتى أراد السلطان حسن الصيت وجميل الذكر فليقم سوق العدل وان أحب الزلفى عند الله وشرف المنزلة عنده فليقم سوق العدل وان أحبهما جميعا فليقم سوق العدل والذي يخلد به ذكر الملوك على غابر الدهور عدل

واضح اوجه وفاضح هذا يوجبه الرحمة وهذا يوجبه اللعنة

*(فصل) فاما القسم الثانى من العدل وهو السياسة الاصطلاحية وان كان أصلها على الجور فيقوم بها أمر الدنيا وكانها تشاكل مراتب الانصاف على نحو ما كانت عليه ملوك الطوائف فى أيام الفرس وكانوا كفارا يعبدون النيران ويتبعون هواجس الشيطان فواضعوا بينهم سننا واساسا واحكاما وأقاموا لهم مراتب فى الصفة بين الرعايا واستجباء الخراجات وتوظيف المكوس على التجارات كل ذلك بعقولهم على وجوه ما أنزل الله بها من سلطان ولا نصب عليها من برهان بيد أنه لما جاءت الشريعة من عند الله تعالى على لسان نبيه صاحب المعجزة محمد صلى الله عليه وسلم بتحريم ما اقرته فى نصابه ومنها ما سمحته وابطلت حكمه فعادت الحكمة البالغة الى الله تعالى والحكم بما أنزل الله وبطل ما سواه وكان ملكهم محفوظا برعاياتهم للقوانين المألوفة بينهم فانقطع بذلك حبل الهمل فكانوا يقومون بها واجب الحقوق ويتعاطون بها امالهم وعليهم ومن هذا كان يقال ان السلطان الكافر الحافظ لشرائط السياسة الاصطلاحية أبقى واقوى من السلطان المؤمن العدل فى نفسه المضيع للسياسة النبوية العدلية والجور المرتب ابقى من العدل المهمل اذ لا شئ أصلح لامر السلطان من ترتيب الامور ولا شئ أفسد له من اهمالها واعلم ان درهما يؤخذ من الرعية على وجه الاهمال والخرق وان كان عدلا افسد لقلوبها من عشرة تؤخذ منها سياسة على زمام معروف ورسم مألوف وان كان جورا فلا يقوم السلطان لاهل الايمان ولا لاهل الكفران الا باقامة العدل النبوى وأما يشبهه العدل من الترتيب الاصطلاحى وقال ابن المقفع الملوك ثلاثة ملك دين وملك حزم وملك هوى فاما ملك الدين فانه اذا أقام لاهل المملكة دينهم كانوا راضين وكان الساخط فيه بمنزلة الراضى واما ملك الحزم فيقوم به الامر ولا يسلم من الطعن والسخط ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوى واما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر ولقد بلغنا أن ملكا من ملوك الهند نزل به صمم فاصبح متوجعا مهتما بامور المظلومين وانه لا يسمع استغاثتهم فامر منادية ان لا يلبس أحد فى مملكته ثوبا أحمر الا مظلوم وقال لئن منعت حسى لم أمنع بصرى فكان كل من ظلم لبس ثوبا أحمر ووقف تحت قصره فيكشف عن ظلامته قال شيخنا واخبرنى ابو العباس الجبازى وكان ممن دخل الصين بسيرة عجيبة غريبة الموكلها فى سياستهم وذلك ان للبيت الذى يكون فيه الملك ناقوسا موصولا بسلسلة وطرف السلسلة فى خارج الطريق وعليها امناء للسلطان وحفظة فيأتى المظلوم فيحرك السلسلة فيسمع الملك صوت الناقوس فيامر بادخال المظلوم فكل من حرك السلسلة تمسكه تلك الحفظة حتى تدخله على السلطان

(الباب الثانى عشر فى التنصيص على الخصال التى زعم الملوك انها ازالت دولتهم وهدمت سلطانهم)

ايها الملك احرص كل الحرص ان تكون خبيرا بامور عمالك فان المسئ يفرق من خبرتك به قبل ان تصيبه عقوبتك والمحسن يستبشر بعملك به قبل ان يأتيه ثوابك قال أبو جعفر المنصور مازال امر بنى أمية مستقيما حتى افضى أمرهم الى ابنائهم المترفين فكانت همتهم من عظيم شان

الملك وجلالة قدره قصد الشهوات وايثار اللذات والدخول فى معاصى الله ومساخطه جهلا منهم باستدراج الله تعالى وامنا لمكره فسلبهم الله العز ونقل عنهم النعمة قال عبيد الله بن مروان ومروان هذا هو المعروف بمروان الحمار وهو آخر ملوك بنى أمية قتل فى أرض مصر فى كورة بوصير لما زال ملكا وهربت الى أرض النوبة فمن اتبعنى من أصحابى فسمع ملك النوبة بخبرى فجاءنى فقعد على الارض ولم يقعد على فراش افترشته فقلت له الا تقعد على ثيابنا قال لا قلت ولم قال لانى ملك وحق على كل ملك ان يتواضع لامر الله سبحانه اذ رفعه ثم قال لى لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم ولم تطؤن الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم ولم تستعملون الذهب والفضة وتلبسون الديباج والحرير وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك فقتل انصارنا واسترقنا بقوم من الاعاجم دخلوا ديارنا ولنا عبيد واتباع فعلوا ذلك على كره منا فاطرق ملبا يقلب كفيه ويشكت فى الارض ثم قال ليس كما ذكرت بل انتم قوم استحللتم ما حرم الله وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز بذنوبكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها وأخاف ان يحل بكم العذاب وانتم بلدى فيصيبنى معكم وانما الضيافة ثلاثة أيام فتزودوا واما احتجتم اليه وارتحلوا عن بلدى فتزودنا وارتحلنا وسئل بزرجمهر ما بال ملك آل ساسان صار الى ما صار اليه بعد ما كان فيه من قوة السلطان وشدة الاركان فقال ذلك لانهم قلدوا كبارا لاعمال صغار الرجال وعن هذا قالت الحكماء موت ألف من العلية أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة وفى الامثال ان زوال الدول باصطناع السفل وقال الشافعى رضى الله عنه اظلم الناس لنفسه المتيم اذا ارتفع جفا اقاربه وانكر معارفه واستخف بالاشراف وتكبر على ذوى الفضل وسئل بعض الملوك بعد زوال ملكه ما الذى سلبك ملكك قال اعطاؤنا من بطروطئ ورفع عسل اليوم لغد وسئل بعض الملوك بعد ان سلبوا ملكهم ما الذى سلب عزكم وهدم ملككم فقال شغلتنا الدنيا عن التفرغ لمهماتنا ووثقنا بكفاتنا فآثروا مرافقهم علينا وظلم عمالنا رعيتنا فانفسدت نياتهم لنا وتمنوا الراحة منا وحمل على أهل خراجنا فقل دخلنا وبطل عطاء عبيدنا فزالت الطاعة منهم لنا وقصدنا عدونا فقل ناصرنا وكان أعظم ما زال به ملكنا استتار الاخبار عنا وقالت الحكماء أسرع الخصال فى هدم السلطان وأعظمها وأسرعها فى افساده وتفريق الجمع عنه اظهار المحابا لقوم دون قوم والميل الى قبيلة دون قبيلة فمتى أعلن بحب قبيلة تفرق عنه من قبائل وقد يميل القلب المحابا مفسدة وقال مهيوذ المو بذان من زوال السلطان تقريب من ينبغى ان يباعد ومباعدة من ينبغى ان يقرب وحينئذ حان أوان الغدر وقيل لملك بعد ذهاب ملكه ما الذى أذهب ملككم قال ثقتى بدولتى واستبدادى بمعرفتى واغفالى استشارتى واعجابى بشدتى واضاعتى الحيلة وقت حاجتى والتانى عند العجلة ولما أحيط بمروان الجعدى وهو آخر ملوك بنى أمية قال لهفاه على دولة ما نصرت وكف ما ظفرت ونعمة ما شكرت فقال له خادمه نسيل وكان من أولاد اشراف الروم من أغفل الصغير حتى يكبر والقليل حتى يكثر والخفى حتى يظهر اصابه مثل هذا وسئل بعض العلماء الذى أذهب ملك بنى مروان قال تحاسد الاكفاء وانقطاع الاخبار وذلك ان زيد بن عمر كان يجب أن يضع من نصر بن سيار وكان لا يعده بالرجال ولا يرفع الى السلطان ما يورد عليه من أخبار خراسان فلما رأى ذلك نصر

ابن سيار قال

أرى خلل الرماد وميض نار * فيوشك ان يكون لها ضرام
وان النار بالعودين تذكو * وان الحرب أولها الكلام

فقلت نجاهلا ياليت شعري * أيقاظ أمية أم نيام

وكان العباسيون يؤسسون لدولتهم ولا تصل اخبارهم الى بني أمية حتى استقبل أمرهم وضعف امر بني أمية وسئل مروان بن محمد الجعدي وهو آخر ملوك بني أمية ما الذي أضعف ملكك بعد قوة السلطان وثبات الاركان فقال الاستبداد برأيي لما كثرت علي كتب نصر بن سيار ان أمده بالاموال والرجال قلت في نفسي هذا رجل يريد الاستكثار من الاموال بما يظهر من فساد الدولة قبله وجهات ان ينتقض علي خراسان فانتقضت دولته من خراسان

* (الباب الثالث عشر في الصفات الرائبة التي زعم الحكماء انه لابد ان يتصف بها الملك) *

ومن أعجب العجائب دوام الملك مع الكبر والاعجاب اعلموا ان الكبر والاعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة والمتكبر يجعل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح وقبول التأديب والكبر يكسب المقت ويمنع من المسئلة وكل كبر ذكره الله في القرآن فقرون بالشرك ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس انهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله سبحانه يغضب منهما وقال اردشير بن بابك ما الكبر الا فضل حمق لم يدر صاحبه اين يذهب به فصرفه الى الكبر وقال الاحنف بن قيس ما تكبر احد الا من ذلة يجدها في نفسه ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتنافر منه قال الشاعر

فتى كان عذب الروح لا من خصاصة * ولكن كبرا ان يقال به كبر

ونظر افلاطون الى رجل جاهل معجب بنفسه فقال وددت اني مثلك في ظنك وان أعدائي مثلك في الحقيقة قالت الحكماء قديدوم الملك مع معظم النقائص فرب فقير ساد قومه ورب أحمق ساد قبيلته منهم الاقرع بن حابس الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الاحمق المطاع قالوا ولا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب السيادة واعظم من ذلك ان الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال سبحانه وتعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا فقرن الكبر بالفساد ومنعا من دخول الجنة وقال جل وعز سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وقال بعض الحكماء ما رأيت متكبرا الا تحول داؤه في يعني اني أتكبر عليه واعلم ان الكبر يوجب المقت ومن مقته رجاله لم يستقم حاله ومن أبغضته بطانته كان كمن غص بالماء ومن كرهه الجماة تطاولت عليه الاعداء واما الاعجاب فيحمله على الاستبداد وترك مشورات الرجال ومن الصفات التي لا تقوم معها المملكة الكذب والغدر والخبث والجور والسخف وقالت حكماء العرب والعجم ست خصال لا تغتفر من السلطان الكذب والخلف والحسد والحدة والبخل والجبن فانه اذا كان كذابا لم يوثق بوعيده ولا بوعيده فلم يرج خيره ولم يخف شره ولا يهاب السلطان لا يرهب وقال الحكماء خراب البلاد وفساد العباد مقرونان بابطال الوعد والوعيد من الملوك والكذب اسقط

الاخلاق واغلب شئ على صاحبه وأحرى ان لاينزع عنه لضراوته وقيل لاعرابى لم تكذب قال لوتعززت به ماتركته وهو نوع من الفحش وضرب من الدناءة وأصله استعذاب المنى وهو أضغاث فكر الحمقى ومن بليته انه يحمل على صاحبه ذنب غيره فاذا سمعت كذبة طائحة نسبت اليه قال الشاعر

حسب الكذوب من المها * نة بعض مايحكى عليه
واذا سمعت بكذبة * من غيره نسبت اليه

(وقال غيره)

لى حيلة فيمن ينم * وليس فى الكذاب حيله
من كان يخلق مايقو * ل فحيلتى فيه قليله

وقال الله تعالى انما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله واما الحسد فانه اذا كان حسود الم يشرف أحدا واذا ضاعت الاشراف هلكت الاتباع ولايصلح الناس الا على اشرافهم قال الشاعر

لاتصلح الناس فوضى لاسراة لهم * ولاسراة اذا جهالهم سادوا

واما البخل فاذا كان بخيلا لم يناصحه أحد ولاتصلح الولاية الا بالمناصحة وليس للملك ان يبخل لان بيوت الاموال فى يديه واما الجبن فاذا كان جبانا اجترأ عليه عدوه وضاعت ثغوره واذا كان حديد الغضب باوا القدرة من ورائه هلكت رعيته وليس للملك ان يغضب لان القدرة من وراء حاجته ولما دخل اسقف نجران على مصعب بن الزبير ضرب وجهه بالقضيب فادماه فقال الاسقف ان شاء الامير أخبرته بما أنزل الله على عيسى عليه السلام قال قل قال لاتغضب بعدها قال هات قال لا ينبغى للامام ان يكون سفيها ومنه يلتمس الحلم ولاجائرا ومنه يلتمس العدل وقال الاوزاعى يهلك السلطان بالاعجاب والاحتجاب فاما الاعجاب فقد ذكرناه واما الاحتجاب فهو أرحى الخلال فى هدم السلطان وأسرعها خرابا للدول فانه اذا احتجب السلطان فكانه قدمات لان الحجبة موت حكمى فتعبث بطانته بارواح الخلائق وحريهم وأموالهم لان الظالم قد أمن ان لايصل المظلوم الى السلطان ومعظم مارأينا فى أعمارنا وسمعنا عن سمعنا من دخول الفساد على الملوك من حجبتهم عن مباشرة الامور ولاتزال الرعية ذا سلطان واحدما وصلوا الى سلطانهم فاذا احتجب فهناك سلاطين كثيرة يا أيها الملك المغرور احتجبت عن الرعية بالحجاب والابواب وجعلت دونهم برجا شيدة وحظائر بالحجارة والماء والطين مانعة وباب الله مفتوح للسائلين ليس هناك لاحاجب ولابواب قال الله تعالى الامن شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا وقال معاوية ليس بين ان يملك السلطان رعيته أوتملكه الا الحزم والتوانى وكاله امران شدة فى غير افراط ولين فى غير امتهان وسئل بزرجمهر أى الملوك أحزم قال من ملك جده هزله وقهر لبه هواه وأعرب عن ضميره فعله ولم يخدعه رضاه عن حظه ولاغضبه عن كيده وقال بعض الحكماء زوال الدول فى اصطناع السفل ومن طال عدوانه زال سلطانه وقالوا من لم يستظهر باليقظة لم يقتنع بالحفظة وقال يحيى بن خالد أحسن ماوجدت فى طراز الحكم من البلاغة البخل والجهل مع التواضع خير من السخاء والعلم مع الكبر فيالها حسنة غطت على سيئتين ويالها

سبعة غطت على حسناتين

(الباب الرابع عشر في الخصال المحمودة في السلطان)

وقد اتفقت العلماء والحكماء عليها فقالوا أيها الملك ان قصرت قوتك عن عدوك فتخلق بالاخلاق الجميلة التي ليس لعدوك مثلها فانها الكفاية من الغارة الشعواء وقال معاوية لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال كان عالما برعيته عادلا في قضيته عاريا من الكبر قبولا للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحريا للصواب وفيقا بالضعيف غير محاب للقوي ولا جاف للقريب وقالوا المنفعة توجب المحبة والمضرة توجب البغضة والمخالفة توجب العداوة والمتابعة توجب الالفة والصدق يوجب الثقة والامانة توجب الطمانينة والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة وحسن الخلق يوجب المودة وسوء الخلق يوجب المباعدة والانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب الوحشة والكبر يوجب المقت والتواضع يوجب المحبة والجود يوجب الحمد والبخل يوجب المذمة والتواني يوجب التضييع والجد يوجب رجاء الاعمال والهوينى توجب الحسرة والحزم يوجب السرور والتغرير يوجب الندامة والحذر يوجب العذر واصابة التدبير توجب بقاء النعمة وبالتاني تسهل المطالب وبلين كنف المعاشرة تدوم المودة ويحفظ الجانب تأنس النفوس وبسعة خلق المرء يطيب عيشه والاستهانة توجب التباعد وبكثرة الصمت تكون الهيبة وعدل المنطق يوجب الجلالة وبالنصفة تكثر المواصلة وبالافضال يعظم القدر وبسماح الاخلاق تزكو الاعمال وباحتمال المؤن يجب السودد وبالحلم عن السفيه تكثر انصارك عليه وبالرفق والتؤدة تستحق اسم الكرم وبترك ما لا يعنيك يتم لك الفضل واعلم ان السياسة تكسو أهلها المحبة والفظاظة تخلع عن صاحبها ثوب القبول ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة والنظر في العواقب نجاة ومن لم يحلم ندم ومن صبر غنم ومن سكت سلم ومن خاف حذر ومن اعتبر ابصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ومن أطاع هواه ضل ومع العجلة الندامة ومع التأني السلامة زارع البر يحصد السرور صاحب العاقل مغبوط صديق الجاهل متعب اذا جهلت فاسأل واذا زللت فارجع واذا أسأت فاندم واذا ندمت فاقلع واذا فضلت فاكتم واذا منعت فاجمل واذا أعطيت فابذل واذا غضبت فاحلم من بدأ بره فقد شغلك بشكره المروآت كلها تبع للعقل الرأي تبع للتجربة العقل أصله التثبت وثمرته السلامة والتوفيق أصله العقل وثمرته النجح والتوفيق والاجتهاد زوجان فالاجتهاد سبب التوفيق يتبع الاجتهاد قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا والاعمال كلها تبع للمقدور واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب من التوراة من قنع شبع ومن الزبور من سكت سلم ومن الانجيل من اعتزل نجا ومن القرآن ومن اعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم الحلم شرف والصبر ظفر والمعروف كنز والجهل سفه والايام دول والدهر غير والمرء منسوب الى فعله ومأخوذ بعمله اصطناع المعروف يكسب الحمد أكرموا الجليس يعمر ناديكم أنصفوا من نفوسكم يوثق بكم اياكم والاخلاق الدنيئة فانها تضيع الشرف وتهدم المجد نهنهة الجاهل أهون من جريرته رأس العشيرة يحمل اثقالها واجعت

حكماء العرب والعجم على أربع كلمات لا تحمل بطنك ما لا تطيق ولا تعمل عملا لا ينفعك ولا تغتر بامرة ولا تثق بمال وان كثر

(الباب الخامس عشر فيما يعز به السلطان)

وهي الطاعة قال ملك فارس لوبذان موبذه ما شئ واحد يعز به السلطان قال الطاعة قال فما ملاك الطاعة قال التودد الى الخاصة والعدل على العامة قال صدقت الامانة معقل الطاعة والطاعة زينة الملك وكان يقال طاعة السلطان على أربعة أوجه على الرغبة والرهبة والمحبة والديانة ولما دخل سعد العشيرة على بعض ملوك حمير قال له يا سعد ما صلاح الملك قال معدلة شائعة وهيبة وازعة ورعية طائعة فان في المعدلة حياة الانام وفي الهيبة نفي الظلام وفي طاعة الرعية التآلف والالتئام طاعة الائمة فرض على الرعية كما أن طاعة السلطان مقرونة بطاعة الله اتقوا الله يحقه والسلطان بطاعته من اجلال الله اجلال السلطان عادلا كان أو جائرا الطاعة تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين عصيان الائمة يهدم أركان الملة أولى الناس بطاعة السلطان ومناصحته أهل الدين والنهى والمروآت اذ لا يقوم الدين الا بالسلطان ولا تكون النهى والحزم محفوظة الا به الطاعة ملاك الدين الطاعة معاقد السلامة وارفع منازل السعادة لطريقة المثلى والعروة الوثقى قوام الامة وقيام السنة بطاعة الائمة الطاعة عصمة من كل فتنة ونجاة من كل شبهة طاعة الائمة عصمة لمن لجأ اليها وحرز لمن دخل فيها وليس للرعية ان تعترض على الائمة في تدبيرها وان سولت لها أنفسها بل عليها الانقياد وعلى الائمة الاجتهاد بالطاعة تقوم الحدود وتؤدى الفرائض وتحقن الدماء وتأمن السبل الامامة عصمة للعباد وحياة للبلاد أوجب الله لمن خصه بفضلها وجعلها اعباءها الطاعة فقرنها بطاعته وطاعة رسوله فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم طاعة الائمة هدى لمن استضاء بنورها وموئل لمن حافظ عليها الخارج من الطاعة منقطع العصمة برئ من الذمة مبدل بالكفر النعمة طاعة الائمة حبل الله المتين ودينه القويم وجنته الواقية وكفايته العالية اياكم والخروج عن أنس الطاعة الى وحشة المعصية ولا تسرعوا غمز الائمة وعليكم بالاخلاص والنصيحة ما مشى قوم الى سلطان لبذله الا اذلهم الله قبل ان يموتوا الطاعة مقرونة بالمحبة طاعة المحبة أفضل من طاعة الهيبة للرعية على السلطان الاستصلاح لهم والتعهد لامورهم وحسن السيرة فيهم والعدل عليهم والتعديل بينهم وحق السلطان عليهم الطاعة والاستقامة والشكر والمحبة بالرعية من الحاجة الى الراعي ما ليس بالراعي من الحاجة اليهم لولا الرعاة هلكت الرعية ولولا المسيم هلكت السوائم

(الباب السادس عشر في ملاك أمور السلطان)

قال سليمان بن داود عليهما السلام الرحمة والعدل يحرزان الملك وقال زياد ملاك السلطان ثلاثة أشياء الشدة على المذنب والمجازاة للمحسن وصدق القول ولما غزا سابور ذو الاكتاف ملك الروم وأخرب بلاده وقتل جنده وافنى بطارقته قال له ملك الروم انك قد قتلت وأخربت فاخبرني ما الامر الذي تشبثت به حتى قويت على ما أرى وبلغت في السياسة ما لم يبلغه ملك فان

كان مما يشترط الامر بمثله أديت اليك الخراج وصرت كبعض الرعية في الطاعة لك فقال له سابور اني لم أزد في السياسة على ثمان خصال لم أهزل في أمر ولا نهي ولم أخلف في وعد ولا وعيد وواليت أهل الكفاية وأثبت على العناء لا على الهوى وضربت للادب لا للغضب وأودعت قلوب الرعية المحبة من غير مرأة والهيبة من غير ضغينة وعممت بالقوت ومنعت الفضول فاذ عن له وأدى اليه الخراج وكتب الوليد الى الحجاج ان يكتب له بسيرته فكتب اليه اني أحفظ رأيي وأتمم هواي وأديت السيد المطاع في قومه وواليت الحرب الحازم في أمره وقادت الخراج الموفي لاماناته وقسمت لكل خصم من نفسي قسما يعطيه حظا من تقوى ولطيف عنايتي وصرف السيف الى البطر والمسيء تخاف المذنب صولة العقاب وتحمل المحسن بحظه من الثواب وقال أبو عبيدة اذا كان الملك محصنا لسره بعيدا من أن يعرف ما في نفسه متخيرا للوزراء مهيبا في أنفس العامة مكافئا بحسن البلاء لا يخافه البريء ولا يأمنه المجرم كان خليقا لبقاء ملكه

(الباب السابع عشر في خير السلطان وشر السلطان)

افضل الملوك من كان شكره بين الرعايا لكل واحد منهم فيه قسطه ليس احد احق به من احد لا يطمع القوي في حيفه ولا ييأس الضعيف من عدله كان النبي صلى الله عليه وسلم تأخذ بيده الامة من اماء المدينة فتطوف به على سكك المدينة حتى تقضي حاجتها وفي حكم الهند افضل السلطان من امنه البريء وخافه المجرم وشر السلطان من خافه البريء وامنه المجرم وقال عمر للمغيرة لما ولاه الكوفة يا مغيرة لا يأمنك الابرار ولتخفك الفجار وفي حكم الهند ايضا شر المال ما لا يتقى منه وشر الاخوان الخاذل وشر السلطان من خافه البريء وشر البلاد ما ليس فيه خصب ولا امن وخير السلطان من اشبه التمر وحوله الجيف لا من اشبه الجيفة وحولها التمر وعن هذا المعنى قالوا سلطان تخافه الرعية خير للرعية من سلطان يخافها وفي الامثال العامة رهبوت خير لك من رحموت وكان يقال شر خصال الملوك الجبن عن الاعداء والقسوة على الضعفاء والبخل عند الاعطاء وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثلاثة من الفواقر جار سلا لازم ان رأى حسنة ستروان رأى سيئة اذاعها واعراه ان دخلت عليها السكك وان حجت عنها لم تأمنها وسلطان ان احسنت لم يحمدك وان اسأت قتلك وقال رجل لبعض العلماء متى اضل وانا اعلم فقال اذا ملكتك امراءة ان اطعتهم اذلوك وان عصيتهم قتلوك وقال ابو حازم لسليمان بن عبد الملك السلطان سوق ما نفق عنده اتي به وفي كتاب ابن المقفع الناس على دين الملك الا القليل فان يكن للبر والمروءة عنده نفاق فسيكسد ذلك الفجور والدناءة في آفاق الارض وسمع زياد رجلا يذم الزمان فقال لو كان يدري ما الزمان لعاقبته ان الزمان هو السلطان وقال معاوية لابن الكواء صف لي الزمان فقال انت الزمان ان تصلح يصلح وان تفسد يفسد فالمثل السائر في كل زمان وعلى كل لسان الناس على دين الملك وقال بعض الحكماء ان احق الناس ان يحذر العدو الفاجر والصديق الغادر والسلطان الجائر وقال بزرجمهر أدوم التعب صحبة السلطان السيء الخلق وقال بعض الحكماء اذا ابتليت بصحبة سلطان لا يريد صلاح رعيته فقد خيرت بين امرين ليس بينهما خيار اما الميل مع الوالي على الرعية فهو

هلاك الدين واما الميل مع الرعية على الوالى فهو هلاك الدنيا فلا حيلة لك الا الموت او الهرب منه وقالوا الملك العادل كالنهر الصافى ينتفع به الاشرار والاخيار ولا يضر احدا والملك السوء مثل الحية يسرع اليها شرار الحيوان ويتحاماها الناس

(الباب الثامن عشر فى منزلة السلطان من القرآن)

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله ليرعى بالسلطان ما لا يرعى بالقرآن معناه اى يدفع وقال كعب مثل الاسلام والسلطان والناس مثل الفسطاط والعمود والاطناب والاوتاد فالفسطاط الاسلام والعمود السلطان والاطناب والاوتاد الناس لا يصلح بعضهم الا ببعض وقال ارد شير لابنه يا بنى ان الملك والدين اخوان لا غنى لاحدهما عن الآخر فالدين اس والملك حارس وما لا يكن له اس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع يا بنى اجعل حديثك مع اهل المراتب وعطيتك لاهل الجهاد وبشرك لاهل الدين وسرك لمن عناه امرك ولتكن من اهل العقل وكان يقال الدين والسلطان توامان

(الباب التاسع عشر فى خصال جامعة لامر السلطان)

قالوا ظفر الملك بعدوه على حسب عدله فى رعيته ونكوبه فى حروبه على حسب جوره فى عساكره واصلاح الرعية أنفع من كثرة الجنود وقالوا تاج الملك عفافه وحصنه انصافه وسلاحه كفافه ومالم يكن له اس فهو مهدوم ومالم يكن له حارس فضائع يا بنى اجعل حديثك مع سواد أدب ولا برمع شح ولا اجتناب محترم مع حرص ولا ولاية لحكم مع عدم فقه ولا سودد مع استقام ولا ثبات ملك مع تهاون وجهالة وزارة لما ولى أبو بكر رضى الله عنه خطب فقال أيها الناس انه لا أحد أقوى عندى من المظلوم حتى آخذه بحقه ولا أضعف من الظالم حتى آخذ الحق منه وقيل للاسكندر بم نلت ما نلت قال باستمالة الاعداء الاحسان الى الاصدقاء وقال بزرجمهر سوسوا احرار الناس بمحض الموتة والعامة بالرغبة والرهبة والسفلة بالمخافة وقال الموبذان السياسة التى بها صلاح الملك الرفق بالرعية وأخذ الحق منهم فى غير مشقة وسد الفروج وأمن السبل وان ينصف المظلوم من الظالم ولا يحمل القوى على الضعيف وقالوا الوالى من الرعية كالروح من الجسد لا حياة له الا به وبعد الوالى من اصلاح الرعية مع افساد نفسه كبعد الجسد مع البقاء بعد ذهاب الرأس والسلطان خليق أن يعود نفسه الصبر على من خالف رأيه من ذوى النصيحة والتجرع لمرارة قولهم ولا ينبغى أن يحسد الاعلى حسن التدبير ولا ان يكذب لان أحدا لا يقدر على استكراهه ولا أن يغضب لان الغضب والقدرة لقاح الشر والندامة ولا أن يخل لانه أقل الناس خوفا من الفقر ولا أن يحقد لان قدره جل عن المجازاة ولا ينبغى للوالى أن يستعمل سيفه فيما يكفى فيه بالسوط ولا سوطه فيما يكفى فيه بالحبس ولا حبسه فيما يكفى فيه بالخفاء والوعيد وقال معاوية انى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا سوطى حيث يكفينى لسانى ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت اذا مدوها خليتها واذا خلوها مددتها ونحو هذا قول الشعبى كان معاوية كالجمل الطيب والجمل الطيب هو الحاذى بالشىء لا يضع يده الا حيث تبصر عينه وينبغى له أن يعلم رعيته أنه لا يصاب خيره الا بالمعونة له على الخير ولا ينبغى له أن يدع تفقد لطيف أمور الرعية

اتكالا على نظره فى جسيمها فانّ اللطيف موقعا ينتفع به وقد آتى الله ملكَ الدنيا سليمان بن داود عليهما السلام ثم تفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد لانّ التعاون باليسير أساس الوقوع فى الكبير وقد قال الشاعر

لا تحقرن شبيبا * كم يورث الشيب

وقالوا أصل الاشياء كلها شئ واحد ولا تدع مباشرة جسيم أمره فللجسيم موضع ان غفل عنه تفاقم ولا يلزم نفسه مباشرة الصغير أيدا فيضيع الكبير وقال زياد لحاجبه وليتك حجابى وعزلتك عن أربع المؤذن للصلاة وصاحب الطعام فانّ الطعام اذا أعيد سخنه فسد وصارخ الليل للشرط وصاحب البريد فانهما بالبريد ساعة يخرب عمل سنة وكان أبو العباس السفاح يقول لاعمامه الذين حتى لا ينتفع الا بالشدة ولا كثرن من الخاصة مما أمنتهم على العامة ولا غمدن سيفى حتى يسله الحق ولا عطين حتى لا أرى للعطية موضعا وقال أردشير لما كمل ملكه وأباد أعداءه انما يحكم حاكم على العقول كالعبر ولم يحكمها محكم كالتجربة وليس شئ أجمع للعقل من خوف وحاجة يتأمل بهما صفحات حاله وكان عمر يقول ان هذا الامر لا يصلح له الا اللين فى غير ضعف والقوة فى غير عنف وقال الاصمعى قال لى الرشيد هل تعرف كلمات جامعات لمكارم الاخلاق يقل لفظها ويسهل حفظها تكون لاغراضها لفقا ولمقاصدها وفقا تنهج المستبهم وتوضح المستعجم قلت نعم يا أمير المؤمنين دخل أكثم بن صيفى حكيم العرب على بعض ملوكها فقال له انى سائلك عن أشياء لا تزال بصدرى محتلجة وما تزال الشكوك عليها واجفة فأتبانى بما عندك فيها فقال أتيت للعلم سألت خيرا واستنبأت بصيرا والجواب يشفعه الصواب فسل عما بدا لك قال ما السودد قال اصطناع المعروف عند العشيرة واحتمال الجريرة قال فما الشرف قال كف الاذى وبذل الندى قال فما المجد قال حمل المغارم وابتناء المكارم قال فما الكرم قال صدق الاخاء فى الشدة قال فما العز قال شدة العضد وكثرة العدد قال فما السماحة قال بذل النائل وحب السائل قال فما الغنى قال الرضا بما يكفى وقلة التمنى قال فما الرأى قال اب تعينه تجربة قال له الملك أو ريت زنادى بصيرتى وأذكيت نار حيرتى فاحتكم قال لكل كلمة جمجمة قال هى لك قال الاصمعى فقال لى الرشيد ولك بكل كلمة بدرة فانصرفت بثمانين ألفا وكان قس بن ساعدة يقف على قيصر فيكرمه فقال له يوما ما أفضل العقل قال معرفة الرجل بنفسه قال ما أفضل العلم قال وقوف الرجل عند علمه قال فما أفضل المروءة قال استبقاء الرجل ماء وجهه قال فما أفضل المال قال ما قضى به الحقوق

(الباب الموفى عشرين فى الخصال التى هى أركان السلطان)

قال أبو جعفر المنصور وما كان أحوجنى أن يكون على بابى أربعة لا يكون على بابى أغض منهم قيل من هم يا أمير المؤمنين قال هم أركان الملك لا يصلح الملك الا بهم كما أن السرير لا يصلح الا بأربع قوائم فان نقص قائمة واحدة عابه ذلك أحدهم قاض لا تأخذه فى الله لومة لائم والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فانى غنى عن ظلمهم ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه آه قال من هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب يخبر هؤلاء على الصحة وقال عمر بن الخطاب

رضى الله عنه لا يصلح الوالى الا بأربع خصال ان نقصت واحدة لم يصلح له أمر ولا نهى قوة على جمع المال من أبواب حله ووضعه فى حقه وشدة لا جبروت فيها ولين لا وهن فيه

(الباب الحادى والعشرون فى بيان حاجة السلطان الى العلم)

قال ابن المقفع اذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك فان زوال الكرامة بزوالهما ولكن يعجبك ان أكرموك لادب أو علم أو دين *اعلم أرشدك الله أن أكثر الناس حاجة الى التفقه أكثرهم عيالا واتباعا وحشما وأصحابا والخلق مستمدون من السلطان ماله من الخلائق السنية والطرائق العلية مفتقرون اليه فى الاحكام وقطع التشاجر وفصل الخصام فهو أحوج خلق الله الى معرفة العلوم وجمع الحكم وشخص بلا علم كبلد بلا أهل وأفضل ما فى السلطان خصوصا وفى الناس عموما محبة العلم والتحلى به والشوق الى استماعه والتعظيم لحملته فان ذلك دليل على قوة الانسانية فيه وبعده من البهيمة ومضاهاته للعالم العلوى وهو من أوكد ما يتحبب به الى الرعية واذا كان الملك خاليا من العلوم ركب هواه وأضر برعيته كالدابة بلا رسن تمرحى فى غير طريق وقد تسالف ما تمر به *واعلم أن زهر الفضائل وحسن المناقب وبهاء المحاسن وماضا دذلك من قبيح المثالب وفحش الرذائل كل ذلك يظهر عليك ويعظم منك بقدر ما أوتيته من علو المنزلة وشرف الحظوة فيكون حسنك أحسن كما يكون قبحك أقبح وليس أحد من أهل الدرجات السنية والمراتب العلية أحوج الى مجالسة العلماء ومصحبة الفقهاء ودراسة كتب العلوم والحكم ومطالعة دواوين العلماء ومجامع الفقهاء وسير الحكماء من السلطان وانما كان كذلك من وجهين *أحدهما انه قد نصب نفسه لممارسة أخلاق الناس وفصل خصوماتهم وتعاطى حكوماتهم وكل ذلك يحتاج الى علم بارع ونظر ثاقب وبصيرة بالعلم قوية ودراسة طويلة فكيف يكون حاله لو لم يعد لهذه الامور عدتها ولم يقدم لها أهبتها والثانى أن من سواه من الناس لا يعدمون من ينكر عليهم ويعارضهم ويذكرهم مساويهم ويخالفهم فى مذاهبهم فيكون ذلك مما يعينهم على رياضة أنفسهم وتعلمهم مراشدهم ومناظرة الاكفاء ومعاشرة النظراء تلقيح العقول وتهذيب النفوس وتدريب لأخذ الاحكام بخلاف السلطان فان ارتفاع درجته يقطع عنه جميع ذلك اذ لا يلقاه ولا يجالسه الا معظم لقدره مبجل لشأنه وساترلما ويه ومادح له بما ليس فيه وانما جوابه لهم صدق الامير وعلى قدر المرتبة يكون علو السقطة كما ان على قدر ارتفاع الحائط يكون صوت الوجبة

*(فصل) *يا أيها الملك ليس أحد فوق أن يؤمر بتقوى الله ولا أحد دون أن يؤمر بتقوى الله ولا أحد أجل قدرا من أن يقبل أمر الله ولا أرفع خطرا من أن تعلم حكم الله ولا أعلى شأنا من أن يتصف بصفات الله ومن صفات الله العلم الذى وصف به سبحانه نفسه ومدح بسعته فقال تعالى وسع كرسيه السموات والارض والكرسى هو العلم والكراسى هم العلماء واذا كان العلم فضيلة فرغبة الملوك وذوى الاخطار والاقدار والاشراف والشيوخ فيه أولى لان الخطأ فيهم أقبح والابتداء بالفضيلة فضيلة (حكى) أن ابراهيم بن المهدى دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون فى الفقه فقال ياعم ما عندك فيما يقول هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين شغلونا فى الصغر

واشتغلنا الكبير فقال المأمون لم لا تتعلم اليوم فقال أو يحسن بمثلي طلب العلم فقال نعم والله لأن تموت طالبا للعلم خير من أن تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن العلم قال ما حسنت بك الحياة * وروى أن بعض الحكماء رأى شخصا يطلب العلم ويحب النظر فيه ويستحي فقال يا هذا أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله ولان الصغير أعذر وان لم يكن في الجهل عذره وفي منثور الحكم جهل الشباب معذور وعلمه محقور فاما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه عليه أفضح لان علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما كان الصغير أفضل منه لان الامل فيه أقوى وحسبك نقيصة في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل أفضل منه وكاذكر لمن حاجة الشيخ الى العلم لحاجة السلطان اليه أكثر ودواعيه الى اكتسابه أشد لان من عداه انما تخصه نفسه الواحدة فيقرب عليه تحصيل ما يقوم بها والملك منتصب لسياسة أهل مملكته وتعليمهم وتقويم أودهم فهو الى العلم أحوج قال الشاعر

اذا لم يكن من السنين مترجما * عن الفضل في الانسان سميته طفلا
وما تنفع الاعوام حين تعدها * ولم تستفد فيهن علما ولا عقلا
أرى الدهر من سوء التصرف ماثلا * الى كل ذي جهل كان به جهلا

وقال بعض الحكماء كل عز لا يوطده علم مذلة وكل علم لا يؤكده عقل مضلة وكيف يستكف ملك آوذ ومنزلة علية عن طلب العلم وهذا موسى عليه السلام ارتحل من الشام الى مجمع البحرين في أقصى المغرب على بحر الظلمات الى لقاء الخضر ليتعلم منه فلما ظفر به قال هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا هذا وهو نبي الله وكليمه وهذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته من جميع خلقه قد أوصاه ربه وعلمه كيف يستنزل ما في خزانته فقال وقل رب زدني علما ولو كان في خزانته أشرف من العلم لنبهه عليه وهذا آدم عليه السلام لما فخرت الملائكة بتسبيحها وتقديسها ربها فخر آدم بالعلم فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين فلما عجزوا أمرهم بالسجود له وأخلق بخصلة تستدعي السجود لحاملها أن يتنافس فيها كل ذي لب وهذا فصل الخطاب لمن تدبره ولا تتعين لك عذرا بما روي في بعض الاخبار مثل الذي يتعلم العلم في الصغر كالوشم على الصخر والذي يتعلم في الكبر كالنقش على الماء فقد سمع الاحنف رجلا يقول التعلم في الصغر كالنقش في الحجر فقال الكبير أكبر عقلا ولكنه أشغل قلبا ففحص عن المعنى ونبه عن العلة * وقد كان أصحاب النبي عليه السلام يسلمون شيوخا وكهولا وأحداثا وكانوا يتعلمون العلم والقرآن والسنن وهم يحورون العلم وأطوار الحكم والنقه غير أن العلم في الصغر أرسخ أصولا وأبسق فروعا وليس اذا لم يحزه يفوته كله * قال رجل لابي هريرة رضي الله عنه اني أريد ان أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال أبو هريرة كفى بتركك له تضييعا وبعض الخير خير من كل الشر وانما مثل الجاهل تحت غب الجهل مثل الحمال تحت حمل ثقيل فانه كلما أعيا نقصه قليلا قليلا يوشك أن ينقصه كله فيستريح منه وان هو لم يطرح القليل حتى يطرح الكثير فأوشك أن يصرعه حمله وكذلك الجاهل اذا تعلم قليلا قليلا يوشك أن يأتي على بقيته وان لم يتعلم في الكبر لما فاته في الصغر فأوشك به أن يموت تحت غب الجهل

* (الباب الثاني والعشرون في وصية علي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) *

رضى الله عنه لكميل بن زياد فى العلم وأهله قال كميل بن زياد النخعى خرجت مع على بن أبى طالب رضى الله عنه الى الجبانة فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال يا كميل بن زياد ان القلوب اوعية فخيرها اوعاها للخير احفظ عنى ما اقول لك الناس ثلاثة فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيؤا بنور العلم ولم يلجؤا منه الى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم يزكو على الانفاق والمال تنقصه النفقة والعلم حاكم والمال محكوم عليه ومحبة العالم دين يدان الله به يكسبه الطاعة فى حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته مات خزان الاموال وهم أحياء والعلماء باقون مابقى الدهر أشخاصهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة ها ان ههنا وأشار بيده الى صدره لعلما جما لو أصبت له حملة بلى قد أصبت لقنا غير مامونا عليه يستعمل آلة الدين للدنيا فيستظهر بحجج الله تعالى على كتابه أو كما قال وبنعمته على عباده أو منقادا لاهل الحق لا بصيرة له فى احبائه ينقدح الشك فى قلبه باول عارض من شبهة الا لا ذا ولا ذاك أو مهوما باللذات سريع الانقياد للشهوات أم آخر شانه جمع المال والادخار ليس من رعاة الدين أقرب شبها بهما الانعام السائمة اللهم فكذلك يموت العلم بموت حامليه ولكن لن تخلو الارض من قائم لله سبحانه بحجة لئلا تبطل حجج الله وبيناته ومن أولئك وأين أولئك أولئك الاقلون عددا الاكثرون عند الله قدرا بهم يحفظ الله حججه حتى يزرعوها فى قلوب أشباههم ويودعوها فى صدور نظرائهم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعره المترفون واستأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأجساد أرواحها متعلقة بالمحل الاعلى أولئك خلفاء الله فى بلاده ودعاته الى دينه آه شوقا الى رؤيتهم

(الباب الثالث والعشرون فى العقل والدهاء والخبث)

قد ذكرت فى كتاب الاسرار حقيقة العقل وأقسامه ومحله وأحكامه بما لا مزيد عليه ونذكر ههنا منافعه ومداركه ولباب ما تحرر من القول فيه انه الاستشهاد بالشاهد على الغائب فمن كان فى طوقه ان يستدل بما شاهد على ما غاب عنه كان معه عقل ويسمى عاقلا عند الموحدين وبه يتوجه التكليف عليه وذلك ان من نظر الى قصر قد كمل بنيانه وحصنت أركانه وجعلت فيه من الآلات ما يكتفى به ساكنوه فاشرف عليه انسان فرأى بيوتا مقطوعة وأبوابا منصوبة وقرشا مفروشة وزرابى مبثوثة وموائد موضوعة وصحافا مصفوفة وأرائك منصوبة وحجلا مشدودة وطستا وأباريق وبيوت ماء ومياز يب تصب الماء وتحتها بلاليع لغيض الماء الى سائر ما يستعد العقلاء للانتفاع ثم فكر هل هذا القصر بما حواه صنعة فاذر صانع عالم حى أو أتفق لنفسه وتركب على صورته بلا صانع فيه تفكر فى عقله بالضرورة استحالة وجوده من غير صانع وانه مفتقر الى صانع صنعه وهذا علم بحجم على العقول لا يفتقر الى نظر واستدلال وانما كثرت لك هذه الامثلة لان ما فى الانسان من الاعضاء ولطيف الصنعة والعجائب أكثر مما فى القصر باضعاف مضاعفة فاذا نظر الى ما فى نفسه فرأى فيها من العجائب والتركيب والمنفعة كل عضو وتخصيصه اما بجلب نفع أو دفع ضر فانه نظره فى عضو واحد مثلا وهو فمه فيرى فى

أوله اسنانا تشبه القاس تصلح للقطع وفى آخره طواحين ضرسة تصلح للطحن وشدقين كأنهما
مغال الحى يمنعان ان ينهرق الطعام الى خارج ولسانا يرد ما انقلب من الطعام اليه على
الطواحين ثم يلى ذلك بلعوم لازدراده بعد الطحن على ما بدا فى تامل ان هذه الخلقة ما اتفقت
بنفسها اتفاقا بل هى مفتقرة الى قصد قاصد وجعل جاعل وعلى هذا التطوذهبنا نذكر منفعة
كل عضو لو وقفت على العجب ولكن تركناه كراهية التطويل وعلى هذا المعنى نبه الكتاب المهيمن
فقال تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون وبهذه العبرة تستقل العقول باثبات الصانع وتستغنى
عن النظر فى الجواهر والاعراض فالعلم المفيد لاثبات الصانع فى الشاهد مثل البناء والنجار
والخياط وأشباههم بعد النظر فى صناعتهم على اضطرار والعلم المثبت للصانع سبحانه عند
النظر فى حدوث العالم علم استدلال اعتبارا للغائب بالشاهد اذ لا فرق فى العقول بين صنعة
وصنعة فى اقتضاء صانع وانما كان العلم فى الشاهد ضروريا لان الانسان لم يزل يرى البناء يبنى
والخياط يخيط والنجار ينجر الخشب ولم تزل العقلاء القديم سبحانه يخلق ويخترع وانما استفادوه
من النظر فى الشاهد فان قيل فاى العلمين أقوى فى النفوس وأثبت فى العقول العلم بالصانع النظر
فى السرير واقتضائه للنجار أم العلم بالالة عند النظر فى السموات والارضين وما بينهما فالجواب ان
هذا يستدعى تفصيلا وتدقيقا وليس هذا الكتاب موضوعا لذلك فحينئذ نعلم ان معه عقلا
غريزيا ونسميه عاقلا ونوجه التكليف عليه وهو العقل التكليفى واذا ثبت هذا فاعلم ان الله
تعالى خلق الخلق على أربعة انحاء ملائكة وآدميين وشياطين وبهائم فاما الملائكة فعقول
بلا شهوات ولا هوى يقارنه وأما البهائم فشهوات بلا عقول وأما الشياطين والجن فركب
الله فيها العقول والشهوات والهوى وهكذا ركب فى بنى آدم العقل والهوى والشهوة فغلبت
شهوات الشياطين وهواهم عقولهم فقطعوا أوقاتهم بالاخلاق المذمومة بالكبر والعجب
والمقت والفخر والدعوى والحسد والاذية وسائر الاخلاق المهلكة وأما البهائم فتنقضت
اوقاتها فى شهوات البطن والفرج واما الآدميون فركب فيهم عقول الملائكة واخلاق
الشياطين وشهوات البهائم فمن غلب عقله هواه منهم فكأنه من عالم الملائكة كالانبياء والرسل
والاولياء والاصفياء وقليل ماهم واما من كان عقله مغلوبا بهواه وشهواته فان كان ذلك من
المباحات من المطاعم والملابس والمراكب والنساء والخيل المسومة والانعام والحرث فأكل
وتمتع بعد ان كسبه من حله فهذا من عالم البهائم وانما الحقناه ببعالم البهائم لانه لا تكليف على
البهائم وكذلك هذه المباحات لا حرج فى الاستمتاع بها بعد ان يكون كسبه من حله وان كان
الغالب عليه اخلاق الشياطين من الكبر والعجب والحسد والغش الى سائر الاخلاق المذمومة
فهذا من عالم الشياطين وان اجتمع فى الشخص افراط الشهوات واتباع الهوى والاخلاق
المذمومة فيكون آدميا فى صورته شيطانا فى اخلاقه بهيمة فى شهواته فلا يصلح للصحبة وان ثبت
هذا فاعلم ان هذا العقل الغريزى اطول رقدة من العين واحوج الى الشحذ من السيف
* (فصل) * فاما العقل المكتسب وهو نتيجة العقل الغريزى فهو ثقابة المعرفة واصابة الفكرة
وليس له حد ننتهى اليه لانه ينمو اذا استعمل وينقص ان اهمل وتماؤه يكون باحد وجهين
اما ان يقارنه من مبدا النشوء ذكاء وحسن فطنة كالذى قال الاصمعى قلت لغلام حدث من

اولاد العرب كان يحسدني وامتعني الله بفصاحته وملاحته ايسرك ان يكون لك مائة الف درهم وانك احمق قال لا والله قلت ولم قال اخاف ان يجني علي حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى علي حمقي فاستخرج هذا الصبي بفرط ذكائه مايدق على من هو اكبر منه سنا وقيل لبعض الصبيان اللئاب قال فكاني عيسى بن مريم وقد قالت الحكماء آية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم وليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية الا ترى ان اياس بن معوية الذي يضرب المثل بذكائه قال لابيه وهو طفل وكان ابوه يؤثر أخاه عليه يا أبت تعلم ماشلى ومثل أخي معك انا كفرخ الحمام أقبح مايكون اصغر مايكون وكلما كبر ازداد ملاحة وحسنا فتبقى له العلالي ويتخذه المربعات ويستحسنه الملوك ومثل أخي مثل الخبص أملح مايكون أصغر مايكون وكلما كبر قبح وصار الى القهقرى انما يصلح لحمل الزبل والتراب والوجه الثاني مايصلح لذوي الحنكة وصحة الروية لطول ممارسة الامور وكثرة التجارب ومرور الدهور على اسماعهم وتقلب الايام وتصرف الحوادث وتناسخ الدول قد هرت على عيونهم وجوه الغير وتصدت لاسماعهم أنواع الاخبار وآثار العبر قال بعض الحكماء كفى بالتجارب تاديبا وبتقلب الايام عظة وقالوا التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل ولذلك حمدت اراء الشيوخ حتى قالوا المشايخ اشجار الوقار وينابيع الاخبار لايطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم وعليكم باراء الشيوخ فانهم ان عدموا ذكاء الطبع فقد افادتهم الايام حنكة وتجربة وقد قال الشاعر

الم تران العقل زين لاهله * ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر

اذا طال عمر المرء في غير آفة * افادته الايام في كرها عقلا

غير ان للعقل آفات كما قال بعض الحكماء كيف يرجو العاقل النجاة والهوى والشهوة قد اكتنفاه والهوى ابعد من ان يتفذ فيه حيلة الحازم المحتال وهو انهض مسلكا في الجنان من الروح في الجثمان واملك بالنفس من النفس والمالك للشيء ولهذا قيل كم من عقل اسير عند هوى امير فمن احب ان يكون حرا فلا يهوى والا صار عبدا كما قال علي بن الجهم

انفس حرة ونحن عبيد * ان رق الهوى لرق شديد

واختلف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى وزاد في الانسان هل يكون فضيلة ام لا فقال معظم العقلاء انه فضيلة اذا كان بمجموع آحاد والآحاد فضائل ولا شك ان كثرة الفضائل فضيلة اما الشيء المحدود فتكون الزيادة فيه نقصا من المحدود كالتهور في الشجاعة والتبذير في الكرم فاما الزيادة في العقل المكتسب فزيادة علم بالامور وحسن اصابة بالظنون ومعرفة مالم يكن بما قد كان وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال افضل الناس اعقل الناس وقال عليه السلام العقل حيث كان الف ما لوف وقال القاسم بن محمد من لم يكن عقله اغلب خصال الخير عليه كان حتفه في اغلب الخصال عليه ولما مات بعض الخلفاء احتشدت الروم واجتمعت ملوكها وقالوا الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض فيمكننا الغرة منهم والوثبة عليهم وضربوا في ذلك مثاوروات وتراجعوا فيه بالمناظرات واجمعوا على انه فرصة الدهر وغرة العصر وكان رجل منهم من ذوي الراي والمعرفة غائبا عنهم فقالوا من الحزم عرض الراي عليه فلما اخبروه بما اجمعوا

عليه قال لا ارى ذلك فصوبا فسألوه عن علة ذلك فقال غدا اخبركم ان شاء الله فلما اصبحوا غدوا عليه للوعد وقالوا القد وعدتنا قال فقم فاعرباحة اركابين عظمين قد اعدهما ثم حرش بينهما والب كل واحد على الآخر فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وارسل منه على الكلبين ذئبا عنده قد اعده فلما ابصراه تركا ما كانا عليه وتالفت قلوبهما ووثبا جميعا على الذئب فنالا منه ما أحبا ثم أقبل الرجل على أهل المجلس فقال لهم مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب لا يزال الهرج والقتال بينهم ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم فاذا ظهر لهم عدو من غيرهم تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله وتفرقوا عن رأيهم وأما المذموم في هذا الباب فصرف العقل الى الدهاء والمكر قال الشعبي ودهاة العرب ستة معاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن امية وقيس بن سعد بن عبادة وعبد الله بن بديل بن ورقاء وقال الاصمعي كان معاوية يقول أنا للاناة وعمرو للبديهة وزياد للصغار والكبار والمغيرة للامر العظيم قال قبيصة بن جابر ما رأيت اعطى لجزيل مال ولا لحقير سلطان من طلحة بن عبيد الله ولا رأيت أثقل حلما ولا اطول اناة من معاوية ولا رأيت أعجب للرجال ولا أبذلهم حين يجهمون من عمرو بن العاص ولا اشبه سرا بعلانية من زياد ولا ان المغيرة كان في مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها الا بالمكر خرج من ابوابها كلها (وقال) أبو الدرداء قال النبي عليه السلام يا عويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت بابي وامي ومن لي بالعقل قال اجتنب محارم الله وأد فرائض الله تكن عاقلا ثم تنقل صالح الاعمال تزدد في الدنيا عقلا وتزدد من ربك قربا وعليه عزا (ويروى) لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه شعر

ان المكارم اخلاق مطهرة * فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها * والجود خامسها والعرف ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم اني لا أصدقها * ولست أرشد الا حين أعصيها
والعين تعلم في عيني محدثها * ان كان من حزبها أو من أعاديها

وقال بعض الحكماء العاقل من عقله في ارشاد ومن رأيه في اسداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في اغواء نقوله سقيم وفعله ذميم فاما من صرف فضل عقله الى الدهاء والمكر والشكر والحيل والخديعة كالحجاج وزياد واشباههما فمذموم وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه است بالخب والخب لا يخدعني وقال المغيرة كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل من أن يخدع وأعقل من أن يخدع والموصوف بالدهاء والمكر مذموم وصاحبه محذور يتخاف غوائله وتحذر عواقب سبائله وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الاشعري ان يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد أعن موجدة أو خيانة يا أمير المؤمنين قال لا عن واحدة منهما ولكن كرهت ان أحمل الناس على فضل عقلك وكتب زياد الى معاوية رضي الله عنه ان العراق في شمالي وبيتي فارغة فولني الحجاز اكفك أهله فبلغ ذلك ابن عمر فقال اللهم اكفه فطعن في أصبعه بعد أيام فمات فحسن وان كان رغب عن الدهاء والمكر فاما

نرغب فى الحيلة ونرضى بها والاتساع فى الحيلة مما تواصى به العقلاء قديما وحديثا وليس شئ من أمور الدنيا لطالب الرفعة وباغى الوسيلة ومرتادا ى أمر كان دق أو جل خير من الحيلة وأضعف الحيلة أنفع من كثرة الشدة * وقالت الحكماء ملاك العقل الحيلة والتأنى للسبب الضعيف والقوى من الامور (وروى) ان رجلا وقف لكسرى فقال أنا أصنع ما تعجز الخلائق عنه قال ما هو قال يشد برجلى فيل طرفه برقبة الفيل وبرجلى الاخرى كذلك ويشد طرفه برقبة الفيل ثم يساق الفيل بالضرب والزجر فلا اتزحزح ثم طلب ان يفعل ذلك باربع من الفيلة فجربت بحضرتهم فقصموه شطرين فقال كسرى من لم يكن أكبر مافيه عقله هلك باكبر مافيه فنظمه بعض الشعراء فقال

من لم يكن أكبر عقله * أهلكه أكبر مافيه

(وسمعت) استاذنا أبا الوليد يحكى ان رجلا استأذن على هرون الرشيد وقال انى أصنع ما تعجز الخلائق عنه قال الرشيد هات فاخرج انبوبة قصب فيها ابرة عدة ثم وضع واحدة فى الارض وقام على قدميه وجعل يرمى ابرة ابرة من قامته فتقع كل ابرة فى عين الابرة الموضوعة حتى فرغ دسته فامر الرشيد بضربه مائة سوط ثم أمر له بمائة دينار فسئل عن جمعه بين الكرامة والهوان فقال وصلته بلجودة ذكائه وأدبته كى لا يصرف فرط ذكائه فى الفضول ومن زعم أن العقل المكتسب اذا تناهى لا يكون فضيلة قال لان الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة كالكرم الذى هو متوسط بين البخل والتبذير والشجاعة وسط بين الجبن والتهور (وقالت الحكماء للاسكندر) أيها الملك عليك بالاعتدال فى كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز (وفى الحديث) ان النبى عليه السلام قال خير الامور أوساطها (وقال) على بن أبى طالب رضى الله عنه خير الامور الاوسط اليه يرجع العالى ومنه يلحق التالى قالوا ولان زيادة العقل تفضى بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذموم (قلنا) هذا كله باطل بما قدمناه لنصرة القول الاول وهو منقوض بالعقل الغريزى وبالعلوم وبسائر الفضائل وأما قولهم انه يفضى بصاحبه الى الدهاء والمكر قلنا الدهاء والمكر كسب معان أخر غير العقل ليست من لوازم العقل فان شاء تداهى ومكر وان شاء كف عما يقول فى كل شر يكتسبه العاقل باختياره وليس عقله أوقعه فيه بل اخا أوقعه فيه قلة عقله * وكان بزرجمهر لما فرغ من كتاب أمثاله ونسق كل باب على حياله يقول ليس العجب ممن حفظ هذه الامثال فصار عالما انما العجب ممن حفظها ولم يصر عالما وأنا أقول ليس العجب ممن قرأ كتابى هذا وصار مهذبا كاملا انما العجب ممن قرأه ولم يصر مهذبا كاملا

(الباب الرابع والعشرون فى الوزراء وصفاتهم والجلساء وآدابهم)

قال الله تعالى فى قصة موسى عليه السلام واجعل لى وزيرا من أهلى فلو كان السلطان يستغنى عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران ثم ذكر حكمة الوزراء فقال اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى دلت الآية على ان موضع الوزارة أن تشد قواعد المملكة وأن يفضى اليه السلطان بسجره وبجره اذا استكملت فيه الخلال المحمودة ثم قال كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا دلت هذه الكلمة على ان بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة

تتظلم أمر الدنيا وأمور الآخرة وكان أشجع الناس يحتاج الى السلاح وأفره الخيل الى السوط وأحد الشفار الى المسن كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم الى الوزير (وروى أبو سعيد الخدري) قال ما بعث الله نبيا ولا استخلف خليفة الا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله تعالى واعلم ان اشتقت الوزارة من الوزر وهو الثقل يريد انه يحمل من أمر المملكة واعبائها وأثقالها مثل الاوزار * أسعد الملوك من له وزير صدق ان نسي ذكره وان ذكر أعانه * وقال وهب بن منبه قال موسى عليه السلام لفرعون آمن ولك الجنة ولك ملكك قال حتى أشاور هامان فشاوره في ذلك فقال بينما أنت الها تعبد اذ صرت تعبد فانف واستكبر وكان من أمره ما كان * وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن ابي مسلم لا يأمر بخير الا ولبس القرناء شر قرين لشر خدين وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة الوزير عون على الامور وشريك في التدبير وظهير على السياسة ومفزع عند النازلة الوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه * وفي الامثال نعم الظهير الوزير (واعلم) ان أول ما يستفيد الملك من الوزراء أمر ان علم ما كان يجهله ويقوى عنده علم ما كان يعلمه فيزول شكه واول ما يظهر من السلطان بقوة تمييزه وجودة عقله في استخياب الوزراء واستنقاد الجلساء ومحادثة العقلاء فهذه ثلاث خلال تدل على كماله وبها يجمل في الخلق ذكره ويجل في العقول قدره وترسخ في النفوس عظمته والمرء موسوم بقرينه * وكان يقال حلية الملوك وزراؤهم وزراؤهم * وفي كتاب كليلة ودمنه لا يصلح السلطان الا بالوزراء والاعوان الا بالمودة والنصيحة والمودة والنصيحة الا بالسر والعفاف وأعظم الاشياء ضررا على الناس عامة وعلى الولاة خاصة أن يحرموا اصالح الوزراء والاعوان فتكون اعوانهم غير ذي جدوى وغناء ويحذر الملك ان يولي الوزارة غير المتجرين كي لا تضيع الامور كما يحذر ان يتطبب بغير طبيب بصير مأمون (قال شريح بن عبيد) لم يكن في بني اسرائيل ملك الا ومعه رجل حكيم اذا رآه غضبان كتب له ثلاث صحائف في كل صحيفة ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة فكلما غضب الملك ناوله صحيفة حتى يسكن غضبه (وقال اردشير) يحق على الملك أن الطف ما يكون نظرا أعظم ما يكون خطرا ولا يذهب حسن أثره في الرعية خوفه لها ولا يستغني بتدبير اليوم عن تدبير غد وأن يكون حذره للعالقين أكثر من حذره للمتباعدين وان يتقي بطانة السوء أشد من اتقائه العامة ولا يطمعن في اصلاح العامة الا باصلاح الخاصة (وقال اردشير) لكل ملك بطانة حتى يجمع بذلك جميع المملكة فاذا أقام الملك بطانة على حال الصواب أقام كل امرئ منهم بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على الصلاح عامة الرعية * ومثال الملك الخير والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافي فيه القساح فلا يستطيع المرء دخوله وان كان سايحا وكان الى الماء محتاجا ومثل السلطان مثل الطبيب ومثل الرعية كمثل المرضى ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والاطباء فان كتب السفير بطل التدبير وكان السفير اذا أراد أن يقتل أحد من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه فاذا اسقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل كذلك الوزير ينقل الى الملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك فن ههنا شرطنا أن يكون الوزير

صدوقا فى لسانه عدلا فى دينه مأمونا فى الخلافة بصيرا بامور الرعية وتكون بطانة الوزير من أهل الامانة والبصيرة ويحذر الملك أن يولى الوزارة لئيما فالئيم اذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالاشراف وتكبر على ذوى الفضل * ولما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتب الحجاج يزيد بن ابى مسلم قال له عمر بن عبد العزيز أسألك بالله يا أمير المؤمنين أن لا تحيى ذكر الحجاج باستكتابك اياه فقال يا أبا حفص انى لم أجد عنده خيانة دينار ولا درهم قال عمر أما أنا وجدت من هو أعف منه فى الدينار والدرهم قال ومن هو قال ابليس ما مس دينارا ولا درهما وقد أهلك هذا الخلق (ودخل) رجل له عقل وأدب على بعض الخلفاء فوجد عنده رجلا ذميا كان الخليفة يميل اليه ويقربه فقال

يا ملكا طاعته فى الورى * وحبه مفترض واجب
ان الذى شرفت من أجله * يزعم هذا انه كاذب

وأشار الى الذمى فاسئله يا أمير المؤمنين عن ذلك فسأله فلم يجد بدا من أن يقول هو صادق فاعترف بالاسلام * لا يعرف وزير الملك ماله وما عليه حتى يراعى من صاحبه الوائق به ما يراعيه العاشق الغيور من المعشوقة المتهومة (وكان) بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع وقال لوزيره اذا رأيتنى غضبانا فادفع الى رقعة فكان فى الواحدة انك لست بالله وانك ستموت وتعود الى التراب فيأكل بعضك بعضا وفى الثانية ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء وفى الثالثة اقض بين الناس بحكم الله فانهم لا يصلحهم الا ذلك * اذا كان الوزير يساوى الملك فى الرأى والهيبة والطاعة فليصرعه الملك فان لم يفعل فليعلم انه المصروع (وفى الامثال) اذا سكنت الدهماء خاف الوزراء * ولما كانت أمور المملكة عائدة الى الوزراء وازمة الملوك فى أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر فقالوا لا تفتقر عودة الامير اذا غشك الوزير واذا أحبك الوزير فلا تخش الامير ويقال الخرق مماراة الامراء ومعاداة الوزراء ورب أمر كرهه الامير فتم بالوزير وكم من أمر أراده الامير فثناه عنه الوزير وانما السلطان كالدار والوزير بابها فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها ازعج (وقال أنوشروان) لا يتم للملك أمره حتى يرفع نفسه عن كل عيب ويكون له جليس مأمون الغيب وخادم ناصح الجيب وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من الناظر فكما ان من لم ينظر الى المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه كذلك السلطان اذا لم يكن له وزير لا يعرف محاسن دولته وعيوبها وكاتب الملك مستقر اسراره ولسانه الناطق عنه فى آفاق مملكته والمخصوص بقربه ولزومه دون نظرائه ظهير الامير وزيره وزينه حاجبه ولسانه كاتبه ورسوله عينه الكتابة قوام الخلافة وقرينة الرياسة وعمود المملكة * للكاتب على الملك ثلاثة أشياء رفع الحجاب عنه وبثهم الوشاة عليه ويفشى سره اليه (وقد قالت الحكماء) لا يطمعن ذوا الكبر فى الثناء ولا الخب فى كثرة الصديق ولا السيئ الادب فى الشرف ولا الشحيح فى البر ولا الحريص فى قلة الذنوب ولا الملك المتهاون الضعيف الوزراء فى بقاء الملك وكما ان المرآة لا تريك وجهك الا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدا كذلك الامير لا يكمل أمره الا بجودة عقل الوزير وصحة فهمه وصفاء نفسه ونقاء قلبه (ومن شروط الوزير) أن يكون مكين الرحمة

الخلق ركابهم لياسر بحمته مايجرحه السلطان بغلظته (ومن شروطه) أن يكون نقي الجيب ناصح القلب لايقبل دقيقة ولايكتم نصيحة * وقال بعض الملوك لوزيره لاتكونن الى ماتسرني به أسرع مبادرة منك الى اذاري فيما يخاف على منه * وقال بعض الملوك اعط من أنالك بما تكره كما تعطي من أنالك بما تحب فان من أندركن بشر (ومن شروطه) أن يكون معتدلا كامل تهامة لاحرولاقر وموقع الوزير من الملك موقع الملك من العامة وكان السلطان اذا صلح صلحت الرعية واذا فسد فسدوا كذلك الوزراء اذا فسدوا فسد الملك واذا صلحوا صلح الملك (وكان) يقال آفة العقل الهوى وآفة الامير سخافة الوزير * وقال المقتدر بالله لوزيره على بن عيسى اتق الله يعطف علي ولاتعصه فيسلطني عليك * وقال المأمون لمحمد بن يزداد ياك أن تعصي الله فيما تتقرب به الي فيسلطني عليك (واعلم) انه ليس للوزير أن يكتم السلطان نصيحة وان استقلها وموقع الوزير من المملكة كموقع العينين من الانسان وكاليدين فانه اذا صح قبضهما وبسطهما صح التدبير واذا سقما دخل النقص على الجسد ولاتصلح الوزارة أن تكون في غير أهلها كما لايصلح الملك أن يكون في غير أهله وشر الوزراء من كان الاشرار أيضا له وزراء وبطانة ودخلاء * أوصت امرأة ابنها وكان ملكا فقالت يابني ينبغي للملك أن يكون له ستة أشياء وزير يثق برأيه ويفضي اليه باسراره وحصن يلجأ اليه اذا فزع وسيف اذا نازل الاقران لم يخنه وذخيرة تحقق المحل اذا نابه نائبة كانت معه وامرأة اذا دخلت عليه أذهبت همه وطباخ اذا اشتهى الطعام طبخ له مايشتهيه

* (الباب الخامس والعشرون في الجلساء وآدابهم) *

قال الله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال سبحانه ياويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا * وينبغي للملك أن يجالس أهل العقل والادب وذوي الرأي والحسب وذوي التجارب والعبر فمجالسة العقلاء تلقح العقل وماذته ولذلك حدث آراء الشيوخ فقال القدماء المشايخ أشجار الوقار وينابيع الاخبار لايعيش لهم سوم ولايسقط لهم وهم وقالوا عليك بآراء المشايخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لاسماعهم آثار الغير * وقالوا رأي الشيخ خير من مشهد الغلام (وقال عبد الملك) لجلسائه جنبوني ثلاثا لاتطروني فاني أعرف بنفسي منكم ولاتكذبوني فانه لارأي لكذوب ولانغتابوا عندي أحدا فيفسد قلبي عليكم (وقال بعض الحكماء) كفى بالتجارب تاديبا وبتقلب الايام عظة * وقالوا التجربة مرآة العقل والغرة غرة الجهل * وقد قال هرم بن قطبة وهو أحد حكماء العرب حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحديث السن الحديد النظر (وقال كثير من حكماء العرب) عليكم بمشاورة الشباب فانهم يتجون رأيا لم يعملوا طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم والمذهب الاول أصدق على العقول * وقال عبد العزيز بن زرارة لمعاوية عليك بمجالسة الالباء اعداء كانوا واصدقاء فان العقل يقع على العقل (وقال ابن عباس) مجالسة العقلاء تزيد في الشرف * وقال سفيان بن عيينة ان الرجل ممن كان قبلكم لياتي الرجل العاقل فيكون عاقلا أياما وقال مالك بن أنس مر سليمان بن داود عليهما السلام بقصر بارض مصر فوجد فيه مكتوبا

غدونا من قرى اصطخره * الى القصر فعلنا
فمن يسأل عن القصر * فجئنا وجدناه
يقاس المرء بالمرء * اذا ما هو ماشاه
وفي الشيء على الشيء * علامات واشباه
فلا تعجب أخا الجهل * واياك واياه
فكم من جاهل أردى * حليما حين آخاه

قال ووجدنا عليه نسرا واقعا فدعاه فقال من بنى هذا القصر قال لا ادرى قال كم لك منذ وقعت عليه قال تسعمائة سنة (وفي الامثال) يظن بالمرء ما يظن بخايله (ولما) حج عبيد الله بن جعفر نزل مكة ليلا فلما أصبح قال يا أهل مكة عرفنا خياركم من أشراركم في ليلة واحدة قالوا كيف ذلك قال نزلنا ومعنا خيار واشرار فنزل أخياركم على أخياركم وأشراركم على أشراركم فعرفناكم * واعلم أنه ليس الدخان على النار بادل من الصاحب على الصاحب * وقال الاوزاعي الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب ان لم تكن في مثله شانته * وقال مالك بن مسمع للاحنف بن قيس يا أبا بحر ما اشتاق الى غائب اذا حضرت ولا أتنفع بحاضر اذا غبت فاخذه ابراهيم بن العباس الكاتب فنظمه فقال

وأنت هوى النفس من بينهم * وأنت الحبيب وانت المطاع
وما بك ان بعدوا وحدة * وما معهم ان بعدت اجتماع

* وقال عبد الله بن طاهر المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والاخوان كنوز وافرة * وقال الاصمعي تناظر رجلان واعرابي حاضر فقال لاحدهما مناظرتك مثلك في الدين فرض والاستماع منك أدب ومجالستك زين ومعرفتك عز ومذاكرتك تلقيح للعقول وشحذ لخاطرك شرف وفخر * وقال السمسماني غنى مخارق بين يدي المأمون

واني لمشتاق الى ظل صاحب * يروقني ويصفو ان كدرت عليه
عذيري من الانسان لان جفوته * صفا لي ولا ان صرت طوع يديه

فطرب المأمون وقال ويحك يا مخارق خذ مني نصف الخلافة واعطني هذا الانسان * وقالت الحكماء النظر في عواقب الامور تاقيح العقول وقالوا العاقل لا تنقطع صداقته والاحمق لا تدوم مودته فاتخذ من نصحاء أصحابك مرآة لطبائعك وفعائلك كما تتخذ لوجهك المرآة المجاوة فانك الى صلاح طبائعك أحوج منك الى تحسين صورتك * وقال المأمون للحسن بن سهل نظرت في اللذات فوجدتها كلها محمولة على السبعة قال وما السبع يا أمير المؤمنين قال خبز الحنطة ولحم الغنم والماء البارد والثوب الناعم والرائحة الطيبة والفراش الوطي والنظر الى الحسن من كل شيء قال فاين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال قال صدقت وهي أولاهن * وقال هشام بن عبد الملك قد قضيت الوطر من كل شيء فاكلت الحلو والحامض حتى لا اجد منهما طعما وشممت الرائحة حتى لا أجد لها رائحة وأتيت النساء حتى ما أبالي مرأة أتيت أم حائطا فما وجدت شيأ ألذ من جليس يسقط بيني وبينه مؤنة التحفظ * وقال عبد الملك بن مروان قد قضيت الوطر من كل شيء الا من محادثة الاخوان في الليالي الزهر على

العلا الى آخره * وقال عبد الملك من قرب السفلة وأدناهم وباعد ذوى العقل وأقصاهم استحق الخذلان ومن منع المال من الحمد ورثه من لا يحمده ومن الكلام الشريف قول الحكماء ما ساس ذا القدرة الى دين بعجزه وحياء يكفه وعقل يعتقه * والى تجربة طويلة وعبر محفوظة والى اعراق تسرى اليه واعلاق تسهل الامور عليه والى جليس رفيق ورائد شفيق والى عين تنتظر العواقب وعقل يحاف الغير ومن لم يعرف يوم ظفر الايام لم يحترس من سطوات الدهر ولم يتحفظ من فلتات الزلل ولم يتعاظمه ذنب وان عظم ولا تناه وان سمج واذا رأيت من جليسك امرا تكرهه أو خلة لا تحبها أو صدرت منه كلمة عوراء أو هفوة عجراء فلا تقطع حبله ولا تصرم وده ولكن داوكله واستر عورته فايقه وابر أمن عمله قال الله تعالى فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون فلم يامر بقطعهم وانما أمر بالبراءة من عملهم السوء قال الشاعر

اذا راب منى مفصل قطعته * يقينت وما بى للنهوض مفاصل

ولكن أداويه فان صح سرنى * وان هو أعيا كان فيه تحامل

* وأتى رجل الى بعض الحكماء فشكا اليه صديقه وعزم على قطعه والانتقام منه فقال له الحكيم أتظنهم ما أقول لك فاكملك أمك من فورة الغضب ما شغلك عنه فقال انى لما تقول واع فقال أسر ورك بمودته كان أطول أم غمك بذنبه قال بل سرورى قال أحسناته عندك أكثر أم سيآته قال بل حسناته قال فاصفح بصالح أيامك عن ذنبه وهب لسرورك بجوده واطرح مؤنة الغضب والانتقام منه ولعلك لا تنال ما أملت فتطول مصاحبة الغضب وأنت صائر الى ما تحب

* (الباب السادس والعشرون فى بيان معرفة الخصال التى هى جمال السلطان) *

قد ذكرنا الخصال التى تجرى من المملكة مجرى الاساس من البنيان ونذكر الآن الخصال التى تجرى من المملكة مجرى التاج والطيلسان وحسن الهيئة والكمال فاكملها وقاعدتها العفو قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فلما نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم قال يا جبريل ما هذا قال لا أدرى حتى أسأل العالم فذهب جبريل ثم عاد فقال يا محمد ربك يقرئك السلام ويامرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك واعلموا ارشدكم الله ان الله تعالى أمر بالعفو وندب اليه وذكر فضيلته وحث عليه ووصف به نفسه فقال سبحانه والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين فاوجب الله تعالى محبته للعافين وأثنى عليهم بالاحسان فقال ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور وعزائم الامور من صفات المصطفين من الرسل قال الله تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل وقال سبحانه واذا ما غضبوا هم يغفرون وقال سبحانه وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم فاستعطف الخلق وندبهم الى أن يعفوا عن الجناة والظالمين والخاطئين كما يحبون أن يفعل الله بهم وقال فمن انتصر ولم يعف ولن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل فرفع الحرج عن المنتصر والمنتقم ولم يوجب له فضيلة ثم كشف الغطاء وأزاح العذر وصرح بتفضيل العافين على المنتصرين والواهبين حقوقهم على المنتقمين فقال

سبحانه وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وهذا نص لا يحتمل التأويل وتحقيق القول فى ذلك ان الانتصار عدل والعفو فضل وفضل الله أحب الينا من عدله لانه ان عدل علينا فآخذنا بحجته هلكنا وان عفا عنا برحمته تخلصنا ولو كان العدل يسع الخلائق لما قرنه الله بالاحسان فلما علم ان العدل استقصاء ومناقشة وذلك مما تضيق عنه النفوس وتحرج له الصدور ناط الاحسان بالعدل فقال ان الله يامر بالعدل والاحسان وأيضا فان الانتصار انتقام وعذاب بلا امتنان والعفو محبة من الله واحسان وأيضا فالانتصار سيئة والعفو حسنة قال الله تعالى ولا تستوى الحسنة ولا السيئة والدليل على ان الانتصار سيئة قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها غير انها انما سميت سيئة لما كانت نتيجة سيئة لانه لا يجوز الانتصار وهو كقول عمرو بن كلثوم التغلبى

الا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى الجزاء على الجهل جهلا وان لم يكن فى الحقيقة جهلا وعن هذا روت عائشة رضى الله عنها قالت ما رأيت النبى صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط غير انه اذا انتهكت شئ من محارم الله فلا يقوم لغضبه شئ (وروى) انه قال ينادى مناد يوم القيامة من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم الا من عفا فى الدنيا فان عفوت أيها الطالب كان أجرك على الله وان لم تعف كان حقك قبل من ظلمك ولان يكون أجرك فى ضمان الله تعالى أوثق من ان يكون قبل مخلوق وأيضا فان لم تعف نلت حقك بلا زيادة عليه وان عفوت كان حسنة أسديتها لاخيك والله تعالى يقول من جاء بالحسنة فله عشر امثالها وشفع الاحنف بن قيس فى محبوس الى السلطان فقال له ان كان مجرما فالعفو يسعه وان كان بريا فالعدل يسعه (وقيل) لبعض الكتاب بين يدى أمير المؤمنين بلغ أمير المؤمنين عنك أمر فقال لا أبالى فقيل له ولم لا تبالى قال ان صدق الناقل وسعنى عفوه وان كذب الناقل وسعنى عدله * ولما دخل عيينة بن حصن على عمر بن الخطاب قال يا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل وما تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر وهم بان يوقع به فقال ابن أخيه يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين وان هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان عمر وقافا عند كتاب الله تعالى (وقال) النبى صلى الله عليه وسلم ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء وقال ارحم ترحم وكان يقال أولى الناس بالسلطان احقهم بالرأفة والرحمة وفى الانجيل افلح أهل الرحمة لانهم سيرحمون (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام لقد أبغض الله المتسرعين الى اراقة الدماء فاليم انتهت القسوة والغلظة والتباعد من الرحمة * ولما تمكن داود من قتل جالوت ابقى عليه وهو يومئذ عدوه وطالبه وقال يا رب أعظم دمى فى عين أعدائى كما عظمت فى عينى دم عدوى وكذلك خلصنى من جميع الهموم * وقالت حكماء الهند لا سؤدد مع انتقام ولا سياسة مع عزازة نفس ويحب (وقالت) الحكماء ليس الافراط فى شئ أجود منه فى العفو ولا هو فى شئ أقبح منه فى العقوبة وكذلك التقصير مذموم فى العفو محمود فى العقوبة * واعلم أنك ان تخطئ فى العفو فى ألف قضية خير من أن تخطئ فى العقوبة فى قضية واحدة (وقال) معاوية انى لارفع نفسى أن يكون ذنب أعظم من عفوى وجهل أكبر من حلمى وعبرة لابواريهاستري (وقال) المامون

ليس على الامام مؤنة ولو ددت ان أهل الجرائم علموا رأيي في العفو فذهب الخوف عنهم فتخلص في قلوبهم * وقال رجل للمنصور يا أمير المؤمنين ان الانتقام انصاف والتجاوز فضل والتجاوز قد جاور حد الانصاف ونحن نعيذ أمير المؤمنين أن يرضى لنفسه باوكس النصيبين وأن لا يرتفع الى أعلى الدرجتين فاعف عنا يعف الله عنك فعفا عنهم وانشدوا

واذا بغى باغ عليك بجهله * فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

وقال بعضهم لمسلم بن قتيبة لما عفا عنه والله ما أدري أيها الامير أي يوميك أشرف أيوم ظفرت أم يوم عفوت وقال الشاعر

مازلت في العفو للذنوب واطـ * ـلاقك جان بحرمة علق

حتى تمنى العفاة أنهم * عندك أمسوا في القيد والحلق

ورفع الى انوشروان ان العامة تؤنب الملك في معاودة الصفح عن المذنبين مع تتابعهم في الذنوب فوقع المذنبون مرضى ونحن اطباء وليس معاودة الداء اياهم بمانعنا من معاودة العلاج لهم (وقال) عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما قرن شئ الى شئ أفضل من حلم الى علم ومن عفو الى قدرة (وقال) رجل لعبد الملك بن مروان لما ظفر بالمهلب ما رأيت أحدا يا أمير المؤمنين ظلم ظلمك ولا نصر نصرك ولا عفا عفوك (وقال) بعض التابعين المعاقب مستدع لعداوة اولياء المذنب والعافي مستدع لشكرهم أو مكافأتهم أيام قدرتهم ولان يثنى عليك باتساع الصدر خير من أن تنسب الى ضيقه وافالة العثرة موجبة اقالة عثرتك من ربك وعفوك عن الناس موصول بعفو الله عنك وعقابك موصول بعقاب الله تعالى لك والله يحب العافين (وقال) المنصور عقوبة الاحرار التعريض وعقوبة الاشرار التصريح * وقال المامون لما رأيت الذنوب جلبت عن المجازاة بالعقاب جعلت العقاب فيها عفوا أمضى من الضرب للرقاب * وقال الاحنف لا تزال العرب بينة الفضل ما تعد العفو فيها والبذل سرفا * وفي الحكمة اذا اتقمت فقد انتصفت واذا عفوت فقد تفضلت (وقال) بعض الحكماء اقبل العذر وان كان مصنوعا والأمر يكون ممن أوجبت المروءة قطيعته أو يكون في قبول عذره تشجيعه على المكروه أو معونة على الشر فان قبولك العذر فيه اشتراك في المنكر (ولما دخل) القيسي دمشق حشر الناس لرؤيته وصعد معاوية الى علية له متطلعا فيهم فاهوى كذلك اذ نظر في بعض الحجر في قصره رجلا مع بعض حرمه فاتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من قصده بدا فوقعت عينه على الرجل فقال يا هذا أفي قصري وتحت جناحي تهتك حرمي وأنت في قبضتي ما حملك على ذلك فبهت الرجل وقال حلمك أو نعمتي قال له معاوية فان عفوت عنك تستر شاعلي قال نعم فخلى سبيله وهذا من الدهاء العظيم والحلم الواسع ان يطلب الستر من الجاني وهو عروض قول الشاعر

اذا مرضنا أتينا كم نعودكم * وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

(وأتى موسى الهادي) برجل قد جنى فجعل يقرعه بذنوبه ويتهدده فقال اعتذاري مما تقرعني به ردعليك واقراري بما ذكرته ذنب ولكني أقول

فان كنت ترجو في العقوبة راحة * فلا تزهدن عند المعافاة في الاجر

فاهر باطلاقه (وقال المهلب) لا شئ أبقى للملك من العفو فان الملك اذا وثقت رعيته منه

بحسن العفو لم يوحشها الذنب وان عظم وان خشيت منه العقوبة أوحشها الذنب وان صغر حتى يضطر ذلك الى المعصية * ومن الحكمة البالغة فى مثل هذا قول سابور وقد جمع أولاده فقال يابنى ان أعجز كم ان تملؤا قلوب الرعية جفاء لمؤاخوفا وليس ذلك بان تهمل العقوبة على من لا يستحقها ولكن تجهيلها لمن يستحقها * وفى هذا المعنى قال الله تعالى فشرد بهم من خلفهم وهذا معنى لا يحتمل عما أوجبناه وهو معنى قول سابور ولا يخالف ما قررناه من حسن العفو بل هذا محمول على الواجب المستحق أو على ما فى تركه اغراء بركون أمثاله فههنا يكون العفو مفسدة فيا أيها المعاتب اذا أقمت على مذنب عقوبة فلا تكن كالمشتى المتلذذ بعذابه لانك واياه اخوان لأب وأم آدم وحواء لم تفضله بحولك وقوتك بل بما فضلك الله به تطولا عليك فاذ كرلو كنت فى مقامه وكان فى مقامك ولا تأمن تقلب الدهر فتقوم مقامه بين يدى من لا يرحم ولا ينظر فى العواقب واحذر التفريط والتقصير وأقم نفسك مذنبا أقيم للعقوبة وليكن عقابك مقدرا كما كان عطاؤك مقدرا وليكن عقابك للتقويم لا للانتقام وللزجر لا للهوى وعن هذا قال بزرجمهر لا ينبغى للمالك أن يكرموا حدا بهوان من ليس للهوان اهلا ولا ان يهينوا حدا بإكرام من ليس للكرامة اهلا * لا تكن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ولا على البخل اسرع منك الى البذل قال الشاعر

صفوح عن الاجرام حتى كأنه * من العفو لم يعرف من الناس مجرما

فليس يبالى أن يكون به الاذى * اذا ما الاذى بالكره لم يغش مسلما

(وقال سليمان بن داود) عليهما السلام التنكيل والعقوبة امنية الملك الشرير وعلى مثله يبعث الله ملكا غير رحيم * وقال معاوية لا ينبغى للملك ان يظهر منه غضب أو رضا الا للثواب أو عقاب وقال اردشير فضل الملك على السوقة انما هو بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم فكلما استكثر منها بانت فضيلته واستحقاقه لموضعه من الولاية عليهم وكلما نقص منها قرب من السوقة (وقال المامون) انى لاجد لعفوى لذة أعظم من لذة الانتقام واعلم انه اذا عاقب الملك أو أهان على ظن بغير يقين ادخل على نفسه من قبح الخطا فى الرأى أعظم مما أدخل على صاحبه من العقوبة * وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الغالب بالشر مغلوب وما ظفر من ظفر بالاثم (وقيل) لافلاطون أى شئ من افعال الناس يشبه أفعال الله تعالى فقال الاحسان الى الناس وقال الحكيم الحلم فدام السفيه والعفو زكاة العقل * وقال الحكيم السيد الذى لا يشين حسن الظفر بقبح الانتقام وخير مثاقب المالك العفو * وكان يحيى بن معاذ يقول سبحان من أذل العبد بالذنب واذل الذنب بالعفو الهى ان عفوت فخير راحم وان عذبت فغير ظالم الهى ان كنت لا ترضى الا عن أهل طاعتك فكيف يصنع الخاطئون وان كان لا يرجوك الا أهل وفائك فبمن يستغيث المستغيثون وقال الشاعر

وان الله ذو حلم ولكن * لعزة حلمه ينتقم الحليم

(وروى ان الحجاج) أخذ القطرى بن الفجاءة فقال لاقتلنك قال ولم قال لخروج أخيك على قال فان معى كتاب امير المؤمنين ان لا تأخذنى بذنب أخى قال هاته قال ان معى أو كد منه قال الله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى فتعجب من جوابه وخلى سبيله * ولما وفد عقيل بن أبى طالب على

معاوية ما حمل له بجائة ألف درهم فلما اراد الانصراف رأى في الطريق جارية بأربعين ألف درهم فرجع الى معاوية فاخبره فقال وما تصنع بها قال تلد لي غلاما فان اغضبتني يضرب مفرقك بالسيف فاشتراها منه بها فاتاه بها فولدت له مسلم بن عقيل ثم قدم مسلم الشام فابتاع منه معاوية ضيعة فبلغ الحسين بن علي الخبر فكتب الى معاوية اني لا اجيز بيع مسلم فارسل معاوية الى مسلم فقال هذا كتاب الحسين يامر برد المال فقال مسلم أما دون ان اضرب مفرقك بالسيف فلا فضحك معاوية وقال والله لقد تهددني أبو ليذلك قبل ان يشتري أملك وسوغه المال فقال الحسين خذ لنا معاوية حلما وجودا

(الباب السابع والعشرون في المشاورة والنصيحة)

وهذا الباب مما يعده الحكماء من أساس المملكة وقواعد السلطنة ويفتقر اليه الرئيس والمرؤس وقد ذكرناه في باب الخصال الفرقانية ونذكر ههنا فوائدها ومحاسنها * اعلم ان المستشير وان كان أفضل رأيا من المشير فانه يزداد برأيه رأيا كما تزداد النار بالسليط ضوأ فلا يقذفن في روعك انك اذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة الى رأي غيرك فيمنعك ذلك عن المشاورة فانك لا تريد الرأي للفخر به ولكن للانتفاع به فان أردت الذكر كان آخر ذلك وأحسن عند ذوي الالباب لسياستك أن يقولوا لا يستقر برايه دون ذوي الرأي من اخوانه ولا يمنعك عزمك على انفاذ رأيك وظهور صوابه لك عن الاستشارة الا ترى ان ابراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه عزمة لا مشورة فيها فحمله حسن الادب وعلمه بموقعه في النفوس على الاستشارة فيه فقال فيما ترى انى أرى في المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى وهذا من أحسن ما يرسم في هذا الباب * وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الرأي الفرد كالخيط السحيل والرأيان كالخيطين والثلاثة الآراء لا تكاد تنقطع ويروى أن رومياً وفارسياً تفاخرا فقال الفارسي نحن لا نملك علينا من يشاور وقال الرومي ونحن لا نملك علينا من لا يشاور وقال بزرجمهر اذا أشكل الرأي على الحازم كان بمنزلة من أضل لؤلؤة فجمع ماحول مسقطها فالتمسها فوجدها كذلك الحازم يجمع وجوه الرأي في الامر المشكل ثم يضرب بعضها ببعض حتى يخلص له الصواب (وكان) يقال من كثرت استشارته حدت امارته وفي حكم الهند قال بعض الملوك ان الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزمة كما يزداد البحر بمواده من الانهار وينال بالحزم والرأي ما لا ينال بالقوة والجند ولم تزل حزمة الرجال يستحلون مرارة قول النصحاء كما يستحلي الجاهل المساعدة على الهوى * وقال المأمون لطاهر بن الحسين صف لي اخلاق المخلوع يعني أخاه الأمين فقال كان واسع الصدر ضيق الادب ينتج من نفسه ما تأباه همم الاحرار لا مصغيا الى نصيحة ولا يقبل مشورة يستقبل برأيه فيرى سوء عاقبته فلا يرتدع ذلك عما يهم به قال فكيف حروبه قال يجمع الكاتب بالتدبير ويفرقها بسوء التدبير فقال المأمون لذلك ما حل محله أما والله لو ذاق لذاذة النصائح واختار مشورة الرجال وملك نفسه عند شهوتها ما ظفر به * وقال بعضهم انفاذ الملوك الامور بغير رويه كالعبادة بغير نية ولم تزل العقلاء على اختلاف آرائهم يشهدون الغيوب ويستثيرون صواب الرأي من كل أحد حتى الائمة الوعاة هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ اهدى الي عيوبي * وكان يقول من أعطى أربعا لم يمنع اربعا من أعطى

الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب * وقال بعضهم خير الرأى خير من فطره وتأخيره خير من تقديمه (وذكر صاحب كتاب التاج) أن بعض ملوك العجم استشار وزراءه فقال أحدهم لا ينبغي للملك أن يستشير منا أحدا لانا خلقنا فانه أموت للسر وأحزم فى الرأى وأجدر للسلامة واعفى لبعضنا من غائلة البعض * وكان بعض ملوك العجم اذا شاور مر ازبته فقصر وا فى الرأى دعا الموكلين بارزاقهم فعاقبهم فيقولون تخطئ مرازبتك وتعاقبنا فيقول لم يضطلوا الا لتعلق قلوبهم بارزاقهم واذا اهتموا أخطؤا * وكانوا اذا اهتموا بمشاورة رجل بعثوا اليه بقوته وقوت عياله لستة ليتفرغ لبه * وكان يقال النفس اذا احرزت قوتها اطمأنت واذا شاورت فاصدق الخبر تصدق المشورة ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك * وقال بعض ملوك العجم لا يمنعنك شدة تباسك فى باطنك ولا علو مكانك فى نفسك من أن تجمع الى رأيك رأى غيرك فان أحدث احببت وان اخطأت عذرت فان فى ذلك خصلا منها ان وافق رأيك رأى غيرك ازداد رأيك شدة عندك وان خالفه عرضته على نظرك فان رأيته معتليا لما رأيته قبلته وان رأيته متعسبا استغنيت عنه وبجد بذلك النصيحة ممن شاورته وان اخطأ وتتمحض لك مودته وان قصر ولم يكن من فضيلة المشاورة الا انك أن أصبته مستبدا سلمت فائدة الاصابة بألسنة الحسدة وقال قائل هذا اتفاق ولو فعل كذا لكان احسن واذا شاورت فاصبت أحد الجماعة رأيك لانهم لنفوسهم يحسدون وان اخطأت حمل الجماعة خطأك لانهم عن نفوسهم يكاحون * واعلم أن القول الغليظ يسقع لفضل عاقبته كما يستكاره شرب الدواء المر لفضل مغبته (وقال اعرابى) ما عثرت قط حتى عثر قومى قالوا وكيف ذلك قال لا افعل شيأ حتى اشاورهم (وقيل) لرجل من بنى عبس ما أكثر صوابكم يا بنى عبس فقال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد ونحن نطيعه فكأنا ألف حازم * وكان ابن هبيرة أمير البصرة يقول اللهم انى أعوذ بك من صحبة من غايته خاصة نفسه والانحطاط فى هوى مستشيره (وفى حكم الهند) من النفس من الاخوان الرخصة عند المشورة ومن الاطباء عند المرض ومن الفقهاء عند الشبه اخطأ الرأى وازداد مرضا وحمل الوزر * وقالت الحكماء لا تشاور معلما ولا راعى غنم ولا كثير الغرور مع النساء ولا صاحب حاجة يريد قضاءها ولا خائفا ولا من يرهقه احد السببين * وقالوا لا رأى لحاقن ولا لحازق ولا لحاقب ولا تشاور من لا دقيق عنده والحازق هو الذى ضغطه الخف الضيق والحاقب هو الذى يجد فى بطنه ثقلا وقالوا من شكا الى عاجز أعاره عجزه وامده من جزعه (ومن اطيف ما جرى فى الاستشارة) ان زياد بن عبيد الله الحارثى استشار عبيد الله بن عمر فى اخيه ابى بكر ان يوليه القضاء فاشار به فبعث الى ابى بكر فامتنع عليه فبعث زياد الى عبيد الله يستعين على أبى بكر فقال ابو بكر لعبيد الله انشدك الله اترى لى القضاء قال اللهم لا قال زياد سبحان الله استشرتك فاشرت على به ثم اسمعك تنهاه فقال ايها الامير استشرتنى فاجتهدت لك الرأى ونصحتك ونصحت للمسلمين واستشارنى فاجتهدت له رأيى ونصحته (وروى ان الحجاج) بعث الى المهلب يستحثه حرب الازارقة فكتب اليه المهلب ان من البلاء ان يكون الرأى لمن يملكه دون من لا يبصره

(فصل في النصيحة) اعلموا ان النصح للمسلمين والخلائق أجمعين من سنن المرسلين قال الله تعالى اخبارا عن نوح عليه السلام ولا ينفعكم نصحي ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم وقال شعيب عليه السلام ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين وقال عليه السلام ان العبد اذا نصح لسيده واحسن عبادة الله فله أجره مرتين (وروى) أبو هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة قيل لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين ولعامتهم فالنصح في الجملة فعل الشيء الذي به الصلاح ودفع الملامة ماخوذ من النصاحة وهي السلوك التي يخاط بها وتصغيرها نصيحة تقول العرب هذا قميص منصوح أي مخيط ونصحته نصحا اذا خطته ويختلف النصح في الاشياء لاختلاف الاشياء فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس بأهل له عقدا وقولا والقيام بتعظيمه والخضوع له ظاهرا وباطنا والرغبة في محابه والمباعدة من مساخطه وموالاة من اطاعه ومعاداة من عصاه والجهاد في رد العصاة الى طاعته قولا وفعلا وارادة بث جميع ماذكرناه في عباده والنصيحة لكتابه اقامته في التلاوة وتحسينه عند القراءة وتفهم مافيه واستعماله والذب عنه من تاويل المحرفين وطعن الطاعنين وتعليم مافيه للخلائق أجمعين قال الله تعالى كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب والنصيحة للرسول عليه السلام موازرته ونصرته والحمية عنه من دونه حيا وميتا واحياء سنته بالطلب واحياء طريقته في بث الدعوة وتالف الكلمة والتخلق بالاخلاق الطاهرة والنصيحة للائمة معاونتهم على ماتكلفوا القيام به في تنبيههم عند الغفلة وارشادهم عند الهفوة وتعليمهم ماجهلوا وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء واعلامهم باخلاق عمالهم وسيرهم في الرعية وبتدخلهم عند الحاجة ونصرتهم في جمع الكلمة عليهم وردّ القلوب النافرة اليهم والنصح لجماعة المسلمين الشفقة عليهم ووقير كبيرهم والرحمة لصغيرهم وتفريج كربهم ودعوتهم الى ما يسعدهم وتوقي ما يشغل خواطرهم وبفتح باب الوساوس عليهم ومن النصيحة للمسلمين رفع مؤونة نفسه وبدنه وحوائجه عنهم (قال الاصمعي) لفظ عمر بن الخطاب رضي الله عنه نواة من الطريق فامسكها بيده حتى مرّ بدار رقوم فالقاها في الدار وقال يا كلها اجنم والنصح لجميع الملل ان يحب اسلامهم ويدعوهم الى الايمان بالقول ويحذرهم سوء مغبة الكفر وبالسيف ان كان ذا سلطان أو يكفوا عن قتال المسلمين فيكونوا ذمة والا فالقتل نصحا لاقامة أمره فيهم (وروى معاذ) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم العمل لله ومناصحة ولاة الامر والاعتصام بجماعة المسلمين فان دعوتهم تحيط من ورائهم * وقال جابر ابن عبد الله بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فلقنني فيما استطعت والنصح لكل مسلم (وروى) أنس ان النبي عليه السلام قال لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه * وقال أبو الدرداء العلم يبلغه البر والفاجر والحكمة ينطق بها البر والفاجر والنصيحة لله تعالى لا تثبت الا في قلوب المتخيين الذين صحت عقولهم وصدقت نياتهم واعلم ان جرعة النصيحة مرة لا يقبلها الا أولو العزم * وكان عمر بن الخطاب رحمه الله يقول رحم الله امرأ أهدى الي عيوبي * وقال ميمون بن مهران قال لي عمر بن عبد العزيز رحمه الله قل لي في وجهي

ما أكره فان الرجل لاينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه مايكره * وقال مالك النصيحة لله فى أرضه هى التى بعث الله بها انبياءه * ومن أمر الاسلام القصد والنصيحة لعباد الله فى امورهم والنفوس مستثقلة للنصح نافرة عن أهله ومائلة الى ماوافق هواها (وفى منثور الحكم) ودلك من نصحك وقلل ممن مشى فى هواك وكان يقال أخول لمن احتمل الثقل نصيحتك وقال بعضهم شعرا

عرضت نصيحة منى لزيد * فقال غششتنى والنصح مر
ومالى أن أكون نصحت زيدا * وزيد طاهر الاثواب بر
ولكن قد اتانى أن زيدا * يقال عليه فى مغنا شر
فقلت له تجنب كل شئ * يقال عليك ان الحر حر

وقال آخر

وعلى النصوح نصيحتى * وعلى عصيان النصوح

ولقطامى شعر

ومعصية الشفيق عليك مما * تزيدك مرة منه استماعا
وخير الامر ما استقبلت منه * وليس بان تتبعه اتباعا

ولورقة بن نوفل

لقد نصحت لاقوام وقلت لهم * انا النذير فلا يغرركم أحد
لاشئ مما ترى تبقى بشاشته * الا الاله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه * والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال ابن وهب انما يحسن الاختيار لغيره من يحسن الاختيار لنفسه ولا خير لك فيمن لا خير له فى نفسه * وقالت العلماء لن ينصح أمرؤ لا ينصح لنفسه (وقال بعضهم) رأيى ورأيك فى المعرفة امثل لنفصك من رأيك لانه خالص من هواك * وقال أبو الدرداء ان شئتم لا نصحن لكم ان أحب عباد الله الى الله الذين يحببون الله الى عباده ويعملون فى الارض نصحا وروى ان رجلا لطم ابراهيم بن أدهم فرفع رأسه الى السماء وقال الهى ان كنت تنيبنى وتعاقبه فلا تثيبنى ولا تعاقبه * ومن الخصال التى تجرى مجرى الجمال والكمال الحلم *

(الباب الثامن والعشرون فى الحلم)

قال الله تعالى ان ابراهيم لحليم أواه منيب وقال تعالى فاصفح الصفح الجميل (قال) على رضى الله عنه الصفح الجميل الرضا بلا عتاب وقيل الصفح الجميل الرضا بلا توبيخ فيه ولا حقد معه وفى الامثال القديمة كاد الحليم أن يكون نبيا (وروى) ان رجلا قال يارسول الله علمنى كلمات اعيش بهن ولا يكثرن على قال لا تغضب * واعلم ان الحلم أشرف الاخلاق وأحقها بذوى الالباب لما فيه من راحة السر واجتلاب الحمد وأحق الناس به السلطان لانه منصوب لاقامة أود الخلائق وممارسة اخلاقهم ولا يطيقون به فى حال سلمهم وانما يغشون بابه حين تنازعهم وخصوماتهم وشرورهم وتكدر نفوسهم وضيق اخلاقهم فان لم يكن معه حلم يردبه بوادرهم ولا وقع تحت عتب مثقيل * وكان أنوشروان ذا حلم واناة وكان يقول فى خصلتان لولا انهما ظاهرتان عندالرعية لضقت بهما ذرعا الحلم والاناة (وروى) ان يحيى بن زكريا لقى عيسى

ابن مريم عليهم السلام فقال يا روح الله أخبرني بأشد الاشياء في الدارين قال غضب الله تعالى قال يا روح الله وما يحبيني من غضب الله تعالى قال ترك الغضب قال يا روح الله كيف بدو الغضب قال التعزز والتكبر والفخر على الناس * وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال وجبت محبة الله تعالى على من أغضب فحلم * والذي يجعل أن يضرب في هذا الباب قصة اسحق عليه السلام قال له ابراهيم يا بني اني رأى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين ثم انه تله للجبين وأمر على حلقه السكين فلم يقل الا خيرا فقال الله تعالى وبشرناه بغلام حليم (وفي الاخبار) يقول ابليس لعنه الله ان الحديد من الرجال لم ييأس منه وان كان يحيي الموتى بدعائه لانه تأتي عليه ساعة يحتد فيها فيصير منه الى ما يريد (ويروى) ان جعفر بن محمد دخل على الرشيد وقد استخفه الغضب فقال له يا أمير المؤمنين انك انما تغضب لله تعالى ولا تغضب له با كثر من غضبه لنفسه * واعلم أرشدك الله ان هذه الكلمة لا قيمة لها والله أعلم حيث يجعل رسالاته فما أفخمها وأجل قدرها وأعظم شانها لانك اذا كنت أيها السلطان انما تتصرف في ملك الله بامر الله فالله تعالى قد حد حدودا وشرع شرائع وأقام فروضا وسننا ونهى عن حدود ورسوم ثم قدر في كل خصلة عند مخالفته حدا محدودا ونهى أن يتجاوز ذلك الحد فلا يقبل من استحق القطع والحبس والادب والحد ولا يحبس غيره من استوجب الحبس * وكانت الخلفاء يؤدبون الناس على قدر منازلهم فمن عثر من ذوي المروآت اقيلت عثرته ولم يقابل بشئ لقوله عليه السلام اقيلوا ذوي الهيآت عثراتهم ومن سواهم كان يقابل على قدر منزلته وهفوته فكان يقام قائما في مجلس يقعد فيه نظراؤه فتكون هذه عقوبته وآخر يشق جيبه وآخر تنزع عمامته من رأسه وآخر يكلم بالكلام الذي فيه بعض الغلظة * قال الشعبي كانت العصا في زمن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم اذا أخذ الرجل منهم نزعت عمامته وطيف به في المسجد على قومه وقيل هذا أخذ بنغره فلما ولي زياد ضربهم ونزع عمائمهم فلما ولي مصعب بن الزبير حلق مع الضرب رؤوسهم فلما ولي بشر بن مروان أقامهم على الكراسي ثم مدت أيديهم وسمرها بمسمار ثم نزع الكرسي من تحت رجليه حتى يخرم يده مفي ميت ومن حي فلما ولي الرجل المعروف بالحجاج قال كل هؤلاء يلعب من أخذ بنغره ضرب عنقه وقال ارسطاطاليس النفس الذليلة لا تجد ألم الهوان والنفس الشريفة يؤثر فيها يسير الكلام وفيه قيل

من يهن يسهل الهوان عليه * ما لجرح بميت ايلام

واعلم أن من تجاوز في العقوبة فوق ما حد الله تعالى فيها شارك المجرم في الذنب واستوجب ما استوجبه المجرم من العقوبة ويتبين في الآخرة انه انما يعاقب للهوى والتشفي اذا فما غضب لله تعالى (وفي كتاب سليمان بن داود عليهما السلام) القاهر لنفسه أشد ممن يفتتح المدينة وحده وصدق نبي الله صلى الله عليه وسلم فان السلطان يفتتح المدينة ويقهر أهلها ويغلب جنودها وحماتها ويقتل ابطالها ثم تغلبه شهوته ويبقى أسيرا في ذل هواه قد هرته قينة بطنبورها أو قدح خمر يذهب بعقله * وقال اكثم بن صيفي الصبر على جرع الحالم اعذب من جني ثمر الندم (وسأل علي بن أبي طالب) رضي الله عنه كثيرا من كبراء فارس من أحمد ما لوكهم عندهم فقال

لاردشير فضل السبق غير ان أحدهم سيرة أنوشروان قال فاى اخلاقه كان اغلب عليه قال الحلم والاناة فقال علي رضى الله عنه هما توأم ينتجهما علو الهمة * ومن محمود السيرة ان يعرف الناس من اخلاقك امثل لانجل بالثواب ولا بالعقاب فان ذلك ادوم لخوف الخائف ورجاء الراجي وقال محمود الوراق

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب * وان عظمت منه علي الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذي فوقي فاعرف فضله * واتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فان قال صنت عن * اجابته نفسي وان لام لائم
وأما الذي مثلي فان زل أو هفا * تفضلت ان الحلم بالفضل حاكم

(وقال الاصمعي) سمعت اعرابيا يقول اسرع الناس جوابا من لم يغضب لا توقدن بين جنبيك جمرة الغضب واردد اساءته بالحلم فان شجر النار اذا الحت عليها الرياح تحاكت اغصانها فتشتعل نارا وتحترق من أصولها * وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ثلاث من اجتمعن فيه فقد سعد من اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا رضى لم يدخله رضاه في باطل واذا قدر عفا وكف (وسئل جعفر بن محمد) عن حد الحلم فقال وكيف يعرف فضل شئ لم ير كماله في أحد * وقال الاحنف لابنه يابني ان اردت أن تؤاخي رجلا فأغضبه فان انصفك والا فاحذره (وكان سلم بن نوفل) سيدبني كنانة فضربه رجل من قومه بسيفه فأخذ فاتى به اليه فقال له ما الذي فعلت أما خشيت اشتفاعي قال فلم سودتك الا لأن تكظم الغيظ وتعفو عن الجاني وتحلم عن الجاهل وتحتمل المكروه في النفس والمال فخلى سبيله فقال قائلهم شعرا

يسود أقوام وليسوا بسادة * بل السيد المعروف سلم بن نوفل

وقال رجل من كلب للحكم بن عوانة انما أنت عبد فقال والله لاعطينك عطية ما يعطيها العبيد فاعطاه مائة رأس من السبي ومن امثال العرب احلم تسد ويروى ان هشاما غضب على رجل من أشراف الناس فشتمه فوبخه الرجل فقال له اما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في أرضه فاطرق هشام واستحيا وقال له اقتص فقال اذا سقيه مثلك فقال خذ من ذلك عوضا من المال قال ما كنت لافعل قال فهبها لله قال هي لله ثم لك فنكس هشام رأسه وقال والله لا أعود لمثلها وقال الشاعر

لن يبلغ المجد أقوام وان شرفوا * حتى يذلوا وان عزوا لاقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة * لاصفح ذل ولكن صفح اكرام

وقال آخر

وجهل رددناه بفضل حلومنا * ولو اننا شئنا رددناه بالجهل
ربحنا وقد خفت حلوم كثيرة * وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

وقال هشام لخالد بن صفوان صف لي الاحنف بن قيس فقال يا أمير المؤمنين ان شئت أخبرتك عنه بثلاث وان شئت باثنتين وان شئت بواحدة فقال اخبرني عنه بثلاث قال كان لا يحرص ولا يجهل ولا يدفع الحق اذا نزل به قال فاخبرني عنه باثنتين قال كان يؤثر الخير ويرى في

الشعر قال فاخبرني عنه بواحدة قال كان أعظم الناس سلطانا على نفسه وقال اكثم بن صيفي الغلبة والعز للحلم وقال الاحنف بن قيس وجدت الحلم انصر لي من الرجال وصدق الاحنف كان من حلم كان الناس انصاره كما روى ان رجلا أسرف في شتم بعض الادباء وهو ساكت فقيل له بعض المارين في الطريق وقال له يرحمك الله الا تنتصر لك قال لا قال ولم قال لاني وجدت الحلم انصر لي من الرجال وهل حاميت في الا الحلي وقال رجل لعمرو بن العاص والله لانفذن لك فقال له الآن وقعت في الشغل وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه ان رجلا ممن كان قبلكم استضاف قوما فاضافوه ولهم كلبة تنبح فقالت والله لا أنبح ضيف أهلي الليلة فمضوى بروحها في بطنها فبلغ ذلك نبيا لهم أو قيلا من أقيالهم فقال مثل هذا مثل أمة تكون بعدكم يظهر سفهاؤها على حلمائها وقال الاحنف اياكم ورأى الاوغاد قالوا وما رأى الاوغاد قال الذين يرون الصفح والعفو عارا وسئل الاحنف عن الحلم فقال هو الذي تصبر عليه وليست بحليم ولكني صبور ويروى ان المهلب نازعه رجل من كبار بني تميم فاربى على المهلب والمهلب ساكت فقيل له في ذلك فقال كنت اذا سبني استحييت مني لضعف السباب وغلبة اللئام والسفلة وكان اذا سبني تهلل وجهه وشمخت نفسه بان ظفر بفضل القحة ونبذ المروءة وخلع ربقة الحياء وقلة الاكتراث بسوء الثناء ومر المسيح عليه السلام على قوم من اليهود فقالوا له شرا وقال لهم خيرا فقيل له انهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا فقال كل ينفق مما عنده وقال اكثم بن صيفي من حلم ساد ومن تفهم ازداد وكفر النعمة لؤم وصحبة الجاهل شؤم ولقاء الاخوان غنم والمباشرة بين ومن الفساد اضاعة الزاد وسب رجل الشعبي بما يخجل نسبها اليه فقال الشعبي ان كنت كاذبا فغفر الله لك وان كنت صادقا فغفر الله لي وقال رجل لابي بكر الصديق رضي الله عنه لاسبنك سبا يدخل معك في قبرك فقال أبو بكر معك والله يدخل لامي وقال رجل للاحنف بن قيس ان قلت كلمة لتسمعن عشرا فقال له الاحنف لكنك لو قلت عشرا لم تسمع مني واحدة ويروى ان رجلا سب الاحنف وهو يمانيه في الطريق فلما قرب من المنزل وقف الاحنف وقال يا هذا ان كان بقي معك شئ فقله ههنا فاني أخاف ان سمعك فتيان الحي أن يؤذوك وسب رجل بعض الحكماء فقال له الحكيم لست أدخل في حرب الغالب فيه شر من المغلوب وقال لقيط بن زرارة شعر

فقل لبني سعد فمالي ومالكم * ترقون مني ما استطعتم واعتق
اغركم اني باحسن شيمة * بصيرو ابي بالفواحش اخرق
وأنك قد سايتني فقهرتني * هنيئا مريئا أنت بالفحش أحذق

وقال رجل لابي ذر رضي الله عنه أنت الذي تقاتل معاوية من الشام لو كان فيك خير ما نفاك فقال يا ابن أخي ان ورائي عقبة كؤودا ان نجوت منها لم يضرني ما قلت وان لم أنج منها فانا شر مما قلت وقال لقمان لابنه يا بني ثلاثة لا يعرفون الا عند ثلاثة لا يعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ولا أخوك الا عند الحاجة اليه وسب رجل بعض الحكماء فاعرض عنه فقال له اياك أعني فقال الحكيم وعنك أعرض وفي هذا المعنى قيل

قل ما بدا لك من زور ومن كذب * حلمي أصم وأذني عن سماعك

وقيل يوما للاحنف ما أحلمك فقال لست بحليم ولكني اتحالم والله اني لأسمع الكلمة فاجم لها ثلاثا ما يمنعني من جوابها الا الخوف من ان أسمع ما هو شر منها وقال الشاعر

وليس يتم الحلم للمرء راضيا * اذا كان عند السخط لا يتحلم

كما لا يتم الجود للمرء موسرا * اذا كان عند العسر لا يتحشم

وروي ان رجلا سب جعفر بن محمد رضي الله عنه فقال اما ما قلت مما هو فينا فانا نستغفر الله منه وما قلت مما ليس فينا فانا نكلك فيه الى الله تعالى وقال بعض الحكماء احذروا الغضب فرب غضب استحق الغضبان به غضب الله تعالى وقال اكثم بن صيفي لا يكون الرجل حليما حتى يقول السفيه انه لضعيف مستذل ولا يكون مخلصا حتى يقول الاحمق انه لمفسد ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير

اذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى * أصبت حليما أو أصابك جاهل

ووصف اعرابي رجلا فقال احلم من فرخ طائر وقال اعرابي ان الغضب عدو العقل وذلك يحول بين صاحبه وبين العقل والفهم وقال صعصعة بن صوحان الغضب مقدحة العقل فربما أصلد وربما ازند وقال اعرابي اذا ساء الغضب قسط العطب وكان ابن عوان اذا غضب على أحد من اهله قال سبحان الله بارك الله فيك وقال الاصمعي دفع اردشير الى رجل كان يقوم على رأسه كتابا وقال له اذا رأيتني اشتد غضبي فادفعه الي فكان فيه اسكن فلست بالله انما أنت بشر يوشك ان يأكل بعضك بعضا وتصير عن قريب للدود والتراب وهذه السيرة أول من سنها ملك تبع أمر أن يكتب في كتاب اسكن فلست بالله وقال لصاحبه اذا غضبت فأعرضه علي فكان اذا غضب أعرضه عليه فاذا قرأه سكن غضبه وقال معاوية أفضل ما اعطى الرجل العقل والحلم فاذا ذكر ذكر واذا أعطى شكر واذا ابتلى صبر واذا غضب كظم واذا قدر عفا واذا أساء استعفى واذا وعد أنجز وفي الحكمة مكتوب من أطاع الغضب حرم السلامة ومن عصى الحق نجره الذل وقال بعض الحكماء كظم الغيظ حلم والحلم صبر والتشفي ضرب من الجزع وقال آخر أول الغضب جنون وآخره ندم وقال بعض الحكماء اذا غلب على الرجل أربع خصال فقد عطب الرغبة والرهبة والشهوة والغضب (وقيل) لبعض الصالحين ان فلانا يقع فيك فقال لا غيظن من أمره يغفر الله لي وله قيل له ومن أمره قال الشيطان وقال رجل لاخيه اني مررت بفلان وهو يقع فيك ويذكرك بأشياء رحمك منها قال فهل سمعتني اذكر بشيء قال لا قال فاياه فارحم وقال الفضيل ثلاثة لا يلامون على الغضب المريض والصائم والمسافر وقال الاحنف بن قيس لقد تحملت الحلم من قيس ابن عاصم المنقري اني جالس معه في فناء وهو يحدثنا اذ جاء جماعة يحملون قتيلا ومعهم رجل ماسور فقيل له هذا ابنك قتل أخولك فوالله ما قطع حديثه ولا حل حبوته حتى فرغ من منطقه ثم أنشد

أقول للنفس تأنيبا وتعزية * احدى يدي أصابتني ولم ترد

كلاهما خلف من فقد صاحبه * هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ثم التفت الى بعض ولده فقال قم فاطلق عمك ووار أخاك وسق الى امه مائة من الابل فانها

غريبة ومن أنبل بيت قالته العرب قول بعضهم

فصح بالخير خرس باخلتى * ريح الاحلام ذيال الازر

وقال غيره

باحلام عاد لايخاف جليسهم * اذا نطق العورا معرب لسان

اذا حدثوا لم يخش سوء استماعهم * وان حدثوا أدوا بحسن بيان

وقال المسيح عليه السلام ماحلم من لم يصبر عند الجهل وماقوة من لم يرد الغضب وماعبادة من لم يتواضع للرب تعالى وقيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينتقصانك وينالبانك فاوعاقبتهم فقال هيهات بعد العقوبة اعذر فى ثلبى وتنقيصى (ويروى) ان جرير بن عبد الله بيفاهو راكب قد أردف ابنه اذ لقيه رجل فنال منه وجرير ساكت فلما ولى قال له ابنه يا أبت لم سكت عنه قال يابنى أفأوسع جرحى وقال بعض الحكماء متى أشفى غيظى أحين اقدر فيقال لى عفوت أم حين أعجل فيقال لوصبرت وسئل بعض أصحاب الاحنف أكان الاحنف يغضب فقال نعم ولم يغضب مابان حلمه كان يغضب الشئ يبين فى وجهه اليومين والثلاثة وهو يصبر ويحلم ومن لم يغضب من الاشياء التى مثلها يغضب فقد فقد من الفضائل الشجاعة والانفة والحمية والدفاع والاخذ بالثار والغيرة لان هذه الخصال تنتج الغضب ومن فقد الغضب فقد فقد أس الفضائل على ماسنذكره فى باب الشجاعة ان شاء الله تعالى وعند فقد الشجاعة تكون المهانة ومن المهانة يكون سفساف الاخلاق ورذالة الطبائع فلا يبقى لسائر فضائله موقع وكان يقال من لم يغضب فليس بحليم لان الحليم انما يعرف عند الغضب وقال الشعبى الجاهل خصم والحليم حاكم قال الشافعى من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضى فلم يرض فهو جبار وقد كان النبى عليه السلام يغضب ولكنه انما كان يغضب لالنفسه بل عند انتهاك حرمة ربه واعلم ان الله تعالى ماامدح من لايغضب وانما امدح من كظم الغيظ فقال والكاظمين الغيظ وقد انشد النابغة الجعدى بحضرة النبى عليه الصلاة والسلام

ولاخير فى حلم اذا لم تكن له * بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولاخير فى جهل اذا لم يكن له * حليم اذا ما أورد الامر أصدرا

فلم ينكر النبى صلى الله عليه وسلم قوله وكان ابن عمر اذا سافر استتبع سفيها ويقول أستدفع به شر السفهاء عنى واعلموا أرشدكم الله أن أحسن خصال الملوك وأجلها قدرا وهى حلية الانبياء ولبسة الاصفياء وجمال السوقة والرؤساء واعظمها فى النفوس موقعا واعمها على الرعايا نفعا واخلدها على مر الايام ذكرا واجلها فى المحافل والمحاسن نشرا وهى الفضيلة التى تتم سائر الفضائل وتكمل بها سائر المحاسن الحلم وهاأنا أتلو عليك من ذلك مايقضى فيه العجب (هذه) دولة آل العباس أولهم أبو العباس السفاح والى يومنا هذا لم يكن فيهم أحلم من المأمون بلغ من حلمه انه كان يقول لو علم الناس مالى فى لذة العفو ماتقربوا الى الا بالجرائم فاق حلمه سائر خلفاء بنى العباس حتى صار يضرب المثل بحلمه وبهذه الخصلة تهنأ ملكه وقهر أخاه الامين (ومنها) دولة بنى أمية أولهم معاوية بن أبى سفيان وآخرهم مروان الجعدى لم يكن فيهم أحلم من معاوية ولاجرم دانت له الدنيا وملك بها رقاب العرب

والعجم

والحجم وصار حلمه يضرب به المثل ويقتدى به الخلق ويتخلق به العقلاء حتى حكى عنه انه كان يقول لو كان بيني وبين الناس خيط عنكبوت أو شعرة ما انقطعت اذا جذبوا ارسلت واذا أرسلوا جذبت (وهذه) دولة الفرس وكانت أعظم دول الارض وأشدها بأسا واكثرها عاما وحكما لم يكن في اكاسرها أحلم من كسرى أنوشروان وصار يضرب بحلمه المثل وتطرز بسيرته الكتب والمصنفات فيروى ان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه لقي كبير امن كبراء فارس فقال له ما أحمد خصال ملوككم فقال السبق لشيروية وأحمد هم سيرة انوشروان فقال له على وما كان أغلب خصاله عليه قال الحلم والاناة قال على هما وأتم يتجهما عاقل والهمة وبلغ من حلمه انه كان يضيق صدره بحلمه فقال في خصلتان لولا انهما ظاهرتان عند الرعية لضقت بهما ذرعا الحلم والاناة فأخلق بخصلة تم منفعتها وبقي على الدهر جمالها وتخلد في العلماء والعقلاء والملوك والسوقة بهجتها وحسن مصادرها وموارد أن يتخذها الملوك شعارا ودثارا وانما قصدت الحكماء من الملوك خاصة فاما من سواهم من الرعية كالاحنف ونظرائه فلا يحصون كثرة

(الباب التاسع والعشرون فيما يسكن الغضب)

فاقول ذلك انك اذا نظرت الى تغير أشكالك وتبدل صورتك واحمرار وجهك واستفاخ أوداجك وذهاب جنانك وسقط كلامك وفحش ما يخرج من فيك لامسكت عن الغضب ولطالما كنت تستحي أن تتكلم بين يدي الجلساء بالبسير الجائز فعمدت تهدر بالكثير الفاحش ولو أن من غضب استذكر اذا صحا وسكن غربه انقلاب صورته وتغير وجهه واضطراب شقشقته وارتعاد أطرافه وسقط كلامه وفحوى خطابه والتفاف لسانه وخفة عقله وطيشه ووثوبه من مجلسه كانه غر وسرعة التفاته يمينا وشمالا كانه قرد وعدم فهمه لما يسمع وقلة التفاته الى من يعظه وينصحه كانه أحمق ومن شؤم الغضب وعظيم بليته انه قد يقتل النفوس ويسلب الروح وكان سبب موت مروان بن عبد الملك انه وقع بينه وبين أخيه سليمان كلام فحمل عليه سليمان فقال يا من يلحق أمه ففتح فاه ليصيبه واذا بجنبه عمر بن عبد العزيز فامسك على فيه ورد كلمته وقال يا ابن عبد الملك أخوك وامامك وله السن عليك فقال يا أبا حفص قتلتني قال وما صنعت بك قال رددت في جوفي احر من الجمر ومال بجنبه فمات واعمري انه يزيد على الحمق (ومنها) أن ينتقل من الحالة التي كان عليها الى غيرها كانت الفرس تقول اذا غضب القائم فليجلس واذا كان جالسا فليقم وبهذا المذهب كان ياخذ المامون نفسه (ويروى) شكى الى النبي صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع في القبور واعتبر بالنشور (وكان) بعض ملوك الطوائف اذا غضب القى بين يديه مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه (وكان) عكرمة يقول في قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت يعني اذا غضبت فانه اذا ذكر الله خاف منه فيزول غضبه (وفي) التوراة يا ابن آدم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب ولا أمحقك فيمن امحق (ومنها) أن يذكر نفرة القلوب عنه وسقوط منزلته عند أبناء جنسه ووصفهم لقبائحه وطيشه ومخفته فيكون ذلك سببا لزوال غيظه (ومنها) أن يتذكر انعطاف القلوب عليه وانطلاق الالسنة بالثناء عليه وميل النفوس اليه وان الحلم عزوزين وان

السفاذل وشين (روى) أبو سعيد الخدرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما ازداد رجل بعفو الا عزا فاعفوا يعزكم الله (وقال) بعض الحكماء من تذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته فى ظلم عباده (وكتب) بعض ماوك الفرس كتابا ودفعه الى وزيره وقال له اذا غضبت فنا ولنيه وفيه تكتوب مالك وللغضب انما أنت بشر ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء (وكان) معاوية كثيرا ما ينشد

انا اذا مالت دواعى الهوى * وانصت السامع للقائل
واعتلج الناس بألبابهم * نقضى بحكم عادل فاصل
نخاف أن تسفه احلامنا * فنضل الدهر مع الخامل

(وقال) بعض الحكماء اياك وعزة الغضب فانها تفضى الى ذلة العذر وقال الشاعر

واذا اعترتك فى الغضب العزة فاذكر تذلل الاعتذار

وقال غيره

زررنا على غير الفواحش فضنا * ولم نستجز الا الذى هو أجوز

(وقال) عبد الله بن مسلم بن محارب لهرون الرشيد يا أمير المؤمنين أسألك بالذى انت بين يديه أذل منى بين يديك وبالذى هو أقدر على عقابك منك على عقابى لما عفوت عنى فعفا عنه لما ذكره قدرة الله عليه (وقال) رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان فى أسارى ابن الاشعث ان الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله تعالى ما يحب من العفو (وقال) المأمون لعمه ابراهيم بن المهدى وكان مع أخيه عليه انى شاورت فى أمرك فاشار واعلى بقتلك الا انى وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك فقال يا أمير المؤمنين ان المشير اشار بما جرت به العادة فى السياسة الا انك أبيت ان تطلب النصر الا من حيث عودته من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وأنشا يقول

البر بى منك وطا العذر عندك لى * فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
وقام عدلك بى فاحتج عندك لى * مقام شاهد عدل غير متهم

(وقال) بعض الحكماء الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم (ومنها) أن يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذلة الانتقام وشروع القصاص فى بدنه بين يدى من لا يرحمه فان ذلك يمارده من الغضب

(الباب الثلاثون فى الجود والسخاء وهذه الخصلة الجليلة قدرها العظيم موقعها الشريف موردها ومصدرها)

وهى احدى قواعد المملكة وأساسها وتاجها وجمالها تعنو لها الوجوه وتذل لها الرقاب وتخضع لها الجبابرة ويسترق بها الاحرار ويستمال بها الاعداء ويستكثر بها الاولياء ويحسن بها الثناء ويملك بها القرباء والبعداء ويسود بها فى غير عشائرهم الغرباء (وهذه) الخصلة بالعزائم الواجبات أشبه منها بالجمال والخصلات وكم قد رأينا من كافر تملك دينه والتزم دين الاسلام ليتخلص عرض قليل من الدنيا ناله وكم قد سمعنا من مسلم ارتد فى أرض الشرك اقتناعا ليسير من عرض الدنيا واخلق بخصلة يترك لها الانسان دينه الذى يذل دونه نفسه

أن تكون جليلة القدر عظيمة الخطر وأحوج خلق الله اليها أفقرهم الى عطف القلوب عليه وصرف الوجوه اليه وهم الملوك والولاة (واعلموا) يامعشر من وسع الله عليه دنياه واسبغ عليه آلاءه ونعماءه انه ليس فى الجنة لاحد بك بكلمة لاتدخل الجنة سقوطا وضعة وانما اسست الجنة على ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين (وهذه) الخصلة أعنى الكرم والجود والسخاء والايثار بمعنى واحد يوصف الباري تعالى بالجود ولا يوصف بالسخاء كما يوصف بالعلم ولا يوصف بالعقل لعدم التوقف (وحقيقة) الجود هى أن لا يصعب عليه البذل ويقال السخاء هو الرتبة الاولى ثم الجود ثم الايثار فمن أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الاكثر فهو صاحب جود ومن آثر غيره بالحاضر وبقى هو فى مقاساة الضر فهو صاحب ايثار (قال) ذو النون بداية السخاء أن تسخو نفسك بما فى يديك ونهايته أن تسخو نفسك بما فى أيدى الناس وان لا تبالى من كل الدنيا (وتذاكر) قوم من الزهاد عند رابعة العدوية فجعلوا يذمون الدنيا ويكثرون من ذلك فقالت رابعة من أحب شيأ أكثر من ذكره وأصل السخاء هو السماحة وان يؤثر ما يؤتيه من طيبة نفس (وقد يكون) المعطى بخيلا اذا صعب عليه البذل والممسك سخيا اذا كان لا يستصعب العطاء وان منع ولهذا قال علماؤنا ان الله تعالى لم يزل جوادا وان لم يقع منه عطاء فى الازل لان العطاء فعل والفعل فى الازل مستحيل (وقالت) الحكماء أيها الجامع لا تخدعن فالمأكول للبدن والموهوب للمعاد والمترك للعدو وقال الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (قال) أبو هريرة رضى الله عنه جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله انى جائع فاطعمنى فبعث النبى صلى الله عليه وسلم الى أزواجه فقلن والذى بعثك بالحق ماعندنا الا الماء فقال النبى صلى الله عليه وسلم ماعند رسول الله ما يطعمك الليلة ثم قال من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله فقال رجل من الانصار أنا يارسول الله فحمله الى منزله وقال لاهله هذا ضيف النبى صلى الله عليه وسلم فما كرميه ولا تدخرى عنه شيأ فقالت ماعندنا الا قوت الصبية فقال قومى فعللیهم عن قوتهم حتى ينامو انم أسرجى وابرزى فاذا أخذ الضيف يأكل قومى كأنك تصلحين السراج فأطفيته وتعالى نغضغ ألسنتنا الضيف النبى صلى الله عليه وسلم ففعلت وجعلا يمضغان ألسنتهما والضيف يظن أنهما يأكلان وباتا طاويين فلما أصبحوا ونظر النبى صلى الله عليه وسلم اليهما تبسم ثم قال لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة ونزلت ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة الآية (وقال) أنس اهدى لبعض الصحابة رأس شاة مشوية وكان مجهودا فوجه به الى جاره فوجه به الجار الى أهل بيت آخر فتداولته سبعة أبيات حتى عاد الى الاول فنزلت ويؤثرون على أنفسهم (وقال) حذيفة العدوى انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شئ من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته فاذا أنا به يئز القتلى فقلت أسقيك فاذا رجل يقول آه فاشار ابن عمى ان انطلق اليه فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع آخر يقول آه فاشار هشام أن انطلق اليه فجئته فاذا هو قد مات ثم رجعت الى هشام فوجدته قد مات ثم رجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات (وروت) عائشة رضى الله عنها قالت قال النبى صلى الله عليه وسلم السخى قريب من الله

قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة والجاهل السخي احب الى الله من العابد البخيل (وروى) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن آدم انما لك من مالك ما اكلت فافنيت أو لبست فأبليت أو اعطيت فامضيت (واعلم) ان السخاء على وجوه سخاء في الدين وسخاء في الدنيا فالسخاء في الدنيا البذل والعطاء والايثار وسماحة النفس قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وعلامته ترك الادخار وبغض جمع المال وتعاهد الاخوان مسرورا قلبه بذلك والسخاء في الدين ان تسخو نفسك أن يتألهها الله تعالى وتريق دمك في الله سماحة من غير كراهة لاتريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا وان كنت غير مستغن عن الثواب لان الغالب على قلبك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله تعالى حتى يفعل الله بك ما الاحسن ان تختاره لنفسك (وقيل) لعمر بن الخطاب رضى الله عنه من السيد قال الجواد اذا سئل الحليم اذا استجهل الكريم المجالسة لمن جالسه الحسن الخلق لمن جاوره (وقال) النعمان بن المنذر يوما لجلسائه عمن أفضل الناس عيشا وانعمهم بالا واكرمهم طباعا وأجلهم في النفوس قدرا فسكت القوم فقال فتى ايبت اللعن أفضل الناس من عاش الناس في فضله قال صدقت (وقال) الحسن باع طلحة بن عثمان أرضا بسبعمائة ألف درهم فلما جاء المال قال ان رجلا بيت هذا عنده لايدري مايطرقه لغرير بالله ثم جعل رسوله يختلف حتى قسمها وما أصبح عنده منها درهم (وكان) أسماء بن خارجة يقول ما أحب ان ارد أحدا عن حاجة لانه ان كان كريما أصون عرضه وان كان لئيما اصون عنه عرضي (وكان) مروان المحجلي يتلطف في ادخال الرفق على اخوانه فيضع عند أحدهم الف درهم ويقول امسكوها حتى أعود اليكم ثم يرسل اليهم أنتم منها في سل (وقال) العتبي أعطى الحكم بن عبد المطلب جميع ما يملكه فلما نفد ما عنده ركب فرسه وأخذ محمله يريد الغزو ومات بمنبج فاخبرني رجل من أهل منبج قال قدم علينا الحكم وهو مملق لاشيء معه فاغنانا قيل كيف أغناكم وهو مملق فقال ما اغنانا بمال ولكنه علمنا الكرم فعاد بعضنا على بعض فاستغنينا * واكرم العرب في الاسلام طلحة بن عبيد الله جاءه رجل فسأله برحم بينه وبينه فقال هذا حائطي بعكان كذا وكذا وقد أعطيت به سبعمائة ألف درهم يراح بالمال الى العشية فان شئت فالمال وان شئت فالحائط (وروى) ان رجلا بعث الى حنظلة بجارية فواقعها بين أصحابه فقال قبيح ان آخذها لنفسي وأنتم حضور واكره ان اخص بها واحدا منكم وكلكم له حق وحرمة وهذه لاتحتمل القسمة وكانوا ثمانين رجلا فأمر لكل واحد منهم بجارية أو وصيف (وقيل) لقيس بن عمرو هل رأيت قط أسخى منك قال نعم نزلنا بالبادية على امرأة فخضرز وجها فقالت له انه نزل بك ضيفان فجاءته اقة فنحرها وقال شأنكم فلما كان الغد جاء باخرى ونحرها وقال شأنكم فلما ماكنا من التي نحرت البارحة الا اليسير فقال اني لاطعم أضيافي الفائت فاقتنا عنده اياما وامطرنا وهو يفعل كذلك فلما اردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة اعتذري لنا منه وضينا فلما متع النهار اذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام اعطيتموني ثمن القرى ثم انه لحقنا وقال لتأخذونها والا طعنتكم برمحي فاخذناها وانصرف (وقال) ميمون بن مهران من طلب مرضاة الاخوان بشيء فليصحب أهل القبور

(وقال)

(وقال) ابن عباس لايتم المعروف الا بثلاثة تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجله فقد هنأه واذا صغره فقد عظمه واذا ستره فقد تممه (وقال) الحسن كان احدهم يشق ازاره لاخيه نصفين (وقال) المغيرة فى كل شئ سرف الا فى المعروف (وقيل) للحسن بن سهل لاخير فى السرف فقال لاسرف فى الخير فقلب اللفظ واستوفى المعنى ونظمه محمد بن حازم فقال

لا الفقر عار ولا الغنى شرف * ولا سخاء فى طاعة سرف

مالك الاشئ تقدمه * وكل شئ أخرته تلف

* واما طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى المعروف بطلحة الطلحات وانما سمى بهذا الاسم لانه كان عظيم البذل فى كل وجه وكان يبتاع الرقاب فيعتقها وكان كل معتق يولد له ولد ذكر سماه طلحة فبلغ عددهم ألف رجل كل يسمى طلحة فسمى طلحة الطلحات ثم ولى سجستان وفيه يقول الشاعر

نضر الله اعظما دفنوها * بسجستان طلحة الطلحات

فقد بلغه ان معلمه كان فى الكتاب بالحجاز قد قعد به الدهر فارسل اليه مع غلامه مائة ألف فتقال سلمها اليه فان يكن مات وله ولد فادفعها الى ولده وان لم يكن له ولد فنفرقها على قومه فوافقه الرسول قد مات ولم يعقب فتفرقها فى قومه (وقال) زيد بن أسلم وكان من الخاشعين يا ابن آدم أمرك الله أن تكون كريما وتدخل الجنة ونهاك أن تكون لئيما وتدخل النار (وقال) حكيم بن حزام ما اصبحت قط صباحا لم أربيابى طالب حاجة الا عددتها مصيبة أرجو نوابها (ولما) مات وجد عليه مائتا ألف دينار ووجد مكتوبا على حجر انهز الفرص عند امكانها ولا تحمل على نفسك هم مالم يأتك * واعلم ان تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك فكم من جامع لبعل حليلته (وقال) على بن أبى طالب رضى الله عنه ما جمعت من المال فوق قوتك فانما أنت فيه خازن لغيرك (وروى) مالك فى الموطا ان مسكينا سال عائشة وهى صائمة وليس فى بيتها الا رغيف فقالت لمولاة لها اعطيه اياه فقالت ليس لك ما تفطرين عليه فقالت اعطيه اياه ففعلت فلما امست أهدى لها أهل بيت شاة وكفنها يعنى ملفوفة بالزعفران فقالت لى عائشة كلى هذا خير من قرصك (وقال) عبد الله بن عمر ما كان أحد ناعلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم يحسب ان له فى الفضل شيا (وقال) الحسن كنا نعد البخيل من يقرض أخاه الدرهم (ومن عجائب) ما روى فى الايثار ما ذكره أبو محمد الازدى قال لما احترق المسجد بمصر وظن المسلمون ان النصارى أحرقوه فاحرقوا ناحيتهم فقبض السلطان جماعة من الذين أحرقوا الخان وكتب رقاعا فيها القتل وفيها القطع وفيها الجلد ونثرها عليهم فمن وقعت عليه رقعة فعل به ما فيها فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال ما كنت أبالى لولا أم لى وكان يحابيه بعض القضاة فقال له فى رقعتى الجلد وليست لى أم فادفع الى رقعتك وخذ رقعتى ففعلا فقتل ذاك وتخلص هذا (وحكى) ان أبا العباس الاطاكى اجتمع عنده نيف وثمانون رجلا بقرية بقرب الرى ولهم أرغفة لم تسع جميعهم فكسروا الرغفان واطفؤا السرايج وجلسوا للطعام الى أن كفوا فلما رفع اذا الطعام بحاله لم يأكل منه واحد منهم ايثارا لصاحبه على نفسه (وروى) انه اجتمع بالرملة جماعة من ارباب القلوب فحضر طبق فيه تين اخضر وقد عشق الليل فكان الواحد يمد يده فاذا نظر بحبة مصرم يأكلها وان نظر يطيب دفعه الى صاحبه ولم يأكله فلما رفع الطبق اذا الطيب كله فى الطبق لم يأكلوا

منه شيأ (وقال) بعض الرواد دخلت على بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تعرى من الثياب فقلت يا ناصر الناس يزيدون الثياب في مثل هذا اليوم وانت تنقص فقال ذكرت الفقراء وما هم فيه ولم يكن لي ما واسيهم به فاردت ان أرافقهم بتفسخ في مقاساة البرد (وقال) الاستاذ ابو علي الاسي غلام خليل بالصوفية الى الخليفة بالرندقة أمر بضرب أعناقهم فاما الجنيد فانه تستر بالفقه وكان يفتي على مذهب ابي ثور واما النصام والرقام والنوري وجماعة فتبصر عليهم وبسط النطع لضرب اعناقهم فتقدم النوري أمامهم فقال له السياف اتدري لماذا تتقدم وتسابق قال نعم قال وماذا يعجلك قال أوثر أصحابي بحياة ساعة فتحير السياف واتى الخبر الى الخليفة فردهم الى القاضي ليتعرف حالهم فالقى القاضي على أبي الحسن النوري مسائل فقهية فاجاب عن الكل ثم أخذ يقول ان لله عبادا اذا قاموا قاموا بالله واذا نطقوا نطقوا بالله وسرد الفاظا حتى أبكى القاضي فأرسل الى الخليفة وقال ان كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الارض مسلم (ولما) مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ اخوانه في العيادة فسأل عنهم فقال انهم يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع الاخوان من الزيارة ثم أمر مناديا من كان ليس عنده مال فهو منه في حل فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد (ويروى) ان عبد الله بن جعفر وكان أحد الاجواد خرج الى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيها غلام اسود يقوم عليها فاتى بقوته ثلاثة أقراص ودخل كلب ودنا من الغلام فرمى اليه بقرص فاكله ثم رمى اليه بالثاني والثالث فاكلهما وعبد الله ينظر فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت هذا الكلب قال ماهي بأرض كلاب وانه جاءه من مسافة بعيدة جائعا فكرهت رده قال فما أنت صانع اليوم قال أطوي يومي هذا قال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء وهذا أسخى مني فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فاعتق الغلام ووهب ذلك له (وقال) النوري رأيت محمد بن سوقة بالغداة صاحب مائة ألف وبالعشي سألناه من أصحابه خبزة (وقال) أبو عبد الرحمن دخل أبو عبد الله الروذباري الى دار بعض أصحابه فوجده غائبا وهناك بيت مقفل فكسر القفل وأمر بجميع ما وجد فيه من المتاع فانفذوه الى السوق فباعوه وأصلحوا به وقتا من الثمن فلما صاحب الروذباري ظهر شيأ فدخلت امرأته بعدهم الدار وعليها كساء فدخلت بيتا ورمت بالكساء وقالت يا أصحابنا هذا أيضا من جملة المتاع فبيعوه فمال زوجها لم تكلفت هذا باختياري فقالت اسكت مثل هذا الشيخ يأسطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شيء نذخره عنه (واما) عبد الملك بن بصر فورث خمسة آلاف درهم فبعث بها الى اخوانه صررا وقال ما كنت لأسأل لاخواني البخنة في صلاتي وابخل عليهم بجلالي (ويروى) ان الاشعث بن قيس ارسل الى عدي بن حاتم يستعيره منه قدورا كانت لابيه حاتم فلما وجه بها اليه وقال انا لا نعيرها فارغة (وقال) بزرجمهر لا عز اثبت اركانا ولا أبذخ بنيانا من بيت الكرم واكتساب الشكر وذلك أن عز التعظيم بالفعل الجميل باق في قلوب الرجال ومن تحصن بالجود وتحرز بالمعروف فقد ظفر بمن ناواه وربح الشكر والثواب (ويروى) ان عبد الله بن أبي بكر وكان أحد الاجواد عطش يوما في طريقه فاستسقى من منزل امرأة فاخرجت كوزا وقامت خلف الباب وقالت تنحوا عن الباب وليأخذه بعض علمائكم فاني امرأة من العرب مات زوجي منذ أيام

فشرب عبد الله وقال يا غلام احمل اليها عشرة آلاف فقالت سبحان الله تستحي فقال يا غلام احمل اليها عشرين ألفا فقالت أسأل الله العافية فقال يا غلام احمل اليها ثلاثين ألفا فقالت أف للشح فحمل اليها ثلاثين ألف درهم فما أمسك حتى كثر خطابها (وقال) بعض الرواة قصد رجل الى صديق له فدق عليه الباب فلما خرج قال ما حاجتك قال أربعمائة درهم على دين فدخل الدار وأخرجها اليه ثم دخل الدار وبكى فقالت له امرأته هلا تهللت حين شقت عليك الاجابة قال انما أبكي لاني لم أتفقدك حتى احتاج الى مكاشفتي (وقال) أكثم بن صيفي صاحب المعروف لا يقع فان وقع وجدمنه كافا (وقال) الفضيل ما كانوا يعدون القرض معروفا (ويروى) عن امرأة من المتعبدات انها قالت لحبان بن هلال وهو في جماعة من أصحابه ما السخاء عندكم قال البذل والايثار وقالت فما السخاء في الدين قال أن تعبدي الله تعالى سخية به نفسك غير مكرهة قالت أفتريدون على ذلك جزاء قالوا نعم لان الله تعالى وعد على الحسنة بعشر امثالها قالت فاذا اعطيتم واحدة وأخذتم عشرا فأي شيء سخيتم به وانما السخاء أن تعبدوا الله تعالى متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين لا تريدون بذلك ابرا ألا تستحيون ان يطلع على قلوبكم فيعلم منها انها تريد شيأ بشيء (وقالت) بعض المتعبدات لبعض المتعبدين أتظن السخاء في الدينار والدرهم فقط انما السخاء في بذل مهج النفوس لله تعالى (وقال) أبو بكر الدقاق وليس السخاء ان يعطي الواجد المعدم انما السخاء ان يعطي المعدم الواجد (وقال) الشيخ ابو عبد الرحمن كان الاستاذ أبو سهل الصعلوكي من الاجواد لم يكن يتناول احد اشيأ بيده وانما كان يطرحه على الارض فيتناوله الآخذ من الارض وكان يقول الدنيا أقل خطرا من ان يرى من اجلها يدي فوق يد أخرى وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى وكان يتوضأ يوما في صحن داره فدخل عليه انسان وسأله شيأ فلم يحضره شيء فقال اصبر حتى أفرغ فلما فرغ قال خذ القمقمة واخرج فلما خرج وعلم انه بعد صاح وقال دخل انسان وأخذ القمقمة فشوا خلفه فلم يدركوه وانما فعل ذلك لانهم كانوا يلومونه على البذل (وفي معناه قال الشاعر)

ملأت يدي من الدنيا مرارا * فما طمع العواذل في اقتصادي

ولو وجبت على زكاة مال * وهل تجب الزكاة على جواد

(وكان) أبو مرثد أحد الكرام فمدحه بعض الشعراء فقال ما عندي ما أعطيك ولكن قدمني الى القاضي وادع علي بعشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها ثم احبسني فان أهلي لا يتركونني محبوسا ففعل ذلك فلبسوا حتى دفع اليه عشرة آلاف درهم (وقال) زياد بن جرير رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس وانه ليخيط أزراره بيده (ولما) دخل المسكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها يا أم المؤمنين أصابني فاقة فقالت ما عندي شيء فلو كانت عندي عشرة آلاف لبعثت بها اليك فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف من عند خادن أسيد فارسلت بها في أثره فاشترى جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد فكانوا عباد المدينة محمد وأبو بكر وعمر بنو المنكدر (وقال) يحيى بن معين كان جرير بن يزيد في دار المطلب فجاء انسان يسأله فقال للغلام اذهب الى الجواري فقل لهن من أراد منهن ان تصبغ ثيابها فلتبعث بها فجاء الغلام بثياب كثيرة فقال للسائل خذها (وقال الاصمعي) كانت جرت حرب بالبادية ثم انصلت بالبصرة

فتفاقم الامر فيها حتى مشى بين الناس بالصلح فاجتمعوا في المسجد الجامع قال فبعثت وأنا غلام الى ضرار بن القعقاع بن حازم فاستأذنت عليه فأذن لي فاذا هو عليه شملة يخيط ثوبي لعنزله حلوب فخبرته بمجتمع القوم فأمهل حتى أكلت العنز ثم غسل القصعة وقال ياجارية غدينا فأتته بزيت وقر قال فدعاني فقذرته أن آكل معه حتى اذا قضى من أكله حاجته وثب الى طين ملقى في الدار فغسل يده ثم صاح بالجارية فقال اسقني ماء فأتته بماء فشربه ومسح فضله على وجهه ثم قال الحمد لله ماء الفرات بقر البصرة بزيت الشام متى نؤدي شكر هذه النعم ثم قال علي برداني فأتته برداء عدني فارتدى به على تلك الشملة قال الاصمعي فتجافيت عنه استقبحا لزيه فدخل المسجد وصلى ركعتين ومشى الى القوم فلم تبق حبوة الا حلت اعظاما له ثم جلس فتحمل ما كان بين الاحياء من الديات في ماله وانصرف (وكان) البهلول بن راشد الفقيه لما سجن يعطى كل يوم السجان دينارا فاستكثره أصحابه وكلموه في ذلك فقال لهم حفص بن عمارة سمعت سفيان الثوري يقول اذا كل صدق الصادق لم يملك ما في يديه نظر بهلول على يديه وقبلها وجعل يقول سألتك بالله أنت سمعته يقول هذا فحلف بالله لقد سمعته يقوله (وقال الشاعر)

ذريني أكن للمال ربا ولا يكن * لي المال ربا يحمدي غبه غدا
أريني جوادا مات هزلا لعلني * أرى ما تريني أو بخيلا مخلدا

(وكان) عبد الله بن ابي بكر ينفق على أربعين دارا من جيرانه عن يمينه واربعين عن يساره واربعين امامه واربعين خلفه ويبعث اليهم بالاضاحي والكسوة في الاعياد ويعتق في كل عيد مائة مملوك واشترى يوما جارية بعشرة آلاف فطلب دابة يحملها عليها فقال رجل هذه دابتي فقال احملوها على دابته الى داره (وقال عبد الله بن زهير)*

وعاذلة تخشى الردى أن يصيبني * تروح وتغدو باللامة والقسم
تقول هلكنا ان هلكت واننا * على الله ارزاق العباد كما زعم
واني احب الخلد لو أستطيعه * وكالخلد عندي أن اموت ولم ألم

(وروى) ان اعرابيا قدم على علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقال يا امير المؤمنين الى البك حاجة الحياء يمنعني أن اذكرها قال خطها في الارض خط في الارض اني فقير فقال لغلامه يا قنبر اكسه حلتي فكساه الحلة فقال

كسوتني حلة تبلى محاسنها * فسوف اكسو لمن حسن الثنا حللا
ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه * كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
ان نلت حسن ثناء نلت مكرمة * لا تبغين بما قد نلته بدلا
لا تزهدن في عرف بدأت به * كل امرئ سوف يجزى بالذي فعلا

قال علي زده مائة دينار فاعطاه اياها فلما ولى الاعرابي قال قنبر يا أمير المؤمنين لو تركتها في المسلمين لاصلحت بها من شأنهم فقال مه يا قنبر اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اشكروا لمن اثنى عليكم واذا أتاكم كريم قوم فاكرموه (وقال) مطرف بن الشخير اذا اراد أحدكم مني حاجة فليرفعها في رقعة فاني اكره ان أرى في وجهه ذل الحاجة (قرئ) على القاضي أبي الوليد وأنا اسمع

وأعرف بالبخل قلت لها اقصري * فليس اليه ما حييت سبيل

ارى الناس خلان الكرام ولا ارى * بخيلا له فى العالمين خليل
وانى رأيت البخل يزرى باهله * فأكرمت نفسى أن يقال بخيل
ومن خير حالات الفتى لو علمته * اذا نال خيرا أن يكون بذيل

(ولعروة بن الورد)

وانى امرؤ عافى انائى شركة * وانت امرؤ عافى انائك واحد
اقسم جسمى فى جسوم كثيرة * واحسو قراح الماء والماء بارد

(وقال) بعض الحكماء أصل المحاسن كلها الكرم وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما ملكت على الخاص والعام وجميع خصال الخير من فروعه (وروى) انه كان عند الهسأول بن راشد طعام فغلا السعر فامر به فبيع له ثم أمر ان يشترى له ربع القيمة فقيل له تبيع وتشترى نقال نفرح اذا فرح الناس ونحزن كما حزنوا (ولبعض حاتم طى فقال)

لعمرى لقد ما عضنى الجوع عضة * فما لبثت أن لا أمنع الدهر جانبا
فقولا لهذا اللائم الآن أعفنى * فان أنت لم تستطع فعض الاصابعا
فهل ما ترون الآن الا طبيعة * فكيف بتركى يا ابن أم الطبائعا

(وقال آخر)

أصون عرضى بمالى لا أدنسه * لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال ان أودى فأجمعه * وليست للعرض ان اودى بمحتال

(ويروى) ان رجلا سأل الحسن بن على رضى الله عنه شيأ فاعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار وقال انت بخمال يحمد لك فاتاه بجمال فاعطاه طيلسانه وقال يكون كراء الجمال من قبلى (ويروى) ان الليث بن سعد سألته امرأة كسر جة عسل فامر لها برقى عسل فقيل له فى ذلك فقال انها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر نعمتنا (وروى) ان رجلا استضاف لعبد الله بن عامر بن كريز فلما اراد الرجل ان يرتحل لم يعنه على ما نه فسئل عن ذلك فقال عبد الله انهم لا يعينون من ارتحل عنا (وفى معناه يقول المتنبى)

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا * أن لا تفارقهم فالراحلون هم

(الباب الحادى والثلاثون فى بيان الشح والبخل وما يتعلق بهما)

الشح فى كلام العرب البخل ومنع الفضل * كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم انى أعوذ بك من شح نفسى واسر افها ووسواسها (وروى) جابر أن النبى عليه السلام قال اتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا الدماء واستحلوا محارمهم وقد فرق بينهما من فرقون فقالوا الشح أشد من البخل فان البخل أكثر ما يقال فى النفقة وامسا كها قال الله تعالى سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وقال تعالى ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه وقال تعالى فى الشح أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا وقال تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون فالشح مبنى على الكراهة والامتناع فهو يكون فى المال وفى جميع منافع البدن (وقال) ابن عمر ليس الشح أن يمنع الرجل ماله وانما الشح ان يطمع فيما ليس له ولهذا قال ابن المبارك سخاء

النفس عما فى ايدى الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل (وقال) رجل لابن مسعود انى أخاف ان أكون قد هلكت سمعت الله تعالى يقول ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وانا رجل شحيح لا يكاد ان يخرج من يدى شئ فقال له ابن مسعود هذا البخل وبئس الشئ البخل فرق بينهما كما ترى (وقال) ابن عباس الشح أن يتبع هواه فلم يقبل الايمان وقال طاوس الشح ان يبخل المرء بما فى ايدى الناس والبخل ان يبخل بما فى يديه (وروى) أنس ان النبى عليه الصلاة والسلام قال برئ من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف واعطى فى النائبة (وقال) ابن زيد من لم يأخذ شيأ نهاه الله عنه ولم يدعه الشح الى ان يمنع شيأ أمر الله به فقد وقاه شح نفسه (وقال) أبو النياح الاسدى رأيت رجلا فى الطواف يقول اللهم قنى شح نفسى لا يزيد على ذلك شيأ فسألته عن ذلك فقال اذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل شيأ يكرهه الله تعالى واذا الرجل عبد الرحمن بن عوف (واعلم) ان البخل يكون من سوء الظن بالله أن لا يخلف ولا يثيب وهذا يوهن التصديق بما تكفل الله به ويطرق الخلل والاستياء الى جميع الاوامر بين العبد وبين الخالق وبين العبد وبين الخلق فى ترك معاونتهم والنصح لهم (وقال) كسرى لاصحابه أى شئ أضر بابن آدم قالوا الفقر فقال كسرى الشح أضر من الفقر لان الفقير اذا وجد اتسع والشحيح لا يتسع أبدا ولما قدم الشافعى من صنعاء الى مكة كان معه عشرة آلاف دينار فقالوا له تشترى بها ضيعة فضرب خيمته خارج مكة وصب الدنانير فكل من دخل عليه كان يعطيه قبضة قبضة فلما جاء وقت الظهر قام ونفض الثوب ولم يبق شئ (ولما) قربت وفاته قال صرروا فلانا يفعل لى وكان الرجل غائبا فلما قدم اخبر بذلك فدعا بتلك الصرر فوجد عليه سبعين ألف درهم دينا فقضاها وقال هذا فعل اياه (وروى) ان رجلا أراد ان يؤدى عبد الله بن عباس فاق وجوه البلد وقال يقول لكم ابن عباس تغدوا اليوم عندى فانوه فلؤوه الدار فقال ما هذا فاخبروه فامرهم ان تشتروا الفواكه فى الوقت وامر باخبز والطبيخ فاصلح القرى فلما فرغ قال لو كلفته أموجود لنا هذا كل يوم قالوا نعم قال فلا تغدهؤلاء كلهم كل يوم عندنا * ومن الخصال الجارية مجرى الكمال والجمال ولعلها من الاصول الصبر

(الباب الثانى والثلاثون فى الصبر)

الصبر زمام سائر الخصال وزعيم الغنم والظفر وملاك كل فضيلة وبه ينال كل خير ومكرمة قال الله تعالى وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فعظم وظائف الدين ذكر الله ورسوله جزاء معلوما من أقامها الا الصبر فانه بغير حساب وقال تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا قيل عن الدنيا وقال ابن عيينة لما أخذوا برأس الامر جعلهم الله رؤساء وقال تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون وقال تعالى قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون وقال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ثم نديهم الى الصبر مع وجود الاذى فقال وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور فالصبر حبس النفس على الاوامر والمكاره وعن النواهى والمعاصى الا ترى ان أهل الجنة لو وافقيل لهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار فاخبر الله تعالى انه أثابهم جنته بصبرهم يعنى صبرتم على

طاعة الله وصبرتم عن معصية الله قال الله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى اى احبس نفسك الآية فمن امارات حسن التوفيق وعلامات السعادة الصبر فى الملمات والرفق عند النوازل (وفيما يروى) ان الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام يا داود من صبر علينا وصل الينا (وقال) سفيان بلغنا ان لكل شئ ثمرة وثمرة الصبر الظفر قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون فعلق الفلاح على الصبر والتقوى يعنى اصبروا على ما فرض الله عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه قولان قيل رابطوا على الجهاد والثانى رابطوا على انتظار الصلوات بدليل ما روى ابو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أدلكم على ما يمحط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط (وقال) الحسن فى قوله تعالى واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال ابتلاه بالكوكب فصبر وابتلاه بذبح ابنه فصبر وقال سبحانه وتعالى استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم قال قولا عظيما فجعل نفسه مع الصابرين دون المصلين وقال النبى عليه الصلاة والسلام للانصار ما يكن عندى من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر (وقال ابن مسعود) قسم النبى صلى الله عليه وسلم قسما فقال رجل من الانصار والله انها لقسمة ما أريد بها وجه الله فأخبرته ثم قال قد اوذى موسى بأكثر من هذا فصبر (وروى) ان النبى عليه الصلاة والسلام مر على امرأة تبكى عند قبر فقال لها اتقى الله واصبرى فقالت اليك عنى فانك لم تصب بمثل مصيبتى فلما قيل لها هذا رسول الله جاءت اليه تعتذر انها لم تعرفه فقالت سأصبر فقال النبى عليه الصلاة والسلام انما الصبر عند الصدمة الاولى ويحتمل هذا الحديث وجهين اما الطابى فقال معناه ان الصبر المحمود عند أول نزول المصيبة وقد فاتك بالجزع واما القابسى فقال معناه ان الصدمة الاولى وقت امرها النبى صلى الله عليه وسلم بالصبر وكان هذا تعليما لكل من فاته الصبر بذهول أو نسيان او غلبة (ويروى) ان النبى عليه الصلاة والسلام سئل عن الايمان فقال الصبر والسماحة (وفى منثور الحكم) قالت الصحة انا لاحقة بارض المغرب قال الجوع وأنا معك قال الايمان انا لاحق بارض الحجاز قال الصبر أنا معك قال الملك أنا لاحق بارض العراق قال القنوع انا معك (واعلم) ان العجلة خرق ومخرجها من قلة العقل واخرق من ذلك التفريط فى الامر بعد القدرة ومثل ذلك كالقدر على النار ان كان ماؤه قليلا غلت بيسير من النار وان كانت عظيمة لم تغل حتى تكثر نارها وتطول مدتها * وفى كتاب جاويدان خرد وليس للعجم كتاب مثله قال محرم على السامع تكذيب القائل الا فى ثلاث هن غير الحق صبر الجاهل على مضض المصيبة وعاقل ابغض من أحسن اليه وجماة أحبت كنة

* (فصل) * واعلم ان الصبر على أقسام صبر على ما هو كسب للعبد وصبر على ما ليس بكسب فالصبر على الكسب على قسمين صبر على ما امر الله تعالى به وصبر على ما نهى الله عنه فاما الصبر على ما ليس بكسب للعبد فكصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله تعالى فيما له فيه مشقة وينقسم

من وجه آخر على أربعة أقسام فاول اقسامه وأولاها الصبر على امتثال أمر الله سبحانه والانتهاء عما نهى عنه والثانى الصبر على مافات ادراكه من مسرة أو نقصت أو فاته من مصيبة والثالث الصبر فيما ينتظر ورود من رغبة يرجوها أو يخشى حدوثه من رهبة يخافها والرابع الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من امر مخوف وجميع أقسامه محمود بكل لسان وفى كل ملة وعند كل امة مؤمنة او كافرة (وقال اكثم بن صيفى) من صبر ظفر (وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه) الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو (وقال اردشير) الصبر الدرلة (وقال) عليه الصلاة والسلام الصبر ضياء والصبر توقع الفرج (وقال) عليه الصلاة والسلام الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب (وقال ابن عباس) افضل العدة الصبر عند الشدة (وقال عبد الحميد الكاتب) لم اسمع العجب من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو كان الصبر والشكر مطيتين ما باليت ايهما ركبت (وقال) بعض الحكماء الصبر على مواقع المكروه تدرك الحظوظ (وقال) ابن المقفع فى كتاب اليتيمة الصبر صبران فالتام اصبر اجساما والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه ان يكون قوى الجسد على الكد والعمل فان هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس غلابا وللامور محتملا ولجاشه عند الحفاظ ضابطا (وفى منثور الحكمة) من احب البقاء فليعد للمصائب قلبا صبورا (وقال) بزرجمهر لم ار ظهيرا على تنقل الدول كالصبر ولا مذلا للحساد كالجمل ولا مكسبة للاجلال كتوقى المزاح ولا مجلبة للمقت كالاعجاب ولا متلفة للمروءة كاستعمال الهزل فى موضع الجد (فاما القسم الاول) وهو الصبر على امتثال اوامر الله تعالى والانتهاء عن محارمه فبه يصح اداء الفرائض واستكمال النفس ويدخل فى قوله تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب وذلك قال على بن ابى طالب رضى الله عنه الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد (وقال الجنيد) المسير من الدنيا سهل هين على المؤمن وهو الخلق فى جنب الله شديد والمسير من النفس الى الله شديد والصبر مع الله تعالى شديد وسئل عن الصبر فقال تجرع المرارة من غير تعبيس (وكان حبيب بن ابى حبيب) اذا قرأ هذه الآية انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب بكى ثم قال واعجباه اعطى وأثنى (وقال الخواص) الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة (وقال عبد الواحد بن زيد) من نوى الصبر على طاعة الله تعالى صبره الله تعالى عليها وقواه ومن عزم على الصبر عن معصية الله تعالى اعانه الله تعالى وعصمه منها (وقال عمر بن عبد العزيز) للقاسم بن محمد أوصنى فقال القاسم عليك بالصبر فى مواضع الصبر (وقال الحسن) الصبر صبران صبر عند المصيبة وصبر عما نهى الله عنه وهو الافضل وانما يختلف الصبر بالخوف والرجاء فان من خاف شأ صبر على الفرار منه وصبر عند الكراهية لما يحذر من ضرره ومن رجا شأ صبر على طلبه ليظفر به (واما القسم الثانى) وهو الصبر على مافات ادراكه من مسرة أو نقصت أو فاته من مصيبة فانه يتجمل به الراحة من اكتساب المثوبة فان صبر طائعا استراح واحرز الثواب وان لم يصبر جل الهم والوزر (وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه) للاشعث بن قيس ان تجزع فقد استحق ذلك منك بالرحم وان تصبر ففى ثواب الله تعالى خلف من ابنك ان تصبر جرى عليك القلم وأنت ماجور وان جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور ونظمه أبو تمام فقال

وقال علي في التعازي لاشعث * وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة * فتؤجر أم تسلو سلو البهائم
خلقنا رجالا للتجلد والعزا * وتلك الايامي للبكا والمآتم

(وقال عمر بن الخطاب) رضي الله عنه لرجل ان صبرت مضى امر الله وكنت ماجورا وان جزعت مضى امر الله وكنت مأزورا (وقال الحسن) والله لو كلفنا الجزع ما فعلناه فالحمد لله الذي آجرنا على ما لو نهانا عنه لصرنا اليه وعن هذا قالت الحكماء الجزع اتعب من الصبر ففي الجزع التعب والوزر وفي الصبر الراحة والاجر ولو صور الصبر والجزع لكان الصبر احسن صورة وأكرم طبيعة وكان الجزع اقبح صورة واخور طبيعة ولكان الصبر أولاهما بالغلبة لحسن الخلقة وكرم الطبيعة (وقال بعض العلماء) لو وكل الناس بالجزع للجؤا الى الصبر (وقال) شبيب بن شيبة للمهدي ان المرء أحق ما صبر عليه ما لم يجد سبيلا الى دفعه وأنشد

واذا تصبك مصيبة فاصبر لها * عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

(وقال آخر)

وعوضت أجرا من فقيد فلا تكن * فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب

(وقال) بعض الحكماء ليس بمجموع له الرشد من تابع التلهف على فائت أو آكد الفرح عند مستطرف (وقال) الحكيم ان كنت جازعا على ما تفلت من يديك فاجزع على ما لم يصل اليك ومن ايقن ان كل فائت الى نقصان حسن عزاؤه عند نزول القضاء (وقال الشاعر)

اذا طال بالمحزون أيام صبره * كساه ضناطول المقام على الصبر
ولاشك ان الصبر يحمد غبه * ولكن انفاقي عليه من العمر

(وقال بعض القدماء) الصبر على أربع مراتب على الشوق والاشفاق والزهد والترقب فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار ورجع عن المحرمات ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات ومن راقب الموت اقصر عن الخطيآت (واما القسم الثالث) وهو الصبر فيما ينتظر وروده من رغبة يرجوها أو يخشى حدوثه من رهبة يحاذفها فبالصبر والتلطف تدفع عادية ما يخاف وينال نفع ما يرجو (قال) النبي عليه السلام انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة (وقال محمد بن بشير)

ان الامور اذا اشتدت مسالكها * فالصبر يفتح منها كل ما ارتجا
لا تيأسن وان طالت مطالبه * اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا
اخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجته * ومدمن القرع للابواب ان يلجا

(وقال بعض الرواة) دخلت مدينة يقال لها ذفارفبينا انا اطوف في خرابها اذ رأيت مكتوبا على قصر خراب

يا من أرخ عليه الهم والفكر * وغيرت حاله الايام والغير
اما سمعت بما قد قيل في مثل * عند الاياس فان الله والقدر
ثم للخطوب اذا أحداثها طرقت * واصبر نقد فاز أقوام بما صبروا
فكل ضيق سيأتي بعده سعة * وكل فوت وشيك بعده الظفر

(وتحته مكتوب بخط آخر) لو كان كل من صبر اعقب الظفر صبرت ولكان لجد الصبر في العاجل يفنى العمر ويدنى من القبر وما كان أصلح لذى العقل مونه وهو طفل والسلام (قلت) لو رأته لكتبت تحته في الصبر استجمال الراحة واقتطاف الفرج وحسن الظن بالله وايثار بغير حساب وفي الجزع استجمال الهم ونهك البدن واستشعار الخيبة وسوء الظن بالله وحمل الاثم مع العقوبة وما أحسن بذى العقل اجتناب هذا والسلام (وقال بعض البلغاء) من صبر نال المنى ومن شكر حسن النعماء (وقال الشاعر)

الصبر مفتاح كل خير * وكل شر به يهون
اصبر وان طالت الليالى * فربما ساعد الحرون
وربما نيل باصطبار * ماقيل هيهات لا يكون

(وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله) ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه صبرا الا كان ما عوضه أفضل مما انتزعه منه وقرأ انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (وروى) ان جارية كانت لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه تتصرف فى حوائجه فكلما خرجت تصدى لها خياط كان بقرب داره على ويقول لها والله انى لأحبك لله فلما اكثر من ذلك شكته الى على فقال لها على اذا قال لك المرة اخرى فقولى له والله انى لأحبك ما الذى تريد فعاد فقال لها ذلك فقالت له وانا والله احبك فيه فقال لها اصبرى واصبرى حتى يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فرجعت الجارية واخبرت ولاها فدعا على رضى الله عنه الخياط فوجد أمره على الصحة فوهبها له مع نفقة يستعين بها (وقال) على رضى الله عنه الصبر كفيل بالنجاح والتوكل لا يحبطه والعاقل لا يذل بأول نكبة ولا يفرح بأول رفعة وكان يقال الصبر سلامة والطيش ندامة (واما القسم الرابع) وهو الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف فالصبر فيه تتفتح وجوه الآراء وتتوقد مكايد الاعداء قال الله تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا وقال تعالى واصبر وما صبرك الا بالله وقال تعالى واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور * وروى ابن عباس ان النبى عليه السلام قال ان استطعت ان تعمل لله بالرضا فى اليقين فافعل وان لم تستطع فاصبر فان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم ان النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب وان اليسر مع العسر (وقال على رضى الله عنه) الصبر مناضل الحدثان والجزع من أعوان الزمان * وقال الحكيم مفتاح عزيمة الصبر تعالج مغالبق الامور (وانشدوا)

انما اجزع مما أتقى * فاذا حل فمالى والجزع

ولما حبس ابو ايوب فى الحبس خمس عشرة سنة ضاقت حيلته وقل صبره وكتب الى بعض اخوانه يشكو طول حبسه وقلة صبره فرد عليه جواب رقعته

صبرا أبا ايوب صبر مبرح * فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها
ان الذى عقد الذى انعقدت به * عقد المكاره فيك يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة * فلعلها أن تجلى ولعلها *

فلما وقف عليها ابو أيوب كتب اليه

صبرتنى ووعظتنى فاتلها * وستجلى بل لا اقول لعلها

ويحلها من كان صاحب عقدها * كرما به اذ كان يملك حلها

فلبثت بعد ذلك الا اياما حتى اطلق مكرما (ولتميم بن المعز)

سأسكت صبرا واحتسابا فانني * ارى الصبر سفا ليس فيه فلول

عذابي أن اشكو الى الناس أنني * عليل ومن أشكو اليه عليل

وان الذي يشكو الى غير نافع * ويمضو بما في نفسه لجهول

(وانشدوا) دع الدهر يجري بأقداره * ويقضي عجائب أوطاره

ونم نومة عن ولاة الامور * وخل الزمان بتدواره

فانك ترحم من قد غبطت * وتعجب من قبح آثاره

(وانشدني بعضهم)

ويمنعني الشكوى الى الناس أنني * عليل ومن اشكو اليه عليل

ويمنعني الشكوى الى الله أنه * عليم بما ألقاه قبل أقول

ولآخر اذا ابتليت فثق بالله وارض به * ان الذي يكشف البلوى هو الله

اليأس يقطع أحيانا بصاحبه * لا تيأسن فان الصانع الله

اذا قضى الله فاستسلم لقدرته * فالامر يحسنه فيما قضى الله

وصرف من هذه اللفظة صابر وصبور وصبار ومتصبر فالمتصبر من صبر في الله على المكاره فتاره يعجز وتاره يصبر والصابر من لا يشكو ولا يعجز والصبار الذي لو دفع عليه جميع البلايا والمحن لم يتغير وجهه في الحقيقة وان تغير من وجهه الرسم والبشرية والخلقة كما قال القائل

صابر الصبر فاستغاث به الصبـ * ـر فصاح الصبور يا صبر صبرا

وهذا اقوى بيت قيل في الصبر واحسنه وقريب منه قول القائل

صبرت على الايام صبرا اصارني * الى ان ينادي الحال لا صبر للصبر

والصبور هو الثابت على هذه المقامات وقيل أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام تخلق باخلاقي وان من اخلاقي أني انا الصبور ويقال الصبر لله غنى والصبر بالله تقى والصبر في الله بلاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وأنشدوا

اذا العب الرجال بكل شئ * رأيت الحب يلعب بالرجال

وكيف الصبر عمن حل مني * بمنزلة العيون من الشمال

وقال المحاسبي بين الصبر والتصبر حالة هي التنعم وذلك اذا رفع الله له علما من أعلام الآخرة يدله على منازل الصابرين عنده فيتنعم القلب بسرور النعيم وقال أبو محمد الجريري الصبر هو ان لا تفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما والصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان اثقال المحبة وأنشدوا

صبرت ولم أطلع هواك على صبري * واخفيت ما بي منك عن موضع السر

مخافة ان يشكو ضميري صبابتي * الى دمعتي سرا فتجري ولا ادري

وقيل للمحاسبي بماذا يقوى الصابر على صبره فقال اذا علمت ان في صبرك رضا مولاك اما سمعت قول الحكيم

رضيت وقد ارضى اذا كان مسخطى * من الامر مافيه رضا صاحب الامر

وفى معناه

ساصبر كى ترضى وأتلف حسرة * وحسبى ان ترضى ويتلفنى صبرى

قال شيخنا وشكا لمن نحبه أعظم من شكاك لنفسك هذا أيوب لما أصيب بنفسه قال مسنى الضر ويعقوب لما أصيب بحبيبه قال واأسفا على يوسف قال احمد قال لى أبو سليمان الدارانى اندرى بماذا أزال العقلاء اللائمة عمن اساء اليهم قلت لا قال لعلمهم بان الله تعالى ابتلاهم بذلك فصبروا ويروى ان الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه اذا أنزلت بعبدى بلائى فدعانى فاطلته بالاجابة فشكانى فقلت عبدى أردحك من شئ به ارحمك وقيل فى قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذى لاشكوى فيه ولا بث قال أنس ماصبر من بث وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لاتستعينوا على الدموع بالتذكر وقال الشاعر * ولا يعث الاحزان مثل التذكر * ومما يعين على عظم الاسى وشدة الجزع تذكر المسار المنقضية وتصور المضار الذاهبة وكثرة الشكوى والاسف وقال الشاعر

لاتكثر الشكوى الى الصديق * وارجع الى الخالق لا المخلوق * لايخرج الغريق بالغريق

وفى منثور الحكم المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين واعلم انه قل من صبر على شدة الا ونال مايرجوه من فرج وينبغى لمن نزلت به مصيبة أو كان فى شدة ان يسهلها على نفسه ولا يغفل عن تذكر مايقتضيه من وجوب الفناء وتقضى المسار فان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا ثقة له من صح فيها سقم ومن سقم فيها برم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها فتن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب لاخير فيها يدوم ولا شر فيها يبقى ولا فيها لمخلوق بقاء فاذا تصور حقيقتها هانت عنده المصائب سهلة والمصائب هينة وقال الشاعر

يهون ذو اللب فى نفسه * مصائب من قبل ان تنزلا

فان نزلت بغتة لم تزعه * لما كان فى نفسه مثلا

رأى الامر يفضى الى آخر * فصير آخره أولا

وقال بعض الحكماء من حاذر لم يخدع ومن راقب لم يهلع ومن كان متوقعا لم يلف متوجعا ومن لم يشعر نفسه ماذكرنا من أحوال الدنيا وتقضى المسار ثم الثواء فى اللحود بين اطباق الترب والجنادل قد فارقه الاحباء وهجره القرباء والبعداء الفته الحوادث وابقاسيته الصبر وضاعفت عليه الاسى وقال ابن الرومى

ان البلاء يطاق غير مضاعف * فاذا تضاعف فهو غير مطاق

وأنشدوا تعودت مس الضر حتى الفته * واسلمنى حسن العزاء الى الصبر

ووسع صدرى للاذى كثرة الاذى * وان كنت احيانا يضيق به صدرى

وحسن لى يأسى من الناس كلهم * لعلى بصنع الله من حيث لا ادرى

ولبعض الاعراب

تعز فان الصبر بالحر أجمل * وليس على ريب الزمان معول

فلو كان يبقى ان يرى المرء جازعا * لنائبة أو كان يغنى التبذل

لكان التعزى عند كل مصيبة * ونازلة بالحر أولى وأجمل
فكيف وكل ليس يعدو زمامه * وما امرئ عما قضى الله مرحل
فان تكن الايام فينا تبدلت * بؤس ونعمى والحوادث تفعل
فما لينت منا قناة صليبة * ولا ذللتنا للذى ليس يجمل
ولكن وجدناها نفوسا كريمة * تحمل مالا تستطيع فتحمل
وقينا بفضل الله منا نفوسنا * فصحت لنا الاعراض والناس هزل

(الباب الثالث والثلاثون فى كتمان السر)

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا فلما أفشى يوسف رؤياه بشهد امرأة بعقوب أخبرت اخوته فعل به ما عمل وفى الحديث استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود واعلم ان كتمان السر من الخصال المحمودة فى جميع الخلق ومن اللوازم فى حقوق الملوك ومن الفرائض الواجبة على الوزراء وجلساء الملوك والاتباع * قال على رضى الله عنه سرك أسيرك فاذا تكلمت به صرت أسيره واعلم ان افشاء الاسرار أشد تعذرا وأقل وجودا من افشاء الاموال وحفظ الاموال أيسر من كتم الاسرار فان أحراز الاموال منيعة بالابواب والاقفال وأحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق وعبء الاسرار أثقل من عبء الاموال وان الرجل يستقل بالحمل الثقيل يحمله ويمشى به ويقله ولا يستطيع كتم السر وان الرجل يكون سره فى قلبه فيلحقه من القلق والكرب مالا يلحقه بحمل الاثقال فاذا أذاعه استراح قلبه وسكن جاشه وكانما ألقى عن نفسه جبلا وقال عمر بن عبد العزيز القلوب أوعية والشفاه اقفالها والالسن مفاتحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره * ومن اعجب الامور ان اغلاق الدنيا كلما كثرت خزائنها كان اوثق لها الا السر فانه كلما كثر خزانه كان أضيع له وكم من اظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من بلوغ ما أربه ولو كتمه أمن من سطوانه قال انوشروان من حسن سره فله بخصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات وقال بعض الحكماء سرك من دمك فلا تجره فى غير أود اجك فاذا تكلمت به فقد أرقته وكان لعثمان بن عفان رضى الله عنه كاتب له يقال حمران فاشتكى عثمان فقال اكتب العهد بعدى لعبد الرحمن بن عوف فقال حمران لعبد الرحمن البشرى فقال عبد الرحمن لك البشرى بماذا فاخبره الخبر فانطلق عبد الرحمن فاخبر عثمان فقال عثمان اعاهد الله أن لا يساكننى حمران أبدا ونفاه الى البصرة فلم يزل بها حتى قتل عثمان رضى الله عنه واعلم ان كتمان الاسرار يدل على جواهر الرجال وكانه لا خير فى آنية لا تمسك ما فيها فلا خير فى انسان لا يمسك سره ويروى ان رجلا أودع سره عند رجل فقال له افهمت قال بل جهلت قال احفظت قال بل نسيت وقيل لبعضهم كيف كتمك للسر قال اجد المخبر واحلف للمستخبر وقال الشاعر

ولو قدرت على كتمان ما اشتملت * منى الضلوع على الاسرار والخبر
لكنت أول من ينسى سرائره * اذ كنت من نشرها يوما على خطر

قال شيخنا ومن احسن شئ سمعته فى كتمان السر ما أنشدنيه بعض فقهاء البصرة بالبصرة فقال

ولما سرائر في الضمير طويتها * نسي الضمير بانها في طيه

وفي معناه ومستودعي سرا كتمت مكانه * عن الحس خوفا ان يمم به الحس

وخفت عليه من هوى النفس شهرة * فاودعته في حيث لا تبلغ النفس

قال العتبي أسر معاوية رضي الله عنه الى عثمان بن عنبسة حديثا فقلت لابي ان أمير المؤمنين أسر الى حديثا فاحدثك به قال لا، كتم حديثا كان الخيار له ومن أظهره كان الخيار عليه فلا تجعل نفسك عملوكا بعد أن كنت مالكا قلت يا ابت أفيدخل هذا بين الرجل وأبيه قال لا يا بني ولكن اكره ان تذلل لسانك بافشاء السر قال فحدثت به معاوية فقال أعنتك أخي من ورق الخطا وقيل لبعض الملوك ما اصعب الاشياء على الانسان قال ان يعرف نفسه ويكتم سره وقال قيس ابن الخطيم

اجود بمكنون البلاد وانني * بسرك عمن سالني لضنين

اذا جاوز الاثنين سر فانه * يشاع وتكثير الوشاة قمين

وان ضيع الاقوام سر افانني * كتوم لاسرار العشير أمين

يكون له عندي اذا ما كتمته * مكان سويداء الفؤاد مكين

قال شيخنا قلت الناس يقولون أراد بالاثنين المودع والمودع ولا يعدان يريد به الشفتين وكان يقال اصبر الناس من صبر على كتمان سره فلم يبده لصديقه فيوشك ان يصير عدوا وقد روي في الحديث عن النبي عليه السلام انه قال اذا حدث الرجل الرجل ثم التفت فهي امانة قلت واذا كانت امانة حرمت فيها الخيانة كالامانة في الاموال وقال أبو بكر بن خزيم انما يتجالس المتجالسان بامانة الله فلا يحل لاحدهما ان يفشي على صاحبه ما يكره وقال هشام بن عروة ما من رجل ينتقص من اماناته الا نقص ايمانه وقال جعفر بن عثمان

ياذا الذي اودعني سره * لا ترج أن تسمعه مني

لم أجره قط على فكرتي * كانه لم يجر في اذني

وكان عمرو بن العاص يقول ما افشيت سري الى رجل فافشاه علي فلمته اذا كان صدري اضيق به وقال الاحنف بن قيس يضيق صدر أحدهم بسره حتى يحدث به ثم يقول اكتمني وفي منثور الحكم انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون وأنشدوا

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذي يستودع السر اضيق

وفي منثور الحكم من أفشى سره كثر عليه المتاعرون وقال الشاعر

وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفي

وقال آخر ولا تنطق بسرك كل سر * اذا ما جاوز الاثنين فاشي

وقال آخر تبوح بسرك ضيقابه * وتبغي لسرك من يكتم

وكفاك السر فيما تخاف * وفيما تحاذره أحزم

اذا ذاع سرك من مخبر * فانت اذا المتسه ألوم

وقال آخر اذا ما ضاق صدرك من حديث * وافشته الرجال فمن تلوم

وان عاتبت من افشى حديثي * وسرى عنده فأنا الملوم

وقال الحكيم ما كتمته من عدوك فلا تطلعن عليه صديقك فان لم يكن لك بد من اذاعته لقرينة تقتضيه من صديق مساهم أو استشارة ناصح مسالم في صفات أمين الاسرار ان يكون ذا عقل ودين ونصح ومروءة فان هذه امور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الامانة ومن كملت فيه فهو عنقاء مغرب ولا تودع سرك عند من يستدعيه فان طالب الوديعة خائن قال صالح بن عبد القدوس لا تذع سرا الى طالبه منك والطالب للسر مذيع وفي الجملة اذا زال سرك عن عذبة لسانك فالاذاعة مستولية عليه وان أودعته قلب ناصح محب فاحتمال مرارة الكتمان على قلبك أسهل عليك من التململ بتقليبك سرك غيرك واعلم ان افشاء سر غيرك أقبح من اظهار سر نفسك لانه يبوح بأحدى وصمتين اما الخيانة ان كان مؤتمنا أو النميمة ان كان مستخبرا وقال بعض الحكماء لابنه يا بني كن جوادا بالمال في مواضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق فان احمد جود المرء الانفاق في وجوه البر والبخل بمكتوم السر وكان يقال صدور الاحرار قبور الاسرار وقال الشاعر

الم تران وشاة الرجا * ل لا يتركون أديما صحيحا
فلا تفش سرك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا

وقال غيره

ما كل مكتوم يباح به * احذر لسانك من جوابه
ليس الهوى ما كنت تعرفه * أيام تلعب في جوانبه
هذا هوى لو قد فصحت به * فحمك الحسام الى مضاربه

(الباب الرابع والثلاثون في بيان الخصلة التي هي رهن بسائر الخصال وزعيم بالمزيد من النعماء والآلاء من ذي الجلال)

وهي الشكر قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وقد آتاه الله ملك الدنيا والجن والانس والطير والوحش والرياح تجري بامره كيف أراد فلما استمكن ملكه قال صلى الله عليه وسلم هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر فاعدها نعمة كما عدها ملوك الارض ولاحبها كرامة من الله تعالى عليه كما ظنها ملوك الارض بل خاف ان تكون استدراجا من حيث لا يعلم كما قال تعالى في أمة أرادها لكهم سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم ان كيدي متين جاء في التفسير أصب عليهم النعم وانسهم الاستغفار وانما الفرح بما أوتي من الدنيا والغبطة بزينتها والاغترار بزخرفها من شعار الكفار الا ترى الى قول قارون للعين انما أوتيته على علم عندي وكان جوابه ما قال الله تعالى فخسفنا به وبداره الارض ولما خاف سليمان عليه السلام ان يكون استدراجا كان جوابه ما قال الله تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب واعلم ارشدك الله ان الشكر ليس هو حافظا للنعم فقط بل هو مع حفظه لها زعيم بزيادة النعم وأمان من حلول النقم والشكر على ثلاث مراتب شكر بالقلب وشكر باللسان وشكر بالجوارح فاما الشكر الواجب على جميع الخلق فشكر القلب وهو ان يعلم ان النعمة من الله وحده ولا نعمة على الخلق من أهل السموات والارض الا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله تعالى عن نفسك وعن غيرك بمعرفة نعم الله تعالى عليك وعلى غيرك وهذا النوع هو الذي يقال فيه يجب على العبد أن يشكر الله على نعمة أحدثت الى غيره

والدليل على ان الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى وما بكم من نعمة فمن الله أى ايقنوا انها من الله والى هذه الكلمة انتهى جميع ما قاله الخلق فى الشكر والدليل عليه أيضا قوله تعالى ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون أى اتقونى فانه شكر نعمتى وخلق الله تعالى الحياة نعمة على العبد قال الله تعالى ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون والعبارة عنه أن يقال الشكر اعتراف القلب بانعام الله تعالى على وجه الخضوع ويقال فيه الشكر اعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة وقال أبو عثمان الشكر معرفة العجز عن الشكر وروى ان داود عليه السلام قال الهى كيف اشكرك وشكرى لك نعمة من عندك فاوحى الله تعالى اليه الآن قد شكرتنى وقال وهب بن منبه قال داود عليه السلام الهى ابن آدم ليس منه شعرة الا وتحتها نعمة وفوقها منك نعمة فمن اين يكافؤها فاوحى الله تعالى اليه يا داود انى أعطى الكثير وارضى باليسير وان شكر ذلك ان تعلم ان ما بك من نعمة فنى وفى هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر وذلك بان ترى شكرك بتوفيقه ويكون ذلك التوفيق من أجل النعمة فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر الى ما لا يتناهى وهذا الشكر أيضا واجب ولمحمود الوراق

اذا كان شكرى نعمة الله نعمة * على مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله * وان طالت الايام واتصل العمر
اذا مس بالسراء عم سرورها * وان مس بالضراء أعقبها الاجر
فما منهما الا له فيه نعمة * تضيق بها الاوهام والسر والجهر

ومن أقر بنعم الله واحسانه فقد أقر بقدر ما كلف لان أحدا لا يمكنه ان يوازى شكر نعم الله تعالى وفى مناجاة موسى عليه السلام الهى خلقت آدم بيدك ونفخت فيه من روحك فكيف شكرك فقال أن يعلم أن ذلك منى فكان معرفته بذلك شكرا له

* (فصل) * واما شكر اللسان فقال الله تعالى فيه واما بنعمة ربك فحدث قيل يعنى النبوة وقيل يعنى القرآن وحكم الآية عام فى جميع النعم وروى النعمان بن بشير أن النبى عليه الصلاة والسلام قال من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعم شكر وقال تعالى حكاية عن أهل الجنة انهم قالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده قال عامل عمر بن عبد العزيز رحمه الله لما حفر نهر البصرة الذى يقال له نهر عمر انى حفرت لاهل البصرة نهرا عذبا لهم شربه وبادت عينه ولم أرد لهم على ذلك شكرا فان اذنت لى قسمت عليهم ما أنفقت عليه فكتب اليه عمر بن عبد العزيز انى لا أحسب أهل البصرة خلوا من رجل قال الحمد لله حين حفرك هذا النهر وان الله قد رضيها شكرا من جنته فارض بها شكرا من نهرك والسلام وحقيقة الشكر فى هذا القسم الثناء على المحسن بذكر احسانه وعلى هذا القول يوصف الرب تعالى بانه شكور حقيقة فشكر العبد لله ثناؤه عليه بذكر احسانه وشكر الله للعبد ثناؤه عليه باحسانه واحسان الرب للعبد انعامه عليه وهذه اللفظة ماخوذة من قولهم دابة شكور اذا اظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف ويقال وجه شكور اذا كان ممتلئ المحاسن ظاهرها وفى الحديث يقول الله تعالى انا والجن والانس فى نبأ عظيم اخلق ويعبد

غيري وارزق ويشكر غيري وقال بعضهم انما أفنى الناس لانهم في موضع صبرهم يحسبون انهم في موضع شكر

* (فصل) * واما الشكر الذي على الجوارح فقال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور فجعل العمل شكرا وقال عطاء دخلت على عائشة رضي الله عنها مع عبيد بن عمير فقال لها عبيد يا أم المؤمنين حدثينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت وأي شأنه لم يكن عجبا انه أتاني في ليلة فدخل معي في فراشي حتى مس جلدي جلده ثم قال يا ابنة أبي بكر ذريني اتعبد لربي قالت قلت اني أحب قربك فأذنت له فقام الى قربة من ماء فتوضأ وأكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال افلا أكون عبدا شكورا فلم لا أفعل وقد أنزل علي ان في خلق السموات والارض الى قوله عليه الصلاة والسلام الشكر بالعمل وبين به مراد الكتاب قال الله تعالى وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد ان يذكر أو أراد شكورا أي كل واحد منهما يخلف الآخر فمن فاته العمل في أحدهما عمل في الآخر فجعل الاوراد والاعمال بالجوارح شكرا * وروي ان النبي عليه السلام قام حتى انتفخت قدماه فقيل يا رسول الله تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال افلا اكون عبدا شكورا * وقال أبو هرون دخلت على أبي حازم فقلت له رحمك الله ما شاكر العينين قال اذا رأيت بهما خيرا أذعته وان رأيت بهما شرا سترته قلت له فما شاكر الاذنين قال اذا سمعت بهما خيرا حفظته واذا سمعت بهما شرا سترته قلت فما شاكر اليدين قال أن لا تاخذ بهما ما ليس لك ولا تمنع حق الله تعالى فيهما قلت فما شاكر البطن قال ان يكون أسفله صبرا وأعلاه علما قلت فما شاكر الفرج قال كما قال الله تعالى والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فان أنت فعلت فانت الشاكر حقا وفي حكمة ادريس عليه السلام لن يستطيع أحد ان يشكر الله تعالى على نعمة بمثل الانعام على خلقه ليكون صانعا الى الخلق مثل ما صنع به الخالق تعالى واذا ثبت ان فعل الطاعات شكر فان فيها ما هو أشد ملازمة من غيره فالطاعة في مواساة الفقراء أشكل بالشكر على الغنى من غيرها لانها من جنس النعمة فاذا أردت أن تحرس دوام نعم الله تعالى عليك فأدم مواساة الفقراء والطاعة في رفع ذوي الضعة والخمول والمسكنة بغير معصية أشبه بالشكر على رفع قدرك والتنويه باسمك والطاعة في تمريض الفقراء وتلطيف أغذيتهم أشبه بالشكر على العافية من سائر الطاعات والطاعة في الشفاعات عند السلطان وقضاء حوائج الغرباء والاخوان أشبه بذوي الجاه من سائر الطاعات وعلى هذا المثال ينبغي ان يقال سائر نعم الله تعالى على العبد ومن العبارات الجامعة للشكر أن يقال معرفة بالجنان وذكر باللسان وعمل بالجوارح

* (فصل) * في الكلام على الزيادة قال الله تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم فقال قوم انما خاطب الله تعالى بهذا وبقوله ادعوني استجب لكم قوما دون قوم والدليل عليه انا نرى من يشكر على الغنى ثم يبتلى بالفقر ومن يشكر على العافية ثم يبتلى بالمرض والله تعالى لا يخلف

وعده وقال قوم معناه لازيدنكم نعمة الآخرة فان قيل انما تكون الزيادة من جنس المزيد عليه فالجواب ان النعم الدنيوية والاخروية وان تفاضلت واختلفت فكلها متجانسة من حيث انها نعمة وقال قوم معناه لازيدنكم خيرا والخير والصلاح قد يكون فى كثير من الاوقات بالمنع والسقم ونحوهما فان من سأل الله تعالى ان يعطيه مالا أو يصح جسمه وهو يعلم انه ان وهبه المال أنفقه فى المعاصى أو وهبه الصحة صرف صحته الى المشى فى الآثام فالمنع ههنا موهبة من الله تعالى جزيلة وعن هذا قال العلماء منع الله تعالى عطاء وقال قوم يمكن تقدير الاستثناء فيها أى لئن شكرتم لازيدنكم الا ان تعصوا فاعاقبكم بالحرمان فأجعل ذلك كفارة لكم وهو أصلح من ان اعاقبكم فى الآخرة والناس لا يسلمون من الذنوب ولو تهيأ ان يسلموا من الذنوب لدرت الزيادات قال الله تعالى ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقال استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين وقال قوم الآية خاصة لا محالة اذ لو كانت على عمومها لوجب ان لا يموت من شكر على الحياة * قال الشيخ قلت ان الله تعالى وعد الزيادة وقوله الحق وقد جعل الله العبادة علامة يعرف بها الشاكر فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا انه لم يشكر فاذا رأينا الغنى يشكر الله تعالى بلسانه وماله فى نقصان علمنا انه قد أخل بالشكر الذى أخذ عليه اما ان لا يزكيه أو يزكيه لغير أهله أو يؤخره عن وقته أو يمنع حقا واجبا عليه فيه من كسوة عريان أو اطعام جائع وشبهه فيدخل فى قول النبى صلى الله عليه وسلم لو صدق السائل ما أفلح من رده قال الله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم بترك أدب أو اخلال بحق أو الملم بذنب كما قال بعضهم ادنى الشكر ان لا تعصى الله بنعمه فان جوارحك كلها من نعم الله تعالى عليك فلا تعصه بها ويحتمل ان يكون معنى الآية لئن شكرتم لازيدنكم ان شئنا ألا ترى انه قال ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وكثير من الخلق يريدون حرث الدنيا ولا يؤتونه فيكون التقدير نؤته منها لمن نشاء بدليل قوله فى الآية الاخرى عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وهكذا قوله تعالى ادعونى استجب لكم ثم ان كثيرا من الناس يدعون فلا يستجيب لهم ولكن معنى الآية استجب لكم ان شئت وان شئت بدليل قوله تعالى فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وهذا من باب حمل المطلق على المقيد * قال الجنيد كنت بين يدى السرى واما ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى يا غلام ما الشكر فقلت أن لا يعصى الله تعالى بنعمه قال بوشك ان يكون حظك من الله لسانك فلا أزال أبكى على هذه الكلمة فان قيل ما معنى قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وما تحصل من الافعال فى الوجود يمكن احصاؤه قلنا نعم الله تعالى على وجهين دفع ومنع فالدفع يمكن احصاؤه ودفع البلايا نعم لا يمكن احصاؤها ومايدفع الله عنهم مما فى مقدوره من ذلك ومايدفع تعالى عن العبد لا يحصى * (فصل) * ثم عدنا الى أقوال العلماء والحكماء فى الشكر فقال بعض الحكماء موضع الشكر من النعمة موضع القرى من الضيف ان وجده لم يرم وان عدمه لم يقم واجمعت حكماء العرب والعجم على هذه اللفظة فقالوا الشكر قيد النعم وقالوا الشكر قيد الموجود وصيد المفقود وقالوا مصيبة وجب أجرها خير من نعمة لا يؤدى شكرها وقال بعض الحكماء من أعطى

أربعا لم يمنع أربعا من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب * وكان يقال اذا رعيت النعم بالشكر فهي أطواق واذا رعيت بالكفر فهي أغلال (قال حبيب)

نعم اذا رعيت بشكر لم تزل * نعما فاذا لم ترع فهي مصائب

(وبعث) الحجاج الى الحسن بعشرين ألف درهم فقال الحمد لله الذي ذكرني (وقال) علي بن أبي طالب رضي الله عنه لا تكن ممن يعجز عن شكر ما أوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي ينهى ولا ينتهي ويأمر الناس بما لا يأتي تحب الصالحين ولا تعمل بأعمالهم وتبغض المسيئين وأنت منهم تكره الموت لكثرة ذنوبك ولا تدعها في طول حياتك * وقال المغيرة بن شعبة اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا بقاء للنعمة اذا كفرت ولا زوال لها اذا شكرت وان الشكر زيادة من النعم وامان من النقم (وكان) الحسن يقول ابن آدم متى تنفك من شكر النعم وأنت مرتهن بها كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر اعظم منها عليك فانت لا تنفك بالشكر من نعمة الا الى ما هو أعظم منها * وقال سفيان لما جاء البشير الى يعقوب عليه السلام قال على أي دين تركته قال على دين الاسلام قال الحمد لله الآن تمت النعمة (وروى) ان عثمان بن عفان رضي الله عنه دعي الى قوم ليأخذهم على ريبة فافترقوا قبل أن يبلغهم فأعتق عثمان رقبة شكرا لله تعالى أن لا يكون جرت على يديه فضيحة وجعل مسلم (ويروى) أن الحسن بن علي التزم الركن وقال اللهي نعمتني فلم تجدني شاكرا وابتليتني فلم تجدني صابرا فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ولا أنت أدمت النقمة بترك الصبر الهي ما يكون من الكريم الا الكرم ولا من الجاني الا الجفاء * وقال عون بن عبد الله الخير الذي لا شر فيه الشكر مع العافية والصبر عند المصيبة (وروى) ان نملة قالت لسليمان بن داود عليه السلام يا نبي الله أما على قدري اشكر لله منك وكان را كبا على فرس ذلول فخر عنه ساجدا شكرا لله ثم قال لولا أني أجللت أن تنزع مني ما أعطيتني (وقال) صدقة بن يسار بينا داود عليه السلام في محرابه اذ مرت به دودة فتفكر في خلقها وقال ما يعبأ الله بخلق هذه فأنطقها الله تعالى فقالت له يا داود تعجبك نفسك لا أما على قدر ما آتاني الله أذكر لله واشكر له منك فيما آتاك (ولمحمود الوراق)

الهي لك الحمد الذي أنت أهله * على نعمة ما كنت منك لها أهلا

متى ازدت تقصيرا تزدني تفضلا * كأني بالتقصير أستوجب الفضلا

(وكان) لبعضهم صديق فحبسه السلطان فارسل اليه فقال له صاحبه اشكر الله تعالى فضرب الرجل فكتب اليه اشكر الله تعالى فجيء بمجوسي مبطون وقيد فجعل حلقة في رجله وحلقة في رجل المجوسي يقوم بالليل مرات ويحتاج هذا الى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يفرغ فكتب الى صاحبه فقال اشكر الله تعالى فقال الى متى تقول وأي بلاء فوق هذا فقال له صاحبه لو وضع الزنار الذي في وسطه في وسطك كما وضع القيد الذي في رجله في رجلك ماذا كنت تصنع ولبعضهم

ومن الرزية أن شكري صامت * عما فعلت وأن برك ناطق

أأرى الصنيعة منك ثم أسرها * اني اذا لندي الكريم لسارق

(وقال) رجل لسهل بن عبد الله ان اللص دخل داري وأخذ متاعي فقال اشكر الله تعالى لو دخل

الصراط لبك وهو الشيطان فأخذ التوحيد ماذا كنت تصنع (ولما) بشر ادريس عليه السلام بالمغفرة سأل المغفرة فقيل له فيم فقال لأشكره فالى كنت اعمل قبله للمغفرة فبسط الملك جناحه فرفعه الى السماء * وروى أن نبيا من الانبياء عليهم السلام مر بحجر صغير يخرج منه الماء الكثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت الله يقول وقودها الناس والحجارة فأنا أبكى من خوفه فدعا النبى عليه السلام ربه أن يجيره من النار فأوحى الله تعالى اليه انى أجرته من النار فمر النبى عليه السلام ثم عاد فوجد الحجر يتفجر منه مثل ما كان فتعجب فأنطق الله تعالى الحجر فقال له لم تبك فقال ذلك بكاء الحزن والخوف وهذا بكاء الشكر والسرور * وروى ان الله تعالى أوحى الى موسى عليه السلام ارحم عبادى المبتلى والمعافى فقال الهى مابال المعافى فقال لقلة شكرهم على عافيتى اياهم وبلا رجل اعرابيا بلاء حسنا فقال لا أبلاك الله بلاء يعجز عنه صبرك وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك (وأنشد بعضهم)

سأشكرك أنى اجازيك منعما * بشكرى ولكن كى يرى ذلك الشكر
وأذكرك اياما لدىّ اصطنعتها * وآخر مايبقى على الشاكر الذكر

(وانشدوا)

أوليتنى نعما أثوح بشكرها * وكفيتنى كل الامور بأسرها
فلاشكرتك ماحييت وان آمت * فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

(ولبعض الاعراب)

الهى قد أحسنت عودا وبدأة * الى فلم ينهض باحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر اليك وحجة * فعذرى اقرارى بأن ليس لى عذر

(وكان) مطرف يقول الهى منك تكون النعمة وعليك تمامها وأنت تعين على شكرها وعليك ثوابها وهذا باب عظيم من النعم على العباد وقد أثنى الله على بعض عباده فقال انه كان عبدا شكورا (وقال) تعالى شاكرا لانعمه اجتباه وكذلك سائر ما اثنى الله تعالى به على عباده ثم قال فمن شكر فانما يشكر لنفسه ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم ليس للرب تعالى فيها الا القليل ولا كثير فانه أجل من ان ينال الحظوظ وأجل من ان يلحقه ثناء مثن أو شكر شاكر فأخبر ان العلو والجلال لعدونهم وانه يتقدس عن الناس بثنا ممن أو كفر كافر فقال الله تعالى يدعوكم ليغفر لكم فواعجبا أعطى ثم أثنى * وقال على رضى الله عنه كفر النعمة داعية المقت ومن جازاه بالشكر فقد أعطاه اكثر مما أخذ منك وحقيق بمن أسديت اليه نعمة أو قضيت له حاجة ان يكافئ فان لم يقدر فليشكر فان شكرها فقد أدى حقها (قال الشاعر)

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد * لرفعة حال أو علو مكان
لما أمر الرحمن بالشكر خلقه * فقال اشكرونى أيها الثقلان

(وقال البستى)

لئن عجزت عن شكر برك قوتى * وأقوى الورى عن شكر برك عاجز
فان ثنائى واعتقادى وطاعتى * لأفلاذ ما أوليتنيه مراكز

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى وقفت علينا امرأة فقالت ياقوم تغير علينا الدهر اذ قل منا الشكر

وفارقنا الغنى وحالفنا الفقر فرحم الله امرأ فهم بعقل واعطى من فضل وواسا من كفاف واعان على عفاف (وأنشدوا)

فلو كان للشكر شخص يبين * اذا ما تامله الناظر
لمثلته لك حتى تراه * فتعلم انى امرء شاكر
ولكنه ساكن فى الضمير * يحركه الكلم السائر

(وقيل) لكسرى ما الشكر فقال المكافاة على قدر الطاعة قيل فما الكفر قال ترك الجزاء ولو بالثناء قيل وهل يكون أحد بخيلا ممن يبخل بالثناء قال نعم من عادى على الصنيعة

(الباب الخامس والثلاثون فى بيان السيرة التى يصلح عليها الامير والمأمور ويستريح اليها الرئيس والمرؤس مستخرجة من القرآن العظيم)

قال الله تعالى وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم فابث الله تعالى المماثلة بيننا وبين سائر البهائم ومعلوم انهم لا يماثلوننا فى خلقنا واشكالنا وسائر ما تدركه العين منهم وصنا فتبقى المماثلة فى الاخلاق فلا أحد من الخلق الا وفيه خلق من اخلاق البهائم ولهذا تجد اخلاق الخلائق مختلفة فاذا رأيت من الانسان خلقا خارجا عن الاعتدال فابصر ما يماثل ذلك الخلق من خلق سائر الحيوان فالحقه به وعامله كما كنت تعامله فحينئذ تستريح ممن منازعتهم ويستريحون منك وتدوم الصحبة فاذا رأيتا الرجل الجاهل فى خلائقه الغليظ فى طباعه القوى فى بدنه لا يؤمن طغيانه وافراطه فالحقه بعالم التنور والعرب تقول أجهل من تمر وأنت اذا رأيت التمر بعدت عنه ولم تخاصمه ولا تسابه فاسلك بالرجل كذلك واذا رأيت الرجل الغالب على اخلاقه السرقة خفية والنقب للبلاعلى وجه الاستسرار وقلنا هذا يماثل عالم الجرذ فدع ملاحاته ومخاصمته كما تدع سباب الجرذ اذا أفسد رحلك ثم أحى رحلك بما يصلح له واذا رأيت هجاما على اعراض الناس وثلبهم فقد ماثل عالم الكلاب فان داب الكلب ان يحفو من لا يحفو به ويتدئ بالاذية من لا يؤذيه فعامله بما كنت تعامل به الكلب اذا نبحك الست تذهب فى شاتك ولا تخاصمه ولا تسبه فافعل بمن يهتضم عرضك مثل ذلك واذا رأيت انسانا قد جبل على الخلاف ان قلت لا قال نعم وان قلت نعم قال لا فالحقه بعالم الجمر فان داب الحمار ان دنيته بعد وان أبعدته قرب وانت تستمتع بالحمار ولا تسبه ولا تفارقه فاستمتع أيضا بهذا الانسان ولا تسبه ولا تفارقه واذا رأيت رجلا يطلب عثرات الناس وسقطاتهم فانه فى الآدميين كمثل الذباب فى عالم الطير فان الذباب يقع على الجسد فيتحامى صحيحه ويطلب المواضع النغلة منه وذرات المادة والدم والنجاسة واذا بليت بسلطان يهجم على الاموال والارواح فألحقه بعالم الاسود وخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الاسد وليس الا الهرب منه كما قال النابغة * ولا قرار على زار من الاسد * واذا بليت بانسان خبيث كثير الروغان والمفاخرة فألحقه بعالم الثعالب واذا بليت بمن يمشى بالنمائم ويفرق بين الاحبة فألحقه بعالم الظربان وهى دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة قسما بينهم ظربان فتفرقوا وخاصة هذه الدويبة اذا حصلت وسط جماعة ان يتفرقوا وكما ان الجماعة اذا أقبلت نحوهم هذه الدابة طردوها ومنعوها الدخول بينهم كذلك ينبغى اخراج النمام من بين الجماعة فان لم يفعلوا فاوشك ان يفرق ما بينهم ويفسد قلوب بعضهم على بعض واذا رأيت انسانا

لايسمع العلم والحكمة ويقرمن مجالس العلماء والحكماء وبالف سماع اخبار اهل الدنيا وسائر الخرافات وما يجرى فى مجالس العوام فالحقه بعالم الخنافس فانه يحبه أكل العذرات وبالف روائح النجاسات ولاتراه الامتلبسا للاخلصة والمراحيض ويقرمن روائح المسك والورد واذا طرح عليه المسك والورد مات واذا رأيت انسانا اتعمد أبه حفظ الدنيا لايستحى فى الوثوب عليها فالحقه بعالم الاحدية بان تنحى رجلك عنه واذا بليت بالرجل تظهر عليه الخيانه والكسنة وقد نصب اشراكه لاقتناص الدنيا وأكل أموال الودائع والامانات والارامل واليتامى فالحقه بعالم الذئاب وهو كما قال فيه القائل

ذئب تراه مصليا * فاذا مررت به ركع
يدعو وجل دعائه * ماللفريسة لاتقع
عجل بها ياذا العلا * ان الفؤاد قد انصدع

احترز منه كما تحترز من الذئب واذا بليت بصحبة انسان كذاب فاعلم ان الانسان الكذاب كالميت فى الحكم لانه لايقبل له خبر كالاخبار للميت وكما لاتصحب الموتى لاتصحب الكذاب (وقيل) فى المثل كل شئ شئ وصحبة الكذاب لاشئ ويجوز ان يلحق بعالم النعام فانه يدفن جميع بيضه تحت الرمل ثم يترك واحدة على وجه الرمل وأخرى تحت طاقة من الرمل وسائر بيضه فى قعر الحفرة فاذا رآه الغراب اخذ تلك البيضة وينصرف أو يكشف عن وجه الرمل فيجد الاخرى فيظن انه ليس ثم شئ آخر والخبير بحالة النعام اذا رأى البيضة لايزال يحفر حتى يصل الى حاجته ولايغتر بتلك البيضة كذلك الكذاب اذا سمعت منه خبرا لاتصدقه حتى تبلغ الغاية فى الكشف عنه واذا رأيت الرجل اتعمد أبه ان يصنع نفسه كما تصنع العروس لبعلها يبيض ثيابه ويعدل عمامته ويتفقد ان يمسه شئ غبره وينظر فى عطفيه ويطرح القذا عن ثوبه ليس له همة بين الجلساء الا نظره الى نفسه واصلاح ما أتلف من ثيابه فالحقه بعالم الطواويس الذى هذه صفته فانه يتبختر فى مشيه وينظر الى نفسه ويفرش ذنبه فيتخذه الملوك استحسانا له واذا بليت انسان حقود لاينسى الهفوات ويجازى بعد المدة على السقطات فالحقه بعالم الجمال والعرب تقول فلان أحقد من جمل ويتجنب قرب الجمل الحقود فاجتنب صحبة الرجل الحقود واذا بليت بانسان منافق يبطن خلاف مايظهر فالحقه بعالم اليربوع فان اليربوع وهو فار يكون فى البرية يتخذ بجحرا تحت الارض يقال له النافقاء وله فوهتان يدخل من احداهما ويخرج من الاخرى ومنه اشتق اسم المنافق فاذا هم أحد أخذه دخل بجحره وخرج من الباب الآخر فيفر الصياد خلفه فلا يظفر بشئ كذلك حال المنافق لايصح منه شئ وعلى هذا النمط كن فى صحبة الناس تستريح منهم وتريحهم منك فلعمر الله ما استقامت لى صحبة الناس وسكنت نفسى واستراحت من مكابدة اخلاقهم الا من حيث سرت معهم بهذه السيرة (وقال) الرياحى يا بنى رياح لاتحقروا صغيرا تأخذون عنه فانى أخذت من الثعلب روغانه ومن القرد مكايده ومن السنور صرعه ومن الكلب نصرته ومن ابن آوى حذره وقد تعلمت من القمر مشى الليل ومن الشمس الظهور فى الحين بعد الحين

(الباب السادس والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها غاية كمال السلطان وشفاء الصدور وراحة القلوب وطيبة النفوس)

اعلم أيها الملك انه متى كملت فيك الخصال المحمودة والاخلاق المشكورة والسيرة المستقيمة وملكت نفسك وقهرت هواك ووضعت الاشياء مواضعها ثم ان الرعية اهتضمت حقك وجهلت قدرك ولم توفك حظك فبلغك منهم ما يسوءك ورأيت منهم ما لا يعجبك فاعلم انك لست بالله فلا تطمعن ان يصفوا لك منهم ما لا يصفو منهم للاله وفصل الخطاب فى هذا الباب ان تعلم ان الله تعالى خلق الخلائق أجمعين وأنعم عليهم بانواع النعم فاكمل حواسهم وخلق فيهم الشهوات ثم أفاض عليهم نعمه وكملت لهم اللذات وبعد هذا فما قدروا الله حق قدره ولا عظموه حق عظمته بل قالوا فيه ما لا يليق به ووصفوه بما يستحيل عليه واضافوا اليه ما يتقدس عنه وسلبوه ما يجب له من الاسماء الحسنى والصفات العلى فمنهم من قال هو ثالث ثلاثة ومنهم من قال له زوجة ومنهم من قال له ابن ومنهم قال له البنات ومنهم من يجسمه ومنهم من يشبهه ومنهم من انكره رأسا وقال ما الخلق صانع كما حكاه الخالق عنه فقال نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وهو مع ذلك يحييهم ويبقيهم ويصح أجسامهم ويحوانهم ويرزقهم ويغنيهم ويقضى ما ربهم وأوطارهم ويتعهم صناعا حسنا ويلفهم آمالهم فى معظم ما يحتاجون اليه فما صيهم اليه صاعدة وبركاته عليهم نازلة كل يعمل على شاكلته ويتفق مما عنده وكل ذى حال أولى بها (وفى مناجاة) موسى عليه السلام انه قال الهى أسالك ان لا يقال فى ما ليس فى فاوحى الله تعالى اليه ذلك شئ ما فعلته لتقضى فكيف أفعله بك وفى هذه السيرة عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن اذكر مع انك ان التمست رضا جميع الناس التمست ما لا يدرك وكيف يدرك رضا المختلفين فيا أيها الملك الذى قد كتب الله عليه الفناء والعمر القصير والزمان اليسير والايام المعدودة والانفاس المحصورة كيف أردت ان يصفو لك من الرعية ما لم يصف منهم لخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم هيهات هيهات بعيدا ما أملت ومستحيل ما طلبت فلك فى الله اسوة حسنة ان ترضى منهم بما رضى منهم خالقهم وتسير فيهم بسيرة ربهم فيهم ألم تر كيف أحسن اليك فرضى منك باليسير من العمل وأكثر لك من النعم من الاموال والخول فانظر كيف يسترزلاتك ويتغمد سيآتك ولا يفضحك فى خلواتك فنى هذا ما يهد النفوس ويؤدب ذوى العقول ويهدى الى الصواب ويوضح طرق الرشاد ولله در عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقد كان واعيا لما تلوته عليك فانه روى عنه انه كتب الى عمرو بن العاص كن لرعيتك ما تحب ان يكون لك أمير ك

(الباب السابع والثلاثون فى بيان الخصلة التى فيها ملجأ المملوك عند الشدائد ومعقل السلاطين عند اضطراب الامور وتغير الوجوه والاحوال)

أيها الملك اذا اعتلجت الامور فى صدرك واضطربت عليك القواعد ومرجت فى قلبك وجوه الرأى وتنكرت عليك المعارف واكفهرلك وجه الزمان فلا يغلبنك خصلتان اترك للناس دينهم ودنياهم ولك الامان من طوارق الحدثان وما يأتى به الملوان وقد روى ان المأمون قال فى آخر موافقة مع أخيه الامين وقد نفدت بيوت الاموال والت الاجناد فى طلب أرزاق المأمون يقيت لاخى خصلة لو فعلها لملك موضع قدمى هاتين قيل له وما هى فقال والله انى لاضن بها على نفسى فكيف على غيرى فلما خلص له الامر سئل عن تلك الخصلة فقال لوان الامين نادى فى جميع بلاده انه قد حط الخراجات والوظائف السلطانية وسائر الجبايات عشر

سنين ملك الامر على ولكن الله غالب على أمره ولما خشى المأمون انتقاض بيعته مع أهل خراسان في امر فتنته مع أخيه الامين استشار الفضل بن سهل وكان وزيره فقال له الفضل قد قرأت القرآن وحديث الرسول عليه السلام والذي عندي ان تجمع الفقهاء وتدعوهم الى الحق والعمل به واحياء السيرة وبسط العدل والقعود على اللبود وتواصل النظر في المظالم وتكرم القواد والملوك وابناء الملوك وتعهد بالمواعيد الكريمة والمراتب السنية والولايات المشاكلة ففعل ذلك وحط عن أهل خراسان ربع الخراج فمالت وجوه الخلائق اليه وكانوا يقولون ابن اختنا وابن عم نبينا عليه السلام وانقاد اليه رافع بن الليث وكان من عظماء الملوك بخراسان ويدخل تحت هذه الترجمة أمر اتفق عليه حكماء العرب والروم والفرس والهند وهو ان تصطنع وجوه كل قبيلة والمتقدمين من كل عشيرة وتحسن الى حملة القرآن والعلم وحفاظ الشريعة وتدنى نجباءهم وتقرب الصالحين والمتزهدين وكل متمسك بعروة الدين وكذلك فليفعل بالاشراف من كل قبيلة والرؤساء المتبوعين من كل نمط فهؤلاء هم أزمة الخلائق وبهم يملك من سواهم فمن كمال الشيمة والرياسة ان تبقي على ذي رياسته رياسته وعلى كل ذي عز عزته وعلى كل ذي منزل منزلته فحينئذ يكون الرؤساء لك اعوانا ومن دانت له الفضلاء من كل قبيلة فاخلق به أن يدوم سلطانه والعامة والاتباع دون مقدميهم وساداتهم واتباعهم احسادا بلا رؤس واشباحا بلا ارواح ولما قامت العامة على السلطان بقرطبة ولبسوا السلاح كان شيخ جالس على كبره يعالج صنعته فقال مابال الناس قالوا قامت العامة على السلطان قال ولهم رأس قالوا لا قال شق الكبر ياصبي فذهبت مثلا

(الباب الثامن والثلاثون في بيان الخصال الموجبة لذم الرعية للسلطان)

قال حكيم الفرس ذم الرعية للملك على ثلاثة أوجه اما كريم قصر به عن قدره فاورثه ذلك ضغنا واما لئيم بلغ به فوق قدره فاورثه ذلك بطرا واما رجل منع حظه من الانصاف وفي الامثال احسانك الى الشرير بعثه على المكافأة واحسانك الى اللئيم الخسيس يبعثه على معاودة المسئلة (وقيل) للاسكندر ان فلانا ينتقصك ويسيء الثناء عليك فقال أنا أعلم انه ليس بشرير فينبغي أن نعلم هل ناله من ناحيتنا أمر دعاه الى ذلك فبحث عن حاله فوجد هارثة قاهر له بصلة سنية فباجره بعد ذلك انه بسط لسانه بالثناء عليه فقال أما ترون ان الامر البنا ان يقال فينا خير أو شر وينبغي للسلطان ان لا يتخذ الرعية مالا وقنية فيكونوا عليه بلاء وفتنة ولكن يتخذهم أهلا واخوانا فيكونون له جندا واعوانا وقد سئل المثل اصلاح الرعية خير من كثرة الجنود

(الباب التاسع والثلاثون في مثل السلطان العادل والجائر)

مثل السلطان العادل مثل الياقوتة النفيسة الرفيعة في وسط العقد ومثل الرعية مثل سائر الشذر فلا تلحظ العيون الا الواسطة وأول ما يبصر المقلبون وينقد الناقدون الواسطة وانما يثنى المثنون على الواسطة وكلما حسنت الواسطة عمرت سائر الشذر فلا يكاد يذكر كما قال ابن صعدة القيم بالحجاز بين مكة والمدينة سكينة بنت الحسين رضي الله عنهما فسفرت لي عن وجه ابنتها واذا وجه كانه قطعة قمر وقد أثقلتها بالجواهر والياقيت وأنواع الدرر فالتفتت الى وقالت والله ما علقته عليها الا لتفضحه وكما ان جمال السلك ان يلي الواسطة الافضل فالافضل

من الشذر وان كان على خلاف ذلك كان سيء النظم كذلك السلطان ينبغي ان يكون الاقرب فالاقرب اليه أهل العلم والعقل والادب والرأى والاصالة والشرف والحصافة وذوى الكمال من كل قبيلة وان كان على خلاف ذلك كان نقصا فى التدبير وكما ان جمال العقد بواسطته كذلك جمال الرعية بكمال سلطانهم وفضله وبراعته وعدله ومثل السلطان الجائر مثل الشوكة فى الرجل فصاحبها تحت ألم وقلق ويتداعى لها سائر الجد ولا يزال صاحبها يروم قلعها وبستعين بما فى يديه من الآلات والمناقيش والابر على اخراجها الا انها فى غير موضعها الطبيعي ويوشك ان تقلع بالاجر فافهم غرز الياقوت من شوك القتاد

(الباب الموفى أربعين فيما يجب على الرعية اذا جار السلطان)

اعلم ارشدك الله ان الزمان وعاء لاعماله ورأس الوعاء أطيب من أسفله كما ان رأس الجرة أرق واصفى من أسفلها فان قلت ان الملوك اليوم ليسوا كمن مضى من الملوك فالرعية أيضا ليسوا كمن مضى من الرعية ولست بان تذم أميرك اذا نظرت آثار من مضى منهم بأولى من بذلك أميرك اذا نظرت آثار من مضى من الرعية فاذا جار عليك السلطان فعليك الصبر وعليه الوزر (روى) البخارى عن عبادة بن الصامت قال بايعنا النبي عليه السلام فكان فيما أخذ علينا ان بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الامر أهله الا ان تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان ومنه قال ابن عباس من كره من أميره شيأ فليصبر عليه فانه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية ومنه قال ابن مسعود قال لنا النبي عليه السلام انكم سترون بعدى أثرة وأمورا تنكرونها قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال أدوا اليهم حقوقهم واسألوا الله حقكم (وروى) أبو داود فى سننه ان النبي عليه السلام قال سيأتيكم ركب مبغضون يطلبون منكم ما لا يجب عليكم فاذا سألوا ذلك فأعطوهم ولا تسبوهم ولتدعوا لهم وهذا حديث عظيم الموقع فى هذا الباب فتدفع اليهم ما طلبوا من الظلم ولا تنازعهم فيه وتكف ألسنتك عن سبهم يا عبد الله لا تجعل سلاحك على من ظلمك الدعاء عليه ولكن الثقة بالله فلا محنة فوق محنة ابراهيم عليه السلام لما جعلوه فى كفة المنجنيق ليقذف به فى النار قال اللهم انك تعلم ايمانى بك وعداوة قومى فيك فانصرنى عليهم وكفى كيدهم (وقال) مالك ابن دينار وجدت فى بعض الكتب يقول الله تعالى انى أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك بيدى فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا انفسكم بسب الملوك ولكن توبوا الى الله أعطفهم عليكم وفى بعض الكتب ابن آدم تدعو على من ظلمك وبدعو عليك من ظلمته فان شئت أجبناك وأجبناه عليك وان شئت أخرت الامر الى يوم القيامة فيسعكم العفو (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام لا تجعل ملجأك فى الاعداء المكافاة ولكن الثقة بالله وروى أبو داود فى السنن قال سرقت ملحفة لعائشة رضى عنها فجعلت تدعو على من أخذها فسمعها النبي عليه السلام فقال لا تسبخى عنه يعنى لا تخففى عنه فنهاها عن الدعاء على الظالم كما ترى فاذا قال المظلوم فى دعائه اللهم لا توفقه فقد دعا على نفسه وعلى سائر الرعية لانه من قلة توفيقه ظلمان ولو كان موفقا ما ظلمك فان استجيب دعاؤك فيه زاد ظلمه لك ومن الالفاظ المروية عن سالف هذه الامة قولهم لو كانت عندنا دعوة مستجابة ما جعلناها الا فى السلطان (وقال) الفضيل

لو غلقوا بيت المال لاخذت من حلاله وصنعت منه أطيب الطعام ثم دعوت الصالحين وأهل الفضل من الاخيار والابرار فاذا فرغوا قلت لهم تعالوا نتدعو ربنا أن يوفق ملوكنا وسائر من يلي علينا ويجعل اليه أمرنا ولما قدم معاوية المدينة دخل دار عثمان فقالت عائشة ابنة عثمان وأبيناه فقال صه وية يا بنت أخي ان الناس أعطونا طاعة واعطيناهم أمانا وأظهرنا لهم حلما فتحت غضب واظهروا لنا طاعة تحتها حقد ومع كل انسان سيفه وهو يرى مكان انصاره فان نكثنا بهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون أم لنا ولان تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض المسلمين (وروى) ان رجلا من العقلاء غضب بعض الولاة ضعيفة له فاستعدى عليه الى المنصور فقال له أصلحك الله أذكر حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلا فقال بل اضرب لي قبلها مثلا قال أصلحك الله ان الطفل الصغير اذا نابه امر يكرهه فانه يفر الى أمه اذ لا يعرف غيرها ولطالما منه انه لا ناصر فوقها فاذا ترعرع واشتد فاوذي كان فراره وشكواه الى أبيه لعلمه بان اباه أقوى من أمه على نصرته فاذا بلغ وصار رجلا وحز به أمر شكا الى الوالي لعلمه بانه اقوى من أبيه فاذا زاد عقله واشتدت شكيمته شكا الى السلطان لعلمه انه أقوى من سواه فان لم ينصفه السلطان شكا الى الله عز وجل وقد نزلت بي نازلة وليس فوقك أحد أقوى منك فان انصفتني والا رفعت أمرها الى الله في الموسم فاني متوجه الى بيته وحرمه اذ ليس فوقك أحد الا الله تعالى قال بل تنصفك وامر بان يكتب الى واليه برد ضيعته اليه

(الباب الحادي والاربعون في كما تكونوا يولى عليكم)

لم ازل اسمع الناس يقولون اعمالكم عمالكم كما تكونوا يولى عليكم الى ان ظفرت بهذا المعنى في القرآن قال الله تعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا وكان يقال ما أنكرت من زمانك فانما أفسده عليك عمالك وقال عبد الملك بن مروان انصفونا يا معشر الرعية تريدون مناسيرة أبي بكر وعمر ولا تسيروا فينا ولا في انفسكم بسيرتهما نسأل الله أن يعين كلا على كل (وقال) قتادة قالت بنو اسرائيل الهنا أنت في السماء ونحن في الارض فكيف نعرف رضائك من سخطك فاوحى الله تعالى الى بعض أنبيائهم اذا استعملت عليكم خياركم فقد رضيت عنكم واذا استعملت عليكم شراركم فقد سخطت عليكم وقال عبيدة السلماني لعلي رضي الله عنه يا أمير المؤمنين ما بال أبي بكر وعمر اطاع الناس لهما والدنيا عليهما أضيق من شبر فاتسعت عليهما ووليت أنت وعثمان الخلافة ولم يطعكما الكثير وقد اتسعت فصارت عليكما أضيق من شبر فقال لان رعية أبي بكر وعمر كانوا مثلي ومثل عثمان ورعيتي انا اليوم مثلك وشبهك (وكتب) أخ لمحمد بن يوسف يشكو اليه جور العمال فكتب اليه محمد بن يوسف بلغني كتابك تذكر وما انتم فيه وليس ينجي من يعمل بالمعصية ان ينكر العقوبة وما ارى ما انتم فيه الا من شوم الذنوب والسلام

(الباب الثاني والاربعون في بيان الخصلة التي تصلح بها الرعية)

اعلم ان ادعى خصال السلطان الى اصلاح الرعية وأقواها أثرا في تقسيمهم بادياتهم وحفظهم لمروآتهم اصلاح السلطان نفسه وتنزهه عن سفساف الاخلاق وبعده عن مواضع الريب وترفيعه نفسه عن استصحاب البطالة والمجون واللعب واللهو والاعلان بالفسوق وقد كانت صحبة محمد الامين لذلك الرجل الخليع والماجن الرقيع أبي نواس الشاعر وصحبة

عظيمة عليه أوهن بها سلطانه ووضع عند الخاص والعام قدره وأطلق السنة الخلق بالشتم والثناء القبيح على نفسه فخلعه بذلك أخوه المأمون عن الولاية ووجه طاهر بن الحسين لمحاربته ببغداد وحاربه حتى قتله وانفذ برأسه الى المأمون وكان يعمل كتبا تقرأ على المنابر من خراسان ويقف الرجل فينذم أهل العراق فيقول أهل فسوق وخمور وماخور ويعيب الامين بذلك فيقول استعجب أبا نواس شاعرا ماجنا كافرا استخلصه معه لشرب الخمور وارتكاب المآثم ونيل المحارم وهو القائل

الا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر * ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر

ويح باسم من تهوى ودعني من الكنى * فلا خير في اللذات من دونها ستر

حتى تغيرت عليه نفوس الخلق وتنكرت له وجوه الورى فلما بلغ الامين حبسه ثم أطلقه بعد ان أخذ عليه أن لا يشرب خمرا ولا يقول فيه شعرا فمتى أراد السلطان اصلاح رعيته وهو معتاد على سيئ أخلاقه كان كمن أراد بقاء الجسد مع فقد رأسه أو أراد استقامة الجسم مع عدم حياته وكمن أراد تقويم الضلع مع اعوجاج الشخص وكيف يحيا النون مع فساد الماء ولقد اصاب الخليل في قوله اصلح نفسك لنفسك تكون الناس تبعا لك . وقديما قيل من أصلح نفسه أرغم أنف أعدائه ومن اعمل جده بلغ كنه أمانيه (وسئل) بعض الحكماء بم ينتقم الانسان من عدوه فقال باصلاح نفسه ولابي الفتح البستي

اذا غدا ملك باللهو مشتغلا * فاحكم على ملكه بالويل والحرب

أما ترى الشمس في الميزان هابطة * لما غدا وهو برج اللهو والطرب

وصحبة الاشرار تورث الشر كالريح اذا اخرت على النتن حملت نتنا واذا مرت على الطيب حملت طيبا فمحال استصلاح رعيتك وأنت فاسد وارشادهم وأنت غاو وهدايتهم وأنت ضال وقد سبق المثل ومن العجائب أعمش يكحال وتقول العرب باطبيب طب نفسك وكيف يقصد الاعمى على أن يهدي والفقير على أن يغني والدليل على أن يعز فبعدا لمن تطهر غيره من العيوب قبل تطهير نفسك كبعد الطبيب عن ابراء غيره من دائه مثله (وقال) بعض حكماء الهند لن يبلغ الف رجل في اصلاح رجل واحد بحسن القول دون حسن الفعل كما يبلغ رجل واحد في اصلاح ألف رجل بحسن الفعل دون القول وفيه قال القائل

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء من السقام الذي الضنى * كيما يصح به وأنت سقيم

مازلت تلقح بالرشاد عقولنا * عظة وأنت من الرشاد عديم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى * بالرأي منك ويشفع التعليم

لا تنه عن خلق وتاتي مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

ولكن أقوى الاسباب في صلاحهم عند فوت صلاحه استعماله عليهم الخاصة منهم وذوي الاحلام والمروآت القائمة والاذيال الطاهرة فمتى رأس العامة سرائهم فهو الطريق الى حفظ أديانهم ومروآتهم وتماسكهم عن الانهماك في المحظورات وملابسة المحرمات وقال الشاعر

لاتصلح الناس فوضى لاسراة لهم * ولا سراة اذا جهالهم سادوا

(وقال) مردك الفارسي خلتان في السلطان اقرب الى صلاح الرعية مما سواهما ثقة الرأي وشدة الرجة وما أحق السلطان أن يسلك بالرعية كل سبيل يصطفون عليه ويسودون معه فحينئذ يكون رئيس الرؤساء وأميرا على السادة والفضلاء وان أهملهم وركوب شهواتهم وتوسطداتهم ذهبت أديانهم وسقطت مروآتهم وبقوا كما جاء المثل في الجماعة المذمومة تقول العرب في القوم لارؤساء فيهم ولا سروات بينهم هم سواسية كاسنان الحمار وتقول سواسية كاسنان المشط وفيهم يقول الشاعر

سواسية كاسنان الحمار فلا ترى * لذي شيبة منهم على ناشئ فضلا

ولان يكون أميرا على الفضلاء والرؤساء خير من ان يكون أميرا على الاخساء والرمادية والغوغاء والادنياء (وقد قال) عبد الملك بن مروان يوما وقد استقام له الامر من يعذرني من عبد الله بن عمر فانه أبى ان يدخل في سلطاني فقال بعض جلسائه تستحضره وتضرب عنقه وتستريح منه فقال عبد الملك ويلك اذا قتلت ابن عمر على من أكون أميرا والما صار داود الى الحجاز في الدولة العباسية ليقتل من هناك من بني أمية قال له عبد الله بن الحسن يا ابن عم اذا اسرعت في قتل اكفائك فمن تباهي بسلطانك اعف يعف الله عنك فعفا (وقال) ارسطاطاليس للاسكندر استصلح الرعية وأذهب شرهم تكون رئيسا الاخيار ممدوحين ولا تكون رئيسا لاشرار مذمومين فتكون كراعي البقر

(الباب الثالث والاربعون فيما يملك السلطان من الرعية)

كتب ارسطاطاليس الى الاسكندر املك الرعية بالاحسان تظفر منهم بالمحبة فان طلب ذلك منهم بالاحسان هو أدوم بقاء منهم بالاعتساف واعلم انك انما تملك الابدان فتخطاها الى القلوب بالمعروف (واعلم) انه اذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية واذا جار لم يملك منهم الا الارياء والتصنع وفي بعض المتقدمين قلوب الرعية خزائن ملوكها فما أودعوها من شئ فليعلموا انه فيها (واعلم) ان الرعية اذا قدرت على ان تقول قد درت على ان تفعل فاجتهد ان لا تقول تسلم من ان تفعل وليس هذا خلاف ما روي عن معاوية انه رجلا أغلظ له فحلم عليه فقيل له أتحلم على مثل هذا فقال اني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا وذلك ان تفسير قوله فاجتهد ان لا تقول يعني اذا عدلت لم يتكلموا بشئ وهذه السيرة أحسن من سيرة اردشير لما رفع اليه ان جماعة من بطانته قد فسدت نياتهم فوقع ثمن معاشر الملوك انما تملك الاجساد لا النيات وتحكم بالعدل لا بالرضا وتفحص عن الاعمال لا عن السرائر (قلت) وانما تحسن هذه السيرة لمن عجز عن الاولى لان ملك الاجساد قد يكون بالعدل والظلم وملك القلوب لا يكون الا بالعدل وبين هذا من قوله وقد رفع اليه انك ركبت أمس في عدة قليلة وتلك حالة لا يؤمن اغتيال الاعداء فيها فوقع من عم احسانه أمن أعداءه وما أحسن ما قال عبد الملك بن مروان يا أهل الشام انما أنا لكم كالظليم الرائح على فراخه ينقي عنهم القذر ويباعد عنهم الحجر ويكنهم من المطر ويحميهم من الضباب ويحرسهم من الذئاب يا اهل الشام أنتم الجبة والرداء وأنتم العدة والجداء وقالت العجم أسوس الملوك من قادر عيته الى طاعته بقلوبها ولا ينبغي للوالي أن يرغب

فى الكرامة التى ينالها من العامة كرها ولكن فى التى يستحقها بحسن الاثر وصواب التدبير وقال عمر بن عبد العزيز انى لاجمع ان أخرج للمسلمين أمرا من العدل فاخاف ان لا تحمله قلوبهم فأخرج معه طمعا من طمع الدنيا فان نفرت القلوب من هذا سكنت الى هذا وقال معاوية لزياد من أسوس الناس أنا أو أنت فقال يا أمير المؤمنين ما جعل الله رجلا حفظ الناس بسيفه كمن اسمع الناس وأطاعوا له باللين ويروى ان سليما مولى زياد فخر بزياد عند معاوية فقال معاوية اسكت فما أدرك صاحبك بسيفه أدركت أكثر منه بلسانى

(الباب الرابع والاربعون فى التحذير من صحبة السلطان)

اتفقت حكماء العرب والعجم ووصاياهم على النهى عن صحبة السلطان قال فى كتاب كليلة ودمنه ثلاثة لا يسلم عليها الا القليل صحبة السلطان وائتمان النساء على الاسرار وشرب السم على التجربة وكان يقال قد خاطر بنفسه من ركب البحر وأعظم منه خطرا صحبة السلطان وقال مرداس أحق الامور بالتثبت فيها أمر السلطان فانه من صحب السلطان بغير عقل فقد لبس شعار الغرور وفى حكم الهند أيضا صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر وانما تشبه بالجمل الوعر فيها الثمار الطيبة والسباع العادية والثعابين المهلكة فالارتقاء اليه شديد والمقام فيه أشد وليس يتكافأ خير السلطان وشره لان خير السلطان لا يعدو مزيد الحال وشر السلطان قد يزيل الحال ويتلف النفس التى لها طلب المزيد ولا خير فى الشئ الذى فى سلامته مال وجاه وفى نكبته الجائحة والتلف ولهذا لما قيل للعتابى لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الادب قال انى رأيته يعطى عشرة آلاف فى غير شئ ويردى من الصور فى غير شئ ولا أدرى أى الرجلين أكون (وأخبرنى) أبو العباس الجازى وكان ممن دوخ أرض الهند والصين وانتهى الى صين الصين الى جبل الياقوت بالهند وان فيه ثعابين ليس فى معمور الارض أعظم منها فان الواحد منها ليبلع الثور صحيحا فلا يصل أحد الى ذلك الجبل ولا يقربه فاذا كثرت الامطار أحدرت السيول منه الحصى وسائر ما فيه من المنافع الى مستقر المياه على مسير أيام من الجبل فيبحث الناس ذلك الحصى فيوجد فيه الواحدة بعد الواحدة من أحجار الياقوت وقال معاوية لرجل من قريش ايالك والسلطان فانه يغضب غضب الصبى ويرضى رضا الصبى ويبطش بطش الاسد وقال المأمون لو كنت رجلا من العامة ما صحبت السلطان وقال الاحنف بن قيس ثلاثة لا أقولهن لا يعتبر بهن لا أحلف جليسى الا بما أحضره به ولا أدخل فى أمر لا أدخل فيه ولا آتى السلطان الا ان يرسل الىّ وقال ابن المقفع لابنه ان وجدت من السلطان وصحبته غنى فاغن عن نفسك واعتزله جهدك فانه من يأخذه السلطان بحقه يحل بينه وبين لذة الدنيا وس لا يأخذه بحقه يكسبه الفضيحة فى الدنيا والوزر فى الآخرة وقال ميمون بن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز يا ميمون احفظ عنى أربعا لا تصحب سلطانا وان أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر ولا تخلون بامرأة وان قرأتها القرآن ولا تصل من قطع رحمه فانه لك أقطع ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدا (وفى منثور الحكم) كثرة الاشغال مذهلة عن وجود اللذات بكنهها وكم قد رأينا وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصطحبه فسد هو به فكان كما قال الاول

عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

ومثل من يصحب السلطان ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطا مائلا فاعتمد عليه ليقيمه فخر الحائط عليه فأهلكه وفى كتاب كليلة ودمنة لايسعد من ابتلى بصحبة الملوك فانه لاعهد لهم ولا وفاء ولاقريب ولاحميم ولايكرم عليهم احد الا أن يطمعوا فيما عنده فيقربونه عند ذلك فاذا قضوا حاجتهم تركوه ولاود ولا اخاء الا البلاء يجزى والذنب لايغفر له وقال بزرجمهر لاتصلح صحبة السلطان الا بالطاعة والبذل ولامؤاخاة الاخوان الا باللين والمواساة (وقال) بعض حكماء الفرس المال والسلطان مفسدان لكل أحد الا الرجل له عقل كامل وقالت الحكماء صاحب السلطان كراكب الاسد يخافه الناس وهو لمركبه أخوف وقالوا من لزم باب السلطان بصبر جميل وكظم الغيظ واطراح الاذى وصل الى حاجته كالكرم لايتعلق بأكرم الشجر لكن بادناها وكانت العرب تقول ان لم تكن من قرباء الملك فكن من بعدائه (وفى) حكم الهند انما مثل السلطان فى قلة وفائه مع أصحابه وسخاء نفسه عمن نقدهم كمثل الصبى والمكتب كلما ذهب واحد جاء آخر والعرب تقول السلطان ذو غدوات وذو بوادر وذو تدرا وتريد انه سريع الانصراف كثير البدوات هجام على الامور وأصله من الدرء وهو الدفع

(الباب الخامس والاربعون فى صحبة السلطان)

قال ابن عباس قال لى أبى يابنى انى أرى أمير المؤمنين يستخلصك ويستشيرك ويقدمك على الاكابر من أصحاب محمد عليه السلام وانى أوصيك بخلال ثلاث لاتفشين له سرا ولايجربن عليك كذبا ولاتغتابن عنده أحدا (قال) الشعبى قلت لابن عباس كل واحدة منهن خير من ألف قال اى والله ومن عشرة آلاف وقالوا صحبة السلطان بالحذر والصديق بالتواضع والعدو بالجهر والعامة بالبشر ولاتحكم لاحد بحسن رأى الملك الا بحسن أثره (قال) بعض الحكماء لاتستطلع السلطان ما كتمك ولاتفش ما أطلعك عليه من أدل على السلطان استثقله ومن اضر عليه عاداه ومن أظهر انه يسئ به بعده (وقال) بعض الحكماء اذا زادك السلطان تأنيسا فزده اجلالا واذا جعلك السلطان أخا فاجعله أبا وان زادك احسانا فزده فعل العبد مع سيده واحذر ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس فاخذوا فى الثناء عليه فعليك بالدعاء له وان نزلت منه منزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملق ولاتكثر فى الدعاء له عند كل كلمة فان ذلك شبيه بالوحشة والغربة الا ان تكلمه على رؤس الناس فلا تألوا به عظمته وذكرته وقاله ابن المقفع لتكن حاجتك فى سلطانك ثلاث خلال رضا ربك ورضا سلطانك ورضا من تلى عليه ولاعليك ان تليه عن المال والذخر فسيأتيك منهما مايكفى ويطيب (وقال) مسلم بن عمرو لمن خدم السلطان لاتقربن السلطان اذا أدنانك ولاتتغير اذا أقصانك وروى ان بعض الملوك استصحب حكيما فقال له أصحبك على ثلاث خلال قال وماهن قال لاتهتكن لى سترا ولاتشمن لى عرضا ولاتقبل فى قول قائل حتى تستشيرنى قال هذا لك فما عندك قال لاأفشى لك سرا ولاأدخر عنك نصيحة ولاأوثر عليك أحدا قال نعم الصاحب المستصحب انت وقيل لعبد الله بن جعفر ما الخرق قال الدالة على السلطان والوثبة قبل الامكان وقال ابن المقفع أولى الناس بالهلكة الفاحشة المقدم على السلطان بالدالة وقال يحيى بن خالد الدالة تفسد الحرمة القديمة وتضر بالمحبة

المتأكدة وقال بزرجمهر اذا خدمت ملكا من الملوك فلا تدعه فى معصية خالقك فان احسانه اليك فوق احسان الملك وايقاعه بك أغلظ من ايقاعه اصحاب الملوك بالهيبة لهم والوقار لانهم انما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة فلا تترك الهيبة وان طال انسك بهم فهو حسبهم منك لاتطمع السلطان مجهودك فى أول صحبتك له فلا تجد بعد للمزيد موضعا ولكن دع للمزيد موضعا علم السلطان وكانك تتعلم منه وأشر عليه وكانك تستشيره اذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ويثق بك فاياك والدخول بينه وبين بطانته فانك لاتدرى متى يتغير لك فيكون عونا عليك اياك ان تعادى من اذا شاء يطرح ثيابه ويدخل مع الملك فى ثيابه فعل وفى الامثال القديمة أحذر رماة الحمقة وفيه قيل

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا * مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا

وفى الامثال لاتدل فتمل ولاتوجف فتجحف وقال الرشيد لاسمعيل ابن صبيح اياك والدالة فانها تفسد الحرمة وقال سليمان بن داود عليهما السلام لاتغش السلطان ولاتقعد عنه وقال الحكماء شدة الانقباض عن السلطان وورث التهمة وشدة الانبساط تفتح باب الملالة واعلم ان من طلب العز بلا ذل كانت ثمرة سعيه الذل أحرز منزلتك عند السلطان بمثل ما اكتسبتها من الجد والمناصحة واحذر ان يحطك التهاون عما رفعك اليه التحفظ ان أشق الناس بالسلطان صاحبه كما ان أقرب الاشياء الى النار أسرعها احتراقا من لزم باب السلطان بصبر جميل وكظم الغيظ واطراح الاذى وصل الى حاجته (وقال الاحنف بن قيس) لاتنقبضوا عن السلطان ولاتهالكوا عليه فانه من أشرف على السلطان أرداه ومن تضرع له تخطاه * وقال ابن عباس رضى الله عنه ثلاثة من عاداهم عادت عزته ذلة السلطان والولد والغريم واعلم انه انما يستطيع صحبة السلطان أحد رجلين اما فاجر مصانع ينال حاجته بفجوره ويسلم بصانعته واما مغفل مهين لايحسده أحد فاما من أراد ان يصحب السلطان بالصدق والنصيحة والعفاف فقل ان تستقيم له صحبته لانه يجتمع عليه عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد اما الصديق فبنافسه فى منزلته فيطعن عليه لنصيحته له فاذا اجتمع عليه هذان الصنفان كان قد تعرض للهلاك * وقال بعض الحكماء من شارك السلطان فى عز الدنيا شاركه فى ذل الآخرة لابوحشك من السلطان اكرام الاشرار فان ذلك لضرورة اليهم كما يضطر الملك الى الحجام فيشرط فقاه ويخرج دمه (وفى الامثال) لاحلم لمن لاسفيه له * وكان ابن عمر اذا سافر الى مكة استصحب معه رجلا فيه مافيه يستدفع به شر السفهاء وأهل الوغادة والدغارة وقال المعتصم ان للسلطان لسكرات فتحها الرضا عن استوجب السخط والسخط على من استوجب الرضا ومنه قول الحكماء خاطر من يلجج فى البحر وأعظم منه خطرا من صحب السلطان وقال ابن المقفع لابنه لاتعدن شتم السلطان شتما ولا اغلاظه اغلاظا فان ربح العزة تبسطه فى غير باس ولا سخط (وقال سامد) أحد حكماء الفرس أربعة أشياء ينبغى ان تفسر للفهيم كما تفسر للبليد ولا يتكل فيها على ذكاء أحد تأويل الدين واخلاط الادوية وصفة الطريق المخوف والرأى فى السلطان واعلم ان السلطان اذا انقطع منك فى الآخرة نسى الاول فارحامهم مقطوعة وحبالهم مصرومة الامن رضوا عنه فى وقتهم وساعتهم واذا رأيت من الوالى خللا لا تنبغى

فلا تكابره على ردها فانها رياضة صعبة لكن أحسن مساعدته على أحسن رأيه فاذا استحكمت منه ناحية من الصواب كان ذلك الصواب هو الذي يبصره الخطايا اللطيفة أكثر من تبصيرك إياه اجعل العدل من حكمتك فان العدل يدعو بعضه الى بعض فاذا تمكن اقتلع الخطأ ولا تطلب ما قبل الوالي بالمسئلة ولا تستبطئه وان أبطأ ولكن اطلب ما قبله بالاستحقاق والاستيناء فانك اذا استحققته أتاك من غير طلب واذا لم تستبطه كان أعجل له وقال يحيى بن خالد اذا عجب السلطان فداوه مداراة المرأة العاقلة القبيحة للزوج الاحمق المبغض وقال يحيى بن خالد لبعض اخوانه تنكر لي هرون الرشيد فقال له ارض بقليله من كثيره واياك ان تسخط فيكون اسخط منك

(الباب السادس والاربعون في سيرة السلطان مع الجند)

اعلم ان الجند عدد الملك وحصونه ومعاقله وأوتاده وهم حماة البيضة والذابون عن الحرمة والدافعون عن العورة وهم جبن الثغور وحراس الابواب والعدة للحوادث وامداد المسلمين والحد الذي يلقى العدو والسهم الذي يرمى به والسلاح المدفوع في نحره فبهم يذب عن الحريم وتؤمن السبل وتسد الثغور وهم عز الارض وحماة الثغور والذادة عن الحريم والشوكة على العدو وعلى الجند الجد عند اللقاء والصبر عند البلاء فان كانت لهم الغلبة فليمنوا في الطلب وان تمكن عليهم فليكسروا الاعنة وليجمعوا الاسنة وليذكروا أخبار غد وينبغي للملك ان يتفقد جنده كتفقد صاحب البستان بستانه فيقلع العشب الذي لا ينفعه فمن العشب ما لا ينفع ومع ذلك يضر بالنبات النافع فهو بالقلع اجدر ولا يستصلح الجند الا بادرار أرزاقهم وسد حاجاتهم والمكافأة لهم على قدر عنائهم وبلائهم وجنود الملوك وعددها وقف على سعود الائمة ونحوسها وقال أبو بزرجمهر لابنه شيرويه لا توسعن على جندك فيستغنوا عنك ولا تضيق عليهم فيضجروا منك واعطهم عطاء قصدا وامنعهم منعا جميلا ووسع عليهم في الرخاء ولا توسع عليهم في العطاء ولما أفضى الامر الى أبي جعفر المنصور انفذ جيشا وقال لقواده سيروا بمثل هذه السيرة ثم قال صدق الاعرابي اجع كلبك يتبعك فقام أبو العباس الطوسي فقال يا أمير المؤمنين أخشى أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك (وروى) ان كسرى صنع طعاما في سماط فلما فرغوا ورفعت الآلات وقعت عينه على رجل من أصحابه قد أخذ جاما له قيمة كثيرة فسكت عنه وجعل الخدم يرفعون الآلات فلم يجدوا الجام فسمعهم كسرى يتكلمون فقال ما لكم فقالوا فقدنا جاما من الجامات فقال لا عليكم آخذ من لا يرده ورآه من لا يفضحه فلما كان بعد أيام دخل الرجل على كسرى وعليه حلية جميلة وحال مستجدة فقال له كسرى هذا من ذاك قال نعم ولم يقل لا شيأ (وسئل عمر بن معاذ) وكان على الصوائف بم قدرت على جيوش الصائفة وكان يغزو في كل سنة ويجر الجيوش الى بلاد الروم فقال بسعانة الظهر والقديد وكثرة الكعك (وروى) ان بعض أمراء العرب كان ظالما لرعيته شديد الاذى لهم في أموالهم فعوتب في ذلك فقال اجع كلبك يتبعك فوثبوا عليه فقتلوه وغر به بعض الحكماء فقال ربما أكل الكلب صاحبه اذا لم يشبعه

(الباب السابع والاربعون في سيرة السلطان في استيحاء الخراج)

أيها الملك من طال عدوانه زال سلطانه واعلم ان المال قوة السلطان وعمارة المملكة ولقاحه

الامن ونتاجه العدل وهو حصن السلطان ومادة الملك والمال أقوى العدد على العدو وهو ذخيرة الملك وعمارة المملكة وحياة الارض ومن حقه ان يؤخذ من حقه ويوضع فى حقه ويمنع من سرف ولا يؤخذ من الرعية الا ما فضل عن معاشها ومصالحها ثم ينفق ذلك فى الوجوه التى يعود عليها نفعها فيا أيها الملك احرص كل الحرص على عمارة الارضين والسلام أيها الملك حر جباة الاموال بالرفق وجانبه الخرق فان العلقة تنال من الدم بغير أذى ولا معاج صوت ما لا تناله البعوضة بلسعتها وهول صوتها (ولما عزل عثمان) عمرو بن العاص عن مصر استعمل عليها ابن أبى السرح فحمل من المال أكثر مما كان يحمله عمرو فقال عثمان يا عمرو أشعرت ان اللقاح درت بعدك فقال عمرو ذلك لانكم أعجفتم أولادها * وقال زياد احسنوا الى المزارعين فانكم لم تزالوا سمانا ما سمنوا * وفى منثور الحكمة من جاور فى الحلب حلب الدم (وفى الامثال) اذا استقصى البخيل فى مص امه رفسته * وقال جعفر بن يحيى الخراج عمود الملك وما استغزر بمثل العدل ولا استتر بمثل الظلم وأسرع الامور فى خراب البلاد تعطيل الارضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج بالجور والتحامل ومثل السلطان اذا حمل على أهل الخراج حتى ضعفوا عن عمارة الارضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو وان قوى من ناحية فقد ضعف من ناحية وما أدخل على نفسه من الوجع والضعف أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع ومثل من كلف الرعية من الخراج فوق طاقتها كالذى يطين سطحه بتراب أساس بيته ومن بدمن حزا العمود يوشك ان يضعف فتقع الخيمة واذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الارضين فيترك كونها فتخرب الارض ويهرب الزراع فتضعف العمارة فيضعف الخراج وينتج ذلك ضعف الاجناد واذا ضعف الجند طمع الاعداء فى السلطان أيها الملك كن بعايش فى بدر عيتك أفرح منك بما تأخذ منها لا يقل مع الصلاح شئ ولا يبقى مع الفساد شئ وصيانة القليل أولى من تربية الجليل فلا مال لاخرق ولا عيلة لمصلح (وروى) ان المأمون أرق ليلة فاستدعى سهرا لحدثه بحديث فقال يا أمير المؤمنين كان بالموصل يومة وبالبصرة يومة فخطبت يومة الموصل الى يومة البصرة بنتها لابنها فقالت يومة البصرة لا أنكحك ابنتى الا ان تجعلى فى صداقها مائة ضيعة خراب فقالت يومة الموصل لا أقدر عليها الآن ولكن ان دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت لك ذلك قال فاستيقظ المأمون وجلس للمظالم وانصف الناس بعضهم من بعض وتفقد امر الولاة (وسمعت) بعض شيوخ الاندلس من الاجناد وغيرهم يقولون مازال أهل الاسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو فى ضعف وانتقاض لما كانت الارض مقطعة فى أيدى الاجناد فكانوا يستعلونها ويرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يربى التاجر تجارته وكانت الارض عامرة والاموال وافرة والاجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج اليه الى ان كان الامر فى آخر أيام ابن أبى عامر فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الاموال على القطع وقدم على الارض جباة يجبونها فاكلوا الرعايا واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم فتهاربت الرعايا وضعفوا عن العمارة فقلت الجبايات المرتفعة الى السلطان وضعفت الاجناد وقوى العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ولم يزل أمر المسلمين فى نقص وأمر العدو فى ظهور الى ان دخلها المتلثمون فردوا الاقطاعات كما كانت فى الزمان القديم ولا

أدرى ما يكون وراء ذلك

(الباب الثامن والاربعون فى سيرة السلطان فى بيت المال)

وهذا باب سلكت فيه ملوك الطوائف والهند والصين والسند وبعض ملوك الروم خلاف سيرة الانبياء والمرسلين والخلفاء الراشدين فكانت الملوك تدخر الاموال وتحتجبها دون الرعية وتعدها ليوم كريهة على ما بينا فى الباب قبله وكانت الرسل والخلفاء بعدهم تبذل الاموال ولا تدخرها وتصطنع الرعية وتوسع عليها فكانت الرعية هم الاجناد والحماة وهذه سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد علمت ان جوعه كان أكثر من شبعه وانه مات ودرعه مرهونة فى صاع شعير عند يهودى وكذلك الخلفاء الراشدون بعده أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وابنه الحسن وعمر بن عبد العزيز وان النبى عليه السلام لما فتح الله عليه اليمن كان تجبى له الاموال فيفرقها ليومها وقد توضع فى المسجد وتفرش الانطاع ويفرقها من الغد ولم يكن له بيت مال (وروى) أبو داود فى السنن أن النبى عليه السلام صلى العشاء الآخرة ثم دخل حجرته وخرج مسرعا وفى يديه خريقة فيها ذهب فقسمه ثم قال ما ظن آل محمد لو ادركه الموت وهذا عنده ولم يكن للنبى عليه السلام بيت مال ولا للخلفاء الراشدين بعده وانما كانت الخلفاء تقسم الاموال التى تجبى من حلها بين المسلمين وربما يفضل منها فضلات فيجعل فى بيت فمن حضر من غائب أو احتاج من حاضر قسم له حظه ثم يفرق حتى لا يبقى فى البيت منه درهم كما روى ان امير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه اشرف على بيت المال وفيه مال فقال يا صفراء ويا حمراء بيضى واحمرى وغرى غيرى ثم أمر فقسم جميع ما فيه على المسلمين وأمر قنبرا أن يكنسه ويرشه ثم دخل فصلى فيه ثم كثير من الملوك سار وا فى الاموال على نحو هذه السيرة من ملوك الاسلام وملوك الروم ومعظم ما أهلك بلاد الاندلس وسلط عليها الروم ان الروم التى كانت تجاورنا لم تكن لهم بيوت أموال وكانوا يأخذون الجزية من سلاطين الاندلس ثم يدخلون الكنيسة فيقسمها سلاطينهم على رجاله بالطاس ويأخذ مثل ما يأخذون وقد لا يأخذ شيأ منها وانما كانوا يصطنعون بها الرجال وكانت سلاطيننا تحتجب الاموال وتضيع الرجال فكان للروم بيوت رجال وللمسلمين بيوت أموال فبهذه الخلة قهرونا وظهروا علينا وكان من يذهب هذا المذهب ولا يدخر الاموال تضرب فيه الامثال ويقال عدوا الملك بيت المال وصديقه جنده فاذا ضعف أحدهما قوى الآخر واذا ضعف بيت المال بذله للحماة قوى الناصر واشتد بأس الجند وقوى الملك واذا قوى بيت المال وامتلأ بالاموال قل الناصر وضعفت الحماة فضعف الملك فوثبت عليه الاعداء وقد شاهدنا ذلك فى بلاد الاندلس مشاهدة واذا كان الدفاع فى الرجال لا فى الاموال وانما يدفع بالاموال بواسطة الرجال فلا شك ان بيت رجال خير من بيت مال وقد قال بعض الملوك لابنه يا بنى لا تجمع الاموال لتتقوى بها على الاعداء فان فى جمعها تقوية الاعداء يعنى اذا جمعت الاموال أضعفت الرجال فيطمع فيك الصديق ويثب عليك العدو وانما مثل الملك فى مملكته مثل رجل له بستان فيها عين معينة فان هو قام على البستان فاحسن تدبيرها فهندس أرضها وغرس أشجارها وحظر على جوانبها ثم أرسل عليها الماء اخضر عودها فقويت اشجارها

وأينعت ثمارها وزكت بركاتها فكانوا جميعا فى أمان من الضيعة ولا يخافون فقرا ولا شتاتا وان هو رغب فى غلتها وجناها ولم ينفق فيها ما يكفيها ولا ساق اليها من الماء ما يرويها رغبة فى الغلة وضنة بالمال ضعفت عمارتها ودقت اشجارها وقلت ثمارها وذهبت غلتها ومحق الدهر ما جبى من غلتها فافتقر القوم وهلكوا وتشتتوا ومثال الملك فى جمع المال ليتقوى به على عدوه مثل طائر يتتف ريشه ويعض أصولها ويأكل ما نبع منها فلذلك طيبها وأحبه خصب جسمه على ذلك وقوته على عدوه فلم يزل كذلك حتى خف ريشه فسقط الى الارض فاكلته الهوام والحشرات (ورأيت) فى أخبار بعض الملوك ان وزيره اشار عليه بجمع الاموال واقتناء الكنوز وقال ان الرجال وان تفرقوا عنك اليوم فتى احتجتهم عرضت عليهم الاموال فتهافتوا عليك فقال له الملك هل لهذا من شاهد قال نعم هل بحضرتنا الساعة ذباب قال لا قال فامر باحضار جفنة فيها عسل فحضرت فسقط عليها الذباب لوقتها فاستشار السلطان بعض أصحابه فى ذلك فنهاه عن ذلك وقال لا تغير قلوب الرجال فليس فى كل وقت أردتهم حضروا فسأل هل لذلك من دليل قال نعم اذا أمسينا سأخبرك فلما أظلم الليل قال للملك هات الجفنة فحضرت ولم تحضر ذبابة واحدة (وقد روينا) عن سيرة بعض السلاطين فى أرض مصر وكان قد ملكها وكان اسمه يادقور انه كان يجمع الاموال ولا يحفل بالرجال فقال له أصحابه ان أمير الجيوش بالشام وهو يتوعدك وكأنه قد قدم عليك فاستعد للرجال وانفق فيهم الاموال فاوما الى صناديق موضوعة عنده وقال الرجال فى الصناديق فغزا أمير الجيوش ذلك الملك فى مصر وقتله وتسلم الصناديق والملك فكان رأيه رأيا فاسدا لان رجالا يقيمهم لوقته ويصطنعهم لحاجته انما يكونون أجنادا مجتمعين وشرذمة ملفقين ليس فيهم عناء ولا عندهم دفاع ولا ممارسة للحروب (ومن السير) المروية فى هذا الباب انه لما فتحت العراق جىء بالمال الى عمر فقال صاحب بيت المال أدخلت بيت المال فقال لا وورب الكعبة لا يؤوى تحت سقف بيت حتى نقسمه فغطى فى المسجد بالاطناع وحرسه رجال من المهاجرين والانصار فلما أصبح نظر الى الذهب والفضة والياقوت والزبرجد والدر يتلألأ فبكى فقال له العباس أو عبد الرحمن بن عوف يا أمير المؤمنين والله ما هذا يوم بكاء ولكنه يوم شكر وسرور فقال انى والله ما ذهبت حيث ذهبت ولكنه والله ما كثر هذا فى قوم الا وقع بأسهم بينهم ثم أقبل على القبلة ورفع يديه وقال اللهم انى أعوذ بك أن أكون مستدرجا فانى أسمعك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ثم قال أين سراقة بن جعشم فاتى به أشعر الذراعين دقيقهما فاعطاه سوارى كسرى وقال البسهما فقعل فقال قل الله أكبر قال الله أكبر قال الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سراقة بن جعشم اعرابيا من بنى مدلج ثم قبلهما وقال ان الذى أدى هذا لأمين فقال له رجل أنا أخبرك أنت أمين الله تعالى وهم يؤدون اليك ما أديت لله تعالى فاذا ارتعت رتعوا قال صدقت وانما ألبسهما سراقة لان النبى صلى الله عليه وسلم قال لسراقة ونظر الى ذراعيه كأنى بك قد لبست سوارى كسرى ولم يجعل له الا السوارين (ولما ولى أبو بكر الصديق) رضى الله عنه جاءه مال من العمال فصب فى المسجد وأمر فنادى من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم دين أو عدة فليحضر قال أبو أيوب الانصارى فجئته

فقلت يا خليفة رسول الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لي لو قد جاءني مال أعطيتك هكذا وهكذا وأشار بكفيه فسكت أبو بكر فانصرفت ثم عاودته فسكت عني ثم انصرفت وعاودته فقلت اما أن تعطيني واما أن تبخل عني فقال ما أبخل عنك اذهب فخذ فحفنت حفنة قال عدها فعددتم هي وجدت فيها خمسمائة دينار وأبو أيوب من أغنياء الانصار وهو نزيل النبي صلى الله عليه وسلم ودل الحديث على ان بيت المال للغني والفقير ودل أيضا انه لا يجب أن يساوى فيه جميع المسلمين بل ذلك موكول الى اجتهاد الامام

(فصل) قال الحسن بن علي الاسدي أخبرني أبي قال وجدت في كتاب قبطي باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف من أموال مصر بحق الخراج مما يؤخذ من وجوه الجبايات لسنة واحدة على العدل والانصاف والرسوم الجارية من غير اضطهاد ولا مناقشة وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان نظرا للمعاملين وتقوية لحالهم من العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف دينار ومن ذلك ما يصرف في عمارة البلاد لحفر الخليج والانفاق على الجسور وسد الترع واصلاح المنشآت ثم تقويه من يحتاج الى تقويته من غير رجوع عليه بها لاقامة العوامل والتوسعة في البذار وغير ذلك من الآلات وأجرة من يستعان به لحمل البذار وسائر نفقات تطبيق الارض ثمانمائة ألف دينار ولما يصرف في ارزاق الاولياء الموسومين بالسلاح ومن في جملتهم من الشادية والغلمان وأشياعهم وعدتهم جميعهم مع ألف كاتب موسومين بالدواوين سوى أتباعهم من الخزان ومن يجري مجراهم مائة ألف واحدى عشر ألف دينار وثمانية ألف ألف درهم ولما يصرف للارامل والايتام يرضون به من بيت المال وان كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو آمالهم من برفرعون اربعمائة ألف دينار ولما يصرف في كهنة برابيهم وسائر بيوت صلواتهم مائتا الف دينار ولما ينصرف في الصدقات مما يصب صبا وينادى برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر فيحضر لذلك من يحضر ولا يرد أحد والامناء جلوس فاذا رأوا انسانا لم يجر وسمه بان يأخذ فرد وبعد قبضه ما قبضه حتى اذا فرق المال واجتمع من هذه الطائفة عدد دخل أمناء فرعون اليه وهنؤه بتفرقة المال ودعوا له بطول البقاء ودوام العز والسلامة وأنهى اليه حال تلك الطائفة فيأمر بتغيير شعثها بالحمام واللباس ثم يمد السماط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستعلم من كل واحد سبب فاقته فان كان ذلك من آفة الزمان رد عليه مثل ما كان له وان كان سوء رأى وتدبير غير مستقيم ضمه الى من يشرف عليه ويأخذه بالادب والمعرفة التي لا يصلح الا بها مائتا ألف دينار ولما ينصرف من نفقات فرعون الراتبة لبيته مائتا ألف دينار تكون النفقات على ما تقدم تفصيلها تسعة آلاف ألف وثمانمائة ألف دينار ويحصل بعد ذلك ما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام ويحصله لفرعون في بيت المال لتواتب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار (وقال أبو رهم) كانت ارض مصر أرضا مدبرة حتى ان الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيحبسوه كيف شاؤا ويرسلوه كيف شاؤا وذلك قول فرعون أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي أفلا تبصرون وكان ملك مصر عظيما لم يكن في الارض أعظم من ملك مصر وكانت الجنات بحافتي النيل متصلة لا ينقطع منها شئ عن شئ والزرع كذلك من اسوان الى رشيد وكانت أرض مصر كلها

تروى من ستة عشر ذراعا لما دبر وافى جسورها وحافاتها والزروع ما بين الجبلين من أولها الى آخرها وذلك قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين والمقام الكريم المنابر وكان بها ألف منبر (وقال عبد الله بن عمرو) استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فاخذ فى حفره وتدبيره ففعل أهل القرى يسألونه ان يجرى الخليج تحت قريتهم ويعطوه مالا وكان يذهب به من قرية الى قرية من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى القبلة ويسوقه كيف أراد فليس فى مصر خليج أكثر عطوفا منه فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة فحملها الى فرعون وأخبره بالخبر فقال له فرعون انه ينبغى للسيد أن يعطف على عبيده ويفيض عليهم من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بايديهم ردّ على أهل القرى ما أخذت منهم فردّ عليهم أموالهم فهذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه ولا يخاف عذابه ولا يؤمن بيوم الحساب فكيف يجب أن تكون سيرة من يقول لا اله الا الله ويوقن بالحساب والثواب والعقاب (وقال ابن عباس) رضى الله عنهما فى قوله تعالى اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم قال هى خزائن مصر وكانت أربعين فرسخا فى مثلها ولم يطع يوسف فرعون ويحلفه ويثوب عنه الا بعد أن دعاه الى الاسلام فاسلم فحينئذ قال اجعلنى على خزائن الارض (ولما استوثق) أمر يوسف الصديق عليه السلام وكل وصارت الاشياء اليه وأراد ربك أن يعوّضه على صبره لما لم يركب محارمه وحلت سنوا الغلاء والجوع مات العزيز وذهبت الذخائر وافتقرت زليخا وعمى بصرها وجعلت تتكفف الناس فقيل لها لو تعرّضت للملك لعله يرحمك ويغنيك فطالما حفظتيه وأكرمتيه ثم قيل لها لا تفعلى لانه ربما يتذكر ما كان منك اليه من المراودة والحبس فنسى اليك ويكافئك فيما سبق منك اليه فقالت أنا أعلم بحلمه وكرمه وجلست له على رابية فى طريقه يوم خروجه وكان يركب فى زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته فلما أحست به قامت وقالت سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم فقال يوسف ومن أنت قالت أنا التى كنت اخدمك على صدور قدمى وأرجل جمتك بيدى وأكرم مثواك بجهدى وكان منى ما كان وذقت وبال أمرى وذهبت قوتى وتلف مالى وعمى بصرى وصرت أسأل الناس فمنهم من يرحمنى ومنهم من لا يرحمنى بعدما كنت مغبوطة أهل مصر كلها صرت مرحومتهم بل محرومتهم هذا جزاء المفسدين فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديدا وقال لها هل بقى فى قلبك من حبك اياى شئ فقالت والذى اتخذ ابراهيم خليلا لنظرة اليك أحب الىّ من ملء الارض ذهبا وفضة فمضى يوسف وأرسل اليها ان كنت ايما تزوجتك وان كنت ذات بعل أغنيناك فقالت للرسول الملك أعرف بالله من أن يستهزئ بى هو لم يردنى فى أيام شبابى وجمالى فكيف يقبلنى وأنا عجوز عمياء فقيرة فامر بها يوسف عليه السلام فجهزت فتزوجها وأدخلت عليه فمسح قدميه وجعل يصلى ويدعو الله باسمه الاعظم فردّ الله تعالى عليها شبابها وجمالها وبصرها كهيئتها يوم راودته فواقعها فاذا هى بكر فولدت له افرائيم بن يوسف وميشا بن يوسف وطاب فى الاسلام عيشهما حتى فرق الدهر بينهما فيجب للقوى أن لا ينسى الضعيف وللغنى أن لا ينسى الفقير فرب مطلوب يصير طالبا ورب غوب اليه يصير راغبا وسؤل يصير

سائلا يرحم يصير مرحوما (فهذا يوسف) الصديق عليه السلام انظر الى ضعفه في يد اخوته يوم الجب ثم ضعفهم بين يديه يوم الصاع (وهذه زليخا) ملكة مصر وسيدة أهلها عادت تتكفف الناس في الطرقات قال الله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها فكان يوسف عليه السلام بعد هذا يجوع ويأكل خبز الشعير ولا يشبع فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الارض قال أخاف أن أشبع فانسى الجائعين (وقد رأيت) أن ألحقه بمنقبة في مثلها يتنافس العقلاء ويرغب فيها الملوك والوزراء وذلك انى لما كنت بالعراق وكان الوزير نظام الملك والغالب على ألقابه خواجا بزرك رحمه الله تعالى قد وزر لأبي الفتح ملك الترك ابن الب ارسلان وكان قد وزر لأبيه من قبله فقام ببدولتهما أحسن قيام فشد أركانها وشيد بنيانها واستقال الاعداء ووالى الاولياء واستعمل الكفاة وعمم احسانه العدو والصديق والبغيض والحبيب والبعيد والقريب حتى ألفى الملك بحرانه وذل الخلق لسلطانه وكان الذي مهد له ذلك باذن الله تعالى ووفقه انه أقبل بكليته على مراعاة جمال الدين فبنى دور العلم للفقهاء وأنشأ المدارس للعلماء وأسس الرباطات للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء ثم أجرى لهم الجرايات والكساوى والنفقات وأجرى الخير والرزق لمن كان من أهل الطلب للعلم مضافا الى ارزاقهم وعم بذلك سائر أقطار مملكته فلم يكن من أوائل الشام وهي بيت المقدس الى سائر الشام الاعلى وديار بكر والعراقين وخراسان باقطارها الى سمرقند من وراء نهر جيحون مسيرة زهاء مائة يوم حامل علم أو طالبه أو متعبد أو زاهد في زاويته الا وكرامته شاملة له وسابغة عليه وكان الذي يخرج من بيوت أمواله في هذه الابواب ستمائة ألف دينار في كل سنة فوشي به الوشاة الى أبي الفتح الملك وأوغروا صدره عليه وقالوا ان هذا المال المخرج من بيوت الاموال يقيم به جيشا يركز رايته في سور قسطنطينية فخامر ذلك قلب أبي الفتح الملك فلما دخل عليه قال يا أبت بلغني انك تخرج من بيوت الاموال كل سنة ستمائة ألف دينار الى من لا ينفعنا ولا يغني عنا فبكى نظام الملك وقال يا بني أما شيخ أعجمي لو نودي على فمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارا وأنت مشتغل بلذاتك منهمك في شهواتك واكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك وجيوشك الذين تعدهم للنوائب اذا احتشدوا كالخواعن بسيف طوله ذراعان وقوس لا ينتهي مدى مرماه نلمة ذراع وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزمار والطنبور وأنا أقف لك جيشا يسمى جيش الليل اذا قامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفا بين يدي ربهم فارسادموعهم وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك فانت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعائهم تبيتون وبرکاتهم تمطرون وترزقون تخرق سهامهم الى السماء السابعة بالدعاء والتضرع فبكى ابو الفتح الملك بكاء شديدا ثم قال شاباش يا أبت شاباش أكثر لي من هذا الجيش (ومن مناقب) هذا الرجل وقضاياه ان رجلا قصده يقال له أبو سعيد الصوفي فقال له يا خواجا أنا أبني لك مدرسة ببغداد مضاهية السلام لا يكون في معمور الارض مثلها يخلد بها ذكرك الى آن تقوم الساعة

قال افعل وكتب الى وكلائه ببغداد أن يمكنوه من الاموال فابتاع بقعة على شاطئ دجلة وخط المدرسة النظامية وبناها أحسن بنيان وكتب عليها اسم نظام الملك وبنى حولها أسواقا تكون محبسة عليها وابتاع ضياعا وخانات وحمامات وأوقفت عليها فكملت لنظام الملك بذلك رياسة وسودد وذكر جميل طبق الارض خبره وعم المشارق والمغارب أثره وكان ذلك فى سنى عشر الخمسين وأربعمائة من الهجرة ثم رفع حساب النفقات الى نظام الملك فبلغ ما يقارب ستين ألف دينار ثم نمى الخبر الى نظام الملك من الكتاب وأهل الحساب أن بجميع ما أنفق فيها نحو من تسعة عشر ألف دينار وان سائر الاموال احتجبها لنفسه وخانك فيها فدعاه نظام الملك الى اصبهان للحساب فلما أحس أبو سعيد بذلك أرسل الى الخليفة أبى العباس يقول هل لك فى أن أطبق الارض بذكرك وأنشر لك فخرا لا يمحوه الايام قال وماهو قال نمحو اسم نظام الملك عن هذه المدرسة ونكتب عليها اسمك وتزن له ستين ألف دينار فأرسل اليه الخليفة يقول له أنفذ من يقبض المال فلما استوثق منه مضى الى أصبهان فقال له نظام الملك انك قد رفعت الينا نحوا من ستين ألف دينار نفقة وأحب اخراج الحساب فقال له أبو سعيد لا تطل الخطاب أن رضيت والا محوت اسمك المكتوب عليها وكتبت عليها اسم غيرك وأرسل من يقبض المال فلما أحس نظام الملك بذلك قال يا شيخ قد سوغناك جميع ذلك كله ولا تمح اسمنا ثم ان أبا سعيد بنى بتلك الاموال الرباطات للصوفية واشترى الضياع والخانات والبساتين والدور ووقف جميع ذلك على الصوفية فالصوفية الى يومنا هذا فى رباط أبى سعيد الصوفى وأوقافه يتقلبون ببغداد ففى هذه المناقب فليتنافس المتنافسون ولمثل هذا فليعمل العاملون فان فيها عز الدنيا وشرف الآخرة وحسن الصيت وخلود جميل الذكر فاتما لم نجد شيأ يبقى على الدهر الا الذكر حسنا كان أو قبيحا وقال الشاعر

ولاشئ يدوم فكن حديثا * جميل الذكر فالدنيا حديث

فانتهز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الامر وقدم لنفسك كما قدموا تذكر بالصالحات كما ذكروا وادخر لنفسك فى الآخرة كما ادخروا واعلم ان المال كالمول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو فاختر أى الثلاث شئت والسلام (وكان) ابن أبى دواد الوزير واسع النفس مبسوط اليدين يعطى الجزيل ويستقل الكثير ولا يرد سؤالا ويبتدئ بالنوال فقال له الواثق أمير المؤمنين يوما قد بلغنى بسط يدك بالاعطاء وهذا يتلف بيوت الاموال فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال يا أمير المؤمنين ذخائر أجرها واصل اليك ومفاتيح شكرها موصولة بك وانما لى من ذلك نعشق فى ايصال الثناء اليك فقال الواثق لله أنت جد بالعطاء وأكثر بالشكر والثناء

(الباب التاسع والاربعون فى سيرة السلطان فى الانفاق من بيت المال وسيرة العمال)

اعلم ان يوسف الصديق عليه السلام لما ملك خزائن الارض كان يجوع ويأكل الشعير فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الارض فقال أخاف أن أشبع فانسى الجائعين (وروى) البيهقى باسناده قال لما استخلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه غدا الى السوق فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه أين تريد قال السوق قال فجاء له ما يشغله عن السوق قال سبحان الله يشغلنى

عن عيالى قال نفرض لك بالمعروف قال فأنفق فى سنتين وبعض أخرى ثمانية آلاف درهم ووصى أن يرد من ماله فى بيت المال (وروى) هذه القصة الحسن البصرى قال لما حضرت أبا بكر الوفاة قال انظروا كم أنفقت من مال الله فوجدوا قد أنفق فى سنتين ونصف ثمانية آلاف درهم قال اقضوها عنى فقضوها عنه ثم قال يا معشر المسلمين انه قد حضر من قضاء الله ما ترون ولا بد لكم من رجل يلى أمركم ويصلى بكم ويقاتل عدوكم فان شئتم اجتمعتم واتمرت لكم وان شئتم اجتهدت لكم فوالذى لا اله الا هو ما آلو كم ونفسى خيرا فبكوا وقالوا أنت خيرنا وأعلمنا فاختر لنا فقال قد اخترت لكم عمر (وروى) مالك هذه القصة على غير هذا الوجه قال بلغنى ان أبا بكر لما ولى لم ينفق من مال الله شيأ وغدا يوما من بنى عمرو بن عوف وكانت له هناك امرأة من الانصار فى جمال له يريد أن يبيعها فلقيه بعض المسلمين فقالوا له ما تصنع هذا يشغلك عن الناس وعن النظر فى أمرهم قال فكيف أصنع قالوا استغرغ للنظر فى أمورهم وتستنفق من هذا المال فباع تلك الابل وغيرها من ماله الا الارض ثم طرحه فى بيت المال فكان ينفق من المال على نفسه وعلى عياله * ثم كان عمر على مثل ذلك * ثم وليه عمر بن عبد العزيز فلم ينفق منه فقيل له قد صنع أبو بكر وعمر ما قد علمت قال أجل ولكنى أخذت من هذا المال فان يكن لى فيه حق فقد استوفيت وزدت ولولا ذلك لفعلت (قال) ابن القاسم قلت لمالك فاين قولهم عن عمر انه رد ثمانين ألفا قال كذبوا انما يقول هذا أعداء الله هو لم يجز لوالده سلف أبى موسى اياه حين أخذ منه نصفه فكيف يأخذ من مال الله ثمانين ألفا * فلما توفى أبو بكر استرجع على رضى الله عنه وجاء مسرعا باكيا وقال رحمك الله أبا بكر لقد كنت والله أول القوم اسلاما وأكملهم ايمانا وأشدهم يقينا وأخوفهم لله تعالى وأحوطهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشبههم به هديا وخلقا وسمتا وفضلا وأكرمهم عليه وأرفعهم عنده فجزاك الله عن الاسلام خيرا صدقت رسول الله حين كذبه الناس فسماك الله فى كتابه صديقا فقال تعالى والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون وآنسته حين تخلفوا وقمت معه حين قعدوا وصحبته فى الشدة حين تفرقوا أكرم الصحبة ثانى اثنين وصاحبه فى الغار ورفيقه فى الهجرة والمنزل عليه السكينة وخلفته فى أمته أحسن الخلافة ففويت حين ضعف أصحابك وبرزت حين استكانوا وقمت بالامر حين فشلوا ومضيت بقوة اذ وقفوا كنت أطولهم صمتا وأبلغهم قولا وأشجعهم قلبا وأشدهم يقينا وأحسنهم عملا كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا فى بدنك قويا فى أمر دينك متواضعا فى نفسك عظيما محببا الى أهل السموات والارض فجزاك الله عنا وعن الاسلام خيرا (وقال) عمر رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده تعبا شديدا (وروى) البيهقى عن عمر رضى الله عنه انه قال انى أنزلت نفسى من مال الله تعالى بمنزلة ولى اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف (وفى رواية أخرى) ان احتجت أخذت منه فاذا أيسرت رددته (وفى رواية أخرى) أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى وما قال يحل لى أستحل منه حلتين حلة للشتاء وحلة للقيظ وما أحج عليه وأعتمر وقوتى وقوت عيالى كقوت رجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم ثم انا بعد ذلك رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم (وقال) أنس بن مالك غلا الطعام على عهد عمر

رضى الله عنه فاكل خبز الشعير وكان قبل ذلك لا يأكله فاستنكره بطنه فصوت فضربه بيده وقال هو والله ما تراى حتى يوسع الله على المسلمين (وقال) أبو عثمان النهدى رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطوف بالبيت وعليه جبة صوف فيها اثنتا عشرة رقعة احداها بادم أحمر (وقال) عطاء بن السائب استعمل عمر بن الخطاب السائب بن الاقرع على المدائن فدخل ايوانا من ايوان كسرى فاذا صنم يشير باصبعه الى الارض قد عقد أربعين فقال والله ما يشير هذا الى الارض الا وثم شئ فاحتفروا فاستخرجوا منه سفطا فيه جوهر فكتب الى عمر بن الخطاب أما بعد فانى دخلت ايوانا من ايوان كسرى فرأيت كذا وكذا فاحتفرت فأخرجت سفطا فيه جوهر فلم أجد أحق به منك يا أمير المؤمنين لم يكن من فىء المسلمين فاقسمه بينهم انما أصبناه تحت الارض فلما قدم السفط على عمر وعليه خاتم السائب فرأى عمر مهيا يرى الناظر كأن نارا أججت وهو يراد يلقى فيها فكتب الى السائب أن اقدم على قال فقدمت عليه وهو يطوف فى ابل الصدقة فطفت معه الى نصف النهار ثم دعا بماء فاغتسل ودعا لى بماء فاغتسلت ثم ذهب الى منزله فأتى بطعم غليظ وخبز متحمش فقال انظر من على الباب فاذا سودان من الصوفية فاذن لهم فجعل يأكل معهم فاذا لحم غليظ لا أستطيع أن أسيغه وقد كنت تعودت درمك أصبهان اذا وضعته فى فمى دخل بطنى ثم دعا بالسفط وقال أتعرف خاتمك قلت نعم فقال كتبت ترفق لى تزعم انى أحق به من أين أصبته فأخبرته قال اذهب فاجعله فى بيت مال المسلمين حتى أقسمه بينهم (وقال) قتادة قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشام فصنع له طعام لم ير قبله مثله فقال هذا لنا فما للفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير قال خالد بن الوليد لهم الجنة فاغرورقت عيناه عمر وقال لئن كان حظنا فى هذا الطعام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بعيدا (وقال) عبد الله بن عمر العمرى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين قدم الشام قال لابى عبيدة اذهب بنا الى منزلك قال ما تريد الى ان تقصر عينك على قال فدخل منزله فلم ير شيأ فقال عمر أين متاعك لا أرى الا بدا أو شنا وصحفة وأنت أمير أعندك طعام فقام أبو عبيدة الى جونة فأخرج منها كسرات فبكى عمر فقال أبو عبيدة قد قلت لك انك تقصر عينك على يا أمير المؤمنين يكفيك من الدنيا ما بلغك المقيل فقال عمر غرتنا الدنيا بعدك يا أبا عبيدة (وقال) النخعى بعث عمر بن الخطاب مصدقين فأبطؤا عليه والناس حاجة شديدة فجاؤا بالصدقات فقام فيها متزايعا بعضها يختلف فى أولها وآخرها يقول هذه لآكل فلان وهذه لآكل فلان حتى انتصف النهار وجاع ودخل بيته حتى اذا أمكن أكله أكله ثم قال من أدخله بطنه أبعده الله (وقال) طاوس أجدب الناس على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فما أكل سمنا ولا سمينا حتى أكل الناس (وقال) سعيد بن جبير ان عليا رضى الله عنه قدم الكوفة وهو خليفة وعليه ازاران قطريان قد رقع ازاره بخرقة ليست بقطريه من ورائه فجاءه اعرابى فنظر الى تلك الخرقة فقال يا أمير المؤمنين كل من هذا الطعام والبس واركب فانك ميت أو مقتول قال ان هذا خير لى فى صلاتى وأصلح لقلبى وأشبه بشبه الصالحين قبلى وأجدر أن يقتدى بى من أتى من بعدى (وقال) الحسن ان عمر بن الخطاب بينا هو يعس فى المدينة بالليل أتى على امرأة من الانصار تحمل قربة فسألها فذكرت ان لها عيالا وأن ليس لها خادم وأنها تخرج فى الليل فتسقيهم

الماء وتسكر أن تخرج بالنهار فحمل عمر عنها القربة حتى بلغ منزلها وقال اغدى على عمر غدوة يخدمك خادما فالت لا أصل اليه قال انك ستجدينه ان شاء الله تعالى فغدت عليه فاذا هي به فعرفت أنه الذي حمل قربتها فذهبت تولي فأرسل في اثرها وأمر لها بخادم ونفقة ومتاع لما حج عمر رضي الله عنه قال كم بلغت نفقتنا يا رفا قال ثمانية عشر دينارا يا أمير المؤمنين قال ويحك أجحفنا ببيت مال المسلمين (وقال) شهر بن حوشب لما قدم عمر الشام طاف بكورها حتى نزل حمص فقالوا اكتبوا الى فقرائهم فرفعوا اليه الرقعة واذا فيها سعيد بن عامر فقال من سعيد بن عامر قالوا أميرنا فعجب عمر وقال كيف يكون أميركم فقيرا فقالوا انه لا يصلك شيء فبكى عمر وبعث اليه بألف دينار يستعين بها في حاجته فجعل يسترجع فقالت له امرأته مالك أصابك امير المؤمنين بشيء قال أعظم من ذلك أتتني الدنيا دخلت على الدنيا واني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ان فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم باربعين عاما فوالله ما يسرني أني حبست عن الرعيل الاول وان لي به ما طلعت عليه الشمس قالت فاصنع فيه ما شئت قال هل عندك معونة قالت نعم فأتته بخمارها فصر الدنانير فيها صررا ثم جعلها في مخلاة وبات يصلي ويبكي حتى أصبح فأعرض جيشا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها فقالت امرأته رحمك الله لو حبست منها شيأ تستعين به فقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لو اطلعت امرأة من نساء اهل الجنة الى الارض لملأت الارض من ريح المسك واني والله ما اخترت عليهن فمكثت (وروى) ان عمر رضي الله عنه استعمل على حمص رجلا يقال له عمير بن سعد فلما مضت السنة كتب اليه ان يقدم عليه فلم يشعر به عمر الا أن قدم ماشيا حافيا معه عكازته وادواته ومزودته وقصعته على ظهره فلما نظر اليه عمر قال يا عمير أنتنتا أم البلاد بدوه فقال يا امير المؤمنين أمانك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن وماترى من سوء الحال وقد جئتك بالدنيا أجرها بقرابها فقال وما معك من الدنيا قال عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا ان لقيته ومزودي احمل فيه طعامي وادواتي هذه احمل فيها طعامي وشرابي وصلاتي وقصعتي هذه أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسي وآكل فيها طعامي فوالله يا امير المؤمنين ما الدنيا بعد الا تبعا لما معي قال فقام عمر من مجلسه الى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر فبكى ثم قال اللهم ألحقني بصاحبي غير مقتض ولا مبدل ثم عاد الى مجلسه ثم قال ما صنعت في عملك يا عمير قال أخذت الرقة من اهل الرقة والابل من أهل الابل وأخذت الجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي منها شيء عندي أتيتك به فقال عمر عد الى عملك فقال عمير انشدك الله ان لا تردني الى عملي فاني لم أسلم منه حتى قلت لذمي اخزاك الله ولقد خشيت أن يخصمني لمحمد صلى الله عليه وسلم ولقد سمعته يقول أنا حجيج المظلوم فما حاجته حجيته ولكن اتذن لي الى أهلي فأذن له فاني أهله فبعث عمر رجلا يقال له خبيب بمائة دينار فقال ائت عميرا فأنزل عليه ثلاثا فان بك خاتنا لم يضف عليك في عيشه وحال أهل بيته وان ليك خاتنا لم يحف عليك فادفع اليه المائة فاتاه خبيب فنزل به ثلاثا فلم يره عيشا الا الشعير والزيت فلما مضت ثلاث قال يا خبيب ان رأيت أن تحول الى جيراننا فاهل ان يكونوا أوسع عيشا منا أما نحن فوالله لو كان

قوله فما حاجته هكذا في النسخة التي بايدينا ولعله فمن أو استعمل ما فيمن يعقل اه

عندنا غير هذا الا ترنالله (قال) فدفع اليه المائة وقال بعث بها اليك أمير المؤمنين فدعا بقرو
خلق لامرأته فنصرها الخمسة والسنة والسبعة فقسمها فقسم نصيب على عمر فقال
يا أمير المؤمنين جئتك من عند أزهد الناس وما عندره من الدنيا الا قليل ولا كثير فبعث اليه
عمر وقال ما صنعت في المائة يا عمير قال لا تسلني عنها قال لتخبرني (قال) قسمتها بيني وبين اخواني
المهاجرين والانصار قال فأصرته بوسق طعام وثوبين قال يا أمير المؤمنين (أما الثوبان)
فأقبل (وأما الوسقان) فلا حاجة لي بهما عند أهلي صاع من برهو كافيهم حتى ارجع اليهم
(وروى) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه صرار بعمائة دينار وقال للغلام اذهب بها الى
عبيدة بن الجراح ثم تلكأ ساعة في البيت حتى ترى ما يصنع فذهب بها الغلام اليه وقال يقول
لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك قال وصله الله ورحمه (ثم قال) تعالي يا جارية
اذهبي بهذه السبعة الى فلان وبهذه الخمسة الى فلان حتى أنفدها ورجع الغلام الى عمر فاخبره
(ووجده) قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال له اذهب بهذه الى معاذ بن جبل وتلكأ في البيت
ساعة حتى تنظر ما يصنع فيها فذهب بها اليه وقال ان أمير المؤمنين يقول لك اجعل هذه في بعض
حاجتك فقال رحمه الله وأوصله (ثم قال) يا جارية اذهبي الى فلان بكذا والى فلان بكذا فقالت
امرأته معاذ ونحن والله مساكين فأعطنا ولم يبق في الخرقة الا دينار ان فرمى بهما اليها فرجع
الغلام فاخبر بذلك عمر فقال عمر انهم اخوة بعضهم من بعض

(الباب الموفي خمسين في سيرة السلطان في تدوين الدواوين وفرض الارزاق وسيرة العمال)

(اعلم) أرشدك الله تعالى ان اول من اتخذ الدواوين واجرى الاعطية على ما روى عمر بن
الخطاب رضي الله عنه وكان يفضل أهل السابقة ثم الذين يلونهم حتى اجرى على العامة شيأ
واحدا ثلثمائة واربعمائة وفرض للعمال مائة درهم في كل سنة (وكان) أبو بكر رضي الله
عنه يساوي بين الناس في العطاء ولا يفضل أهل السابقة ويقول انما عملوا لله فاجورهم على
الله وانما هذا المال عرض حاضر يأكله البر والفاجر وليس ثمنا لاعمالهم (وكان) عمر
يقول لا اجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ولم يقدر عمر الارزاق الا في ولاية عمار فاجرى
على عمار ستمائة درهم مع عطائه لولايته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه في كل شهر لما بعثه
وبعث معه عثمان بن حنيف وابن مسعود الى العراق وأجرى عليه في كل يوم نصف
شاة ورأسها وجلدها وأكارعها ونصف جريب كل يوم وأجرى على عثمان بن حنيف ربع
شاة وخمسة دراهم كل يوم مع عطائه (وكان) عطاؤه خمسة آلاف درهم وأجرى على عبد الله
ابن مسعود مائة درهم في كل شهر وربع شاة في كل يوم وأجرى على شريح القاضي مائة
درهم في كل شهر وعشرة اجربة (وانما) فضل عمار اعليهم لانه كان على الصلاة (قال) مالك
وكان عمر لا يفرض لصغير رضيع فاذا فطم فرض له فمر من الليل وصبي يبكي يبغي الرضاع وأمه
لا ترضعه فقال لها عمر أرضعيه قالت اذا لا يفرض له عمر قال بلى هو يفرض له ثم فرض
عمر بعد ذلك للمولود مائة درهم في كل سنة (قال ابن) حبيبة وفرض عمر للعيالات لكل عيل من
ذكر وأنثى جريبين من برفي كل شهر وقسطين من زيت وقسطا من خل ومائة درهم في كل

سنة (قال) والجريب قفيز بالقرطبي والقسط قدر ثمن ربع الزيت بالقرطبي (قال) الحسن وكان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان على زهاء ثمانين الفا من الناس (وكان) يخطب الناس في عباءة يلبس نصفها ويفترش نصفها فاذا خرج عطاؤه امضاه وكان يسف الخوص ويأكل من سفيف يده (وقال) الحسن قدم على عمر بن الخطاب وفد من البصرة مع أبي موسى الاشعري قال فكنا ندخل عليه وله كل يوم خبزة ثلاث (فربما) وافقناها مأدومة بسمن واحيانا بزيت واحيانا باللبن وربما وافقنا القديد اليابس قد دق ثم أعلى عليه بماء وربما وافقنا اللحم الغريض وهو قليل فقال لهم يوما اني أرى والله تقتيركم وكراهيتكم لطعامي فاني لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وارقكم عيشا اما والله ما اجهل كراكرا ولا سفة وأعرف صلاء وصنانا وصلائق (قال) والصلاء الشواء والصناب الخردل والصلائق الخبز الرقاق ولكني سمعت الله تعالى عير أقواما بما مر فعلوه فقال أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فكلمنا أبو موسى فقال لو كلمتم أمير المؤمنين لفرض لكم من بيت المال طعاما فأكلتموه فكلمناه فقال يا معشر الامراء هل ترضون لانفسكم ما أرضاه لنفسي فقلنا يا أمير المؤمنين ان المدينة ارض العيش بها شديد ولا نرى طعامك يغنينا ولا يؤكل طعامك وانا بارض ذات ريف وان أميرنا يغنينا وان طعامه يؤكل قال فنظر ساعة ثم رفع رأسه فقال قد فرضت لكم من بيت المال شاتين وجريبين فاذا كان بالغداة فضع احدى الشاتين على احدى الجريبين وكل أنت وأصحابك ثم ادع بشراب ثم اسق الذي عن يمينك ثم اسق الذي عن شمالك ثم قم لحاجتك واذا كان العشاء فضع الشاة الغابرة على الجريب الآخر فكل أنت وأصحابك الا أوسعوا الناس في بيوتهم وأطعموا عيالهم والله ما أظن رسنا قابؤ خذ منه كل يوم شاتان وجريبان الا يسرعان في خرابه (وكان عمر) قد أطعم جريبين بالخل والزيت لثلاثين رجلا فكفاهم فأجراه على كل رجل في كل شهر ممن كان في الديوان مكان ما كانت فارس يجريه على خيولهم وأساورهم (وقال) سعيد بن المسيب وأبو سلمة كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا العيال يسلم على أبوابهن ويقول ألكن حاجة وأيكن تريد ان تشتري شيأ فيرسلن معه بحوائجهن ومن ليس عندها شيء اشترى لها من عنده واذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعهن بنفسه في منازلهن يكتب أزواجهن ويقول ازوا جكن في سبيل الله واتتن في بلاد رسول الله ان كان عندكن من يقرأ والا فاقرئن من الابواب حتى أقرأ لكن ثم يقول الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتبن حتى نبعث بكتبكن ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة يقول هذه دواة وقرطاس فادفعن من الابواب حتى أكتب لكن ويمر الى المغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها الى ازواجهن (وقال) الربيع بن زياد الحارثي كنت عاملا لابي موسى الاشعري على البحرين فكتب اليه عمر بن الخطاب يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وان يستخلفوا جميعا فلما قدمت المدينة اتيت برفقة فقلت يا برفا مسترشد وابن سبيل أي الهيئات احب الى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله فأومأ الى الخشونة فاتخذت خفين مطارقين ولبست جبة صوف ولبست عمامتي على رأسي فدخلنا على عمر فصففنا بين يديه فصعد فينا وصوب فلم تأخذ عينه غيري فدعاني فقال من انت قلت الربيع ابن زياد الحارثي (قال) وما تتولى من أعمالنا قلت البحرين قال وكم ترزق قلت الفا قال كثير فا

تضع

تصنع بها قلت اتقوت منها شيأ واعود على أقارب لى فاتفضل عنهم فعلى فقراء المسلمين قال فلا باس ارجع الى موضعك فرجعت الى موضعى من الصف فصعد فينا وصوب فلم تقع عينه الا على فدعانى فقال كم سنك قلت خمس وأربعون سنة قال الآن حين استكملت (ثم دعا) بالطعام وأصحابى حديثو عهد بلين العيش وقد تجوعنا له فاتى بخبز وأعضاء بعير فجعل أصحابى يعافون ذلك وجعلت آكل وجعلت أنظر اليه بلحظ من بينهم ثم سبقت منى كلمة تمنيت انى سخت فى الارض ولم أقلها فقلت يا أمير المؤمنين ان الناس يحتاجون الى سلامتك فلو عمدت الى طعام اليين من هذا فزجرنى ثم قال كيف قلت قلت فقلت يا أمير المؤمنين لو تنظر الى قوتك من الطحين ان يخبز لك قبل ارادتك اياه يوم ويطبخ لك اللحم كذا فتقوتى بالخبز لينا وباللحم غريضا فسكن غيظه ثم قال هاهنا رعت قلت نعم (قال) يا ربيع انا لوشئنا الا نا هذه الرحاب من صلائق وسنايك يعنى خبز الحوارى ولكنى رأيت الله تعالى عاب على قوم شهواتهم فقال اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ثم امر أبا موسى باقرارى على عملى وان يستبدل باصحابى (وقال) قبيصة بن ذؤيب دعا عمر بن الخطاب عبيد الله بن سعد وكان على أهل حمص فقال علام يحبك أهل الشام فانى أحبهم فاحبونى قال مالك قلت عبدى وفرسى وبغلى وخادمى (قال) فماذا تلبس فى الشتاء قلت عصابة اشد بها رأسى وجبة وكساء قال فما تلبس فى الصيف قلت قميصا وريطة فاعطانى عمر الف دينار (وقال) خذها واستنفق منها وأعط منها قلت لا اراب لى فيها وستجد من هو أحوج اليها منى قال خذها فان النبى عليه السلام دفع الى مالا وهو دون الذى أعطيتك فقلت له كما قلت لى فقال يا عمر ما آتاك الله من هذا المال عطاء من غير ان تعرض له أو تشرف له نفسك فاقبله فاخذه فانطلق به الى امرأته فقال أترين رجلا له هذا من فقراء المهاجرين هو امن الاغنياء فقالت بل من الاغنياء فقسمها حتى بقيت منها صرة أظن فيها ثلاثين أو نحو ذلك فقالت له امرأته اليس لى أنا حق فاعطاها اياه (وقال) زياد بن حيوة مينا فحن بخناصرة اذا بامرأة تسأل عن دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فارشدناها الى الدار فرأت دارا مشمسة فقالت نطياط هناك استأذن لى على فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز فقال فادخلى وصوتى بها فانها تأذن لك فدخلت فلما أبصرت ما هنالك قالت جئت ارم فقرى من بيت الفقراء واذا رجل يعمل فى الطين فسألته عن أمير المؤمنين فقالت هو ذلك يعمل فى الطين فقالت له يا أمير المؤمنين مات زوجى وترك ثمان بنات فبكى عمر بكاء شديدا ثم قال لها ما تريدين قالت تفرض لهن قال نفرض للكبرى ما اسمها قالت فلانة فكتبها فقالت الحمد لله قال ما اسم الثانية قالت فلانة فكتبها فقالت الحمد لله حتى كتب السابعة فقالت جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين فطرح القلم من يده وقال لها أما انك لو وليت الحمد أهله لاتممنا هن لك مرى السبع فليواسين هذه الثامنة

* (الباب الحادى والخمسون فى أحكام أهل الذمة) *

(روى) عبد الرحمن بن غنم قال كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا انكم لما قدمتم علينا سألنا كم الامان لانفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ان لا نحدث فى مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة

راهب ولا تجدد ما خرب منها ولا ما كان يختطها منها فى خطط المسلمين فى ليل ولا نهار وان نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وان تنزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسا ولا نكتم غشا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركنا ولا ندعو اليه أحدا ولا نمنع أحدا من ذوى قرابتنا الدخول فى الاسلام ان اراده وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم فى شئ من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب بالسروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيأ من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وان نجز مقادم رؤسنا ونلزم زينا حيثما كنا وان نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلبانا وكتبنا فى شئ من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا الا ضربا خفيفا ولا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شئ من حضرة المسلمين ولا نخرج شعانيننا ولا باعوثنا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران فى شئ من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع على منازلهم (فلما أتيت) عمر رضى الله عنه بالكتاب زاد فيه ولا نضرب احدا من المسلمين شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا فى شئ مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق فكتب اليه عمر رضى الله عنه ان أمض ما سألوه وألحق فيه حرفين اشترطتهم عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم ان لا يشتروا شيأ من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده (وروى) نافع عن سالم مولى عمر بن الخطاب ان عمر كتب الى أهل الشام فى النصارى أن يقطع ركبهم وان يركبوا على الاكف وان يركبوا فى شق وان يلبسوا خلاف زى المسلمين ليعرفوا (وروى) ان بنى تغلب دخلوا على عمر بن عبد العزيز فقالوا يا أمير المؤمنين انا قوم من العرب افرض لنا قال نصارى قالوا نصارى قال ادعوا الى حجاما ففعلوا فجز نواصيهم وشق من أردبيتهم حزما يحتزمونها وأمرهم ان لا يركبوا السروج ويركبوا الاكف من شق واحد (وروى) ان أمير المؤمنين المتوكل اقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم واذلهم وأقصاهم وخالف بين زيهم وزى المسلمين وجعل على أبوابهم مثال الشياطين لانهم أهل ذلك وقرب منه أهل الحق وباعد عنه أهل الباطل والاهواء فاحيا الله به الحق وأمات به الباطل فهو يذكر بذلك ويترحم عليه مادامت الدنيا (وكان) عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لا تستعملوا اليهود والنصارى فانهم أهل رشا فى دينهم ولا تحل فى دين الله الرشا ولما استقدم عمر بن الخطاب أبا موسى الاشعرى من البصرة وكان عاملا عليها للحساب دخل على عمر وهو فى المسجد فاستأذن لكاتبه وكان نصرانيا فقال له عمر قاتلك الله وضرب يده على فخذه وليت ذميا على المسلمين أما سمعت الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ألا اتخذت حنيفا فقال يا أمير المؤمنين لى كتابته وله دينه فقال لا أكرمهم اذ أهانهم الله ولا أعزهم اذ أذلهم الله ولا أدنيهم اذ اقصاهم الله وكتب بعض العمال الى عمر بن الخطاب ان العدد قد كثر

وان الجزية قد كثرت فاستعين بالاعاجم فكتب اليه عمر انهم اعداء الله وانهم لنا غشية فأنزلوهم حيث أنزلهم الله ولا ترد والهم شيئا وقال عمران بن أسد أتانا كتاب عمر بن عبد العزيز الى محمد بن المنتشر أما بعد فانه بلغني ان في عملك رجلا يقال له حسان بن برزى على غير دين الاسلام والله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين واذا أتاك كتابي هذا فادع حسان الى الاسلام فان أسلم فهو منا ونحن منه وان أبى فلا تستعين به ولا تأخذ من غير أهل الاسلام على شئ من أعمال المسلمين فقرأ الكتاب عليه فاسلم (ولما) خرج النبي عليه السلام الى بدر تبعه رجل من المشركين فلحقه عند الحرة فقال انى أريد أن أتبعك وأصيب معك قال تؤمن بالله ورسوله قال لا قال ارجع فلن أستعين بمشرك ثم لحقه عند الشجرة ففرح به أصحاب النبي عليه السلام وكانت له قوة وجلد فقال جئتك لاتبعك وأصيب معك قال تؤمن بالله ورسوله قال لا قال ارجع فلن أستعين بمشرك ثم لحقه على ظهر البيداء فقال له مثل ذلك قال تؤمن بالله ورسوله قال نعم فخرج به وهذا أصل عظيم في ان لا يستعان بكافر هذا وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي عليه السلام ويراق دمه فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين وكتب عمر بن عبد العزيز الى عماله ان لا تولوا على أعمالنا الا أهل القرآن فكتبوا اليه انا لم نجد فاقيهم خيانة فكتب اليهم ان لم يكن في أهل القرآن خير فأجدر أن لا يكون في غيرهم خير

* (فصل) * ومتى نقض الذمي العهد بمخالفته لشئ من الشروط المأخوذة عليه لم يرد الى مأمنه والامام فيه بالخيار بين القتل والاسترقاق وقال أصحاب الشافعي ويلزمهم ان يمتنعوا عن المسلمين في النياس وان لبسوا قلانس ميزوها عن قلانس المسلمين بالخرق ويشدون الزنانير في أوساطهم ويكون في رقابهم خاتم من رصاص أو نحاس أو يجرس يدخل معهم الحمام وليس لهم ان يلبسوا العمائم والطيلسان وأما المرأة فتشد الزنار تحت الازار وقيل فوق الازار وهو الاولى ويكون في عنقها خاتم يدخل معها الحمام ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض ولا يركبون الخيل ويركبون البغال والحمير بالاكف عرضا ولا يركبون بالسروج ولا يتصدرون في المجالس ولا يبدؤن بالسلام ويلجؤن الى أضيق الطريق ويمنعون ان يعلوا على المسلمين في البناء ويجوز المساواة وقيل لا يجوز بل يمنعون وان تملكوا دارا عالية أقروا عليها ويمنعون من اظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والانجيل ويمنعون من المقام في الحجاز وهي مكة والمدينة واليمامة ويجعل الامام على كل طائفة منهم رجلا يكتب أسماءهم وحلاهم ويستوفي جميع ما يؤخذون به من جميع الشروط وان امتنعوا من اداء الجزية والتزام أحكام الملة انتقض عهدهم وان زنى أحدهم بمسلمة أو أصابها بنكاح أو آوى عينا للكفار أو دل على عورة للمسلمين أو فتن مسلما عن دينه أو قتله أو قطع عليه الطريق أو ذكر الله ورسوله بما لا يجوز قيل ينتقض وان فعل ما يمنع منه مما لا ضرر فيه كترك الغيار واظهار الخمر وما أشبهها عزر عليه ومتى فعل ما يوجب نقض العهد رد الى مأمنه في أحد القولين وقتل في الحين في القول الآخر

*(فصل) في تقدير الجزية اختلاف بين العلماء فقيل انها مقدرة الاقل والاكثر على ما كتب به عمر الى عثمان بن حنيف بالكوفة فوقع على الغني ثمانية وأربعون درهما وعلى من دونه أربعة وعشرون درهما وعلى من دونه اثنا عشر درهما وهذا مذهب أبي حنيفة وابن حنبل واحد قولي الشافعي وجعلوه كأنه حكم امام فلا ينقض وقيل انها مقدرة الاقل دون الاكثر فيجوز للامام ان يزيد على ما قدره عمر ولا يجوز ان ينقص عنه وقال بعضهم يجوز ان يساوي بينهم من كل واحد دينار وقال مالك يؤخذ من الموسر اربعون درهما ومن الفقير دينار وعشرة دراهم ويتخرج على مذهب مالك في وجوب تقديرطرفيها قولان بناء على العشر المأخوذ منهم هل هو تقدير شرعي لا تجوز نفسه الزيادة والنقصان وعن مالك نفسه روايتان ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين وكتب عمر بن عبد العزيز الى عبد الحميد بن عبد الرحمن سلام عليك أما بعد فان أهل الكوفة قد أصابهم بلاء شديد وجوروعس العمال وستن سيفة سنها عليهم عمال السوء فاحوز عليهم أرضهم ولا تحملن خرابا على عامر ولا عامرا على خراب ولا تأخذ من الخراب الا ما يطيقون ولا من العامر الا وظيفة الخراج الاوزن سبعة ليس لها أس ولا أجور الضرابين ولا اداة الفضة ولا هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن المصحف ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح ولا خراج على من أسلم من أهل الارض والواجب أن يؤخذ باضر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو من كل جريب كرم عشرة دراهم ومن كل جريب نخل ثمانية دراهم ومن كل جريب حنطة أربعة دراهم ومن كل جريب شعير درهمان

*(فصل) وأما الكنائس فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تهدم كل كنيسة لم تكن قبل الاسلام ومنع أن تحدث كنيسة وأمر ان لا تظهر علية خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين وشدد في ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر ان لا يترك في دار الاسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة وهكذا قال الحسن البصري قال من السنة ان تهدم الكنائس التي في الامصار القديمة والحديثة ويمنع أهل الذمة من بناء ما خرب قال الاصطخري ان طمنوا ظاهر الحائط منعوا وان طمنوا داخله الذي يليهم لم يمنعوا ويمنعون ان يعلوا على المسلمين في البناء وتجوز المساواة وقيل لا تجوز

قوله الاوزن الخ كذا بالاصل اه

(الباب الثاني والخمسون في بيان الصفات المعتبرة في الولاة)

اعلم أرشدك الله تعالى ان منزلة العمال من الوالي منزلة السلاح من المقاتل فاجتهد جهدك في ابتغاء صالح العمال واذا فقد الوالي عمال الصدق كان كفاقد المقاتل السلاح يوم الحرب ويحتاج الى طبقات الرجال كما يحتاج الحرب الى اصناف العدة فمنها الدرق للاسنحنان والسيف للمجاورة والرمح للمطاعنة والسهم للمباعدة والدرع للتحصن ولكل منها موضع ليس للآخر والرجال للملك كالادوات للصانع لا يستغني بعضها عن بعض كذلك طبقات الرجال للملك منهم الرأي والمشورة ومنهم لادارة الحرب ومنهم لمباشرة الحرب ومنهم لجمع الاموال ومنهم لحفظها ومنهم للحماية ومنهم للكتابة ومنهم للجمال والفخر ومنهم للمباهاة والذكر

ومنهم للدعاء والوقار ومنهم للعلم والفتيا وحفظ أساس الملة فلا يكمل للملك ملك مالم يجمع هذه الطبقات وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لما مات كسرى بلغ موته رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من استخلفوا قالوا ابنته بوران قال لن يفلح قوم استندوا أمرهم الى امرأة وقال ابن عباس لما كانت فتنة الحرة قيل من استعمل القوم قالوا عبد الله بن مطيع على قريش وعبد الله بن حنظلة الراهب على الانصار قال أمير ان هلك والله القوم وليس يشترط الا فى الامامة العظمى دون سائر الولايات (ولما) استحضر هشام بن عبد الملك زيد بن على بن الحسين وكان من الخطباء قال له هشام بلغنى انك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لانك ابن أمة قال زيد فقد كان اسمعيل بن ابراهيم بن أمة واسحق بن حرة ومحمد عليه السلام من ولد اسمعيل ثم اتهمه فى أمر فقال له زيد أما أحلف لك قال هشام ومن يصدقك قال زيد انه ليس أحد فوق ان يأمر بتقوى الله ولا أحد دون ان يؤمر بتقوى الله وقال بعض الخلفاء دلونى على رجل أستعمله على أمر قد أهمنى قالوا وكيف تريده قال اذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم واذا كان فى القوم وهو اميرهم كان كأنه رجل منهم قالوا ما نعلمه الا الربيع بن زياد الحارثى قال صدقتم هو لها ويروى ان عمر بن عبد العزيز استشار فى قوم يستعملهم فقال له بعض أصحابه عليك باهل العدل قال ومن هم قال الذين ان عدلوا فهو ما رجوت وان قصروا قال الناس اجتهد عمر (ولما) قدم البريد من بشر بن مروان على عبد الملك بن مروان سأله عن بشر قال يا أمير المؤمنين هو الشديد فى غير عنف اللين فى غير ضعف فقال عبد الملك ذاك الاعسر الاجود الذى كان يأمن عنده البرىء ويخاف لديه السقيم ويعاقب على قدر الذنب ويعرف موضع العفو الشديد فى غير عنف اللين فى غير ضعف عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال الحكيم اعتبر الرجال بأفعالهم لا بعظم اجسامهم فان النسر مع عظمه لا يأكل الا ميتا وطير الماء مع ضعفه يتحامى ميت السمك ويأكل الحى منها (وفى) حكم الهند السلطان الحازم ربما أحب الرجل فأقصاه واطرحه مخافة ضره كالمسوع يقطع اصبعه لئلا ينتشر السم فى جسمه وربما أبغض الرجل فاكرمه نفسه على توليته وتقريبه لغنائه يجده عنده كتكاره المرء على الدواء البشع لنفعه الا ان للاسلام شروطا فلا تستقيم هذه السيرة عليها الا ترى ان على ابن أبى طالب رضى الله عنه لما افضت الخلافة اليه كان معاوية والياعلى الشام من قبل عمر ثم عثمان فاستشار فى أمره فقال له بعضهم اقره على امرته وأرسل اليه بعهده فاذا دخل فى بيعتك فاعزله فقال له رحمك الله أتأمرنى أن أطلب العدل بالجور ثم عزله فكان سبب عصيانه وهكذا أشاروا عليه فقالوا يا أمير المؤمنين لو فضلت هؤلاء الاشراف ومن تخوف منهم وانما الناس أصحاب دنيا حتى اذا استوثق الامر عدت الى التسوية فقال أتامرونى أن أطلب العدل بالجور فمن وليت عليه والله لولا كان مالى لسويت بينهم ولم أفضل بعضهم على بعض فكيف والمال لهم واعطاء المال فى غير حقه تبذير وسرف وهو يرفع ذكر صاحبه فى الدنيا ويضعه عند الله فى الآخرة ولن يضع امرؤ ماله فى غير حقه وعند غير أهله الا حرمه الله تعالى شكرهم ويصير لغيره ودهم فان بقى معه منهم من يظهر له الود والشكر فذلك ملق وخديعة لينال منه فان زلت به النعل يوما ما فاحتاج الى معونته وكافأته ما سلف من مبرته فشر خليل

والام خير وايالك أيها الوالي وحب المدح فان من أحب المدح عد كن مدح نفسه واذا علم ذلك منك جعله الناس سلما لقضاء حوائجهم منك فحينئذ يكون قضاء الحوائج لنفسك لالهم وقال النبي عليه السلام احثوا في وجوه المداحين التراب وسمع المقداد رجلا يمدح عثمان ابن عفان فأخذ كفا من تراب فألقاه في وجهه وسمع النبي عليه السلام رجلا يمدح رجلا فقال قطعت ظهر أخيك لو سمعها ما أفلح بعدها ووصف اعرابي أميرا فقال كان اذا ولي لم يطابق بين جفونه وأرسل العيون على عيونه فهو غائب عنهم شاهد معهم فالمحسن راج والمسيء خائف وقال عبد الله بن الزبير يرمالا يبعد ابن هند ان كانت فيه خوارج ما نجدها في أحد بعده أبدا والله ان كنا لنعرفه وما الليث الحرب على براثنه باجرأ منه فيتفارق لنا وان كنا لنخدعه وما ابن ليلة من الارض يأدهى منه والله لوددت أنا متعنا به مادام في هذا الجرو وأشار الى أبي قبيس لا يخون له عقل ولا ينتقص له قوة وقال الصنابحي كتب عمر بن الخطاب الى ابي عبيدة كابا في مثل اذن الفارة أما بعد فانه لا يقيم امر الله في الناس الا حصيف العقدة بعيد الغرة لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحيق في الحق على الجرة ولا يخاف في الله لومة لائم (وقال) مالك جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسأله ان يكتب له كابا في أمر فقال اذهب الى منزلنا فأتني بدواة وقرطاس فذهب فلم يجد فقال اطلب عندهم شيئا فذهب فلم يجد عندهم الا اذن مزبوغ فكتب له في تلك الاذن (ولما) ولى المأمون يحيى بن أكثم قضاء البصرة بعد ان استعجن عقله وعلمه وامتحنه بمسائل فوجده فوق ما يريد فتلقاه وجوه البصرة فرأوا شابا صبيا ما بقلت لحيته فتعجبوا ونظر بعضهم الى بعض يقلبون الاكف ويغمزون الحواجب فقال له بعضهم كم سن القاضي أصلحه الله قال مثل سن عتاب ابن أسيد لما ولاه النبي عليه السلام مكة فهابوه لحدة جوابه وعرفوا فضله وكان لعتاب بن اسيد احدى وعشرون سنة لما ولي مكة وكان عمر يقول لا يصلح ان يلي أمور الناس الا حصيف العقل وافر العلم قليل الغرة بعيد الهمة شديد في غير عنف لين في غير ضعف جواد في غير سرف لا يخاف في الله لومة لائم وقال أيضا ينبغي ان يكون في الوالي من الشدة ما يكون ضرب الرقاب عنده في الحق كقتل عصفور ويكون فيه من الرقة والحنو والرأفة والرحمة ما يجزع من قتل عصفور بغير حق (ويروى) ان الرشيد أحضر رجلا ليوليه القضاء فقال له انى لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه فقال له الرشيد فيك ثلاث خلال للشرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة ولك حلم يمنعك من العجلة ومن لم يعجل قل خطؤه وأنت رجل تشاور في أمرك ومن شاور كثر صوابه وأما الفقه فنضم اليك من تتفقه به فولى قاضيا وجد وافيه مطعنا وقال اياس بن معاوية استحضرني عمر بن هبيرة فحضرت فسا كتني فسكت فلما أطلت قال ايه قلت سل عما يعلمك قال أتقرأ القرآن قلت نعم قال فهل تفرض الفرائض قلت نعم قال فهل تعرف من أيام العرب شيأ قلت أنا بها أعلم قال فهل تعرف من أيام العجم شيأ قلت أنا بها أعلم قال انى أريد أن أستعين بك قلت ان ثلاثا لا أصلح معهن للعمل قال ما هن قلت أنادمهم كما ترى وأناحديد وأنا عي قال أما الدمامة فاني لا أريد ان أحاسن بك وأما العي فاني أرا لك تعرب عن نفسك وأما سوء الخلق فيقوم لك السوط فولاني وأعطاني ألف درهم فهو أول ما تولاته وقال سليمان بن داود

عليهما السلام مما لاقاه ابوه سلمت أشبالها باصعب من لقاء جاهل راض عن نفسه

* (الباب الثالث والخمسون في بيان الشروط والعهود التي تؤخذ على العمال) *

اعلم أرشدك الله انه يجب أن يولى على الاعمال اهل الحزم والكفاية والصدق والامانة وتكون التولية للغناء لا للهوى وملاك الولايات وأساسها أن لا يولى الاعمال طالب لها ولا راغب فيها * روى البخاري في صحيحه عن أبي موسى الاشعري قال اتيت النبي صلى الله عليه وسلم ومعي رجل فقال سلمنا عليه قال صاحبي يارسول الله استعملني فقال عليه السلام انا لا نستعمل على عملنا من أراده فقلت يارسول الله والذي بعثك بالحق ما عرفت الذي في نفسه (وقد روى) عن بزرجمهر وقد قيل له مابال ملك آل ساسان صار أمره الى ماصار اليه قال لانهم قلدوا اكابر الاعمال صغار الرجال والله درعمرو بن العاصي حيث قال موت ألف من العيلة أقل ضررا من ارتفاع واحد من السفلة * وقال العلامن أيوب غضب المأمون على بعض أصحابه غضبا شديدا ثم قال له لا أماتك الله او يبلغك دولة السفل وقال رجل من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لرجل قد آذاه ادركك امرة الصبيان وقال المستوغر الاكبر وكان قد عمر في الجاهلية ثلثمائة سنة

وما سقطت يوما من الدهر أمة * الى الذل الا أن يسود ذميمها
اذا ساد فينا بعد ذل لئيمنا * تصدى لنا ذل وقد أديمها
وما قادها للخير الا مجرب * عليم باقبال الامور كريمها
وما كل ذي لب يعاش بفضله * ولكن لتدبير الامور حكيمها

واعلموا ان معظم مايدخل على الدول من الفساد من تقليد الاعمال أهل الحرص عليها لانه لا يحظيها الا لص في ثوب ناسك وذئب في مسلاخ عابد حريص على جمع الدنيا نابذ لدينه ومروءته دليل على الخيانة يتخذون عباد الله خولا وأموالهم دولا واذا اهتضمت حقوق المسلمين واكلت أموالهم فسدت نياتهم وقلت طاعاتهم فانتقضت الامور ودب الفساد الى الممالك وقد ذكرنا في أول الكتاب الاثار في كراهية الولايات (وقال المأمون) ما فتق على قط فتق في مملكتي الا وجدت سببه جور العمال (فان قيل) فما معنى قول يوسف عليه السلام للملك اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم (قلنا) يوسف كان نبيا من أنبياء الله تعالى واثقا من نفسه بالكفاية والامانة بين يدي من لا يتحقق باطن أسراره ولا يعلم خصائص نفسه وفضائله ويرى الامور والاعمال والولايات في أيدي من ليسوا أهلا لها ويجوز مثل هذا اليوم لمن حصل بين يدي جبار لا يعلم منزلته ولا ما عنده من الخصال والفضائل أن يذكر بعض مايعلم من نفسه ليعلم قدره فيسلم بذلك من شره وعن هذا قال بعض أصحاب الشافعي اذا كان القضاء في يد من لا يصلح له وجب أن يحظيه من يصلح له وكان ذلك فرضا عليه وفقها الامصار على خلاف هذا الرأي ويحتمل أن يكون يوسف عليه السلام قد أوحى اليه بما يصير أمره اليه من الملك والعدل ونشر كلمة الاسلام فلهذا نبه على نفسه * ومن عجيب ما يروى في هذا الباب ان لقمان الحكيم كان عبدا أسود حبشيا غليظ الشفتين مصفح القدمين لامرأة من بني الحسحاس وكان جليسا لداود عليه السلام فأتاه جبريل عليه السلام بالنبوة من عند الله الذي يصطفي لنبوته من يشاء فقال لقمان

يا جبريل ان امرني ربي فسمع وطاعة وان خيرني اخترت الحكمة فرضي الله تعالى قوله فأعطاه الحكمة وصرف عنه الرسالة الى داود عليه السلام فكان داود يقول طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة وأوقي داود البلية * وروي أنه جالس داود عليه السلام وداود يعمل الدروع فأقام حولا يصر صنعة الدرع ولا يعلم ما يصلح له ولا يسأله عن ذلك فلما تم حول لبس داود الدرع وقال درع حصينة ليوم حرب فقال لقمان الصمت حكمة وقليل فاعله * وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا بعث عاملا اشترط عليه أن لا يركب البراذين ولا يلبس الرقيق ولا يأكل النقي ولا يتخذ حاجبا ولا يغلق بابا عن حوائج الناس وما يصلحهم ويقول له اني لا أستعملك على أبشارهم ولا أعراضهم ولا أموالهم وانما استعملتك لتصلي بهم وتقضي بينهم بالعدل (وروي) عباية بن رفاعة قال بلغ عمر بن الخطاب ان سعد بن أبي وقاص اتخذ قصرا وجعل عليه بابا وقال انقطع الصوت فأرسل عمر محمد بن مسلمة وكان عمر اذا أحب أن يوقع بالامر كما هو عليه بعثه فقال له ائت سعدا فأحرق عليه بابه فقدم الكوفة فلما أتى الباب اخرج زنده واستورى نارا ثم احرق الباب فأتى سعدا الخبر ووصف له بصفته فعرفه فخرج اليه سعد فقال له محمد انه قد بلغ أمير المؤمنين انك قلت انقطع الصوت فخاف سعد بالله ما قال ذلك فقال له محمد نفعل الذي أمرنا به ونؤدي عنك ما تقول ثم ركب راحلته فلما كان ببطن البرية أصابه من الحمى والجوع ما الله به أعلم فابصر غنما فأرسل غلامه بعمامته فقال اذهب فابتع منهم شاة فجاء الغلام بالشاة وهو يصلي فاراد ذبحها فاشار اليه أن كف فلما قضى صلاته قال انظروا ان كانت علوكة مسيمة فاردد الشاة وخذ العمامة وان كانت حرة فاذبح الشاة فذهب فاذا هي مملوكة فرد الشاة وأخذ العمامة فاخذ بخطام ناقته فجعل لا يمر بقلة الا اخطفها حتى آواه الليل الى قوم فأتوه بخبز ولبن وقالوا لو كان عندنا شئ غير هذا أتيناك به فقال بسم الله كل حلال أذهب الله بخير من مأكل السوء حتى قدم المدينة فنزل باهله فابتدر من الماء ثم راح فلما أبصره عمر رضي الله عنه قال له لولا حسن الظن بك ما رأينا أنك أديت وذكروا أنه أسرع السير فقال قد فعلت وهو يعتذر ويحلف بالله ما قال فقال عمر هل آمر لك بشئ قال ما رأيت مكانا أن تأمر لي فقال عمر ان أرض العراق أرض رفيقة وان أهل المدينة يموتون حولي من الجوع فخشيت أن آمر لك بشئ يكون لك بارده ولي الحار * وروى زيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل مولى له يدعى هنيا على الحمى فقال اخفض جناحك عن المسلمين واتق دعوة المظلوم فان دعوة المظلوم مستجابة وأدخل رب الصريمة والغنيمة وايالك ونعم ابن عوف ونعم بن عفان فانهما ان تهلك ماشيتهما يأتيني بنوه فيقول يا أمير المؤمنين افتقارهم انا لا أبالك فالماء والكلأ أيسر علي من الذهب والورق وايم الله انهم ليرون اني قد ظلمتهم انها لبلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الاسلام والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبرا (ومر) وما ببناء بيني بحجارة وجص فقال لمن هذا فذكروا له أنه لعامل من عماله على البحرين فقال أبت الدراهم أن لا تخرج اعناقها وقاسمه ماله (وكان) يقول لي على كل خائن أمينان الماء والطين * وكان أبو شروان يكتب على عهد العمال سمن خيارا لناس بالمحبة

وامزج للعامة الرغبة بالرهبة وسس سفلة الناس بالاخافة (وقال) سليمان بن داود عليهما السلام كما يصلح المهمز للفرس والرسن للحمار كذلك يصلح القضيب اظهر الجهال * وفي الامثال من لم يصلح باللين أصلح بالتلبين * وقال هلال بن ساف استعمل النبي صلى الله عليه وسلم المقداد على سرية فلما رجع قال له النبي صلى الله عليه وسلم كيف رأيت الامارة أبا مغيرة قال خرجت يارسول الله وما أرى ان لي فضلا على أحد من القوم فما رجعت الا وكأنهم عبيد لي قال وكذلك الامارة أبا مغيرة الامن وقاه الله شرها قال والذي بعثك بالحق لا أعمل على عمل أبدا (وقيل) لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يمنعك ان تمشي العمل في الافاضل من اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال هم أجل من أن أدنسهم بالعمل * وقال ابرهيم النخعي كان عمر اذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم هل يدخل عليه الضعيف وهل يعود المريض فان قالوا نعم حمد الله تعالى وان قالوا لا كتب اليه ان أقبل * ومثل السلطان اذا ولى العمال الظالمين مثل من يسترعي غنمه الذئاب ومثل من يربط الكلب العقور بيابه وان العامة لتشتم الحجاج بن يوسف والخاصة تلوم عبد الملك بن مروان لانه الذي استرعاه الرعية وقد قيل

ومن يربط الكلب العقور ببابه * فمقر جميع الناس من رابط الكلب

وكان العلاء بن أبي بردة لما ولى فارس من قبل المأمون يكتب عهد العمال فيقرؤه على من يحضره من أهل ذلك العمل و يقول أنتم عيوني عليه فاستوفوه منه ومن تظلم الي منه فعلي انصافه ونفقته جائيا وراجعا ويأمر العمال ان يقرؤا عهده على أهل عمله في كل جمعة و يقول لهم هل استوفيتم

(الباب الرابع والخمسون في هدايا العمال والرشا على الشفاعات)

روى أبو داود في السنن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من شفع لاخيه شفاعة فاهدى له هدية عليها فقبلها فقد أتى بابا عظيما من أبواب الربا والسر فيه أنك اذا قدرت على قضاء حاجة من عند السلطان الظالم أو اليد القاهرة صار ذلك واجبا عليك * وروى البخاري في صحيحه ان النبي صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا يقال له ابن اللتبية فلما جاء قال يارسول الله هذا لكم وهذا لي قال فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال مابال الرجل نستعمله على عمل من أعمالنا فيقول هذا لكم وهذا لي أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فينظر هل يهدى له * قال مالك وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشاطر العمال فيأخذ نصف اموالهم وشاطر ابا هريرة وقال له من اين لك هذا المال فقال ابو هريرة دواب تناتجت وتجارات تداولت فقال اذا الشطر وانما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم * وروى مالك عن ابن عمر انه اشترى هو وعبيد الله أخوه بلادا فبعثا بها الى الحمى فربحت فقال عمر ربحتما في الحمى فشاطرهما وشاطر سعد بن ابي وقاص حين قدم من الكوفة كله ورأى أن ما أصاب العامل من غير رشوة وان كان حلالا فلا يستحق ذلك لان له بالامرة قوة على أن ينال من الحلال مالا يناله غيره فجعله كالضارب للمسلمين ولما دفع ابو موسى الاشعري مال الامن بيت المال لعبد الله وعبيد الله ابني عمر بن الخطاب بالبصرة

اشتريا منه بضاعة فربحت بالمدينة فأراد عمران يأخذ جميع الربح فراجعه عبيد الله فحكم بينهم بنصف الربح فأخذ اجميعا نصف الربح واخذ عمر النصف لبيت المال (وكتب) عمر بن عبد العزيز الى عماله أما بعد فانما هلك من كان قبلكم بمنعهم الحق حتى يشتري وبسطهم الباطل حتى يفتدى الملك بالدين يقوى والدين بالملك يبقى (وكان) عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمر اذا قدم عليه العمال ان يدخلوا نهارا ولا يدخلوا ليلا كى لا يحجبوا شيأ من الاموال * وقال عتاب بن اسيد والله ما أصبت فى عملى الذى ولانى النبى صلى الله عليه وسلم الا ثوبين معقدين كسوتهما مولاى كيسان * وروى ان علبارضى الله عنه استعمل أبا سعود الانصارى على السواد فرجع الى داره وقد امتلأت فقال ما هؤلاء قالوا كذلك يصنعون بالرجل اذا استعمل قال كل هؤلاء يريدون أن يأكلوا فى أماناتى ويروى فى امارتى فرجع الى على وقال لا حاجة لى فى العمل وقد ذكرنا ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا عبد الرحمن بن سمرة ليستعمله فقال يا رسول الله اخترلى قال اقعد فى بيتك * وفى الامثال ان الهدية تعمى وتصم وقال بعض الحكماء الرشوة رشاء الحاجة وأنشد بعضهم

اذا أتت الهدية دار قوم * تطايرت الامانة من كواها

(ولبعضهم)

ان الهدية حلوة * كالسحر تجتلب القلوبا
تدنى البعيد من الهوى * حتى تصيره قريبا
وترد مضطغن العدا * وة بعد جفوته حبيبا

(ومما قلته فى الرشوة)

وأكرم من يدق الباب شخص * ثقيل الحمل مشغول اليدين
ينوء اذا مشى نفسا وفخا * وينطح بابه بالركبتين
واكرم شافع يمشى عليها * ابو المنقوش فوق الصفحتين

(وقلت ايضا)

اذا كنت فى حاجة مرسلا * وأنت بانجازها مغرم
فأرسل بأكمه خلابة * به صمم أغطش ابكم
ودع عنك كل رسول سوى * رسول يقال له الدرهم

(وكتب) عبد الملك بن مروان الى قاضيه الحرث بن عامر وقد ارتشى بكرمه

اذا رشوة من باب بيت تقحمت * لتسكن فيه والامانة فيه
سعت هربا منه وولت كأنها * حليم تولى عن جواب سفيه

(الباب الخامس والخمسون فى معرفة حسن الخلق)

اعلموا ارشدكم الله تعالى ان هذا الباب مما غلط الخلق فيه وقلبوا القوس ركوة وعمدوا الى اخلاق العامة وخلائق الغوغاء والادنياء ومايجرى بينهم اذا تلاقوا وتعاشروا من الافراط فى مدح بعضهم بعضا وتعاطيهم الكذب والتصنع والملق والمراآة والمعاريض

عن الامور المكنونة التي يسوء اظهارها والانخراط في سلك المزاح والمهاترة فهذا وما اشبهه عندهم من حسن الخلق وهو عندنا نقض ما نص الله عليه ورسوله من حسن الخلق فأول ذلك ان تعلم أنه لم تختم الارض على بشر أحسن خلقا من محمد صلى الله عليه وسلم فكل من تخلق باخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قاربها أو بعضها كان أحسن الناس خلقا وكل خلق ليس يعد من اخلاقه صلى الله عليه وسلم فليس من حسن الخلق وهذا فصل الخطاب في هذا الباب لمن عقل وانما آوتي الناس في هذا الباب لانهم استحسنوا الاخلاق العامية واستحسنوا الاخلاق النبوية لجهلهم باخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم وها انا أتلو عليك من اخلاق الانبياء والمرسلين والاولياء والاصفياء والعلماء والصالحين ما ترجوان يتقعنا الله وايالك به قال الله تعالى لنبيه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم وانك لعلى خلق عظيم فخص الله نبيه من كريم الطباع ومحاسن الاخلاق من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بعالم يؤته غيره مما أثنى الله تعالى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق فقال وانك لعلى خلق عظيم وعن هذا قال الشيوخ ان الله سبحانه دعا الخلق الى حسن الخلق ودعا نبيه عليه السلام من حسن الخلق (قال عبيد الله بن عمير) قلت لعائشة أم المؤمنين صفي لي خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لي أما تقرأ القرآن كان خلقه القرآن وحسبك بهذا القول منقبة للرسول صلى الله عليه وسلم وتعريفا لك بحسن الخلق فاذا كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم القرآن فالقرآن يجمع كل فضيلة ويحث عليها وينهى عن كل نقيصة ورذيلة ويوضحها ويبينها ولذلك لما أنزل الله تعالى خذ العفو وأمر بالمعرف واعرض عن الجاهلين قال النبي صلى الله عليه وسلم ماهذا يا جبريل قال ان الله تعالى يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عن ظلمك فهذا من حسن الخلق كما ترى فانظر ابن اخلاق العامة من هذا النمط وان أحدهم يقطع من وصله ويحرم من اعطاه ويظلم من سالمه ويغضب على من اتهمه وانما اقتصر على هذه الكلمات لانها أصول الفضائل وينبوع المناقب لان في اخذ العفو صلة القاطع والصفح عن الظالم واعطاء المانع وفي الامر بالمعروف تقوى الله وصلة الرحم وصون اللسان وغض الطرف عن المحرمات وفي تقوى الله يدخل جميع آداب الشرع فرضها ونفلها وفي الاعراض عن الجاهلين الصفح والحلم وفتوة النفس عن مماراة السفيه ومجاراة اللجوج فهذه الاصول الثلاث تتضمن محاسن الشرع نصا وتنبيها وضمنا واعتبارا (وروى) أنس قيل يارسول الله اى المؤمنين افضل قال احسنهم خلقا (وروى) ابو داود في السنن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق اقتضى الحديث ان كل نبي مبعوث الى امة انما بعث ليعلم الخلق حسن الخلق وان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بعث ليتمم مكارم الاخلاق فاذن حسن الخلق امتثال الشرائع باسرها (وروى) البخاري عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشا ولا متفحشا قال وان من أحبكم الى احسنكم أخلاقا وكان النبي صلى الله عليه وسلم في بعض اسفاره وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية فجذبه اعرابي جبذة شديدة حتى أثرت حاشية الرداء في عنقه وقال يامحمد مرلي من مال الله الذي آتاك فلست تأمرلي بمالك ولا بمال أبيك فالتفت اليه النبي صلى الله

عليه وسلم وقال مروالله ولم يكلمه بشئ (وروى) معاذ بن جبل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له حسن خلقك للناس يامعاذ بن جبل * واعلموا أن الخلق الحسن أفضل مناقب العبد وبه يظهر حواهر الرجال والانعان مستور بخلقه مشهور بخلقه ألا ترى ان الله تعالى خص نبيه صلى الله عليه وسلم بما خصه به من الفضائل ثم لم يثن عليه بشئ من خصاله بمثل ما اثنى عليه بخلقه * وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى وانك لعلى خلق عظيم قال لا تخاصم ولا تخاصم من شدة معرفتك بالله تعالى وقيل لم يؤثر فيك جفاء الخلق بعد معرفتك بالحق وقال المحاسبى كظم الغيظ واظهار الطلاقة والبشر الا المبتدع أو فاجر الا أن يكون فاجرا اذا انبسطت استحييا والعفو عن الزلين الا ياديب أو اقامة حد وكف الاذى عن كل مسلم ومعاهد الا لتغيير منكر أو أخذ مظلمة لظلوم فهذا حسن الخلق وقيل حسن الخلق ان لا تتغير ممن يقف فى الصف بجنبك (وقيل) للاحنف ممن تعلمت حسن الخلق قال من قيس بن عاصم المنقرى قال بينما هو ذات يوم جالس فى داره اذ جاءته خادم له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له فمات فدهشت الجارية فقال لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى * وكان ابن عمر اذا رأى واحدا من عبيده يحسن الصلاة يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة حرا آلة فكان يعتقهم فقيل له فى ذلك فقال من خدمنا فى الله اتخذ عنا له * وقال الفضيل لوان أمرأ أحسن الاحسان كله وكانت له دجاجة واساه اليها لم يكن من المحسنين (وكان المحاسبى) يقول فقد نا الامانة أشياء حسن الوجه مع الصيانة وحسن القول مع الامانة وحسن الاخاء مع الوفاء وقال الحسن بن على رضوان الله عليه عنوان الشرف حسن الخلق * وكان عبد الله بن محمد الرازى يقول حسن الخلق استغنار ما عنك واستعظم ما اليك (وقال سهل) حسن الخلق ان لا تطمع فيما ليس لك وليس بهذه الصفة أحد الا الله تعالى * وقيل حسن الخلق تحمل اثقال الخلق * وقال شاه الكرمانى علامة حسن الخلق كف الاذى واحتمال المؤن وقيل حسن الخلق أن تكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا وقيل حسن الخلق قبول ما يرد عليك من جفاء الخلق وقضاء الحق بلا ضجر * ولا تلق وقيل الخلق الحسن احتمال المكروه بحسن المداراة (وقالت امرأة) لمالك بن دينار يامرائى فقال ياهذه وجدت اسمى الذى أضله اهل البصرة * وفى الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان تسعوا الناس باموالكم ولكن سعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق (وروى) ان اباعثمان اجتاز بسكة وقت الهاجرة فالقى عليه من فوق سطح طست رماد فتغير أصحابه وبسطوا السنتهم فى الملقى فقال ابو عثمان لا تقولوا شيأ من استحق ان يصب عليه النار فصولح على الرماد لم يجز ان يغضب * وقيل لابراهيم بن ادهم هل ترحت فى الدنيا قط فانعم مرتين احداهما كنت قاعدا ذات يوم فجاء انسان فبال على والثانية كنت بالسا فجاء انسان فصفعنى (وكان أويس القرنى) اذا راه الصبيان رموه بالحجارة وكان يقول ان كان لابد فارمونى بالحجارة الصغار كى لا تدموا على ساقى فتمنعونى الصلاة (وروى) أن عليا رضى الله عنه دعا غلاما له فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام اليه فرآه مضطجعا فقال اما تسمع ياغلام قال نعم قال فما حملك على ترك جوابى قال امنت عقوبتك فتكاسلت قال امض فأنت حر لوجه الله وهذا كما ترى قوة الهيبة يفرغها الله على المصطفين من عباده واهل الصفوة

من أوليائه ألا ترى الى قوله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فجرده عن حقائق البشرية وألبسه من نعوت الربوبية حتى قواه على صحبتهم وصبره على تبليغ الرسالة اليهم مع الذى كان يقاسيه من أخلاقهم مع كونه مستغرقا باستيلاء الحق تعالى عليه يختص برحمته من يشاء * وقال النبى صلى الله عليه وسلم المؤمن الف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وانما سمى بالآدمى لانه تألف من الجواهر والالوان (وقال عليه السلام) لرجلين متباغضين آدم الله بينكما أى ألف بينكما ومنه سمى الادم المأكول لانه يؤلف الطعام ويحسنه ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم لرجل أراد أن يتزوج امرأة انظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما أى يؤلف بينكما وروى أن معروفا الكرخى نزل الدجلة يتوضأ ووضع مصحفه وملحفته فجاءت امرأة فاخذتهما فتبعها معروف وقال يا أختى أنا معروف لا يأس عليك ألك بينة أقالت لا قال فزوج قالت لا قال فهات المصحف وخذ الثوب (وروى) أن أبا ذر كان على حوض يسقى ابله فاسرع بعض الناس اليه فانكسر الحوض فجلس ثم اضطجع فقيل له فى ذلك فقال ان النبى صلى الله عليه وسلم أمرنا اذا غضب الرجل أن يجلس فان ذهب عنه والا فليضطجع (وقال على بن ابى طالب) رضى الله عنه انا نصافح اكفارى قطعها * وقال ابو ذر انا لنكشر فى وجوه قوم وان قلوبنا لتلعنهم وقال الحرث بن قيس يجيئنى من القراء كل طليق مضحاك فأما الذى تلقاه ببشر ويلقانى بعبوس يمن علىك بعمله فلا اكثر الله فى المسلمين مثله * وقال عروة ابن الزبير مكتوب فى الحكمة بنى لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك طلقا ولتكن احب الى الناس ممن يعطيهم العطاء ومن يحسب صاحب السوء لا يسلم ومن يحسب صاحبا صاحبا لم يغنم (وروى) ان ابراهيم بن ادهم خرج الى بعض البوارى فاستقبله جندى فقال له اين العمران فاشار الى المقبرة فضرب برأسه فاوضحه فلما جاوزه قيل له هذا ابراهيم بن ادهم زاهد خراسان فجاء يعتذر اليه فقال انك لما ضربتنى سألت الله لك الجنة فقال لم فقال قد عملت انى أوجر على ذلك فلم اردان يكون نصيبى منك الخير ونصيبك منى الشر (وحكى) ان اباعثمان الحيرى دعاه انسان الى ضيافة فلما وافى باب الدار قال يا استاذ ليس لى وجه فى دخولك وقد ندمت فانصرف رحمك الله فرجع ابو عثمان فلما وافى منزله عاد اليه الرجل وقال يا استاذ ندمت واخذ يعتذر وقال احضر الساعة فقام ابو عثمان ومضى معه فلما وافى داره قال مثل ما قال فى الاولى واخذ يعتذر ثم كذلك فى الثالثة والرابعة وابو عثمان ينصرف ويحضر ثم قال يا استاذ انما اردت اختبارك والوقوف على اخلاقك وجعل يعتذر اليه ويمدحه فقال ابو عثمان لا تمدحنى على خلق تجد مثله مع الكلاب فالكلب اذا دعى حضر واذا زجر انزجر (وروى) ان بعض الفقراء نزل على جعفر بن حنظلة وكان جعفر يخدمه والفقير يقول نعم الرجل انت لو لم تكن يهوديا فقال له جعفر عقيدتى لا تقدح فيما تحتاج اليه من الخدمة فسل لنفسك الشفاء ولى الهداية (وروى) ان ابا جعفر القمودى المتعبد لقيه بعض الاجناد ومعه كلب للصيد فقال له خذ هذا الكلب وقده خلفى فابى فضرب رأسه بالسوط حتى أوجعه فقال له بعض المارين ويحك هذا ابو جعفر القمودى العابد فنزل عن فرسه وجعل يقبل يديه ويعتذر اليه فقال أنت فى حل قال ابراهيم بن الحسن سمعت ابراهيم القمودى ليالى عديدة

اذا فرغ من حزبه فى جوف الليل يدعو ويقول اللهم اخترصاحب الكلب وارحمه (وقيل) مكتوب فى الانجيل عبدى اذكرنى حين تغضب اذكرك حين اغضب * وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى وقولوا للناس حسنا أى كل من لقيتموه فقل له حسنا من القول * وقال لقمان لابنه ثلاثة لايعرفون الا فى ثلاثة الحلم عند الغضب والشجاع فى الحرب والاخ عند الحاجة اليه وروى أن عبد الله الخياط كان له مجوسى يخيط عنده الثياب ويدفع له دراهم زيوفا وكان عبد الله يأخذها فجاء المجوسى يوما بالدراهم فلم يجده فاعطاها التلميذه فلم يقبلها فدفع له صحاحا فلما رجع عبد الله قال تلميذه وهذه دراهم المجوسى وذكر قصته فقال عبد الله بئسما فعلت انه معاملنا منذ اعوام وانا اصبر عليها والقيها فى البئر لئلا يغتر بها غيرى (وروى) أن معاوية نظر الى ابنه يزيد يضرب امة له فقال أتضرب من لاتمتنع منك لقد حالت القدرة بينى وبين أولى الترات * وقال بعضهم أصل سوء الخلق ضيق القلب وضيقه على قسمين ادناه واعلاه ان لايسع لمراد الخلق واقصاه وشره ان لايسع لمراد الحق * وقال المحاسبى أصل سوء الخلق الاعجاب وهل يسوء خلق الرجل الامن عجبه وتكبره وانه لايرى فوقه احدا ولايعرف قدر نفسه فتداخله العزة * وقال الحسن فى قوله تعالى وثيابك فطهر أى وخلقك فحسن * وكان لبعض النساك شاة فرآها على ثلاث قوائم فقال من فعل هذا بها فقال غلامه انا فعلته قال ولم قال لاعجالك بها فقال لاغمن من أمرك بهذا الذهب فانت حر (وروى) البخارى عن ابى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال رأى عيسى بن مريم رجلا يسرق فقال له أتسرق فقال كلا والذى لااله الاهو فقال عيسى عليه السلام آمنت بالله وكذبت عينى * وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه فساد الاخلاق معاشرة السفهاء (وقيل) الخلق السيئ يضيق قلب صاحبه لانه لايسع فيه غير مراده كالمكان الضيق لايسع فيه غير صاحبه * ويقال من سوء خلقك ان يقع نصرك على سوء خلق غيرك (وسئل النبى) صلى الله عليه وسلم عن الشؤم فقال سوء الخلق وروى ابو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قيل له ادع الله على المشركين فقال انما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا * ولما وصى يعقوب عليه السلام أولاده قال احفظوا عنى خصلتين ما اتصفت من ظلم قط قولا وفعلا وما رأيت حسنة الا واشتهيتها وما رأيت سيئة الا وسترتها كذلك فافعلوا * وقال ابن عمر اذا سمعتمونى أقول لمملوك اخزاه الله فاشهدوا انه حر * ويقال السيئ الخلق هو الذى لايملك نفسه عند الغضب * وقيل اصل سوء الخلق مطالبة غيرك ان يوافقك دون أن تطلب نفسك موافقة غيرك وعلامة حسن الخلق ان تحتمل معاملة سيئ الخلق لتستر به سوء خلقه وقيل العارف يعاتب نفسه ولايعاتب خلقه وعلامة من بينه وبين نفسه عتاب ان لايكون بينه وبين خلقه عتاب (وروى) ان عبد الله بن عمر كان فى حجره يتيم سيئ الخلق فمات فحزن عليه فقيل له انك تجد غيره قال فمن لى بسوء خلقه وكان ليحيى بن زياد الحارثى غلام سوء فقيل له لم تمسك هذا الغلام قال لاتعلم علمه الحلم وقيل فى قوله تعالى واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة الظاهرة تسوية الخلق والباطنة حسن الخلق وقال الفضيل لان يعصبنى فاجر حسن الخلق احب الى من أن يعصبنى عابد سيئ الخلق (فان قيل) الميس قد روى ان عيسى ويحيى بن زكريا عليهما السلام التقيا فقال يحيى لعيسى تلقانى ضاحكا كأنك آمن فقال

عيسى وأنت تلقاني عابسا كأنك آيس فأوحى الله اليهما ان احبكما الي ابشكما بصاحبه قلنا كذلك يستحب أن يكون المؤمن وليس اطلاق الوجه والتبسم في وجه أخيك منهيا عنه وانما المكروه معانكرناه في أول الباب من التملق والتصنع وفصل الخطاب في هذا الباب ما روى هند بن أبي هالة في صفة مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فقال كان أصحابه كأنما على رؤسهم الطير ومعلوم ان من كان على رأسه طائر لا يبرح فانه لا يتحرك ولا يتكلم ولا يطرف بعينه حذرا أن ينفر الطائر وقال ابن المقنع كان لي صديق من أعظم الناس في عيني وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه كان خارجا من سلطان فرجعه فلا يدعو اليه مؤنة ولا يستخفه رأيا ولا بدنا وكان خارجا من سلطان الجهالة فلا يقدم أبدا الا على ثقة بمنفعة كان أكثر دهره صامتا فاذا قال بدأ القائلين وكان متضعفا مستضعفا فاذا جاء الجد فهو الليث عاديا كان لا يدخل في دعوى ولا يشرك في مراء ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضيا عدلا وشهودا عدولا وكان لا يلوم أحدا على ما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره كان لا يشكو وجعا الا الى من يرجو عنده البرء ولا صاحبا الا الى من يرجو عنده النصيحة لهما جميعا وكان لا يتسرع ولا يتسخط ولا يشتكي ولا يتقنع من الولي على العدو ولا يغفل عن الولي ولا يخص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته فاتف هذه الاخلاق فان لم تطق فخذ القليل خير من ترك الجميع وروي أن حكيما سمع رجلا يذم الزمان وأهله وأنه قد فسد الناس ولم يبق أحد يحب فقال له يا هذا أنت طلبت صاحبا تؤذيه فلا ينتصر وتنال منه فلا ينتصف وتأكل رحله ولا يرزؤك بشيء وتحفو عليه فيحلم فلم تنصف في الطلب فلم تجد حاجتك ولكن ان اردت صاحبا يؤذيك فلا تنتصر ويحفوك فلا تنتقم ويأكل رحلك فلا تنال منه شيأ وجدت اصحابا واخوانا وخلانا وأنا أول من يحبك * (فصل في الفرق بين المداهنة والمداراة) * من داراى سلم ومن داهن أثم وهذا باب أختلط على معظم الخلق فداهنوا وهم يحسبون أنهم يداورون فالمداهنة منهي عنها والمداراة مأمور بها قال الله تعالى في المداهنة ودوا لو تدهن فيدهنون وقال النبي صلى الله عليه وسلم في المداراة رأس العقل بعد الايمان بالله التودد الى الناس وامرت بمداراة الناس كما امرت باداء الفرائض (واعلم) أنه اذا سقمت المداراة صارت مداهنة فالمداهنة ان تداري الناس على وجه يذهب فيه دينك والمداراة مخالفتهم على وجه يسلم لك دينك وذلك ان هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وقد قالت له قريش يا محمد اعبد آلهتنا سنة ونؤمن بك فأبى فالوا نشهر افأبى فالوا فيوما فأبى فالوا ساعة فأبى فالوا فاستلمها يسدك ونؤمن بك فوقف النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك وطمع ان معل ان يومنوا فانزل الله تعالى ودوا لو تدهن فيدهنون وقيل له ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ومثاله ان تقول للظالم أبقاك الله ومن دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله سبحانه وهذا باب ينبغي لذوي الدين حفظه وقد رأى بعض الفقهاء الخروج من هذه العهدة بالتعريض وكان الفقيه ابن الحضار بقرطبة له جار نصراني يقضي حوائجه وينفعه وكان الفقيه يكثر أن يقول أبقاك الله وولاك أقر الله عينك يسرني والله ما يسرك جعل الله يومي قبل يومك لا يزيده على هذه الكلمات فبينما هو الكلمات فبينما هو النصراني بها وتسره فعوتب الفقيه في ذلك

فقال اتحاد عو بما ريض قد علم الله ذلك من نيتي اما قولي أبقاك الله وتولاك فاريد أن يبقيه الله لغيم الجزية ويتولاه بالعذاب وأما قولي أقر الله عينك فاريد أن تقر حركتها بستر يعرض لها فلا تتحرك جفونها وأما قولي يسرني والله مايسرك فال العافية تسرني كما تسره وأما قولي جعلت فداك الله دوني قبل يومك فاريد أن يجعل الله تعالى اليوم الذي ادخل فيه الجنة برجته قبل اليوم الذي يدخل فيه النار بكفره

(الباب السادس والخمسون في الظلم وشؤمه وسوء عاقبته)

قال الله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون وقال تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون وقال تعالى ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون فكل من لم يحكم بما جاء من عند الله ورسوله كملت فيه هذه الاوصاف الثلاثة الكفر والظلم والفسق وقال سبحانه وتعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون (وقال) أحمد بن خضرويه لو اذن لي في الشفاعة عما بدأت الا بالظالمين لانى تنشت لتعزية الله تعالى في قوله ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون قال ولأغتمن سفرا لايكون فيه من لايؤذيني ويظلمني شوقا مني لتعزية الله تعالى للمظلومين وقال ميمون ابن مهران كفى بهذه الآية وعيدا للظالم وتعزية للمظلوم وقال كعب لابي هريرة في التوراة من يظلم يضرب بيته فقال أبو هريرة وذلك في كتاب الله تعالى فقال يبوتهم خاوية بما ظلموا فالظلم ادعى شئ الى سلب النعم وحلول النقم (وروى) مسلم في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه قال ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ياعبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني أهدكم ياعبادي كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ياعبادي كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني أكسكم ياعبادي انكم تخطؤن بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم ياعبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ياعبادي لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيأ ياعبادي لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكي شيأ ياعبادي لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فاعطيت كل انسان مسئلته مانقص ذلك مما عندي الا كما ينقص المخيط اذا دخل في البحر ياعبادي انما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه ويروى أبو ادريس الخولاني عن أبي ذر ومسندا الى النبي صلى الله عليه وسلم وكان أبو ادريس اذا حدث جثى على ركبتيه وروى عبد الله بن عمران النبي صلى الله عليه وسلم قال الظلم ظلمات يوم القيامة وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال اتقوا دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب وروى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كانت لاخيه عنده مظلمة من عرض أو شئ فليتحلله منه قبل أن لايكون درهم ولا دينار ان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن له حسنات أخذ من سيآت أخذ صاحبه فحمل عليه وروى سعيد بن زيد قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول من ظلم من الارض شبرا طوقه من سبع أرضين قال أبو جعفر الطحاوي معناه انه يقلب شجاعا أقرع فيطوقه كما قال النبي

صلى الله عليه وسلم فى مانع الزكاة يجيء ماله يوم القيامة شجاعا أقرع يتبعه ويقول أنا مالك انا كنزك فكان هذا دليلا فى قوله تعالى سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وروى أبو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال عطل الغنى ظلم وروى أبو موسى الاشعرى قال قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته وقرأ وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه اليم شديد وروى أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال انصر أخاك ظالما او مظلوما قالوا يا رسول الله كيف هذا انصره مظلوما فكيف انصره ظالما قال تأخذ فوق يده وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال صنفان من أهل النار لم أرهما ناس معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤسهن مثل اسنمة البخت لا يرين الجنة ولا يجدن ريحها وقال الله تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وفى الآية تأويلان أحدهما امرناهم بالطاعة ففسقوا أى خرجوا عن الطاعة والثانى على قراءة المدنى أى كثرنا عددهم واسبغنا النعم عليهم فعصوا وتبا غوا ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النتاج (واعلموا) أن حشرات الارض وهوامها تلعن العصاة وقال مجاهد اذا أسحقت الارض تقول البهائم هذا من اجل عصاة بنى آدم فذلك قوله تعالى اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الحسل لتموت بذنب ابن آدم يعنى ان بذنوب الخلق يمتنع القطر فلا تنبت الارض فتهلك الدواب والحشرات وسمع ابو هريرة رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بلى والله ان الحبارى لتموت هزلا فى وكرها بظلم الظالم وقال ابن مسعود خطيئة بنى آدم قتلت الحسل (وروى) مسلم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من اقتطع حق امرء مسلم بيمينه فقد اوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال الرجل وان كان شيأ يسيرا يا رسول الله قال وان كان قضيبا من اراك وقال ابن عباس ما ظهر الغلول فى قوم قط الا افشا فيهم الموت ولا نقص قوم المكيال والميزان الا انقطع عنهم الرزق ولا حكم قوم بغير حق الا افشا فيهم الدم ولا خفر قوم بالعهد الا سلط عليهم العدو وقال بعض الحكماء اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك لا يجنبنك رحب الذراعين بسفك الدماء فان له قاتلا لا يموت (وروى) ان بعض الملوك رقم على بساطه

لا تظلمن اذا ما كنت مقتدرا * فالظلم مصدره يفضى الى الندم

تنام عينك والمظلوم منتصب * يدعو عليك وعين الله لم تنم

انشدنا قاضى القضاة ابو عبد الله الدامغانى رحمه الله ببغداد

اذا ما هممت بظلم العباد * فكن ذاكرا هول يوم المعاد

فان المظالم يوم القصاص * لمن قد تزودها شر زاد

وقال يحيى بن معين كان يزيد بن حاتم الحكيم يقول ما هبت شيأ قط هيبتى رجلا ظلمته وانا اعلم ان لا ناصر له الا الله فيقول لى حسيبك الله الله بينى وبينك وقال بلال بن سعد اتقوا الله فى من لا ناصر له الا الله وقال أبو سليمان الدرانى لما دخل اخوة يوسف عليه السلام عرفهم ولم يعرفوه وكان على وجهه برقع فخلا بكبيرهم وكان ابن خالته فقال له بم اوصاك ابوك قال بأربع قال

قال وماهن قال يابني لاتتبع هوى الفقر فانه يعمك الايمان يدعو الى الجنة والهوى يدعو الى النار ولا تكثر منطقك بما لا يعنيك فتسقط من عين ربك الطيف فلا يستجيب لك ولا تكن ظلاما فان الجنة لم تخلق للظالمين (وبكى) على ابن الفضيل يوما فقيل له ما يبكيك فقال ابكي على من ظلمني اذا وقف غدا بين يدي الله تعالى ولم يكن له حجة ولمحمود الوراق

انى وهبت لظالمي ظلمي * وتركت ذاك له على علمي
ورايته اسدى الى يدا * لما ابان بجهله حلمي
رجعت اساءته عليه واحسانى فآب مضاعف الجرم
وغدوت ذا اجر ومحمدة * وغدا يكسب الذم والاثم
مازال يظلمني وارحمه * حتى رثيت له من الظلم
وكانما الاحسان كان له * وانا المسيء اليه في الحكم

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد ناصرا غيري (وقال) ابن مسعود لما كشف الله العذاب عن قوم يونس تراد وا المظالم حتى ان كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده الى صاحبه وقال ثور بن زيد الحجر في البنيان من غير حله عرون على خرابه وقال غيره لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على جور من الظالم لاوشك أن تخرب وقال الحكيم العدل حرمة والظلم ظلمة فالعدل يجر اليك الحوائج والجور يحجم عدلك الجوائح فاحذر من لا جنة له الا النفقة بنزول الغير ولا سلاح له الا الابتهال الى مقلب القلوب قال مالك بن دينار قرأت في بعض الكتب يامعشر الظلمة لا تحسبوا أهل الذكر فانهم اذا ذكروني ذكرتهم برحمتي واذا ذكرتموني ذكرتكم بلعنتي وقال أبو امامة يحيء الظالم يوم القيمة حتى اذا كان على جسر جهنم لقيه المظلوم وعرف ما ظلمه به فما يبرح الذين ظلموا بالذين ظلموا حتى ينزعوا ما بايديهم من الحسنات فان لم يجدوا حسنات حمل عليهم من سيآتهم مثل ما ظلموا حتى يردوا الدرك الاسفل من النار ومن صحيح مسلم ان هشام بن حكيم مر بالشام على اناس وقد قيموا في الشمس وصب على رؤسهم الزيت قال ماهذا قال يعذبون في الخراج قال أما اني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا وأخبرني رجل ممن كان يقرأ العلم بالاسكندرية قال كان ههنا شيخ يكون عينا للمكاسين يدور حوالهم فرأيته في النوم بعد وفاته فقلت له من أين تجيء فقال لي لا تسأل فاعدت عليه فصال لا تسأل فسألته فقال من الحجيم فقلت له فالى أين تذهب قال الى مثل الدار التي خرجت منها قلت فكيف لقيت قال وماذا لقيت كان لحمي قد بعمل في هاون ودق حتى صار مثل المخ (وأخبرني) رجل من أهل العلم والدين قال رايت فلانا البياع في النوم بعد وفاته فقلت ما فعل الله بك قال أنا محبوس عن الجنة قلت فبماذا قال كنت أبيع في الدكان فيزدحم الناس علي فآخذ دراهمهم فاضعها في فمي وكلما تفرغت وزنتها وأعطيت كل انسان حقه فاختلطت في فمي الفضلات فجاء اثنان فدفعت لاحدهما بفضة الآخر وكانت أنقص من فضته بحبة ثم حوسبت فبقي على حبة فقلت فادفع له الحبة وتخلص فجعل يقلب كفيه ويقول من أين ادفع له من أين أدفع له فكررها مرات

(ويروى) أن يونس عليه السلام لما نبذ بالعراء وأنبت الله عليه شجرة من يقطين كان يأوى الى ظلها قيست فبكى عليها فأوحى الله تعالى اليه تبكى على شجرة فقدتها ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت ان اهلكهم * وقيل لابن السماك الاسدى أيام معاوية كيف تركت الناس قال بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهى * وقال بعض الحكماء أفقر الناس أكثرهم كسبا من حرام لانه استدان بالظلم ما لا بد له من رده * وقال رجل كنت يوما عند عمر بن عبد العزيز فذكر الحجاج فسببته ووقعت فيه فقال عمر ان الرجل ليظلم بالمظلمة فلا يزال المظلوم يشتم الظالم ويسبه حتى يستوفى حقه فيكون للظالم حق عليه * وقال عمرو بن دينار نادى رجل فى بنى اسرائيل من رآنى فلا يظلمن أحدا واذا رجل قد ذهب ذراعه من عضده وهو يبكى ويقول من رآنى فلا يظلمن أحدا فسئل عن حاله فقال بينما أنا أسير على شاطئ البحر فى بعض سواحل الشام اذ مررت بنبطى قد اصطاد تسعة أنوان فأخذت منه نونا وهو كاره بعدان ضربت رأسه فعض النون بهامى عضة يسيرة ثم أكلناه فوقعت الاكلة فى ابهامى فانفقأت الاطباء على قطعه فقطعته فوقعت فى كفى ثم ساعدى ثم عضدى فمن رآنى فلا يظلمن أحدا * فخرجت أسيح فى البلاد وأريد قطع عضدى اذ وقعت لى شجرة فاويت الى ظلها فنمت فقيل لى فى المنام لاى شئ تقطع أعضاءك ردّ الحق الى أهله فجئت الصياد فقلت ياعبد الله أنا مملوك فاعتقنى فقال ما أعرفك فاخبرته فبكى وتضرع وقال أنت فى حل قبلها قالها ثلاثا فدود من عضدى وسكن الوجع فقلت له بماذا دعوت على * قال لما ضربت رأسى وأخذت السمكة نظرت الى السماء وبكيت فقلت يارب أشهدك أنك عدل تحب العدل وهذا منك عدل وانك الحق تحب الحق وخلقتنى وخلقته وجعلته قويا وجعلتنى ضعيفا فاسألك بمن خلقتنى وخلقته أن تجعله عبرة لخلقك (وقال معاوية) ان أولى الناس بالعفو أقدرهم على الانتقام وان أنقص الناس عقلا من ظلم من دونه * وقال بعض الحكماء الظلم على ثلاثة أوجه ظلم لا يغفره الله وظلم لا يتركه الله وظلم لا يعبأ الله به شيأ فاما الظلم الذى لا يغفره الله فهو الشرك بالله وأما الظلم الذى لا يتركه الله فظالم العباد بعضهم بعضا وأما الظلم الذى لا يعبأ الله به فظلم العبد ما بينه وبين الله تعالى * وقال ميمون بن مهران من ظلم رجلا مظلمة فتفانه ان يخرج منها فاستغفر الله بركل صلاة رجوت أن يخرج من مظلمته (وقال يوسف بن اسباط) توفى رجل من الحواريين فوجدوا عليه وجدا شديدا وشكوا ذلك الى المسيح صلى الله عليه وسلم فوقف على قبره ودعا فاحياه الله تعالى وفى رجليه نعلان من نار فسأل عيسى عن ذلك فقال والله ما عصيت قط الا اتانى مررت بظالم فلم أنصره فتنعلت هاتين النعلين وأما أنا فاوصيك اذا فعلت باحد مكروها فادع الله تعالى له واستغفر له كما فعل موسى عليه السلام لما آذى هرون وأخذ بلحيته ورأسه ثم تبين له براءته وأن بنى اسرائيل غلبوه عليه وعلى عبادة العجل فقال رب اغفر لى ولاخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين (ويروى) ان قوم لوط كانت فيهم عشرة خصال فاهلكهم الله بها كانوا يتغوطون فى الطرقات وتحت الاشجار المثمرة وفى المياه الجارية وفى شطوط الانهار وكانوا يخذفون الناس بالحصى فيدمونهم واذا اجتمعوا فى المجالس أظهروا المنكر باخراج الريح منهم واللطم على رقابهم وكانوا يرفعون ثيابهم قبل أن يتغوطوا ويأتون بالطامة الكبرى

وهى اللواطة قال الله تعالى أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر والنادى المجلس ويلعبون بالحمام ويرمون بالملاهق وضرب الدف وشرب الخمور وقص اللحية وتطويل الشارب والتصفيق ولبس الحمرة وتزيد عليهم هذه الامة باتيان النساء بعضهن بعضا وانما حملهم على اتيان الرجال انهم كانت لهم ثمار كثيرة فى بساتينهم وحوائطهم فاصابهم قحط وقلة من الثمار فقالوا اباى شئ نمنع ثمارنا حتى لا يطرقها أحد من الناس فاصطلحوا على أن من وجدوه فيها نكحوه وغرموه أربعة دراهم ففعلوا وما سبقهم بها أحد من العالمين قال ابن عباس فكان بدء الفاحشة فيهم انهم هموا بذلك فجاءهم ابليس فى هيئة صبى أجمل شئ رآه الناس فنكحوه وتجرؤا على ذلك وقال أبو العتاهية

أما والله ان الظلم لؤم * ولكن المسى هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم
سل الايام عمن ام تقضت * فتخبرك المعالم والرسوم

(وروى) ان أنوشروان كان لمعلم حسن التاديب فعلمه حتى فاق فى العلوم فضربه المعلم يوما من غير ذنب فأوجعه فقد أنوشروان عليه فلما ولى الملك قال له ما حملك على ما صنعت من ضربى يوم كذا وكذا فلما قال لما رأيتك ترغب فى العلم رجوت ذلك الملك بعد أبيك فاحببت ان أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنوشروان زه

(الباب السابع والخمسون)
فى تحريم السعاية والنميمة وقبحهما وما يؤل اليه أمرهما من الافعال الرديئة والعواقب الذميمة

قال الله تعالى ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم فذكر الله تعالى فى القرآن أصناف أهل الكفر والالحاد والتثليث وأهل الدهر والظلم والفسوق وأشباههم ولم يسب الله سبحانه أحدا منهم الا الاتمام فى هذه الآية وحسبك بها خسة ورذيلة وسقوطا وضعة وهذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة فى أصح الاقوال والهماز المغتاب الذى يأكل لحوم الناس الطاعن فيهم وقال الحسن البصرى هو الذى يغمز باخيه فى المجلس وهو الهمزة اللمزة والعتل فى اللغة الغليظ وأصله من العتل وهو الدفع بالقوة والعنف وقال على رضى الله عنه والحسن البصرى العتل الفاحش السئ الخلق وقال ابن عباس العتل الفاتك الشديد المنافق وقال عبيد بن عمير العتل الاكول الشروب القوى الشديد يوضع فى الميزان فلا يزن شعيرة وقال يمان هو الجافى القاسى اللئيم العسر وقال مقاتل العتل الفحم وقال الكلبى الشديد فى كفره عند العرب عتل وقيل العتل الشديد الخصومة بالباطل والزنيم هو الذى لا يعرف من أبويه قال حسان بن ثابت

وأنت زنيم نيط فى آل هاشم * كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

(وقال غيره)

زنيم ليس يعرف من أبوه * بغى الام ذو حسب لئيم

وقال أكثر النقلة هذا رجل انما ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة وعن هذا قال القدماء لا يكون

نماما الا وفى نسبه شئ * وسعى رجل الى بلال بن أبى بردة برجل وكان أميرا البصرة فقال له انصرف حتى اكشف عنك فكشف عنه فاذا هو لغير رشدة يعنى ولدزنا وقال أبو موسى الاشعرى لا يبقى على الناس الا ولد بغى * وقيل الزنيم الذى له زنمة فى عنقه يعرف بها كما تعرف الشاة قال ابن عباس لما وصفه الله تعالى بتلك الحال المذمومة لم يعرف حتى قيل زنيم فعرف لانه كانت له زنمة يعرف بها كما تعرف الشاة بزنمتها (ومن ذلك) قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معط بعثه النبى صلى الله عليه وسلم الى بنى المصطلق بعد الوقعة وكان بينه و بينهم عداوة فى الجاهلية فخرجوا يتلقونه تعظيما لامر النبى صلى الله عليه وسلم ففزع ورجع الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال منعونى صدقاتهم وأرادوا قتلى فغضب النبى صلى الله عليه وسلم عليهم ثم كشف أمرهم فوجد ما قاله كذبا فانزلت هذه الآية وسماه الله تعالى فاسقا (ومن ذلك) قول الله سبحانه سماعون للكذب أكالون للسحت فشرك الله تعالى بين السامع والقائل فى القبح وساوى بينهم فى الذم فكان فيه تنبيه على ان السامع نمام فى الحكم (وأما ما روى فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم) فروى مسلم فى الصحيح قال همام كنا مع حذيفة فقيل له ان رجلا يرفع الحديث الى عثمان بن عفان رضى الله عنه فقال حذيفة سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لا يدخل الجنة قتات وفى لفظ آخر نمام * وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الا أخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله قال من شراركم المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب * وروى أبو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل سفار ملعون كل قتات ملعون كل منان فالسفار المحرش بين الناس يلقى بينهم العداوة والقتات النمام والمنان الذى يعمل الخير ويمن به * وروى ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير اما احدهما فكان لا يستبرئ من البول واما الآخر فكان يمشى بالنميمة فاخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين فغرز فى كل قبر واحدة فقالوا يا رسول الله لم فعلت هذا قال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا وذلك لبركة يده صلى الله عليه وسلم * (واما السعاية) * الى السلطان والى كل ذى قدرة ومكنة ففيها المهلكة والحالقة تجمع الى الخصال المذمومة الغيبة ولؤم النميمة والتغرير بالنفوس والاموال والقدح فى المنازل والاحوال وتسلب العزيز عزه وتحط المكين عن مكانته والسيد عن مرتبته فكم من دم أراقه سعى ساع وكم حريم استبيح بنميمة باغ وكم من صفيين تقاطعا ومن متواصلين تباعدا ومن محبين تباغضا ومن الفين تهاجرا ومن زوجين افترقا فليتق الله ربه رجل ساعدته الايام وتراخت عنه الاقدار ان يصيخ لساع أو يسمع لنمام * وروى ابن قتيبة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع فالديوث الذى يجمع بين النساء والرجال سمى بذلك لانه يدث بينهم والقلاع الساعى الذى يقع فى الناس عند الامراء لانه يقصد الرجل المتمكن عند السلطان فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه (وقال كعب) أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى صلى الله عليه وسلم فخرج موسى يستسقى ببنى اسرائيل فلم يسقوا ثم خرج ثانية فلم يسقوا ثم خرج الثالثة فاوحى الله تعالى اليه انى لا استجيب لك ولا لمن معك فان فيكم نماما فقال يا رب من هو حتى

تخبره بمن بيننا فاوحى الله تعالى اليه يا موسى انهاكم عن النميمة وآتيها فتابوا فارسل الله سبحانه عليهم الغيث * ولما لقى استقف نجران عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له يا أمير المؤمنين احذر ثلاثة قال ومن قائل الثلاثة قال الرجل يأتى الامام بالحديث الكذب فيقبله الامام فيكون قد قتل نفسه وصاحبه وامامه فقال عمر ما أراك أبعدت * ووجد نافى حكم القدماء أبغض الناس الى الله المثلث قال الاصمعى هو الرجل يسعى بالنميمة باخيه الى الامام فيهلك نفسه وأخاه وامامه (وذكرت السعاية) عند المامون فقال لو لم يكن من عيبهم الا انهم أصدق ما يكونون أبغض ما يكونون عند الله تعالى * وقال حكيم الفرس الصدق زين كل أحد الا السعاية فان الساعى اذم وأنم ما يكون اذا صدق (وروى) أن رجلا سعى بجاره عند الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد أما أنت فتخبرنا انك جار سوء ان شئت أرسلنا معك فان كنت صادقا أبغضناك وان كنت كاذبا عاقبناك وان شئت تاركناك قال تاركنى يا أمير المؤمنين قال قد تاركناك * ولقد در الاسكندر حين وشى اليه واش برجل فقال له الاسكندر ان شئت قبلنا لك على صاحبك بشرط ان نقبله عليك وان شئت أقلناك قال أقلنى قال قد أقلناك كف عن الشر يكف عنك الشر (ومن العجب) الذى لا عجب بعده ان الرجل يشهد عندك فى باقة بقل فلا تقبله حتى تسأل الناس عنه هل هو من أهل الثقة والعدالة والامانة والصيانة ثم يم عندك بحديث فيه الهلاك وفساد الاحوال فتقبله * وقال يحيى بن زيد قلت للحسن بن على رضى الله عنهما لماسقى السم أخبرنى من سقاك فدمعت عيناه وقال أنا فى آخر قدم من الدنيا وأول قدم من الآخرة تامرنى ان أغمز * قال رجل للمهدى عندى نصيحة يا أمير المؤمنين قال لمن نصيحتك هذه ألنا ام لعامة المسلمين أم لنفسك قال لك يا أمير المؤمنين قال المهدى ليس الساعى باعظم عورة ولا أقبح حالا ممن قبل سعايته ولا تخلو من ان تكون حاسد نعمة فلا تشفى لك غيظا أو عدوا فلا تعاقب لك عدوا ثم أقبل على الناس وقال أيها الناس لا ينصح لنا ناصح الا بما فيه رضا والمسلمين فيه صلاح (وروى) ان ساعيا سعى برجل الى الفضل بن سهل فوقع على ظهر كتابه نحن نرى قبول السعاية أشر من السعاية لان السعاية دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شئ كمن قبل وأجاز لان من فعل أشر ممن قال (ويروى) ان رجلا رفع الى المنصور نصيحة فوقع على ظهرها هذه نصيحة لم يرد بها وجه الله تعالى ولا جواب عندنا لمن آثرنا على الله تعالى (وروى) ان رجلا قال للمأمون يا أمير المؤمنين الله الله فى أصحاب الاخبار فانهم قوم ان أعطوا كذبوا وان حرموا كذبوا فان أعطوا مدحوا وهم كاذبون وان حرموا ذموا وهم كاذبون فقال المأمون لله در هارون ما أقصدها وأبين فضلها وأمر ان تثبت فى أمور أصحاب الاخبار (وقال مروان بن زنباع) العبلى يا بنى عبس احفظوا عنى ثلاثا من نقل اليكم نقل عنكم واياكم والتزويج فى البيوتات السوء واستكثروا من الصديق ما استطعتم واستقلوا من العدو ما استطعتم فان استكثاره ممكن * وقال بعض الحكماء احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنمامون اذا سرق اللصوص المتاع سرقوا المودات * وقال حكيم العرب اياك والسعاة فانهم اعداء عقلك ولصوص عدلك فيفرقون بين قولك وفعلك (وفى المثل السائر) من الطباع الواشى ضيع الصديق وقد يقطع الشجر فينبت ويقطع اللحم بالسيف فينمو مثل

واللسان لا يشدمل جرحه وأحق الناس برعاية مارسمته من هذه الخلال وتقلده من هذه الحكم واستودعته من هذه السير من آتاه الله سلطانا ومكن له في الارض قدما فذو القدرة اذا أطاع الواشي هلك العالم (وكان) بعض الحكماء يقول من أراد ان يسلم من الاثم ويرقى له الاخوان فيجعل نفسه بينه وبينهم قاضيا عدلا ويحكم بالعدل ولا يقبل أحدا في أحد ولا في نفسه الا بشهود وتعديل فانا قد أحيينا بقول أقوام وابغضنا بقول آخرين فاصبحنا نادمين * ومن لطيف حكمة الله تعالى في النميمة لما علم من شؤمها واستطارة شررها وعموم مضرتها في الورى حكم بفسق النمام حتى لا يقبل له قول فيستريح الخلق من شره (وقال) ابن عمرو فد الله الحاج ووفد الشيطان قوم يرسلهم السلطان الى الناس ويسالهم عن حالهم فيخبرونه ان الناس راضون وليسوا براضين واعلموا ان الله تعالى خلق الانسان على انحاء شتى لسنا نذكرها الآن لكثرتها وطول تتبعها فخلق الله الحواس الشريفة والاعضاء النافعة النفيسة فمن أفضل ما ركب فيه اللسان الذي هو آلة النطق والبيان وبه فصل بينه وبين البهائم ثم فضله على سائر الحيوان وامتن عليه في أول سورة الرحمن فقال تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان وخلق فيه أعضاء تذلل وتستهان وجعلها مجرى لفضول الطعام والشراب فمن يتبع سقطات الكلام ويروي عثرات الانام التي هي كالعورات الواجب سترها ودفنها كان قد استعمل أشرف الآلات في أخس المستعملات فصار كمن لمس بلسانه سوأة أخيه وجعل أكرم جوارحه لاخس أجناس المستعرضين ورضي ان يقع من الناس موقع الذباب من الطير يتتبع نقل الجسد ويتصامى صحيحه وقد كان له في نشر المحاسن شغل ولكن أهل كل ذي حال أولى بها وفي هذا سبق المثل ان لم تكن ملما تصلح فلا تكن ذبابا تفسد ومن لم يقدر على جميع الفضائل فلتكن همته ترك الرذائل واذا تتبع الامام عورات الناس أفسدهم (وروي) ان النبي صلى الله عليه وسلم هم بالخروج يوما فسمع قوما من أصحابه يضحكون فامتنع من الخروج اليهم حذر ان لا يفسد قلبه عليهم ولو علم الذي يسمع أخبار الناس ما جنى على نفسه لعلم ان الصمم كان أهنأ لعيشه وأنعم لباله من سماع الاخبار يا واحد ماذا عمل نقلة الاخبار حملوا اليك الصدق أو الكذب فتكون في سماع الكذب ممن قال الله تعالى فيه سماعون للكذب أكالون للسحت ويكون في سماع الصدق حمالا للهم جريح الصدق على الخلق معاديا لهم متتبعا لعثرات الخلق وخزانا لسقطاتهم قد وعيت منهم ما يجب ستره وحفظت ما يجب نسيانه ثم لا تستطيع النصف ممن قائل لانك ان كنت ذا قدرة أهلكت الرعية ثم لا تستطيع ان تهلك جميع الرعية وان كنت سوقة لم يشف غيظك ثم أفسدت اخوانك وأبغضت من يجب ان تحبه وأحببت من يجب ان تبغضه ثم لا تزال تتحمل الحاقب وتزيد الاحقاد والضغائن وترصد لكل قائل يوما يشتفي صدرك فيه فما أغنى العاقل عن هذه البلية ولقد مر عمرو بن العاص روى انه لاحا رجل يوما فقال له الرجل اما والله ان عشت لاقرعن لك فقال له عمرو بن العاص الآن وقعت في الشغل يا ابن أخي

* (الباب الثامن والخمسون في القصاص وحكمته) *

قال الله تعالى ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب يعني اذا علم القاتل والقاطع انه

يقتص منه اجمع ولم يقدم على الفعل فيكون فى ذلك حياته وحياة الذى هم به (روى) ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اول ما يقضى بين الناس فى الدماء روى ابو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من كانت عنده لاخيه مظلمة فليتحلله منها فانه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل ان يؤخذ لاخيه من حسناته فان لم يكن له حسنات اخذ من سيآت اخيه فطرحت عليه وهذا حديث صحيح رواه البخارى فان قيل يعارضه قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر اخرى فكيف يؤخذ الطالم بذنب ركبه المظلوم قلنا معنى الآية لا يعاقب احد بذنب أحد ابتداء واما فى مستثنا فظلمة بقيت عنده وليس له وفاء بها فهو الذى اكتسب هذا الوزر وهو المعنى بقوله تعالى وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم وروى ابو سعيد الخدرى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ليقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا اذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفسى بيده لاحدهم اهدى لمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال قبل موته من كانت له عندى مظلمة فليات حتى اقصه من نفسى فقام سواد بن غزية فقال يا رسول الله انك ضربتنى على بطنى ليلة العقبة فاوجعتنى فقال النبى صلى الله عليه وسلم دونك فاقتص فقال يا رسول الله انك ضربتنى وانا مكشوف البطن فكشف النبى صلى الله عليه وسلم بطنه فاذا هو كالقباطى يعنى ثياب مصر فأكب عليه يقبله فقال ياسواد ما حملك على هذا فقال يا رسول الله دنا لقاء هؤلاء المشركين ولا ندرى فاردت ان يكون آخر العهد بك أن اقبل بطنك فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تاخر لعلمه ان الله تعالى لا يدع القصاص فى المظالم بين العباد لان الله تعالى اعدل من ان يدع مظلمة لاحد عنده ولا غيره وفى الحديث يقول الله تعالى يوم القيامة اناظالم ان فاتنى ظلم ظالم ويروى ان داود عليه السلام يقدمه خصمه الى الله يوم القيامة فيقضى له عليه فيدفعه الى اوريا سلما ثم يستوهبه الله تعالى من أوريا ثم يعوض اوريا على ذلك الجنة وقال حبيب دخل عثمان ابن عفان رضى الله عنه فوجد غلامه يعلف ناقته واذا فى علفها شئ فاخذ يأذنه فعركها ثم ندم فقال لغلامه قم فاقتص منى فابى الغلام فلم يزل به حتى قام فاخذ بأذنه ثم قال يعرك وهو يقول شد شد حتى عرف عثمان انه قد بلغ منه ثم قال واها القصاص الدنيا قبل قصاص الآخرة (روى) عون بن عبد الله ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا خادما له فلم يجبه أو كان ناما فقال النبى صلى الله عليه وسلم لولا القصاص لاوجعتك ضربا وروى ابن وهب فى موطئه عن ابن شهاب قال وقد أفاد النبى صلى الله عليه وسلم والخليفتان من أنفسهم ليستنهم ولم يتعمدوا حيفا ولكانوا سلاطين ومن صحيح مسلم روى أبو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال ان المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار قال مالك وبلغنى ان أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما ولى الخلافة ضرب رجلا ثم ندم وقال مالى ولهذا الا رددتها عليهم فسمعته عائشة فارسلت الى

عمر فجاء عمر فقال له انى قد ضربت رجلا وقد كنت معافى من هذا ان أضرب فقال عمر كذلك الامام فقال فالمخرج قال ان تأتى الرجل فتسأله ان يجعلك فى حل فاتياه فاستحلاه ذلك الآثار على ان الامير والمأمور فى القصاص سواء اذا جنى أحدهما على الآخر وان الامير اذا ظلم المأمور زال تأمره عليه فى ذلك المعنى وكان الامير فى ذلك المعنى كبعض المؤمرين عليهم حتى يتحاكموا الى السلطان الاعظم وكان عمر يقول انما بعثت أمراى ليعلموا الناس دينهم ويقسموا بينهم فيئهم ويعدلون فيهم ولم أبعثهم ليضربوا أبشارهم ويحلقوا أشعارهم فمن ظلم أمير فلا امرة عليه دونى حتى آخذ له بحقه قال عمرو بن العاص الله الله يا أمير المؤمنين ان أدب رجل من رعيته انك لتقصه منه فقال عمر كيف لا اقصه منه وقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه (فاما القصاص بين البهائم) فاختلف الناس فى حشرها وفى جريان القصاص بينها فكان ابن عباس يقول حشرها موتها قال وحشر كل شئ الموت الا الجن والانس فانهما يوافيان يوم القيامة وقال معظم المفسرين انها تحشر ويقتص منها قال ابن حبيب تحشر البهائم وقال قتادة يحشر كل شئ حتى الذباب وقال أبو الحسن الاشعرى لا تقطع باعادة البهائم والمجانين ومن لم تبلغه الدعوة ويجوز ان يعادوا ويدخلوا الجنة ويجوز ان لا يعادوا والدليل على ثبوت الاعادة فى الجملة قوله تعالى واذا الوحوش حشرت وقال تعالى وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم الى ان قال ثم الى ربهم يحشرون (وروى) مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء وقال ابو ذر انتطحت شاتان عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال أتدرون فيما انتطحتا قلت لا أدرى قال لكن الله يدرى وسيقضى بينهما قال أبو ذر لقد تركنا النبى صلى الله عليه وسلم وما يقلب طائر جناحيه فى السماء الا ذكر لنا منه علما وقال أبو ذر ان الحجر ليسئل عن نكبه اصبع الرجل وفى الحديث الصحيح فى مسلم والبخارى وغيرهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لا ياتينى أحدكم على رقبته بعير له رغاء على رقبته بقرة لها خوار على رقبته شاة تيعر ثم بسط لها بقاع قرقر فتطؤه باظلافها وتنطحه بقرونها كلما مرت عليه أولاها عادت أخراها والحديث وارد فى مانع الزكاة وقال ابو الحسن لا يجوز المقاصة بين البهائم لانها غير مكلفة ولا يجرى عليها القلم قال وما ورد فى ذلك من الاخبار نحو قوله صلى الله عليه وسلم يقتص للجماء من القرناء ويسئل العود لم خدش العود فعلى سبيل المثل والاخبار عن شدة التقصى فى الحساب وانه لا بد ان يقتص للمظلوم من الظالم وابى ذلك الاستاذ ابو اسحق الاسفرايني قال فى الجامع الجلى يجرى القصاص بينها قال ويحتمل انها كانت تعقل هذا القدر فى دار الدنيا فلهذا اجرى فيه القصاص وكلام الاستاذ له وجه فى الصحة لان البهيمة تعرف النفع والضر فتنفر من العصا وتقبل الى العلف وينزجر الكلب اذا زجر ويستأنس اذا أشلى والطير والوحش يفر من الجوارح استدقاقا لشرها ثم ان لم يجر عليها القتل فى الدنيا فانما رفع القتل عنها فى الاحكام فان قيل القصاص انتقام وهو جزاء على جناية وقعت من مخالفة الامر والبهائم ليست بمكلفة ولا لها عقول ولا جاءها رسول والعقول عندكم لا يجب بها شئ على العقلاء فضلا عن البهائم وفى هذا انفصال عن قول الاستاذ انها

كانت تعقل هذا القدر اذ لا يجب بالعقل شئ ويشهد له قوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فالجواب انها ليست مكلفة لان من ضرورة التكليف ان يعلم الرسول والمرسل وذلك من خصائص العقلاء وهم الثقلان واذا لم تكن مكلفة كانت فى المشيئة يفعل الله بها ما اراد كما يتسلط عليها فى الدنيا الاستخدار والذبح فلا اعتراض عليه ولله تعالى ان يفعل فى ملكه ما اراد من تنعيم وتعذيب واذا جاز ان يؤلم البهيمة ابتداء جاز ان يؤلمها بعد حياتها والآية محمولة على من يعلم الرسول والمرسل ثم ان لم يجر عليهم القلم فى الدنيا فانما رفع القلم عنها فى الاحكام ولكن فيما بينها تؤاخذ وقد روى البخارى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اقتلوا الوزغ فانه كان ينفخ على ابراهيم عليه السلام فهذه بجماعة وقعت على سوء صنيع جنسها وفيه دليل على ان الله تعالى ان يعذب بملكه لا بالمعصية وقد ضرب موسى عليه السلام الحجر الذى مر بثوبه وبنو اسرائيل ينظرون عورته رواه البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فضربه بعصاه والحجر يفر وموسى يقول ثوبى حجر ثوبى حجر قال ابو هريرة فوالذى نفسى بيده انه لندب بالحجر ستة او سبعة وروى فى تفسير قوله تعالى وقودها الناس والحجارة انها الحجارة التى تكسر الناس فى الدنيا وروى ان المسيح عليه السلام مر بجبل فسمع انينه فسأله عن ذلك فقال سمعت الله يقول وقودها الناس والحجارة فلا ادرى اكون من تلك الحجارة ام لا وقد تأول بعضهم قول ابن عباس حشرهاموتها لتحشر لضرب من القصاص بينها ثم تصير ترابا قلت وتأويل ابن عباس بعيد لان الحشر الجمع وليس فى موتها جمعها بل فيه تفرقتها وتفرقة اجزائها ثم قد قال والى ربهم يحشرون وانما يكون الحشر الى الرب تعالى باعادة الحياة اليها وجمعها الى ربها

(الباب التاسع والخمسون فى الفرج بعد الشدة)

قال الله تعالى وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وقال سبحانه امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء وقال تعالى ان مع العسر يسرا وقال الحسن لما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم أبشروا فقد جاءكم اليسر لن يغلب عسر يسرين وقال ابن مسعود والذى نفسى بيده لو كان العسر فى جحر لطلبه اليسر لن يغلب عسر يسرين ومعنى هذا أنه عرف العسر ونكر اليسر ومن عادة العرب اذا ذكرت اسما معرفا ثم أعادته كذلك فهو هو واذا نكرته ثم كررته كذلك فهما اثنان وقال بعضهم

ان يكن نالك الزمان بلوى * عظمت عندها الخطوب وجلت
وتلتها قوارع ناكيات * سئمت دونها الحياة وملت
فاصطبر وانتظر بلوغ مداها * فالرزايا اذا توالت تولت
واذا أوهنت قواك وجلت * كشفت عنك جلة فتجلت

وقال ابن عباس أول ما اتخذ النساء النطق من قبل ام اسمعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها ابراهيم وابنها اسمعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفا ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسمعيل فقالت يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى ليس فيه أنيس ولا شئ فقالت ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها فقالت

له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل البيت بوجهه ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال رب اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسمعيل ترضع اسمعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي هل ترى أحدا فلم تر أحدا ثم سعت سعي الانسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت ان كان عندك غواث فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف فقال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسمعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف لكانت عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة فان ههنا بيت الله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله (ومنها قصة الثلاثة الذين خلفوا) وذلك ان كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية تخلفوا عن غزوة تبوك ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلام الثلاثة قال كعب فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لنا الارض بما رحبت فما هي التي أعرف وكنت أطوف في الاسواق وأشهد الصلاة مع المسلمين ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام لا حتى اذا طال ذلك علي من جفوة الناس تسورت جدار حائط ابي قتادة وهو ابن عمي واحب الناس الي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فلما تمت خمسون ليلة من يوم نهى رسول الله عن كلامنا صليت صلاة الفجر وانا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا انا جالس على الحالة التي ذكر الله تعالى قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الارض بما رحبت وما كان من شيء أهم علي من ان أموت فلا يصلي على النبي او يموت النبي صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس في تلك المنزلة لا يكلمني أحد ولا يصلي علي فأنزل الله توبتنا فسمعت صوت صارخ من اعلى الجبل يا كعب بن مالك ابشر فخررت ساجدا لله تعالى وعرفت ان قد جاء الفرج فجعلت نوبي على الصارخ بشراه ووالله ما ملكت غيرهما ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وهو يبرق وجهه من السرور فقال ابشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك فقلت يا رسول الله ان من توبتي ان أنخلع من مالي صدقة الى الله تعالى والى رسوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك (وروي) ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم لما شب ودرج في موضع ربي فيه فلما جن عليه الليل رأى كوكبا يقال انه رأى الزهرة فقال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل بعد طلوع الفجر قال لئن لم يهدني ربي لا كونن من القوم الضالين فلما أصبح ورأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله

وقد هدان يعني الى الاسلام ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيأ وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون فقالوا يا ابراهيم أما تخاف من آلهتنا أن تصيبك بسوء ان أنت سببتها أو عبتها فقال وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون وكان آزر يصنع أصناما يعبدها قومه ثم يعطيها ابراهيم يبيعها فيكسرها ويذهب بها الى نهر لهم فيصيبها فيه على رؤسها ويقول لها اشربي استهزاء بها واظهارا لقومه فساد ما هم عليه فقشا ذلك عندهم من غير أن يبلغ ذلك نمرود فقال ما بد أقومه ان نظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم يعني من الغيظ عليهم وعلى أصنامهم فظنوا انه مطعون وكانوا يفرون من الطاعون اذا سمعوا به فتولوا عنه مدبرين فراغ الى آلهتهم فدخل عليها وهم قد وضعوا لها طعاما وشرابا فقال الا تأكلون مالكم لا تنطقون فاقبل عليهم ضربا باليمين وكسرها وقطع أيديها وأرجلها حتى جعلها جذاذا وأراق طعامها وشرابها وعمد الى الناس فعلقه بيد الههم العظيم ثم خرج عنها وتركها فلما رجع قومه من عيدهم دخلوا بيت أصنامهم فلما رأوا ما صنع بها راعهم ذلك واعظموه وقالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين فقال بعضهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم سمعناه يسبها ويستهزئ بها فقال نمرود فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون فلما أتى بابراهيم صلى الله عليه وسلم قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون فالوا انا قد ظلمناه بما نسبنا اليه ثم قالوا وقد عرفوا انها لا تضر ولا تنفع لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيأ ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون فقال له نمرود حين سمع ذلك منه صف لنا الهك الذي تعبده وتدعو الى عبادته قال ابراهيم ان ربي الذي يحيي ويميت قال نمرود وانا أحيي وأميت قال كيف ذلك قال آخذ رجلين قد استوجبا القتل في حكمي فاقتل أحدهما فاكون قد أمته واعفو عن الآخر فاكون قد أحييته فقال ابراهيم ان كنت صادقا فاتي الذي قتلت بن عمك وأخرج زوجا من جند من غير ان تقتله ان كنت صادقا وان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت عند ذلك نمرود ولم يرد الى ابراهيم شيأ وأمر به الى السجن فلبث فيه سبع سنين وجعل يدعو أهل السجن الى الله تعالى والى الاسلام حتى ظهر أمره وفشا واتبعه قوم كثير على دينه فلما أرادوا ان يحرقوا ابراهيم واجتمع أمرهم على ذلك بنوا حيزا طول جداره ستون ذراعا وضعوه الى سفح جبل منيف لا يرام ولا يرقا وبلطوا الجدار فلا يعشى فيه أحد الا زلق عنه وأذن مؤذن نمرود أيها الناس احتطبوا النار لابراهيم ولا يتخلفن عنها ذكر ولا أنثى ولا حر ولا عبد ولا شريف ولا وضيع ومن تخلف عن ذلك ألقي في تلك النار فعدوا في ذلك أربعة ليلة حتى ان المرأة منهم لتنذر ذلك على نفسها ان رجع غائبها أو أفاق عليلها حتى اذا كمل ذلك قذفوا فيه النار حتى انه كان يسمع وهج النار على المسافة البعيدة فلما بلغ ذلك وضع ابراهيم في كفة المنجنيق قال وهب بن منبه فيما بلغني ان السماء والارض والجبال وما فيها ضجوا الى الله تعالى ضجة واحدة قالوا يا ربنا ليس في أرضك أحد يعبدك غيره فأذن لنا في نصرته فأوحى الله تعالى اليهم ان استغاث بشيء منكم فانصروه وأغيثوه وان دعاني فانا

وليسه وناصره فلما وضعوه فى كفة المنجنيق وقذفوه قال حسبى الله ونعم الوكيل اللهم انك تعلم ايمانى بك وعداوتى قومى فيك فانصرنى عليهم ونجنى من النار فاوحى الله تعالى الى النار ان كونى بردا وسلاما على ابراهيم فاطاعت النار ربها ولولم يقل سلاما لمات من شدة البرد ولبث ابراهيم فى النار سبعة أيام وظن قومه انه قد احترق ثم قال نمرود انظروا ماذا فعل ابراهيم فانى رأيت الليلة فى نومى ان جدار هذا الخيز قد تهدم وخرج ابراهيم يمشى قال وذاب النحاس الذى سد به باب الخيز واحترق الجدار فصار رمادا فاطلعوا على ابراهيم فرأوه صحيحا سليما وخرج الى الناس ينظرون اليه على تلك الحال فلما رآهم خرج يمشى حتى قعد الى أمه وهى فى الجمع وأقبلت ساورة وكانت أول من آمن به حتى جلست اليه فقالت يا ابراهيم انى آمنت بالذى تجعل النار بردا وسلاما قالت لها أم ابراهيم احذرى القتل على نفسك فقالت اليك عنى فانى لا أخاف شيأ وقد آمنت بالله ابراهيم وحول ابراهيم جمع من الناس لا يحصى عددهم يأتمرون ليجددوا له عذابا فارسل الله تعالى ريحا عاصفا فسفت رماد تلك النار فى وجوههم وعيونهم فقروا عنه وقام ابراهيم داعيا الى الله تعالى ومذكرا به وقال مجاهد وقتادة وغيرهما ان نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام انطلق الى الحمام ومعه جنى يقال له صخر ولم يكن سليمان عليه السلام يدخل الخلا بالخاتم فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه فالقاه فى البحر فالتقمته سمكة ونزع ملك سليمان منه وألقى على الشيطان شبه سليمان فجاء فجلس على كرسيه وسلط على جميع ملك سليمان غير نسائه فجعل يقضى بين الناس والناس ينكرون قضاياه حتى قالوا لقد فتن نبى الله سليمان ومكث على ذلك أربعين يوما ثم أقبل فى حالته تلك وهو بائع فانع حتى انتهى الى صيادين فى البحر فاستطعم أحدهم من صيده وقال له انا سليمان فقام اليه بعضهم فضربه بعصا فشج وجهه فجعل يغسل دمه على شاطئ البحر فلام الصيادون صاحبهم على ضربه اياه ثم اعطوا سليمان سمكتين مما قد تغير عندهم وتنن ولم يشغله ما كان فيه من الضرب عن أن يقوم الى شاطئ البحر فشق بطونهما وغسلهما فوجد خاتمه فى بطن أحدهما فاخذه فلبسه فرد الله عليه بهاءه وملكه وجاءت الطير فحامت عليه فعرف القوم انه سليمان فجاؤا يعتذرون اليه (وروى) وهب بن منبه ان الله تعالى وهب لابراهيم اسحق فلما كان ابن سبع سنين أوحى الله تعالى الى ابراهيم ان يذبحه وان يجعله قربانا فكتم ابراهيم ذلك عن اسحق وأمه وجميع الناس وأسره الى خليله له يقال له العازر وكان أول من آمن به من قومه يوم أحرق فقال له ان الله سبحانه رفع اسمك فى الملا الاعلى على جميع أهل البلاء حتى كنت أرفعهم بلية ليرفعك الله بقدر ذلك فى المنازل والفضائل وقد علمت أن الله تعالى لم يبتلك بذلك ليفتنك ولا ليضلك فلا يسوأن بالله ظنك وأعوذ بالله ان يكون ذلك حتما منى على الله تعالى أو سخطا بحكمه الذى حكم على عباده ولكن هذا حسن الظن بالله فان عزم ربك على ذلك فكن عند احسن علمك به ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فتعزى ابراهيم عليه السلام بقوله واسنده رأيه وبصيرته وانطلق باسحق فلما صعد الجبل ومعه السكين والحبل وأداة القربان قال له اسحق يا ابت أرى معك اداة القربان ولا أرى قربانا قال ابراهيم يا بنى القربان بعين ربك ينظر اليه وان شاء رحم أباك فلم يفطن اسحق فلما وافى رأس الجبل قال ابراهيم يا بنى ان الله تعالى أمرنى ان اذبحك وأجعلك

قربانا يرفعك اليه ويتقبله فانظر ماذا ترى فتمثل اسحق واستبشر فقال له والده لقد فجعتك يا بني بامر ناجع به والده وانى لارى من سرورك بذلك وشكرك لربك أمرا ارجو به العافية والفرج فقال يا أبت لم يكن شئ من الدنيا أحب الى من البر بك وبامى وقد حز منيه ربي فاذا أردت ذبحي فاشدد وثاقي فانى اخاف حين يقارفني عقلي واجد الم الحديد ان يتحرك مني عضو فموذيك وأنا أكره أن أختم بذلك على فاذا فرغت من أمرى فاقرئ أمي السلام وقل لها لا تجزعي فقد أكرم الله لك ابنك في جنانه فلما فرغ من وصيته محمد ابراهيم صلى الله عليه وسلم اليه فصبه بعمامته ما بين منكبيه الى الكعبين ثم كبه لوجهه وكره ان يستقبل وجهه كي لا تدركه له رحمة اذا هو تشحط فادخل يده من تحت حلقه فلما أراد أن يحز انقلب السكين فاوحى ابراهيم في نفسه ثم عاد الثانية فلما أراد ان يحز انقلب السكين ونودي يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم هذا فداء ابنك قد فداه الله لك به فنظر ابراهيم خلفه فاذا بكبش قد لوى قرنه الايمن على ساق شجرة فوجهه ابراهيم الى القبلة وقبلته يومئذ مكة فذبحه ابراهيم وقد سبه اسحق فلما فرغ امنه وضعاه قربانا فرفعه الله اليه وتقبله (قال أبو هريرة) ولما صار يوسف عليه السلام الى مصر واسترق بعد الحرية جزع جزعا شديدا وجعل يبكي الليل والنهار على أبويه واخوته ووطنه وما ابتلي به من الرق فاحيا ليلة من الليالي يدعو ربه تعالى وكان من دعائه ان قال يا رب اخرجتني من أحب البلاد الي وفرقت بيني وبين اخوتي وأبوي ووطني فاجعل لي في ذلك خيرا وفرجا ومخرجا من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب وحبب الي البلاد التي انا فيها وحببها الى كل من يدخلها وحببني الى أهلها وحببهم الي ولا تعتني حتى تجمع بيني وبين أبوي واخوتي في يسر منك ونعمة وسرور تجمع لنا به خير الدنيا والآخرة انك سميع الدعاء فاتى يوسف في نومه فقيل له ان الله تعالى قد استجاب لك دعاءك وأعطاك منالك وورثك هذه البلاد وسلطانها وجمع اليك أبويك واخوتك وأهل بيتك فطب نفسا واعلم ان الله تعالى لن يخلف وعده وبدعاء يوسف صارت مصر محبوبة يحبها من دخلها فلا يكاد يخرج منها قال قتادة ما سكنها نبي قبله ولما جمع الله شمله وتكاملت النعمة عليه اشتاق الى لقاء ربه فقال رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد الى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الاموال ضيق على يزيد بن أبي مسلم فلما ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة ولى يزيد بن أبي مسلم افريقية فاستعفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبي مسلم فاتى به في شهر رمضان عند المغرب وفي يد ابن أبي مسلم عنقود عنب فقال له يزيد حين دنا منه محمد قال نعم قال اما والله لطالما سالت الله تعالى ان يمكنني منك بغير عهد ولا عقد فقال محمد وانا والله فطالما سالت الله ان يجيرني منك ويعيذني فقال يزيد فوالله ما أجارك ولا اعاذك وان سابقني ملك الموت الى قبض روحك لسبقته والله لا أكلت هذه الحبة حتى أقتلك فأقام المؤذن الصلاة فوضع يزيد العنقود وتقدم ليصلي وكان أهل افريقية قد اجتمعوا على قتله فلما ركع ضربه رجل على رأسه بعمود فقتله وقيل لمحمد بن يزيد اذهب حيث شئت فسبحان من قتل الامير وأحيا الاسير سنة الله التي قد خلت في عباده طلوع الحياة من شفار

الموت وحضور الموت من معدن الحياة (وروى) ان سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم فارسل الى قائد البحر وقال انفذ الآن مركبا الى افريقية يأتوني باخبارها فعمر القائد المركب وأرسله لحينه فلما أصبحوا اذا بالمركب فى موضعه لم يبرح فقال له الملك أليس قد فعلت ما أمرتك به قال نعم قد امتثلت أمرك وأنفذت المركب فرجع بعد ساعة وسيحدثك مقدم المركب فجاء ومعه رجل فقال الملك ما منعك ان تذهب حيث أمرتك قال ذهبت بالمركب فبينا انا فى جوف الليل والبحار ون يقذفون اذا أنا بصوت يقول يا الله يا الله يا غياث المستغيثين يكررها مرارا فلما استقر صوته فى اسماعنا نادى بناه مرارا يا لبيك يا لبيك وهو ينادى يا الله يا غياث المستغيثين ونحن نجيبه يا لبيك يا لبيك وقذفنا المركب نحو الصوت فالقينا هذا الرجل غريقا فى آخر رمق من الحياة فاخذناه من البحر وسألناه عن حاله فقال كنا مقلعين من افريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام ومازلت أسبح حتى وجدت الموت فلم أشعر الا بالعوث من ناحيتكم فسبحان من أسهر سلطانا وأرق جبارا فى قصره لغريق فى البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الوحشة لا اله الا أنت سبحانك (وأخبرنى) رجل كان امام المسجد الجامع بالاسكندرية قال كنت بصقلية أيام فتن العدو فزحف الينا فى البحر سفن تقارب ثلثمائة سفينة وأرست فى الساحل فرأينا أمرا مهولا وفينا الشيخ الصالح العابد ابن المستطارى فلما رأى الناس اليه واستجمعوا حوله يتبركون به ويتنظرون الفرج على يديه قال فنظر الى السماء حينا وسجد وعفر خديه بالارض يقلبهما عينا وشمالا قال فوالله ماذهبنا حتى هبت ريح مزقتها كل ممزق فلم يجتمع منها اثنان (وأخبرنى) أبو القاسم بن فاتك رحمه الله قال كنت فى طريق الحجاز فعطش الناس فى مفازة فتبولنا فوقفت الماء ولم يوجد الا عند صاحب لى جمال فجعل يبيعه بالدنانير بارفع الاثمان فجاء رجل كان موسوما بالصلاح عليه مقطعة يحمل ركوة ومعه شئ من دقيق فتشفعنا الى الجمال ليبيعه الماء بذلك الدقيق فكلمته فابى على ثم عاودته فابى قال فبسط الرجل النطع فى الارض ونثر عليه الدقيق ثم رمق السماء وقال الهى انا عبدك وهذا دقيقك ولا أملك غيره وقد أبى ان يقبله ثم ضرب بيده فى النطع وقال وعزتك لا برحت حتى أشرب فوالله ماتفرقنا حتى نشأ السحاب فامطر اللبن فشرب الماء ولم يبرح فكان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم رب اشعث اغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره (وأخبرنى) شيخ حسن ممن كان يصحب العلماء بالقيروان يقال له حريز قال أخبرنى عبد الكافى الديباجى قال رأيت بالقيروان آية عظيمة وذلك ان رجلا جاء يصبى له وقد أسكت فلا يتكلم فدخل به الى الفقيه أبى بكر بن عبد الرحمن وقال له ان ابنى هذا قد أسكت منذ أيام فلا يتكلم فادع الله ان يفرج ما نزل به قال فدعا الشيخ ساعة ثم مسح وجه الصبى فاستفاق الصبى فقال له قل لا اله الا الله فقال الصبى أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ثم التفت الى الرجل وقال اكتمها على الى الموت ثم التفت الى جاريته فقال اكتمى على هذا الى الموت وأتت حرة فلما كان يوم توفى الشيخ أبو بكر واجتمع الناس لجنازته وتكاثرت الامم قام الرجل فاستنصت الناس فسكتوا فقال يا أهل القيروان اسمعوا قصتى مع هذا الشيخ وذكر الحديث كما سقناه (وحدثنى) هذا الشيخ قال نزل عندنا بالقيروان قصة لم يسمع فى السالفين مثلها وذلك ان بعض الجزارين اضجع كبشا ليذبحه فتخبط بين يديه فافلت منه وذهب فقام الجزار يطلبه

وجعل يمشي الى أن دخل خربة فاذا فيها رجل مذبوح يتخبط في دمه فقزع وخرج هاربا واذا صاحب الشرطة والرجالة عندهم خبر القتيل وجعلوا يطلبون خبر القاتل والمقتول فأصابوا بيده السكين وهو ملوث بالدم والرجل مقتول بالخربة فقبضوه وجاءوه الى السلطان فقال له أنت قتلت الرجل قال نعم قال هاتوا لي يستنطقونه وهو يعترف اعترافا لا اشكال فيه فأمر به السلطان بقتل فاخرج للقتل واجتمع الامم ليبصروا قتله فلما هموا بقتله اندفع رجل من الحلقة المجتمعين فقال لهم لا تقتلوه انا قاتل القتيل فقبض ورجل الى السلطان فاعترف وقال انا قتلته فقال له السلطان قد كنت معافى من هذا فما حملك على الاعتراف قال رأيت هذا الرجل يقتل ظلما فكرهت ان الله تعالى يدم رجلين فأمر به السلطان فقتل ثم قال للرجل يا أيها الرجل ما دعاك الى الاعتراف بالقتل وأنت بريء قال الرجل فما حيلتي رجل مقتول بالخربة وأخذوني وأنا خارج من الخربة ويدي السكين ملطخة بالدم فان أنكرت من يقبلني وان اعتذرت من يعذرني فخلى سبيله وانصرف مكرما (ولما وزر فخر الملك) نظام الدين لسنجار الملك وكان لفخر الملك ابن عم يقال له شهاب الملك وكان يخاف منه على منزلته فقال للملك سنجار لا حيا لي معك الا أن تقتل ابن عمي شهاب الملك فابى سنجار فمازال يراجعه الى ان أمر به فحبس في بلد يقال لها بيهق وكان والي ذلك البلد بكرمه لجلالته وجلالة أهل بيته واخلى له دارا في القلعة مشرفة ثم جعل فخر الملك يفسد قلب سنجار ويحمله على قتل شهاب الملك الى أن أرسل سنجار الى واليه بقتل شهاب الملك فاستعظم الوالي قتله وأخره أياما ثم جدد امن قتله فعزم على قتله في يوم جمعة فبينما شهاب الملك يطلع من طاقات الدار اذا بفارس ركض فاوجس في نفسه خيفة منه وقال هذا يريد أن يقتلني فوصل الفارس وقال مات فخر الملك فخلى سبيل شهاب الملك ثم وزر لسنجار فسبحان الفعال لما يريد (أخبرني) أبو الفضل المعبر بمصر قال كان بمصر مملوك بني حمدان وكان الرئيس ناصر الدولة وكان يشكو وجع القولنج فأعيا الاطباء ولم يوجد له شفاء ثم ان السلطان دس على قتله فارصد له رجل معه خنجر فلما جاء في بعض دهاليز القصر وثب عليه الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة في أسفل خاصرته فأصاب طرف الخنجر المعى الذي هو القولنج فخرج ما فيه من الخلط ثم عافاه الله تعالى فصح وبرئ كاحسن ما كان (ولما كنت بالاسكندرية) نزلت سفن العدو بساحل مدينة برقا فأخذوا قوما من المسلمين وقتلوا بعضهم وأسروا بعضهم فأخذ رجل منهم وشد كأنه من خلفه فلما نهبوا السفينة عمد اليه بعض الاعلاج فرفصه وألقاه في البحر ثم طعنه برمح كان معه ثم مخطئ نصل الرمح حبل الكتاف فقطعه والمحلت يدا الرجل فسبح حتى لحق بالشاطئ سليما ووصل الى الاسكندرية في عافية (وحدثني) بعض الشاميين ان رجلا خبازا بينما هو يخبز في تنور بمدينة دمشق اذ عبر عليه رجل يبيع المشمش قال فاشترى منه وجعل يأكل بالخبز الحار فلما فرغ سقط مغشيا عليه فنظروا فاذا هو ميت فجاءوا يتربصون به ويحملون له الاطباء فيبلسون دلائله ومواضع الحياة منه فقضوا بانه ميت فغسل وكفن وحمل الى الجبانة فبينما هم خارجون به من باب المدينة استقبلهم رجل طبيب يقال له البيرودي وكان طبيبا ماهرا حاذقا بالطب فسمع الناس يلهجون بقصته فقال لهم حطوه حتى أراه قال فحطوه وجعل يقلبه ويتطرف أمارات الحياة التي يعرفها ثم فتح فمه وسقفه شيأ أو قال حقنه فاندفع ماهنالك يسيل واذا الرجل قد فتح

عينيه وتكلم وعاد كما كان الى دكانه (وكان رجل) يمشي ببغداد فبينما هو في الطريق اذ ابدا رقد وقعت عليه نخرت كالجبل العظيم واذا في الحائط طاقة فخاطت وأسه فصارت الدار كوما وخرج الرجل من الطاقة سليما (وحدثني) أبو القاسم الحضرمي قال كنت باليمن في أرض الصليحي فوشي بي الى السلطان فأمر بقتلي فاخرجت وقدمت للقتل وتركني السياف ثم قال لي مدر قبتك فقدت عنق لقضاء الله تعالى ثم قال لي السياف اشتد فقلت دونك ياهذا فبينما نحن كذلك اذ اصائح من داخل القصر لا تقتلوه لا تقتلوه فخلوا سبيلي (وجرت بقرطبة قصة غريبة) في أيام المنصور بن أبي عامر وذلك ان رجلا يعرف بقاسم بن محمد السنبسي شهد عليه بالزندقة فحبسه المنصور مدة مع جماعة من الادباء من وجوه قرطبة مرموقون بالانهماك والزندقة وكان ينادي عليهم في كل جمعة يوقفون اثر صلاة الجمعة بباب الجامع الاعظم من كانت عنده شهادة فيهم فليؤدها فثبت على قاسم عند القاضي سجل شهادات الشهود بانواع منكرة تتضمن الزندقة والكفر فطلعوا الى القصر وعقدوا مجلسا عظيما واستشير الفقهاء فيه فاوجبوا قتله فاستحضر قاسم فحضر وحضر أبوه وحضر ابنان صغيران لقاسم ولبسوا ثياب الحداد وحمل أبوه معه نعشا وحبالين وحمل أبوه والصبيان يبكون على باب القصر واحدر لضرب عنقه بالسيف يعرف بابن الجندي ودفعت اليه اسياف من القصر فجعل يروزهما ويلبس شفارها وأبوه وابناه ينظران وحضر الفقيه أبو عمر والمكودي الاشبيلي على كرسه وكان بأبي الحضور فاستفتوه فقال ياهؤلاء ان الدماء لا تسفك الا بالحق الواضح دون الشبه احبسوا ان السنبسي فروجا عاد اتذبحونه فقال القاضي ابن الشرفي بماثبت عندي وأمعنت النظر فيه قال الفقيه أوقفني عليه فاخذ السجل ونظر فيه فقال أخبرني بمن قتلته من هؤلاء الشهود قال بهذا وهذا حتى عد خمسة قال الفقيه فبمسمعهم تقتله قال نعم قال فاوشهد منهم اثنان خاصة كنت تقتله قال لا انما قوي بعضهم بعضا وزكى أكثرهم عندي فالتفت الفقيه الى الفقهاء المشاورين فقال ياهؤلاء بالدعائم يقتل المسلمون عندكم ويسفك دماؤهم فلست أرى قتله ولا اشير به فرجع الفقهاء الى قوله ولم يروا عليه شيأ بعد ما افتوا بقتله منذ سنة أشهر فانفض الجمع وشيم السيف وطار البشير الى ابن أبي عامر فاخبره بالمجلس فقال ابن أبي عامر مصيبتم فقتلوا ابن السنبسي فدفنتم القاضي قد اجتهد نا للدين ولا قاتل لموجل فحبس أياما ثم أطلق فكان ابن ذكوان الفقيه يقول للقاضي في مثل هذا قال القاتل اذا استل يم عرفت الله قال ينقضه عزائمي ومعنى الدعائم على لسان الفقيه هم الشهود الذين لو انفرد منهم اثنان لم يثبت الحكم ولا قبلا فيه فاذا كثروا وقوي بعضهم بعضا فلا يثبت الحكم بهم (وفي نقيض هذا ما حدثني القاضي) أبو مروان الداني بطرطوشة وقد ولي قضاءها قذا كرنا يوما فقال نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فاووا الى دار خراب هنالك ليستكنوا من الرياح والامطار واستوقد وا نارهم وسووا معيشتهم وقرب تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع فقال رجل منهم لاهل القافلة ياهؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ولا تدخلوا هذه البقعة فابوا الا دخولها وبات الرجل منتبذا خارجا عنهم لم يقرب ذلك المكان ثم أصبحوا في عافية وحملوا دوابهم فبينما هم كذلك اذ دخل الرجل الخربة ليستوقد بقية النار فخر عليه الحائط فمات مكانه (ويلغني) عن بعض الفقهاء ان جيشا من الجيوش كان

بطيلسة ناهضا من مكان الى مكان فقعدوا ساعة لبعض شأنهم فاذا عقرب يدب فضربه بعض الجلساء بمقرعة كانت معه ثم رفع المقرعة الى نحو عنقه فاذا بالعقرب قد تشبثت باهداب المقرعة وطولا يمر فلدغته فى عنقه فقضى مكانه (واخبرنى القاضى) أبو الوليد الباجى عن أبى ذر قال كنت أقرأ على الشيخ أبى حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزأ من الحديث فى حانوت رجل يبيع العطر فجاء رجل طواف بطبق يحمله فى يده وأعطاه عشرة دراهم وقال له ادفع الى أشياء مما من العطر فاخذها فى طبقه ومشى فسقط الطبق من يده وتفرق جميع ما كان فيه فبكى الطواف وجزع حتى رحمناه فقال أبو حفص لصاحب الحانوت لعلك تجبر له بعض هذه الاسباب قال نعم فنزل وجمع ما تجمع منها وجبره بما نقص وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له لا تجزع فما مر الدنيا أيسر من ذلك فقال الطواف أتظن أيها الشيخ ان جزعى لضياع ما ضاع لقد علم الله تعالى متى كنت فى القافلة القلانسة فضاع لى هميان فيه أربعمائة دينار أو أربعة آلاف دينار الشك من أبى ذر ومعها فصوص قيمتها مثل ذلك فما جزعت لضياعها ولكن ولدى فى هذه الليلة مولود فاحتجت فى البيت الى ما تحتاج اليه النفساء ولم يكن عندى غير هذه العشرة دراهم فاشفقت أن أشترى بها حوائج النفساء فابقى بغير رأس مال ولا اقدر على التكسب فقلت اشترى بها شيأ وأطوف صدر نهارى فعسى استفضل شيأ أسد به رمقى ويبقى رأس المال انصرف فيه فلما قدر الله تعالى بضياعه جزعت فقلت لا عندى مال أرجع به اليهم ولا ما اكتسب به وعلمت أنه لم يبق لى الا الفرار منهم وتركهم على هذه الحال يهلكون بعدى فهذا الذى أوجب جزعى قال الشيخ أبو ذر وكان رجل من الجند جالسا على باب دار يستوعب الحديث فقال للشيخ أبى حفص أنا أرغب اذا تممت أمره أن تدخل معه عندى وقام فظننا انه يريد ان يعطيه شيأ قال فدخلنا عليه فاذن لنا فقال الجندى للطواف عجبت من جزعك فأعاد عليه القصة فقال الجندى وكنت فى تلك القافلة قال نعم وكان بها من علمائهم الناس فلان وفلان فعلم الجندى صحة قوله فقال له وما علامة الهميان وفى أى موضع سقط منك فوصف المكان والعلامة فقال له الجندى لو رأيته كنت تعرفه قال نعم فاخرج الجندى هميانا ووضعه بين يديه فقال هذا هميانى وعلامة صحة قولى ان فيه من الاحجار ما صفته كذا وكذا ففتح الهميان فوجد الاحجار على ما ذكر فقال الجندى خذ مالك بارك الله لك فيه فقال الطواف هذه الاحجار قيمتها مثل الدنانير أو أكثر فخذ ذات الدنانير فقضى طيبة بذلك فقال الجندى لا آخذ على أمانتى شيأ فدخل الطواف وهو من الفقراء وخرج وهو من الاغنياء فبكى الجندى بكاء شديدا وانتحب فقال له أبو حفص علام تبكى وقد أدى الله أمانتك وقد بذل لك مالا كثيرا وان شئت عرضنا عليه ان يعيده عليك فقال ما أبكى لذلك وانما أبكى لانى اعلم انه قد حان أجلى فانه ما كان بقى أمل أؤمله ولا أمنية أتمناها الا ان يأتينى الله بصاحب هذا المال فيأخذه فلما قضى الله تعالى ذلك بفضله ولم يبق فى أمل علمت انه قد حان أجلى قال الشيخ أبو ذر فما انقضى شهر حتى توفى وصلينا عليه (قال القاضى) وحدثنى أبو القاسم بن الحسين بالموصل قال لقد جرت ههنا فى هذا المسجد وهذه الدار والحانوت وأشار اليها قصة عجيبة كان يملك هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر الى الكوفة فى تجارة الخز فبينما هو يحمل الخز فى خرجه على حماره وهو جميع ماله نزلت القافلة فاراد انزاله عن الحمار فثقل عليه فامر انسانا

هنالك فأعانه على انزاله ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فأجابه وأكل معه ثم سأله عن أمره فأخبره انه رجل خرج من الكوفة لامر أزعجه دون زاد فقال له الرجل تكون معي وتعينني على سفري ويكون طعامك عندي فقال الرجل انى حريص على خدمتك ومحتاج الى طعامك فسار معه فى طريقه تخدمه على أحسن حال قال فوصلا تكريت فنزلت الرفقة خارج المدينة ودخل الناس لقضاء حوائجهم فقال الرجل للغادم احفظ رحلنا حتى ادخل واشترى حاجتنا ثم دخل وقضى حوائجه فابطأ هنالك ثم خرج فلم يجد الرفقة ولا وجد صاحبه فظن انه لما رحلت الرفقة رحل معها فلم يزل يسعى حتى وصل الى الرفقة بعد الجهد فسألهم عن صاحبه فقالوا ما جاء معنا ولا رأيناه ولكنه ارتحل الاسباب على الحمار ودخل على أثرك وظننا لك أمر به بذلك فكر الرجل راجعا الى تكريت وسأل عنه فلم يجد له أثرا ولا سمع له خبرا فيئس منه وسار الى الموصل مسلوب المال فوافاها نهارا راجلا عريانا فقيرا مجهودا فاستحيا أن يدخل نهارا فيشمت العدو ويحزن الصديق فبقى حتى أمسى ثم دخل فدق باب الدار فقيل من هذا فقال فلان يعنى نفسه فاظهروا سرورا عظيما وحاجة اليه وقالوا الحمد لله الذى جاء بك فى هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة والفاقة حملت جميع مالك وطال سفرك واحتاج أهلك وتد ولدت اليوم ولدا ووالله ما وجدنا ما نشترى به شيأ للنفساء ولقد كانت هذه الليلة طاوية على حالها فتحيل لنا فى دقيق ودهن نسرج به فلا سراج عندنا فزاده ذلك غما وكره ان يخبرهم بحاله فيحزنهم وأخذ وعاء للزيت وجرابا للدقيق وخرج الى هذا الحانوت وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحوه وقد أغلق دكانه واطفأ مصباحه وقام فناداه فاجابه وعرفه وشكر الله على سلامته فقال التاجر لصاحب الحانوت اقدح زنادا ازن لك الدراهم فى دقيق وزيت وعسل احتجت اليه الساعة وكره ان يخبره بنا خير الثمن فيمتنع منه فقدح البياع الزناد واستصبح فقال له التاجر زن لى من الدقيق كذا ومن الزيت كذا ومن العسل كذا ومن السمن كذا ومن الملح كذا وبينما هو كذلك اذ حانت منه التفاتة الى قعر الحانوت فرأى فيه حرجه الذى هرب به صاحبه فلما تيقن ان ثوب عليه والتزمه وألقى يديه فى أطواق صاحب الحانوت وجذبه الى نفسه وقال يا عدو الله أين مالى فقال له صاحب الحانوت مالك يا فلان فوالله ما علمتك متعديا ولا علمتنى جنيت عليك ولا على سوالفنا هذا قال خرجى فزلى به خادم خدمنى بجميع مالى وبحمارى قال مالى علم غير اتى رجلا ورد على بعد العشاء واشترى منى عشاء واستضافنى فأضفته وجعلت هذا الخرج فى حانوتى وهذا الحمار فى دارجارنا والرجل فى المسجد نائم فقال له اجعل معى الخرج واحمض الى الرجل فرفع الخرج معه وألقاه على عاتقه ومشى معه الى المسجد فاذا الرجل نائم فى المسجد فركسه برجله فقام الرجل مذعورا فقال له مالك فقال له أين مالى يا خائن قال هو ذا على عنقك والله ما تغادر منه ذرة قال فأين الحمار قال هو عندى هذا الجانى معك فنهض الى داره فوجد متاعه سليما واستخرج الحمار من الموضع الذى كان نيه ووسع على أهله وأخبرهم بقصته فزاد أهله فرحا وتبركا بذلك المولود * ولما وفى موسى عليه السلام لصهره شعيب عليه السلام الاجل الذى أجله لرعى غنم شعيب التى رعاها موسى هو رضا عن مهر ابنته أخذ موسى عليه السلام زوجته وكر راجعا من مدين فلما وافى الوادى المقدس عند جانب الطور أجنهم الليل

بظلمته ياسوا باقبين فبينماهم كذلك اذ ضربه زوجته الطلق وكانت حاملا وليس عندهم ماتحتاج اليه النفساء من الغذاء والدواء ومايصلح به شأنهم فبقوا في ضيق من الحال وقلة من الحيلة فخرج موسى عليه السلام يلتفت ويتنظر يمينا وشمالا عسى فرج لما أمسوا فيه من الضر اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها أضيق مايكون ذرعا وأحرجه قلبا وآيسه عن رفق نودى من شاطئ الوادى الايمن يا موسى انى أنا ربك وهكذا الطائف الحق سبحانه مع من سلم لامره وبرجا فضله وتكلم بالهدى ولبشرى يفسح الله فيه أمله ويعطيه فوق ماسأله هذا موسى عليه السلام خرج يقتبس نارا نودى بالنبوة وعى هذا قال علماؤنا ليس فى خصال الخيروان جلت ولا فى انواع الاعمال وان عظمت أعلى من حسن الظن بالله تعالى ونظمه بعض الشعراء فقال

ايها العبد كن لما لست ترجو * من نجاح أرجى لما أنت راج
ان موسى مضى ليقبس نارا * من ضياء رآه والليل داج
فأتى أهله وقد كلم الله وناجاه وهو خير مناج
وكذا الكرب كلما اشتد بالعبد دنت منه راحة الانفراج

(وروى) ان العدو نزل بساحة افريقية فى عدد كثير من المراكب ففنى ماؤهم وعطشوا فنفر المسلمون لهم فى خلق عظيم من تلك السواحل والحصون فمنعوهم النزول لاستسقاء الماء وارسلوا الى المسلمين ان يحملوهم واستسقاء الماء فابوا فاشتد عطشهم حتى أشرفوا على الهلاك فجمعوا أساجيلهم وأخذوا فى الدعاء والاستسقاء الى الله تعالى والتضرع اليه فلم يك بأوشك من السماء ان انفتحت بارواقهائم أرخت ماء كثيرا فبسط القوم اطباقهم وجفانهم وآلاتهم فشربوا وملؤا أوانيهم فضج المسلمون عند ذلك وقالوا هؤلاء كفار واعداء الله ورسوله قد أخلصوا الى ربهم وآثروا اليه وسألوه ماء يحيون به رمقهم فاغاثهم فنحن أحق بالدعاء والتضرع الى الله سبحانه وأولى بالاجابة منهم ثم جد المسلمون فى الدعاء والصلاة والابتهال الى الله تعالى فى أن يريهم آية يقوى بها قلوب الضعفاء ويتزايد شكر أهل المعرفة والاولياء فبينماهم كذلك اذ أرسل الله عليهم ريحا فبددتهم ومزقتهم كل ممزق وكسرت مراكبهم ولم يجتمع منهم اثنان * ومن عجائب صنع الله تعالى فى هذا الباب ان رجلا من ديار بكر جاء الى بيت المقدس وزار قبر الخليل صلى الله عليه وسلم وأكل من ضيافته فطارت حبة عدس من ذلك الطعام فى خيشومه ورام خروجها بكل حيلة فاعجزته حتى تركته مضنى ثم رجع الى بلاده فبينما هو جالس اذ عطس فطارت العدسة فى الارض فاذا طائر قد التقطها وقتها وبرئ الرجل فسبحان من جعل أنف هذا الرجل حرزا لقوت هذا الطائر على بعد الشقة والمسافة * وأما أنا فلما هممت بالرحيل من بلدى الى المشرق فى طلب العلم كنت لا أعرف التجارة ولا لى حرفة ارجع اليها فجزعت من الخروج وكنت أقول ان ذهبت نفقتى ماذا أفعل وكان أقوى الآمال فى نفسى ان أحفظ البساتين بالاجرة وأدرس العلم بالليل ثم استخرت الله تعالى فرحلت وكانت معى نفقة وافرة فى هميان على وسطى وكنت أسمع المسافرين يقولون من نام بالليل فى الضيافى وله نفقة على وسطه فليحلها فان اللصوص اذا كابرت الخلق يبتدرون أوساطهم فخرجت من بلاد السويدية الى انقا [illegible] وهى اذذاك آخر الروم

فيرميها

فسرنا ليلتنا وأصبحنا على باب انطاكية فأخذتني عيني وحللت الهمان ونمت ولم أستيقظ الا ضحوة النهار فاستيقظت ومددت يدي الى الهميان فلم أجده فجعلت أنظر الى القافلة والتفت الى الناس وقد أسقط في يدي ولم يبق لي حيلة فاسترجعت ورفعت أمري الى الله سبحانه واذا رجل من أهل القافلة ملتفتا الي فوقع وجهي في وجهه فاذا هو يضحك لما رأى مابي فقال مالك أيها الفقيه قلت خير فراجعني فقلت خبر فقام الي وقال خذهميانك عافاك الله فسألته كيف ظفر به فقال رأسك قد تدحرجت ذراعين أو ثلاثة والتفت فرأيت سوادا في الموضع الذي كنت فيه فأتممت اليه وأخذته فاذا هو الهميان رحمة الله عليه ورضوانه لديه

الباب الستون في بيان الخصلة التي هي ام الخصال ويتبوع الفضائل ومن فقدها لم يكمل فيه خصلة وهي الشجاعة ويعبر عنها بالصبر ويعبر عنها بقوة النفس

قالت الحكماء أصل الخيرات كلها في ثبات القلب ومنه تستمد جميع الفضائل وهو الثبوت والقوة على ما يوجبه العدل والعلم والجبن غريزة يجمعها سوء الظن بالله تعالى والشجاعة غريزة يجمعها حسن الظن بالله تعالى سئل الاحنف عن الشجاعة فقال صبر ساعة وسئل أبو جهل عن الشجاعة فقال تصبرون على حز السيوف فواق ناقة وهو ما بين الحلبتين واعلم ان القادم للقتال طريدة من طرائد الموت فاستقبال الموت خير من استدباره وقد قال الاول رب حياة سببها التعرض للوفاة ووفاة سببها طلب الحياة ومن حرص على الموت في الجهاد وهبت له الحياة وقالوا الهزيمة شفرة من شفار الموت والقادر يمكن من نفسه والمقاتل يدفع عن نفسه وقالوا ثمرة الشجاعة الامن من العدو واعلم ان من قتل في الحرب مدبرا أكثر ممن قتل مقبلا وقالوا تأخير الاجل حصن المحارب وقيل لبعضهم في أي جنة تحب ان تلقى عدوك قال بادبار دولته وانقضاء مدته واعلم ان الشجاعة لمن كانت له الدولة واذا انقضت المدة لم تغن كثرة العدد وقال علي رضي الله عنه اذا انقضت المدة كانت الهلكة في الحيلة واعلم ان كل كريهة ترفع أو مكرمة تكتسب لا تحقق الا بالشجاعة ألا ترى انك اذا هممت ان تمنح شيأ من مالك خارطبعك ووهن قلبك وعجزت نفسك فشححت به واذا احتقت عزمك وقويت نفسك وقهرت ذلك العجز أخرجت المال المضنون به وعلى قدر قوة القلب وضعفه تكون طيبة النفس باخراجه أو كراهية النفس لاخراجه مع اخراجه وعلى هذا النمط جميع الفضائل مهما لم يقارنها قوة نفس لم تتحقق وكانت مخدوعة وروي ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال الشجاعة والجبن غرائز يضعها الله تعالى فيمن يشاء من عباده فالجبان ينفر عن امه وأبيه والشجاع يقاتل عمن لا يؤبه به الى رحله فبقوة القلب يصاب امتثال الاوامر والانتهاء عن الزواجر وبقوة القلب يصاب اكتساب الفضائل وبقوة القلب ينتهي عن اتباع الهوى والتضجع بالرذائل قال الشاعر

جمع الشجاعة والخضوع لربه * ما أحسن المحراب في المحراب

وبقوة القلب يصبر الجليس على ايذاء الجليس وجفا الصاحب وبقوة القلب يكتم الاسرار ويدفع العار وبقوة القلب يقتحم الامور الصعاب وبقوة القلب يتحمل أثقال المكاره وبقوة القلب يصبر على اخلاق الرجال وبقوة القلب تنفذ كل عزيمة ورويه أوجبها الحزم والعدل وبقوة القلب يضحك الرجال في وجوه الرجال وقلوبهم مشحونة بالضغائن والاحقاد

كما قال أوذرانا لنكسر في وجوه قوم وان قلوبنا لتلعنهم وقال علي رضي الله عنه انا لنصافح أكفا ترى قطعها وليس الصبر والشجاعة وقوة النفس أن يكون مصرا في المحال لجوجا في الباطل ولا ان تكون جلدا عند الضرب صبورا على التعب مصمما على التعزير والتهور فان هذه صفة الحمير والخنازير ولكن ان تكون صبورا على أداء الحقوق عليك صبورا على سماعها والقائها اليك غالبا لهواك مالكا لشهواتك ملتزما للفضائل يجهدك عاملا في ذلك على الحقيقة التي لا يحيلك عنها حياة ولا موت حتى يكون عندك موتك على الخير الذي آثار به العلم وأوجبه العدل خيرا من البقاء على ما أوجب رفض العلم والعدل كما قال علي بن الحسين رضوان الله عليهما يا بني وما يالي أبوك لو ان الخلق خالفوه اذا كان على الحق وهل الخير كله للحق الا بعد الموت ومن هذا قالت حكماء الهند اذا لم يكن للملك من نفسه معين كان في جميع أموره ضعيفا مخذولا واعلم ان الجبن مقتلة والحرص محرمة والعجز ذل والجبن ضعف والجبان يعين على نفسه بفرعن أمه وأبيه وصاحبته وبنيه واعلم ان كل كريهة ما بين الحليتين والشجاع يحمى عن لا ينسبه ويقي مال الجار والرفيق بمهجته والجبان يخاف مالا يخاف به والجبان حتفه من فرقه واعلم ان الشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه رجل اذا التقى الجمعان وتراجف الزحفان واكتحلت الاحداق بالاحداق برز من الصف الى وسط المعترك يحمل ويكر وينادي هل من مبارز والثاني اذا التحم القوم واختلطوا ولم ير أحد من أين يأتيه الموت يكون رابط الجاش ساكن القلب حاضر اللب لم يحامره الدهش ولا خالطته الحيرة فينقلب بقلب المالك لامره القائم على نفسه والثالث اذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوي قلوب أصحابه ويرجع ضعيفهم ويمدهم بالكلام الجميل ويشجع نفوسهم فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كردس فرسه كشف عنه حتى يئس العدو منهم وهذا أحمدهم شجاعة وعن هذا قالوا المقاتل وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم (وقالوا) لكل واحد يومان لا بد منهما أحدهما لا يجمل عليه والثاني لا يغفل عنه فالجبان والفرار * وكان شيوخ الجند يحكون في بلادنا قالوا دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افترقوا فوجدوا في المعترك قطعة من بيضة الحديد قد رثلثها بما حوته من الرأس فيقال انه لم يرقط ضربة أقوى منها * وكان شيوخ الجند في بلدنا طرطوشة يحكون انهم خرجوا في أيام سيف الملة في سرية الى بلاد العدو فبيناهم يسيرون اذ لقيتهم سرية للروم يريدون مناما تريد منهم فاقل وعرف بعضهم بعضا وكان فينا صناديد الفرسان وفيهم صناديد الروم فتوا قفنا ساعة ثم شددنا وشدوا فالتقينا وتجالدنا ساعة ثم منحنا الله تعالى أكتافهم فجعلناهم حصيدا كأنهم جزر على الاوضام وكان هنالك بقربهم قرية فيها شئ من الخمر فشربناه وسكرنا ثم اشتهينا شرائح اللحم فقصدنا نقطع من لحومهم ونجعل على النار وأكلنا منها ففزع من كان أسرناه منهم وبلغ الحديث الى الروم فقضت النصارى تعجبا منا وقذف الرعب في قلوبهم (وروى) ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي عمرو بن معدي كرب فقال له يا عمرو أي السلاح أفضل في الحرب فقال عن أيها تسأل قال ما تقول في السهام قال منها ما يخطئ ويصيب قال فما تقول في الرمح قال أخوك وربما خانك قال فما تقول في السيف قال ذاك الذلاذ أم لك قال فما

تقول فى الترس قال هو الدائرة وعليه تدور الدوائر وكان عمرو هذا من شجعان العرب وابطالها نزل يوم القادسية على النهر فقال لاصحابه انى عابر على الجسر فان أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتمونى وسيفى بيدى أقاتل به تلقاء وجهى وقد عقرنى القوم وأنا قائم بينهم وان أبطأتم وجدتمونى قتيلا بينهم ثم انغمس فحمل على القوم فقال بعضهم لبعض يا بنى زيد على ماتدعون صاحبكم والله ما أرى ان تدركوه حيا فحملوا فانتهوا اليه وقد صرع عن فرسه وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم فامسكها وان الفارس ليضرب فرسه فما يقدر الفرس ان يتحرك فلما غشيناه رمى الرجل بنفسه وخلا فرسه فركبه عمرو وقال أنا أبو نور كدتم والله تفقدونى فالوا أين فرسك قال رمى بنفسه فعار وشب فصرعنى (ويروى) ان عمرا حمل يوم القادسية على رستم وهو الذى قيمه يزدجرد ملك الفرس على قتال المسلمين فاستقبل عمرو رستما على فيل فقطع عرقوبه فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خريك كان عليه فيه أربعون ألف دينار فقتل رستما وانهزمت العجم وروى ان قاتل رستم زنيم بن فلان وأما الضربة التى حكيناها التى حازت ثلث البيضة بما حوته من الرأس فلم يسمع بمثلها فى جاهلية ولا اسلام فحملتها الروم وعلقتها فى كنيسة لهم وكانوا اذا عيروا بانهزامهم يقولون لقينا قوما هذا ضربهم فيرحل أبطال الروم اليها ليروها وانما كانت العرب تفخر فى هذا الباب بقول النمر بن تولب بصف ضربة بسيف

أبقى الحوادث والايام من نمر * آثار سيف قديم أثره بادى
تظل تحفر عنه ان ضربت به * بعد الذراعين والقينين والهادى

وينشد قول النابغة فى السيف أيضا

يقد السلوقى المضاعف نسجه * ويوقد بالصفاح نار الحباحب

وأين هذا من قد الحديد بما حواه من الرأس وأين الثريا من الثرى وأين الحسام من المنجل ولولا كراهة التطويل لذكرنا من أمثال هذا ما فيه العجب وقد قالوا السيف ظل الموت السيف لعاب المنية والرمح رشاء المنية والسهام رسل لا تؤامر من أرسلها والرمح أخول ورب ما خانك والدرع مشغلة للرجل ومتعبة للفارس وانها لحصن حصين والترس يجن وعليه تدور الدوائر

(الباب الحادى والستون فى ذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها)

من حزم الملك أن لا يحقر عدوه وان كان ذليلا ولا يغفل عنه وان كان حقيرا فكم من برغوث اسهر فيلا ومنع الرقاد ملكا جليلا وقال الشاعر

فلا تحقرن عدوا رمالك * وان كان فى ساعديه قصر
فان السيوف تحز الرقاب * وتجهز عما تنال الابر

وفى الامثال لا تحقرن الذليل فربما شرق بالذباب العزيز ومثل العدو مثل النار ان تداركت أولها سهل اطفاؤها وان تركت حتى استحكم ضرامها صعب مرامها وتضاعفت بليتها ومثله أيضا مثل الجرح الردى ان تداركته سهل برؤه وان أغفلته حتى تغل عظمت بليته وأعيا الاطباء برؤه (واعلموا) ان الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتبا ورتبوا فيها ترتيبا فلا يسع أهل سائر الاقاليم جهلها اذ لكل أمة فى الغالب نوع من التدبير وصنف من الحيلة وضرب من المكيدة وجنس من اللقاء والكر والفر وتعبية المواكب وحمل بعضهم على بعض ولكن نصف

منه أشياء تجرى مجرى المعاقد لا تكاد تختلف فى انهاء أزمة الحروب ونبدأ أولا بما ذكره الله تعالى فى القرآن * قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم فقوله تعالى ما استطعتم مشتمل على كل ما فى مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة وفسر النبى صلى الله عليه وسلم القوة فقرر على أناس يرمون فقال الا ان القوة الرمى الا ان القوة الرمى الا ان القوة الرمى وكان بعض أصحابه اذا أراد الغزو لا يقص أظفاره ويتركها عدة ويراها قوة فأول ذلك ان يقدم بين يدى اللقاء عملا صالحا من صدقة وصيام وردمظلمة وصلة رحم ودعاء مخلص وأمر بمعروف وتغيير منكر وأمثال ذلك فقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمر بذلك ويقول انما تقاتلون بأعمالكم وروى ان بريدا ورد عليه بفتح للمسلمين فقال له عمر أى وقت لقيتم العدو قال غدوة قال ومتى انهزم قال عند الزوال فقال عمر انا لله واليه راجعون وقام الشر للايمان من غدوة الى الزوال لقد أحدثتم بعدى حدثا أو أحدثت بعدكم حدثا والشأن كل الشأن فى استجادة القواد وانتخاب الامراء وأصحاب الولاية فقد قالت حكماء العجم أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد فلا ينبغى ان يقدم على الجيش الا الرجل ذو البسالة والنجدة والشجاعة والجرأة ثبت الجنان صارم القلب جريء رابط الجاش صادق البأس ممن قد توسط الحروب ومارس الرجال ومارسوه ونازل الاقران وقارع الابطال عارفا بمواضع الفرص خبيرا بمواقع القلب والميمنة والميسرة من الحروب وما الذى يجب شحنه بالجلة والابطال من ذلك بصيرا بصنوف العدو ومواقع الغرة منه ومواقع الشدة منه فانه اذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كان جميعهم كأنه مثله فان رأى لقراع الكتائب وجهها والاردوة الغنم للزريبة (واعلم) ان الحرب خدعة عند جميع العقلاء وآحر ما يجب ركوبه قرع الكتائب وحمل الجيوش بعضها على بعض فلنبدأ بتصريف الحيلة فى نيل الظفر (قال) نصر بن سيار كنت أمير خراسان من قبل مروان الجعدى آخر ملوك بنى أمية قال وكان عظماء الترك يقولون ينبغى لقائد العظيم القياد أن يكون فيه عشرة أخلاق من أخلاق البهائم شجاعة الديك وبحث الدجاجة وقلب الاسد وحيلة الخنزير وروغان الثعلب وصبر الكلب على الجراح وحراسة الكركى وغارة الذئب وسمن غير وهى دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء * وكان يقال أشد خلق الله تعالى عشرة الجبال والحديد يحت الجبال والنار تأكل الحديد والماء يطفئ النار والسحاب تحمل الماء والريح تصرف السحاب والانسان يقيه الريح لحاجته والسكر يصرع الانسان والنوم يذهب السكر والهم يمنع النوم فاشدد خلق ربك الهم فاول ذلك ان يبث جواسيسه فى عسكر عدوه ويستعلم اخباره مع الساعات ويستعلم رؤساءهم وقادتهم وذوى الشجاعة منهم ويدس اليهم ويعدهم وعدا جميلا ويوجه اليهم بضروب الخدعة ويقوى اطماعهم فى ان يتناولوا ما عنده من الهبات الفاخرة والولايات السنية وان رأى وجها عاجلهم بالهدايا والتحف وسألهم اما العدد بصحيهم واما المنازلة وقت اللقاء وينشئ على ألسنتهم كتبا مدلسة اليه ويبثها فى عسكره ويكتب على السهام اخبارا مزورة ويرمى بها فى جيوشهم ويضرب بينهم بما فى المسور من ذلك فان جميع ما ذكرنا تتفق فيه الاموال والحيل واللقاء تتفق فيه الارواح والرؤس ووجوه الخداع فيه

لا تحصى والحاضر فيها أبصر من الغائب ولله در المهلب لما كتب اليه الحجاج يستحثه في حرب الازارقة ردّ الجواب فقال ان من البلاء أن يكون ازأى عند من يملكه لا عند من يبصره وقال المختار ليزيد بن أنس حين ولاه الجزيرة وأمره بقتال عبد الله بن زياد امض الى عدوك برأى غير مستبد وبحزم غير متكل ولا تركن الى الدولة فربما انقلبت واستشر من لا يطمع في مالك ولا تسر بقليل واستخر الله تعالى قبل اقدامك توفق * وأوصت أم الذيال العبسية ابنها القتال وهو من أشد العرب يا بني لا تشب في حرب ان وثقت شدتك حتى تعرف وجه المهرب منها فان النفس أقوى شئ اذا وجدت سبيل الحيلة وأضعف شئ اذا يئست منها وأحد الشدة ما كانت الحيلة مدبرة لها اذا لم يكن النصر من الله تعالى فابذلها واختلس من المحارب خاسة الذئب وطرمنه طيران الغراب فان الحذر زمام الشجاعة والتهور عدة الشدة * وقال أبو السرايا وكان أحد القتال لابنه يا بني كن بحيلتك أوثق منك بشدتك وبحذرك أوثق منك بشجاعتك فان الحرب حرب المتهور وغنيمة الحذر واعلم أن الدول اذا زالت صارت حيلها وبالا عليها واذا أذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة * وقالت الحكماء اذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة واذا انقضت مدة الدول أديرت سنة الغفلة عن سنة الحذر ويغلب الضعيف باقبال دولته كما يغلب القوي بفناء مدته * وقالوا سعود الدول ونحوسها مقرونة بسعود الملك ونحوسه وقالوا أيهم يزد على كل امرئ دولته فاذا انقضت بدت عورته وقالوا رب حيلة أهلكت المحتال فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب أن تكون حماة الرجال وكماة الابطال في القلب فانه مهما انكسر الجناحان فالعيون ناظرة الى القلب فاذا كانت رايته تخفق وطبوله تضرب كانت حصنا للجناحين يأوي اليه كل منهزم واذا انكسر القلب تمزق الجناحان مثال ذلك الطائر اذا انكسر احدى جناحيه يرجى عوده ولو بعد حين وان كسر الرأس ذهب الجناحان ولا تحصى كثرة انكسار جناحي العسكر وثبات القلب ثم يرجع الفارون الى القلب ويكون الظفر لهم وقل عسكر انكسر قلبه فأفلح وتراجع الهم الا أن يكون مكيدة من صاحب الجيش فيخلي القلب قصدا وتعمدا ولا يغادر به كبير أمر حتى اذا توسطه العدو اشتعل نهبه وأطبقت عليه الجناحان ومن أعظم المكايد في الحرب الكمناء ولا يحصى كثرة كم من عسكر استبيحت بيضته وقل عزمه بالكمناء وذلك ان الفارس لا يزال على جسيمة في الدفاع وحمي الدمار حتى يلتفت فيرى رايته مندمشورا أو يسمع ضرب الطبول فحينئذ همته خلاص نفسه ولكن همته وراء ذلك وعليه مدار الحروب في اصطناع الشجعان واختبار الابطال فاصطنع ذوي البسالة والاقدام والجراءة ولا عليك أن لا يكثروا وبعيد عليك ان يكثروا ولا تنس بيت الشاعر

والناس ألف منهم كواحد * وواحد كالالف ان أمر عنى

بل تجرب ذلك فوجد الواحد منهم خيرا من عشرة آلاف وسأحكي لك من ذلك ما تقضي منه العجب مهم في الجيش وان فلوا كاه فغنيمة في اللين * فمن ذلك لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية ابن ردميل النصراني على مدينة وشقة في ثغور بلاد الاندلس وكان العسكران كالمتكافئين كل واحد منهما يراهق عشرين ألف مقاتل بين خيل ورجل حدثني رجل ممن حضر الوقعة

من الاجناد قال لمادنا القفاة قال الطاغية بن ردميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله استعلم لي في عسكر المسلمين من الشجعان الذين تعرفهم كما يعرفونها ومن غاب منهم ومن حضر فذهب ثم رجع فقال فيهم فلان وفلان حتى عد سبعة رجال قال انظر الآن من في عسكري من رجال المعروفين بالشجاعة ومن غاب منهم فعدوهم فوجدوهم ثمانية رجال لا يزيدون فقام الطاغية ضاحكا مسرورا وهو يقول يا بيا ضلة من يوم ثم ناشب الحرب بينهم فلم تزل المبارزة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره ولا تزحزح عن مقامه حتى فنى أكثر العسكرين ولم يعر واحد منهم فلما كان وقت العصر نظروا الينا ساعة ثم حملوا علينا حملة ودا خلوا معدا خله ففرقوا بيننا وصرنا شطرين وحالوا بيننا وبين أصحابنا وصاروا بيننا فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ولم نقم الحرب الا ساعة ونحن في خسارة معهم فأشار مقدموا العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه وانكسر عسكر المسلمين وتفرق جمعهم وملك العدو مدينة وشقة فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوي على أربعين ألف مقاتل ولا يحضره من الشجعان المعدودين الا خمسة عشر رجلا وليعتبر بضمان العلج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد في ابطاله رجل واحد (وسمعت) أستاذنا القاضي أبا الوليد الباجي رحمه الله يحكي قال بينما المنصور بن ابي عامر في بعض غزواته اذ وقف على نشز من الارض مرتفع فرأى جيوش المسلمين بين يديه ومن خلفه وعن يمينه ويساره قد ملؤا السهل والجبل فالتفت الى مقدم العسكر وهو رجل يعرف بابن المحفي فقال كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير قال ابن المحفي أرى جمعا كثيرا وجيشا واسعا فقال له المنصور لا يجوز أن يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والبسالة فسكت ابن المحفي فقال المنصور ما سكوتك أليس في هذه الجيوش ألف مقاتل قال لا قال فتعجب المنصور ثم انعطف عليه فقال أفيهم خمسمائة رجل من الابطال قال لا قال أفيهم خمسون من الابطال قال لا فسبه المنصور واستخف به وأمر به فاخرج على أقبح صفة فلما توسطوا بلاد المشركين اجتمعت الروم وتصاف الجمعان فبرز علج من الروم بين الصفين شاك في سلاحه يكر ويفر وهو ينادي هل من مبارز فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج فقرح المشركون وصاحوا واضطرب لها المسلمون ثم جعل العلج يمرح بين الصفين وينادي هل من مبارز اثنين لواحد فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج وجعل يكر ويحمل وينادي هل من مبارز ثلاثة لواحد فبرز اليه رجل فقتله العلج فصاح المشركون وذل المسلمون وكادت تكون كسرة فقبل المنصور مالها غير ابن المحفي فبعث اليه فحضر فقال له المنصور ألا ترى ما يصنع هذا العلج الكلب منذ اليوم قال بعيني جميع ما جرى قال فما الحيلة فيه قال وما الذي تريد قال ان تكفي المسلمين شره قال نعم الآن ثم قصد الى رجال يعرفهم فاستقبله رسل من أهل الثغور على فرس قد نشزت أوراكها هزلا وهو يحمل قربة ماء بين يديه على الفرس والرجل في نفسه وحليته غير متصنع فقال له ابن المحفي ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم قال قد رأيته فماذا ترى فيه قال أريد رأسه الآن قال نعم فحمل القربة الى وحله وليس لامة حربه وبرز اليه فتجاولا ساعة فلم ير الناس الا المسلم خارجا اليهم يركض ولا يدرون ما هنالك واذا الرجل يحمل رأس العلج فألقى

الرأس بين يدى المنصور فقال له ابن المعصفى عن هؤلاء الرجال أخبرنى انه ليس فى عسكرك منهم ألف ولا خمسمائة ولا مائة ولا خمسون ولا عشرون ولا عشرة فرد ابن المعصفى الى منزلته وأكرمه (واعلم) أن أول الحرب شكورى وأوسطها نجورى وآخرها بلوى الحرب شعشاء عابسة شوهاء كالحة سرور فى حياض الموت شموس فى الوطيس تتغذى بالنفوس الحرب أولها الكلام وآخرها الحمام الحرب مرة المذاق اذا قلصت عن ساق من صبر فيها عرف ومن ضعف عنها تلف جسم الحرب الشجاعة وقلبها التدبير وعمدها الحذر وجناحها الطاعة ولسانها المكيدة وقائدها الرفق وسائقها النصر * وقال الرسول صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة وقالوا الحرب غشوم سميت بذلك لانها تتخطى الى غير الجانى قال الشاعر

* لم أكن من جناتها علم الله وانى بحرها اليوم صالى

وقال آخر رأيت الحرب يجنيها الناس * ويصلى حرها قوم براء

وقال آخر الحرب أول ما تكون فتية * تسعى ببزتها لكل جهول

حتى اذا اضطرمت وشب ضرامها * عادت عجوزا غير ذات خليل

شمطاء ينكر لونها وتغيرت * مكروهة للشم والتقبيل

(قال بعض الحكماء) قد جمع الله تعالى آداب الحرب فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين * واستوصى قوم اكثم بن صيفى فى حرب أرادوها فقال أقلوا الخلاف على أمرائكم واعلموا ان كثرة الصياح تفشل ولا جماعة لمن اختلف وتثبتوا فان أحزم الفريقين الركين (وقال) عتبة بن ربيعة يوم بدر لاصحابه الا ترون أصحاب محمد جثيا على الركب كأنهم خرس يتلظون تلظ الحيات (ورأيت) غير واحد ممن ألف فى الحروب يكره رفع الصوت بالتكبير ويقولون يذكر الله فى نفسه * واعلم أرشدك الله تعالى ان الله تعالى قد أوضح لنا فى كتابه علة النصر وعلة الهزيمة والقرار فقال يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم يعنى ان تنصروا رسوله ودينه وأما الفرار فعلته المعاصى قال الله تعالى ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا أى بشؤم ذنوبهم وترك كهم المركز الذى رسمه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه صلى الله عليه وسلم رتب الرماة يوم أحد على تلة الجبل ليمنعوا قريشا أن يخرجوا عليهم كينا من ذلك الموضع ثم التقى المسلمون فانهزم الكفار فقال الرماة لا تفوتنا الغنائم فأقبلوا على الغنائم وتركوا المركز الاول فخرجت خيل المشركين من هنالك وأقبلوا على المسلمين فكانت مقتلة أحد * وليخف قائد الجيش العلامة التى هو مشهور بها فان عدو قد يستعلم حليته والوانه وراياته ولا يلزم خيمته ليلا ونهارا وليبدل زيه ويغير خيمته ويعمى مكانه كى لا يلتمس عدوه غرته واذا سكنت الحرب فلا يعش فى النفر البسير من قومه خارج عسكره فان عيون عدوه قد انكبت عليه وعلى هذا الوجه كسر المسلمون جيوش افريقية عند فتحها وذلك ان الحرب سكنت فى وسط النهار فخرج مقدم العدو يمشى خارج العسكر يتمزعه فكر المسلمين فجاء الخبر الى عبد الله بن ابى السرح وهو نائم فى قبته فخرج فيمن وثق به من رجاله وحمل على العدو وقتل الملك وكان الفتح * ولما عبر

طارق مولى موسى بن نصير الى بلاد الاندلس ليفتحها وموسى اذذاك بافريقية فرجعوا
فى الجزيرة الخضراء وتحصنوا فى الجبل الذى يسمى اليوم جبل طارق وهم فى ألف وتسعمائة
رجل فطمعت الروم فيهم فاقتتلوا ثلاثة أيام وكان على الروم تدميرا استخلفه لذريق ملك الروم
وكان قد كتب الى لذريق يعلمه ان قوما لا ندرى أمن الارض أم من السماء قد وصلوا الى بلادنا
وقد لقيتهم فانهض الى بنفسك فأتاه لذريق فى تسعين ألف عنان ولقيهم طارق وعلى خيله مغيث
الرومى مولى للوليد بن عبد الملك فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال فرأى طارق ما الناس فيه من
الشدة فقام فحضهم على الصبر ورغبهم فى الشهادة وبسط فى آمالهم ثم قال أين المفر البحر من
ورائكم والعدو أمامكم فليس الا الصبر منكم والنصر من ربكم وأنا فاعل شيأ فافعلوا كفعلى
فوالله لأقصدن طاغيتهم فاما أن أقتله واما أن أقتل دونه فاستوثق طارق من خيله وعرف
حملة لذريق وعلامته وخيمته ثم حمل مع أصحابه عليه حملة رجل واحد فقتل الله تعالى لذريق
بعد قتل ذريع فى العدو وحمى الله تعالى المسلمين فلم يقتل منهم كثير وانهزم الروم فأقام
المسلمون يقتلونهم ثلاثة أيام واحتز طارق رأس لذريق وبعث بها الى موسى وبعث بها موسى
الى الوليد بن عبد الملك وسار مغيث الى قرطبة وسار طارق الى طليطلة ولم يكن همه غير
المائدة التى تذكر أهل الكتاب انها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام فدفع اليه ابن أخت
لذريق المائدة والتاج فقومت المائدة بمائتى ألف مافيها من الجواهر التى لم ير مثلها * وبهذه
الحيلة قهر البارسلان ملك الترك ملك الروم وقهره وقتل رجاله وأباد جمعه وكانت الروم قد جمعت
جيوشا يقل أن يجمع لمن بعدهم مثلها وكان مبلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل كاتب متواصلة
وعساكر متوادفة وكرادير يتلو بعضها بعضا لا يدرى كهم العارف ولا يحصيهم العدد وقد استعدوا
من السلاح والسلاح والمجانيق والآلات المعدة لفتح الحصون فى الحرب بما لا يحصى وكانوا قد
قسموا بلاد المسلمين الشام ومصر والعراق وخراسان وديار بكر ولم يشكوا ان الدولة قد دارت
لهم وأن نجوم السعود قد خدمتهم ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم الى بلاد المسلمين
واضطربت لها ممالك الاسلام فاحتشد للقائهم البارسلان التركى وهو الذى يسمى الملك
العادل وجمع جموعه بمدينة اصبهان واستعد بما قدر عليه ثم خرج بؤمهم فلم يزل العساكر
يتدانيان الى أن عادت طلائع المسلمين الى المسلمين وقالوا للبارسلان غدا يقراى الجمعان فبات
المسلمون ليلة الجمعة والروم فى عدد لا يحصيهم الا الذى خلقهم وما المسلمون فيهم الا أكلة جائع
فبقى المسلمون واجمين لما دهاهم فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم الى بعض فهال
المسلمين ما رأوا من كثرة العدو وقوتهم وآلاتهم فأمر البارسلان أن يعدّ المسلمون فبلغوا
اثنى عشر ألف تركى واذا هم منهم كالرقمة فى ذراع الحمار فجمع ذوى الرأى من أهل الحرب
والتدبير والشفقة على المسلمين والنظر فى العواقب واستشارهم فى استخلاص صواب الرأى
فتشاوروا برهة ثم أجمع رأيهم على اللقاء فتوادع القوم وتحالفوا وناصحوا الاسلام وأهله ثم
تأهبوا أهبة اللقاء وقالوا للبارسلان سمى الله وتحمل على القوم فقال البارسلان يا معشر
أهل الاسلام أمهلوا فان هذا يوم الجمعة والمسلمون يخطبون على المنابر ويدعون لنا فى شرق
البلاد وغربها فاذا زالت الشمس وفاءت الافياء وعلمنا ان المسلمين قد صلوا ودعوا لنا وصلينا

نحن عملنا أمرنا فصبروا الى أن زالت الشمس ثم صلوا ودعوا الله تعالى أن ينصر دينه وأن يربط على قلوبهم بالصبر وأن يوهن عدوهم وأن يلقى فى قلوبهم الرعب وكان البارسلان قد استوثق من خيمة ملك الروم وعلامته وفرسه وزيه ثم قال لرجاله لا يتخلف أحدكم أن يفعل كفعلى ويضرب بسيفه ويرمى بسهمه حيث أضرب بسيفى وأرمى بسهمى ثم حمل جميعهم حملة رجل واحد الى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونها فخلصوا اليه وقتل من حوله وأسر ملك الروم وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك فسمعت الروم ان ملكهم قد قتل فتبددوا وتمزقوا كل ممزق وعمل السيف فيهم أياما وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم واستحضر ملك الروم بين يدى البارسلان بحبل فى عنقه فقال له البارسلان ما كنت تصنع بى لو أخذتنى قال فهل تشك أنى كنت أقتلك فقال له البارسلان أنت أقل فى عينى من أن أقتلك اذهبوا به وبيعوه فمن يزيد فكان يقاد بالحبل فى عنقه وينادى عليه من يشترى ملك الروم وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام ومنازل المسلمين وينادى عليه بالدراهم والفلوس فلم يدفع فيه أحد شيأ حتى باعوه من انسان بكلب فأخذ الذى كان تولى ذلك من أمره الكلب والملك وجعلهما الى البارسلان وقال قد طفت بجميع العسكر وناديت عليه فلم يبذل فيه أحد شيأ الا رجل واحد دفع لى فيه كلبا قال قد أنصف لان الكلب خير منه فقبض الكلب ودفع اليه هذ الكلب ثم انه أمر بعد ذلك باطلاقه فذهب الى قسطنطينية فعزلته الروم وكحلته بالنار فانظر ماذا يأتى على الملوك اذا عرفوا فى الحروب من الحيلة والقصد فى المكيدة (واعلم) أن القدماء قالوا الكثرة للرعب والقلة للنصر وقد قال تعالى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين فالكثرة أبدا يعجبها الاعجاب ومع الاعجاب الهلاك وخير الاصحاب أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يغلب جيش يبلغ اثنى عشر ألفا من قلة اذا اجتمعت كلمتهم * فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه فى بلادنا وهو أن يجعل تقعله فى لقاء عدونا أن نقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة فيصفوا صفوفهم ويركزوا مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم فى الارض وصدورهم شارعة الى عدوهم وهم جاثون فى الارض وكل رجل منهم قد ألقم الارض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه وخلفهم الرماة المختارون التى تعرف سهامهم من الدروع والخيل خلف الرماة فاذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيأتها ولا يقوم رجل منهم على قدميه فاذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم فأخذ وايمنة ويسرة فيفرج خيل المسلمين بين الرماة والرجاله فتنال منهم ماشاء الله * ولقد حدثنى من حضر مثل هذه الوقعة فى بلدى طرطوشة قال صافقت الروم على هذا الترتيب فحملوا علينا فبينا رجل منا كان فى آخر الصف فقام على قدميه فحمل عليه علج من العدو فاصاب غرته فقتله * وابرز المقتدر بالله ابن هود ملك الاندلس من سرقسطة فى ثغور بلاد الاندلس للقاء الطاغية ردميل عظيم الروم وكان كل واحد منهم قد احتشد بما فى ميسوره فالتقى المسلمون والكفار ثم تنازلوا للقتال وتصافوا ودام القتال بينهم صدرا كبيرا من النهار وكان المسلمون فى خسران فأنزع المقتدر ذلك وفرق المسلمون من شر ذلك اليوم فدعا المقتدر رجلا من المسلمين لم يكن فى الثغور أعرف

بالحرى منه يسمى سعداوه فقال له المقتدر كيف ترى فى هذا اليوم فقال سعداوه هذا يوم أسود ولكن قد بقيت لى حيلة فذهب سعداوه وزيه زى الروم وكلامه كلامهم لجاورتهم وكثرة مخالطتهم فانغمس فى عسكر الكفار ثم صعد الى الطاغية ردميل فألقاه شاكا فى السلاح مكفنا فى الحديد لا يظهر منه الا عيناه فجعل يقبله ويترصد غرته الى ان أمكنته الفرصة فحمل عليه فطعنه فى عينه فخر صريعا للدين والفم ثم جعل ينادى بلسان الروم قتل السلطان يا معشر الروم فشاع قتله فى العسكر فتخالوا وولوا منهزمين وكان الفتح باذن الله تعالى * ولما استضعف الروم صقلية وضربوا عليهم الخراج فكانوا يحملون اليهم الخراج ويحملون الاموال الى العرب بافريقية ويستعبدون بهم على الروم فقال لهم ملك الروم انما نملى ومنكم يا اهل صقلية مثل رجل له زوجتان عجوز وصبية فكان اذا بات عند الصبية تلقط الشيب من لحيته لتصيبه فتزهد فى العجوز واذا بات عند العجوز تلقط الشعر الاسود من لحيته لتشبهه فتزهد الصبية فيه فتوشك ان دام هذا به ان يصبح أطلس كذلك حالكم هى ومع العرب اذا أديتم المال لى ولهم يوشك أن تنفد أموالكم فتبقوا فقراء ضعفاء فأتسلكم واتسلم البلاد * ويروى انه لما هم بحصار صقلية أمر أن يبسط بساط فى الارض ثم جعل فى وسطه دينارا ثم قال لوجوه رجاله من أخذ منكم هذا الدينار ولم يطأ البساط علمنا انه يصلح للملك فوقفوا حوله ولم يصل أحد اليه فلما أعياهم ذلك طووا ناحية من البساط من عنده وأمر كل واحد أن يطوى ما يليه حتى طوى البساط فتداولوه بينهم فلحقوا الدينار فحينئذ قال لهم اذا أردتم مدينة صقلية خذوا ما حولها من الحصون والمدن الصغار والضياع والقرى حتى اذا ضعفت أخذتوها * وكان بسرقسطة فارس يقال له ابن فحصون وكان يناسبنى فيقع خال والدتى وكان أشجع العرب والعجم وكان المستعين أبو المقتدر يرى له ذلك ويعظمه وكان يجرى عليه فى كل عطية خمسمائة دينار وكانت النصرانية باسمها قد عرفت مكانه وهابت لقاءه فيحكى أن الرومى اذا سقى فرسه فلم يشرب يقول له اشرب هل ابن فحصون ورأيت فى الماء خدده تظر اؤه على صفحة ثمرة العطاء ومنزلته من السلطان فأوغر رأيه صدر المستعين فنهاه أياما ثم ان المستعين أنشأ غزوة الى بلاد الروم فتواقفت المسلمون والمشركون صفوفا ثم برز علج الى وسط الميدان ينادى هل من مبارز فخرج اليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتل الرومى وصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل الرومى يكر بين الصفين وينادى هل من اثنين لواحد فخرج اليه فارس من المسلمين فقتله الرومى فصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل يجول بين الصفين وينادى ويقول ثلاثة لواحد فلم يستجرئ أحد من المسلمين ان يخرج اليه وبقى الناس فى حيرة فقال للسلطان مالها الا أبو الوليد بن فحصون فدعاه وتلطف به وقال له أما ترى ما يصنع هذا العلج فقال هو يعيينى قال فما الحيلة فيه فقال ابو الوليد فما تريد فقال اكف المسلمين شره فقال الساعة يكون ذلك ان شاء الله تعالى فلبس درعا وتقنع بمغفر وتسلح وتوسط على سرجه بلا سلاح وأخذ بيده سوطا طويل الطرف وفى طرفه عقدة معقودة ثم برز اليه فعجب منه النصرانى ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن فحصون واذا ابن فحصون متعلق برقبة الفرس ونزل الى الارض لا شئ منه فى السرج ثم طفر على سرجه وحمل عليه وضربه بالسوط فى عنقه فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه من سرجه وجاء به يجره فألقاه بين يدى

المستعين فعلم المستعين انه كان قد أخطأ في صنعه معه فأكرمه ورده الى أحسن أحواله أيها الاجناد أقلوا الخلاف على الامراء فلا ظفر مع اختلاف ولا جماعة لمن اختلف عليه قال الله تعالى ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وأول الظفر الاجتماع وأول الخذلان الافتراق وعماد الجماعة السمع والطاعة وانما أتى علي بن ابي طالب رضي الله عنه يوم صفين من العصيان وكان قد ظهر أهل العراق على أهل الشام وتضعضعت صفوف معاوية فأحس بالشر وانه مغلوب فقال لعمرو بن العاص اذهب فخذ لنا الامان من ابن عمك يعني عليا فأدار عمرو الحيلة فأمرهم أن يرفعوا المصاحف في أطراف الرماح وينادون ندعوكم الى كتاب الله تعالى فلما رأى ذلك اصحاب علي كفوا عن الحرب فقال لهم علي رضي الله عنه اي قوم هذه مكيدة منهم وليس في القوم دفاع نصوصه وتركوا القتال وكان ذلك سبب الحكمين واعلموا ان من أحزم مكايد الحرب ذكاء العيون واستطلاع الاخبار وافشاء الغلبة واظهار السرور واباثة الحذر والاستراس من العدو وأن لا تخرج هاربا الى قتال ولا تضيق أمانا على مستأمن وقال بعض المصنفين كثرة التكبير عند اللقاء تفشل غضوا الاصوات وتجلببوا السكينة وأكملوا الوثام واحتموا الجبن وادرعوا الليل فانه أخفى للويل الليل يكفيك الجبان ويصف الشجاع الليل المدد الاعظم الحازم يحذر عدوه على كل حال المواثبة ان قرب والغارة ان بعد والكمين ان انكشف والاستطراد اذا ولى الجهل قوة الجرءة من اعتز بقوته فقدوهن ليس من القوة التورط في الهوة لكن أشد ما كنت حذرا ما كنت عند نفسك أكثر قوة وعددا من استضعف عدوه اغتر ومن اغتر ظفر به عدوه أشعروا قلوبكم في الحرب الجرءة فانها سبب الظفر واذكروا الضغائن فانها تبعث على الاقدام والتزموا الطاعة فانها حصن المحارب اذا وقع اللقاء برز القضاء اذا لقي السيف السيف زال الخيار رب مكيدة أبلغ من نجدة رب كلمة هزمت عسكرا الصبر سبب النصر الظفر مع الصبر اجعل قتال عدوك آخر حيلك النصر مع التدبير لا ظفر مع بغي ولا تغتر بالاقوياء لفضل قوتهم على الضعفاء لا تجبنوا عند اللقاء لا تعلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ولا تفلوا عند الغنائم نزهوا الجهاد عن عرض الدنيا

(الباب الثاني والستون في القضاء والقدر والتوكل والطلب)

اعلم وصلك الله تعالى ان مذاهب الخلق في القضاء والقدر وخلق الافعال وارادة الكائنات منتشرة ولا يخرج عن علمه وقضائه وقدره وحكمه حادث فمن خالفنا في القضاء والقدر وافقنا في العلم وقد تباين الخلق فيه وتشتت مذاهبهم وتقاطعوا فيه وتدابروا وكل حزب بما لديهم فرحون ولم نضع هذه الترجمة لاستيفاء ما قالوا والاحتجاج لكل فريق لان ذلك يستدعي مجلدات واسفارا وانما نذكر في هذا الكتاب أحكاما ظاهرة قريبة من العقول لتقرب الفائدة على الناظر فيه فاعلم أولا ان كل ما يجري في العالم من حركة وسكون وخير وشر ونفع وضر وايمان وكفر وطاعة ومعصية بقضاء وقدر وكذلك لا يطير طائر بجناحيه ولا يدب حيوان على بطنه ورجليه ولا تطير بعوضة ولا تسقط ورقة الا بقضائه وقدره وارادته ومشيته كما لا يجري شيء من ذلك الا وقد سبق علمه به ثم اعلم ان القدر والطلب لا يتنافيان والتوكل والكسب لا يتضادان وذلك أن تعلم ان كل ما قضى الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة كما ان ما علم الله تعالى انه يكون

فهو كائن ومن خالفنا فى القضاء والقدر وافضا فى العلم فرب أمر قدر الله تعالى وصوله اليك بغير طلب منك فهو واصل ورب أمر قدر وصوله اليك بعد الطلب فلا يصل الا بالطلب والطلب ايضا من القدر ولا فرق بين الامر المطلوب وبين الطلب فى انهما مقدوران فمن ههنا قلنا انهما لا يتنافيان وكذلك التوكل مع الكسب لان التوكل محله القلب والكسب محله الجوارح ولا يتضادان شيآن فى محلين بعد ما يتحقق العبد أن المقدور من قبل الله تعالى فان تعسر شئ فبتقدير وان اتفق فبتيسيره قال أنس جاء رجل على ناقة له فقال يا رسول الله أدعها وأتوكل فقال اعقلها وتوكل والتوكل والاعتصام بالقدر يستمدان من العقل والطلب والكسب يستمدان من الامر فالتوكل على الله تعالى هو الثقة بما ضمنه والقطع بكون ما حكم به فمن رام أمرا من الامور ليس الطريق فى تحصيله أن يغلق بابه عليه ويفوض أمره الى ربه وينتظر حصول ذلك الامر بل الطريق ان يشرع فى طلبه على الوجه الذى شرعه الله فيه وقد ظاهر النبى صلى الله عليه وسلم بين درعين واتخذ خندقا حول المدينة يستظهر به ويحترس من العدو وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد وكان يلبس لأمة الحرب ويعبى الجيوش ويأمرهم وينهاهم بما فيه مصالحهم واسترقى وأمر بالاسترقاء وتداوى وأمر بالمداواة وقال أنزل الداء الذى أنزل الدواء (فان قيل) قد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من استرقى أو اكتوى فقد برئ من التوكل (قلنا) أليس قد قال اعقلها وتوكل وظاهر بين درعين وسائرما ذكرناه آنفا (فان قيل) فما الجمع بين ذلك (قلنا) معناه من استرقى واكتوى متكلا على الرقية والكى وان البرء من قبلهما خاصة فهذا يحرجه من التوكل وانما يفعله كافر يضيف الحوادث الى غير الله تعالى فاما من باشر الاسباب والادوية وتعاطى تدبير الامور بنفسه وأعوانه وماله على ما جرت به سيرة الله تعالى فى أرضه وعباده فى خلقه غير معتمد على شئ من ذلك بل هو واثق القلب أن ما حصل فبتقديره وما تعسر فبتقديره معتمدا فى ذلك على المسبب لا على الاسباب فهذا هو المتوكل لكن شرطه ان يمشى فى ذلك كله مع الاثر ولا يسلك طريقا فيه معصية فليس يستدرج ما عند الله بمعاصيه وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه من ابتغى أمرا بمعصية الله كان أبعد لما رجا وأقرب لما اتقى ومن ظن ان الطلب والاكتساب يناقض التوكل فقد عمى فى بيته وأغلق بابه متكلا على الله تعالى فى زعمه كان عن العقل خارجا وفى تيه الجهل والحمق يقال له قبحت يا هذا انجعت وحضر الطعام فهو الى الطعام أحوج منه الى المعرفة وينبغى لاهله أن يداووه الا ترى أن الله تعالى قال لمريم وهزى اليك بجذع النخلة فهلا أمرها بالسكون ثم حمل الرطب الى فيها وهكذا القول فيمن له دابة أو بستان يؤمر بسقى البستان وحفره واصلاح شانه ويؤمر بأن يعلف الدابة ويسقيها وأنشدوا

ألم تر أن الله قال لمريم * اليك فهزى الجذع تساقط الرطب

ولو شاء أجنى الجذع من غير هزها * اليها ولكن كل شئ له سبب

وهكذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا فلم يحمل أرزاقها اليها فى أوكارها بل الهمها طلبه بالغدو والرواح وقد كان جهيل ليس القندهارس يرى من تصديق القدر وتكذيب الطلب دون أهل زمانه من

المملوك ماعجزه عن الطلب والتدبير فاخرجه اخوته من سلطانه وقهروه على مملكته فقال له بعض الحكماء ان تركك الطلب يضعف الهمة ويذل النفس وصاحبه سائر الى أخلاق ذوات الاجرة من الحيوان كالضب وسائر الحشرات تنشأ في أجحرتها وفيه يكون موتها ثم جمعوا بين القدر والطلب وقالوا انهما كالعدلين على ظهر الدابة ان حمل في واحد منهما أرجح مما حمل في الآخر سقط وتعب ظهره وثقل عليه سفره وان عادل بينهما سلم ظهره ونجح سفره وقد بغيته وضربوا فيه مثالا عجيبا فقالوا ان أعمى ومقعدا كانا في قرية بفقر وضر لا فائدة للاعمى ولا حامل للمقعد وكان في القرية رجل يطعمهما كل يوم احتسابا فوتهما من الطعام والشراب فلم يزالا في عافية الى أن هلك المحتسب فاقاما بعده أياما قاشتد جوعهما وبلغ الضر منهما جهده فاجمعا رأيهما على ان يحمل الاعمى المقعد فيدله المقعد على الطريق يبصره ويستقل المقعد بحمل الاعمى فيدوران في القرية يتطعمان أهلها فلما فضل فنجح أمرهما ولولم يفعلا هلكا فكذلك القدر سببه الطلب والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه فأخذ جهيل في الطلب فظفر باعدائه ورجع الى ملكه فكان جهيل يقول لا تدعن الطلب اتكالا على القدر ولا تجهدن نفسك في الطلب معتمدا عليه مستهينا بالقدر فانك اذا أجهدت نفسك بالطلب بوجوه التدبير المحمود تصدقا بالقدر فان لم تحاول ولم تلتو عليك الامور وان عملت بذلك فالتوى عليك أمر من مطلوبك فذلك من اعانة القدر وانك قد أتيت ذنبا فتنقد جوارحك واستكشف ظاهرك وباطنك وتب الى الله تعالى من كل ذنب أتيته بجبار حسنة من جوارحك واخرج من كل مظلمة ظلمتها فاذا فعلت ذلك فابلغ الحظ وساعدك القدر ان شاء الله تعالى * واعلم ان هذا الاصل الذي قررناه يخرج عليه كل ما ورد في القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم من الامر بالتوكل على الله والتسليم اليه والتفويض له من ذلك ان سليمان الخواص تلا يوما قوله تعالى وتوكل على الحي الذي لا يموت فقال ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية ان يلجأ الى أحد غير الله قلنا معناه لا يلجأ الى الاسباب اعتمادا عليها ولكن يلجأ اليها واثقا بأن الله تعالى يفعل ما يشاء كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعقل الناقة وبلبس درعين الا ترى ان من يطلب الزرع والولد ثم قعد في بيته لم يطأ زوجته ولا بذر أرضه معتمدا في ذلك على الله تعالى واثقا به ان تلد امرأته من غير وقاع وتنبت أرضه الزرع من غير بذر كان عن المعقول خارجا ولامر الله تاركا وللائمة والحكماء في القدر ألفاظ بارعة على السبر والامتحان * منها ما روي ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه سئل عن القدر فاعرض عن السائل فأبى الا الجواب فقال علي أخبرني أخلقك الله كما تشاء أو كما يشاء فامسك الرجل فقال علي للحاضرين أترونه يقول كما أشاء اذا والله أضرب عنقه فقال الرجل كما يشاء فقال علي أيحييك كما تشاء أو كما يشاء قال كما يشاء قال أيميتك كما تشاء أو كما يشاء قال كما يشاء قال أفيحشرك كما تشاء أو كما يشاء قال كما يشاء قال أفيدخلك حيث يشاء أو حيث تشاء قال حيث يشاء قال قم فليس لك من الامر شئ وروي ان رجلا قدريا وهو سيا تناظر فقال القدري للمجوسي مالك لا تسلم فقال المجوسي لو أراد الله تعالى لاسلمت فقال القدري قد أراد الله تعالى ان تسلم ولكن الشيطان يمنعك قال المجوسي فانا مع اقواهما وروي في الاسرائيليات ان نبيا من أنبياء الله تعالى مر بغيض مصوب واذا طائر قريب منه فقال الطائر

يا بني اقبل هل رأيت أعقل عقلا من هذا نصب هذا الفخ لصيد فيه وأنا انظر اليه قال فذهب عنه ثم رجع فاذا الطائر في الفخ فقال له يعجبك أو استك القائل آنفا كذا وكذا فقال يا بني الله اذا جاء الحين لم يبق اذن ولا عين وقال رجل من الخوارج لعلي رضي الله عنه أرأيت من جنبني سبل الهدى وسلك بي سبل الردى أاحسن الى أم أساء فقال له على ان كنت استوجبت عليه حقا فقد أساء وان كنت لم تستوجب عليه شيأ فهو يفعل ما يشاء (وقال) ميمون بن مهران لغيلان القدري سل فاتوي ماتكونون اذا سألتم فقال غيلان أشاء الله أن يعصى فقال ميمون أيعصى كارها فانقطع غيلان وروى ان رجلا قال لبزرجمهر تعال نتناظر في القدر فقال وما تصنع بالمناظرة في القدر رأيت ظاهرا استدللت به على الباطن ورأيت أحق مرزوقا وعاقلا محروما فعلمت ان التدبير ليس الى العباد وقال بعضهم

يخيب الفتى من حيث يرزق صاحبه * ويعطى المنى من حيث يحرم طالبه

ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الاندلس على سليمان بن عبد الملك فقال له يزيد بن المهلب أنت أدهى الناس وأعلمهم فكيف طرحت نفسك في يدي سليمان فقال موسى ان الهدهد يهندس الماء في الارض الفيافي ويبصر القريب منه والبعيد على بعده في التخوم ثم ينصب له العصى الفخ بالمودة والحبة فلا يبصره حتى يقع فيه وفي الاسرائيليات ان الهدهد كانت رائدة سليمان ابن داود عليهما السلام الى الماء فتتقدم معسكره ثم تنظر الارض فتقول الماء ههنا على ألف قامة أو أقل أو أكثر فتأمر الجن فتحفره فلا يلحق سليمان الاوقد استعذب الماء واعلموا أن الهارب مما هو مقضى مقدر كالمنقلب في كف الطالب وأنشد بعضهم

واذا خشيت من الامور مقدرا * وفررت منه فنحوه تتوجه

ولبشار طبعت على ما في غير مخبر * هواى ولو خيرت كنت المهذبا

أريد فلا أعطى وأعطى فلم أرد * وقصر عما أن ينال المغيبا

وأصرف عن قصدي وعلى مقصر * وأمسي وما أعطيت الا التعجبا

ولما وقع الطاعون بالكوفة فر ابن أبي ليلى على حمار له يطلب النجاة فسمع منشدا ينشد

لن يسبق الله على حمار * ولا على ذي منعة طيار

أو يأتي الحتف على مقدار * قد يصبح الله امام الساري

فكر راجعا الى الكوفة وقال اذا كان الله امام الساري فلات حين مهرب وأنشد بعضهم

أقام على المسير وقد أنيخت * مطاياه وغرد حاديا ها

وقال أخاف عادية الليالي * على نفسي وأن ألقى ردا ها

ومن كتبت منيته بأرض * فليس يموت في أرض سواها

ولما قتل كسرى برزجمهر وجدوا في منطقته كتابا فيه اذا كان القدر حقا فالحرص باطل واذا كان القدر في الناس طبا عا فالثقة بكل أحد عجز واذا كان الموت بكل أحد نازلا فالطمأنينة الى الدنيا حمق وقال ابن عباس وجعفر بن محمد والحسن البصري في قوله تعالى وكان تحته كنز لهما انما كان الكنز لوحا من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح

وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وقال يحيى بن معاذ عجبت من ثلاث رجل يريد تناول رزقه بتدبيره وهو يرى تناقض تدبيره ورجل شغلهم غده وعالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط ومن عجيب ماتزل بالاسكندرية ان رجلا من خدمة السلطان غاب عن خدمته أياما فقبضه الشرط وسلموه الى دار السلطان فانساب منهم فى بعض الطريق وترامى فى بئر والمدينة مسربة تحت الارض باسراب يمشى الماشى فيها قائما يغترقها ويدورها لان فى دورها آبارا على تلك السروب فمازال الرجل يمشى الى ان لاح له بئر مضيئة فطلع فيها واذا البئر فى دار السلطان فطلع الرجل فى دار السلطان فاديه السلطان فكان فيه المثل السائر القار من القضاء الغالب كالمنفلت فى يد الطالب وقال ابن مسعود ان الرجل ليشرف على الامر من الامارة والتجارة أو غيرهما ذكره الله تعالى فوق سماواته فيقول للملك اصرف عن عبدى هذا الامر فانى ان أيسرته له أدخلته به جهنم فيظل يتغيظ على جيرانه فيقول سبقنى فلان وحسدنى فلان وماصرفه عنه الا الله تعالى وأنشدوا

قالوا تقيم وقد احا * ط بك العدو ولا تفر
فاجبتهم والشيخ ما * لم ينتفع بالعلم غر
لاتلت خيرا ما بقيـ * ـت ولا عدانى الدهر شر
ان كنت أعلم ان غيـ * ـرالله ينفع أو يضر

استأذن العقل على الجد فقال اذهب لاحاجة لى بك فقال العقل ولم فقال انك تحتاج الى ولا أحتاج اليك (وأوصى) حكيم ابنه فقال يابنى رزقك الله جدا يخدمك به ذوو العقول ولا رزقك عقلا تخدم به ذوى الجدود وكان يقال افراط العقل مضر بالجد وروى ان رجلا خير فى أمر فابى أن يختار وقال أتأبى جدى أونى منى بعقلى فافرغوا وفى الامثال اسع بجد لا بكد اسع بجدك أودع جدك لا كدك الجد لا الجد الجد أغنى من الكد واعلم ان زمام الامور التوفيق ولم ينزل من السماء الى الارض أقل من التوفيق وهو مقرون بالاجتهاد قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقد كنت جمعت فيه كتابا من جملة كتابى فى الاسرار هل التوفيق مكتسب أو موهبة بالاسبب فلا مزيد عليه * ومن لطيف ماوقفت عليه فى مجارى القضاء والقدر وان الهارب من المقدور كالمنفلت فى يد الطالب ماتزل فى مدينة الاسكندرية فى قضية الرجل الذى تقدم ذكره

الباب الثالث والستون وهو جامع من أخبار ماولوا العجم وحكاياتهم وهو يشتمل على خمسة فصول

(الاول) يشتمل على أخبار رفعت الينا بعد الفراغ من الكتاب فالحقناها (والثانى) يشتمل على حكم لحكيم الفرس خاصة (والثالث) يشتمل على حكم لحكيم السند خاصة (والرابع) يشتمل على حكم لحكيم العرب خاصة (والخامس) يشتمل على حكم مجموعة منتخبة رسمنا ذلك لتستطرف عقول القوم واغراضهم ومنتهى مرامهم من كتاب جاويدان خرد الفارسى قال ثلاثة لايصلح فسادهن بشئ من الحيل العداوة بين الاقارب وتحاسد الاكفاء والركاكة فى العقول وثلاثة لايستقيم صلاحهن بنوع من المكر والحيل العبادة فى العلماء والقنوع فى

المستبصرين والسخاء في ذوي الاخطار وثلاث لا يشبع منهن الحياة والعافية والمال وقال ابن لقمان لابنه يا أبت ما الداء العياء قال رعونة مولودة قال فما الجرح الدوي قال المرأة السوء قال فما الحمل الثقيل قال الغضب ولما قرأ هذه الحكاية أبو عباد الكاتب وكان ظريفا في أخباره قال والله الغضب أخف على من ريشة وكان أسرع الناس غضبا فقيل له انما عنى لقمان ان احتمال الغضب ثقيل فقال لا والله لا يقوى على احتمال الغضب الا الجمل وغضب يوما على بعض أصحابه فرماه بدواة فشجه فجعل الدم يسيل فقال أبو عباد صدق الله العظيم حيث قال والذين اذا ما غضبوا هم يغفرون فاستدعاه المأمون وقال ويحك لا تحسن ان تقرأ آية من كتاب الله تعالى قال بلى والله يا أمير المؤمنين اني لاقرأ من سورة واحدة ألف آية ففحك المأمون وأمر باخراجه * وقيل لانوشروان ما العقل قال القصد في كل الامور قيل فما المروءة قال ترك الريبة قيل فما السخاء قال ان تتصف من نفسك قيل فما الحمق قال الاغراق في الذم والحمد وقيل لبعض الحكماء ما الحزم قال سوء الظن وقال بعضهم في قوله الحزم سوء الظن قال انما أراد سوء الظن بنفسه لا بغيره قيل فما الصواب قال المشورة قيل فما الذي يجمع القلوب على المودة قال كف بذول وبشر جميل قيل فما الاحتياط قال الاقتصاد في الحب والبغض وقال معاوية لزياد حين ولاه العراق يا زياد ليكن حبك وبغضك قصدا فان الغيرة كامنة واجعل للرجوع والنزوع بقية من قلبك واحذر صولة الانهمالك فانها توقدي الى المهالك وهو مثل قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما ومن ذلك قول الاول

وأحبب حبيبك حبا رويدا * فليس يعوقك أن تصرما

وقال آخر ولا تيأسن الدهر من حب كاشح * ولا تأمنن الدهر صرم حبيب

وسئل بزرجمهر عن العقل فقال ترك ما لا يعنى قيل فما الحزم قال انتهاز الفرصة قيل فما الحلم قال العفو عند المقدرة قيل فما الشدة قال ملك الغضب قيل فما الخرق قال حب مغرق وبغض مفرط وقيل لبعض الملوك وبلغ في المنزلة والقدر ما لم يبلغه أحد من ملوك زمانه ما الذي بلغ بك هذه المنزلة قال عفوي عند قدرتي ولييني بعد شدتي وبذلي الانصاف ولومي لنفسي وايقافي في الحب والبغض مكانا لموضع الاستبدال وقال الاسكندر لبعض الحكماء وأراد سفرا أرشدني لاحزم أمري قال لا تملكن قلبك محبة الشيء ولا يستولين عليك بغضه واجعلهما قصدا فان القلب كاسمه يتقلب وله خاصية في القلب تنزع وترجع واجعل وزيرك التثبت وسميرك التيقظ ولا تقدم الابعد المشورة فانها نعم الدليل واذا فعلت ذلك ملكت قلوب رعيتك ملك استعباد قال الشاعر

وما سمي الانسان الا لانسه * ولا القلب الا انه يتقلب

وقيل لبعض الحكماء ما الدليل الناصح قال غريزة العقل مع الطبع قيل فما القائد المشفق قال حسن المنطق قيل فما الغناء المعي قال تطبيعك من لا طبع له وقال الفضل بن مروان سألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم قال بذل عرفه وجرد سيفه فاجتمعت عليه القلوب رغبة ورهبة لا ينقص جنده ولا يخرج رعيته سهل النوال حزن النكال الرجاء والخوف

معقودان فى يده قلت فكيف حكمه قال يرد الظلم ويردع الظالم ويعطى كل ذى حق حقه
قال رعية اثنان راض ومغتبط قلت فكيف هيبتهم له قال يتصور فى القلوب فتغضى له العيون
قال فنظر رسول ملك الحبشة الى اصغائى اليه واقبال عينى عليه وكانت الرسل تنزل عندى
فقال لترجمانه ما الذى يقول الرومى قال يصف له ملكهم ويذكر سيرته فكلم الترجمان بشئ
فقال لى الترجمان يقول ان ملكهم ذو أناة عند القدرة وذو حلم عند الغضب وذو سطوة عند
المغالبة وذو عقوبة عند الاجترام قد كسا رعيته جميع نعمته وقصر هم تعنيف عقوبته
فهم يتراءونه تراءى الهلال حيالا ويخافونه مخافة الموت نكالا وقد وسعهم عدله وردّعنهم
سطوته عقله فلا تتهمه هزة ولا تؤيسه غفلة اذا أعطى أوسع واذا عاقب أوجع فالناس
اثنان مراج وخائف فلا الراجى خائب الامل ولا الخائف بعيد الاجل قلت فكيف هيبتهم له
قال لا ترفع اليه العيون أجفانها ولا تتبعه الابصار انسانها كان رعيته قطا فرقت عليها
صقور صوائد قال فحدثت المامون بهذين الحديثين فقال لى كم قيمتهما عندك قلت ألفا درهم
قال بافضل ان قيمتهما أكثر من الخلافة أما علمت حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى
الله عنه قال قيمة كل امرئ ما يحسن أفتعرف أحدا من الخطباء البلغاء يحسن أن يصف أحدا
من خلفاء الله الراشدين المهديين بمثل هذه الصفة قلت لا قال فقد أمرت لهما بعشرين ألف
دينار معجلة لهما واجعل العدة مادة بينى وبينهما على العود فاولا حقوق الاسلام وأهله لرأيت
اعطاءهما ما فى بيت المال الخاصة والعامة دون ما يستحقانه وقال الفضل بن سهل كان عندى
رسول ملك الروم وكان يحدثنى عن أخت للملك يقال لها خاتون قال اصابتنا سنة احتدم
شواظها علينا بحرارة المصائب وصنوف الآفات ففزع الناس الى الملك فلم يدر ما يجيبهم به
فقالت له خاتون أيها الملك ان الحزم علق لا يخلق جديده ولا يهتم عزيزه وهو دليل الملك على
استصلاح رعيته وزاجره عن استفسادها وقد فزعت رعيتك اليك لفضل العجز عن الالتجاء
الى من لا تزيده الاساءة الى خلقه عزا ولا ينقصه العود بالاحسان اليهم ملكا وما أحد أولى
بحفظ الوصية من الموصى ولا بركوب الدلالة من الدال ولا بحسن الرعاية من الراعى ولم تزل فى
نعمه لم تغيرها نقمه وفى رضاك بكدره سخط الى أن جرى القدر بما عمى منه البصر وذهل عنه
الحذر فسلب الموهوب والسالب هو الواهب فعد اليه بشكر النعم وعذبه من فظيع
النقم فتى تنسه فسك ولا تجعلن الحياء من التذلل للمعز المذل شركا بينك وبين رعيتك
فتستحق مذموم العاقبة ولكن مرهم ونفسك بصرف القلوب الى الاقرار لله بكنه القدرة
وتذليل الالسن فى الدعاء بمحض الشكر فان الملك ربما عاقب عبده ليرجعه عن شئ فعل الى
صالح عمل وليبعثه على دؤوب شكر يحوز به فضل أجر فامرها الملك ان تقوم فيهم فتنذرهم
بهذا الكلام ففعلت فرجع القوم عن بابه وقد علم الله تعالى منهم الوعظ فى الامر والنهى
فحال عليهم الحول وما بينهم مفتقد نعمة كان سلبها وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع
فاعترف الملك لها بالفضل فقلدها الملك بعده وجمع الرعية على الطاعة لها فى المحبوب والمكروه
فهذا فعل الله باعداله وضراً نعمته لما شكروه أعاد لهم من نعمه ما كان قد استرجع وزادهم
من فضله ما تمنوه فكيف بمن يوحدونه ويؤمنون به لو صدقت نياتنا وصحت ضمائرنا وقال

الواقدى توفى رسول بعض الملوك بدمشق فى خلافة هشام فوجد فى جيبه لوح من ذهب مكتوب فيه اذا ذهب الوفاء نزل البلاء واذا مات الاعتصام عاش الاستقام واذا ظهرت الخيانات امتحقت البركات وقال الوضاحى وجه أنوشروان رسولا له الى ملك قد أجمع على محاربته وأمره ان يتعرف سيرته فى نفسه ورعيته فرجع اليه فقال وجدت عنده الهزل أقوى من الجد والكذب أكثر من الصدق والجور أرفع من العدل فقال أنوشروان رزقت الظفر به سرا اليه وليكن عملك فى محاربته بما هو عنده أضعف وأقل وأوضع فانك منصور وهو مخذول فسار اليه فقتله واستولى على مملكته وقال بزرجمهر المزح آفة الجد والكذب عدو الصدق والجور مفسدة الملك فاذا استعمل الملك الهزل ذهبت هيبته واذا استحب الكذب استخف به واذا بسط الجور فسد سلطانه وكان نقش خاتم رستم وهو أحد ملوك الفرس الهزل سيفظه والكذب منقصه والجور مفسده وقيل لبعض أصحاب اسفنديار رجل من الترك أصيب فى عنقه لوح ذهب مكتوب فيه آفة الشدة التهيب وآفة المنطق الحياء وآفة كل شئ الكذب وقيل لبعض الحكماء ما قاصمة الصدق قال الخلد فى الدنيا قيل فما قاصمة الكذب قال موت عاجل قيل فما قاصمة العدل قال ملك الابد قيل فما قاصمة الجور قال ذل الحياة قال وسأل ملك الهند الاسكندر وقد دخل بلاده ما علامة الملك ودولته قال له الجد فى كل الامور قال فما علامة زواله قال الهزل فيه قال فما سرور الدنيا قال الرضا بما رزقت قال فما غمها قال الحرص على ما لعلك لا تناله وقال بزرجمهر ثلاث هن سرور الدنيا وثلاث هن غمها فاما السرور فالرضا بالقسم والرضا بالطاعة فى النعم وثقى الاهتمام بالرزق غدا وأما الغم فحرص مسرف وسؤال مجحف وتمنى ما يلهف ومر بعض الملوك بغلام يسوق حمارا غير منبعث وقد عنف عليه فى السوق فقال يا غلام ارفق به فقال الغلام يا أيها الملك فى الرفق به مضرة عليه قال وما مضرته قال تطول طريقه ويشتد جوعه وفى العنف احسان اليه قال وما الاحسان اليه قال يخف حمله ويطول أكله فاعجب الملك بكلامه وقال له قد أمرت لك بألف درهم قال رزق مقدور وواهب ما جور قال وقد أمرت باثبات اسمك فى حشمى قال كفيت مؤنه ورزقت بهما معونه قال لولا انك حديث السن لاستوزرتك قال لان يعدم الفضل من رزق العقل قال فهل تصلح لذلك قال انما يكون الحمد والذم بعد التجربة ولا يعرف الانسان نفسه حتى يبلوها قال فاستوزره فوجده ذا رأى صليب وفهم رحيب ومشورة تقع مواقع التوفيق قال وكتب الاسكندر الى ارسطاطاليس وقد نفذ فى الشرق والغرب وبلغ منهما ما لم يبلغه أحد قبله اكتب الى لفظا موجزا يقع موردا فكتب اليه اذا استولت بك السلامة فجدد ذكر العطب واذا هتفت بك العافية فخذ نفسك بالبلاء واذا اطمأنت بك الامن فاستشعر الخوف واذا بلغت نهاية الامل فاذكر الموت فان أحببت نفسك فلا تجعلن لها فى الاساءة اليها نصيبا قال ووعظ بعض الحكماء ملكا فقال له أيها الملك ان الدنيا دار عمل والآخرة دار ثواب ومن لا يقدم لا يجد فهن تفسك حلاوة عيشها بترك الاساءة اليها واعلم ان زمام العافية بيد البلاء وأمن السلامة تحت جناح العطب وباب الامن مستور بالخوف فلا تكونن فى حال من هذه الثلاثة غير متوقع لاضدادها ولا تجعل نفسك عرضا لسهام الهلكة فان الدهر عدو ابن آدم فاحترز من عدوك بغاية

الاستعداد واذا فكرت فى نفسك وعدوها استغنيت عن الوعظ (قال) وكتب الاسكندر على باب الاسكندرية أجل قريب فى يد غيرك وسوق ستبيت من الليل والنهار واذا انتهت المدة حيل بينك وبين العدة فاحتل قبل المنع وأكرم أجلك بحسن صحبه السابقين واذا آنستك السلامة فاستوحش بالعطب فانه الغاية واذا فرحت العافية فاحزن للبلاء فاليه تكون الرجعة واذا بسطك الامل فاقبض نفسك عنه بذكر الاجل فهو الموعد واليه المورد (وقال) ابن الاعرابى حدثنى من رأى بين اصبهان وفارس حجرا مكتوبا عليه العافية مقرونة بالبلاء والسلامة مقرونة بالعطب والامن مقرون بالخوف ولماضرب انوشروان عنق بزرجمهر لما رغب عن دين المجوسية وانتقل الى دين المسيح عليه السلام وجد فى منطقته كتابا فيه ثلاث كلمات اذا كان القدر حقا فالحرص باطل واذا كان الغدر فى الناس طبايعا فالثقة بكل أحد عجز واذا كان الموت بكل أحد نازلا فالطمانينة الى الدنيا حمق ولما تاب الله تعالى على النبى سليمان عليه السلام وردعليه ملكه كتب على كرسيه اذا صحت العافية نزل البلاء واذا تمت السلامة نجم العطب واذا تم الامن علن الخوف (وحفر) حفير بفارس فوجد فيه لوح رخام فيه أربعة أسطر محفورة أولها أيها المعافى أبشر بالبلاء والثانى ايها السالم توقع العطب والثالث أيها الآمن خذ اهبه الخوف والرابع أيها الموسر لن يبعد عنك العسر ولما نزل أبو مسلم مدينة سمرقند أتاه اسبهذها فقال أيها الملك ان بالقندها رجرا مدفونا فيه ثلاثة أسطر وجدت فى الكتب ان سليمان بن داود علمها السلام بعث به ودفن فى هذا الموضع ووجدانك أنت الذى تستخرجه وتعمل بما فيه فأمر به فاخرج فاذا أول سطر منه الحزم انتهازا لفرصة وتركه الوناء فيما يخاف عليه الفوت والسطر الثانى الرياسة لاتتم الا بحسن السياسة والسطر الثالث لم يقتل الآباء من ترك الابناء ولم يصب من لم يخب فكان ابو مسلم يقول علم جليل به تتم هذه الدولة ان لم ينزل القدر بما يحول بيننا وبين الحذر فلم يزل يستعمل هذا الكلام الى ان قدم العراق فاعماه القدر عن الاستعانة بالحذر فقتله أبو جعفر المنصور ولما حج أبو مسلم قيل له ان بالحيرة نصرانيا قد أتت عليه مائتا سنة وعنده علم من العلم الاول فوجه اليه فاتى به فلما نظر الشيخ الى أبى مسلم قال قدمت بالكفاية ولم تأل فى العناية وقد بلغت النهاية أحرقت نفسك لمن سيسكت حسك وكان قد عاينت رمسك فبكى أبو مسلم فقال لاتبك فانك لم تؤت من حزم وثبق ولا من رأى رتيق ولا تدبير نافع ولا من سيف قاطع ولكن ما استجمع أحد لامله الا أسرع فى تقريب أجله قال فمتى تراه يكون قال اذا تواطأ الخليفتان على أمر كان والتقدير فى يدى من يطل معه التدبير وان رجعت الى خراسان سلمت وهيهات فاراد الرجوع فكتب اليه السلطان بالمضى ووجه اليه من يحثه فلولا ان البصر يعمى اذا نزل القدر لكانت هذه دلالة تقع موقع العيان وتبعث على التيقظ فى الحذر والاحتيال فى الهرب على ان لكل نفس غاية ولكل أمر نهاية (وقيل) لجالينوس وهو حكيم الطب وفيلسوفه وقد نهكته العلة الا تتعالج فقال اذا كان الداء من السماء بطل الدواء واذا قدر الرب بطل حذر المربوب ونعم الدواء الاجل وبئس الداء الامل وقال بعض الغزاة فحصنا حصنا من بلاد الروم فرأيت فيه صورة الاسد من حجر مكتوب عليه الحيلة خير من الشدة والتأنى أفضل من العجلة والجهل فى الحرب احزم من العقل

والتفكر في العاقبة ماقة الجزع (وقال) أحمد بن سهل وجه ملك الروم الى هارون الرشيد بثلاثة أسياف مع هدايا كثيرة وعلى سيف منها مكتوب أيها المقاتل اجل تغنم ولا تفكر في العاقبة فتهزم وعلى الثاني منها مكتوب اذا لم تصل ضربة سيفك فصلها بالقاء خوفك وعلى الثالث مكتوب التأني فيما لا يخاف عليه القوات أفضل من العجلة الى ادراك الامل وقال الحسن ابن سهل قرأت في كتاب جاويدان خرد ثلاث تبطل مع ثلاث الشدة مع الحيلة والعجلة مع التأني والاسراف مع القصد (وقال) الخضر بن علي رأيت بعسدن حجرا عليه مكتوب بالحميرية أيها الشديد احذر الحيلة أيها العجول احذر التأني أيها المحارب تايس من الفكر في العاقبة أيها الطالب موجود الا تقطع أملك من يأوسه (وكتب) قيصر الى كسرى أخبرني بأربعة أشياء لم أجد من يعرفها واخالها عندك أخبرني ما عدو الشدة وصديق الظفر ومدرك الامل ومفتاح الفقر فكتب اليه الحيلة عدو الشدة والصبر صديق الظفر والتأني مدرك الامل والجود مفتاح الفقر (وقال) بعض الملوك لحكيم وأراد سفرا أوقفني على أشياء من حكمتك اعمل بها في سفري فقال اجعل تأنيك زمام عجلتك وحيلتك رسول شدتك وعفوك ملك قدرتك وأغضاءك من لك قلوب رعيتك ان لم تحرجهم بالشدة أو تطرهم بالاحسان اليهم وقال الخضر بن علي قرأت في كتاب جاويدان خرد وهو أجل كتاب للفرس الحيلة أنفع من أقوى الشدة وأقل التأني أجل من أكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم واذا استبد الانسان برأيه عميت عليه المراشد وكان البختكان أبو بزرجمهر خامل القدر وضيع الحال مفهه المنطق فلما أتت لبزرجمهر خمس عشرة سنة وحضر في مجلس الملك وقد جلست الوزراء على كراسيها والمرازبة في مجالسها وقف بمجال الملك ثم قال الحمد لله المأمول نعمه المرهوب نقمه الدال عليه بالرغبة اليه المؤيد الملك بسعوده في الفلك حتى رفع شانه وعظم سلطانه وأثار به البلاد وأعاش به العباد وقسمه في التقدير وجوه التدبير فرعى رعيته بفضل نعمته وحماها المؤيدات وأوردها المعشبات وذادها عن الآكلين وألفها بالرفق واللين انعاما من الله تعالى عليه وتنبيتا لما في يديه واسأله ان يبارك له فيما آتاه ويحيزه فيما استرعاه ويرفع قدره في السماء وينشر ذكره تحت الماء حتى لا يبقى له بينهما مناوى ولا يجد له فيما مداني واستوهب له حياة لا تغيض فيها وقدرة لا شاذ عنها وملكا لا بؤس فيه وعافية تديم له البقاء وتكثر له النماء وعزا يؤمنه من انقلاب ريحه او هجوم بليه فانه مولى الخير ودافع الشر فأمر الملك فحشي فمه بثمين الجواهر ورقيعه ولم يدفع حداثة سنه مع نبيل كلامه ان استوزره وقلده خيره وشره فكان أول داخل وآخر خارج (وقال) عمر بن عبد العزيز ما الله على العاقل نعمة بعد الاسلام أفضل من مباينة هذه السفلة بالفهم والعقل ولو لم يكن هذا ما عرف الله تعالى الا بالجهل ألا ترى ان الله تعالى خاطب أولي النهى وذوي الالباب وذوي البصائر ويجب على العلية ان يحمدوا الله تعالى على مباينتهم هذه السفلة بالعقول والافهام كما يحمدونه على جميع النعم (وقيل) لمروان بن محمد وهو آخر ملوك بني أمية ما الذي أصارك الى هذا قال الاستبداد برأيي لما كثرت على كتب نصر بن سيار ان أمده بالاموال والرجال قلت في نفسي هذا رجل يريد الاستكثار من الاموال والجند بما يظهر لي من فساد الدولة قبله وهيهات

أن ينتقض على خراسان فانتقضت دولته من خراسان وقال الواقدى قال الفضل بن سهل لما دعى للمأمون فى كور خراسان بالخلافة جاءتنا هدايا الملوك سرورا بمكانه من الخلافة ووجه ملك كابلستان شيخا يقال له ذوبان وكتب يذكر انه قد وجه بهدية ليس فى الارض اسنى منها ولا ارفع ولا انبل ولا افخرها فعجب المأمون وقال سل الشيخ عما معه فسألته فقال ما هى شئ أكثر من علمى قلت وأى شئ علمك قال رأى يتقع وتدبير يقطع ودلالة تجمع قال فسر المأمون بذلك فأمر بانزاله واكرامه وكتمان أمره فلما اجمع على التوجه الى العراق لقتال أخيه قال لذوبان ماترى فى التوجه الى العراق قال رأى وثيق وحزم مصيب وملك قريب فالسير ماض فاقض ما أنت قاض قال له فمن نوجه قال الفتى الاعور الطاهر الاطهر يسير ولا يعثر قوى مرهوب مقاتل غير مغلوب قال فكم نوجه من الجند قال أربعة آلاف صوارم الاسياف لا ينتقصون العدد ولا يحتاجون الى المدد فسر المأمون بذلك ووجه بطاهر ابن الحسين قال وفى أى وقت يخرج قال مع طلوع الفجر يجمع لك الامر ويصير الى النصر نصر سريع وقتل ذريع وتفريق تلك الجموع والنصرة لا عليه ثم يرجع الامر اليك واليه فظفر طاهر وكان له النصر وقتل على ابن عيسى وزير الامين واستولى على عسكره وحاز أمواله فأمر الملك لذوبان بمائة ألف درهم فلم يقبلها وقال أيها الملك ان ملكى لم يوجهنى اليك لانتقصك مالك فلا تجعل ردى لنعمتك تسخطا وساقبل ما بقى هذا المال ويزيد عليه قال المأمون وما هو قال كتاب يوجد بالعراق فيه مكارم الاخلاق وعلوم الآفاق من كتب عظيم الفرس فيه شفاء النفس من صنوف الآداب بما ليس فى كتاب عندعاقل لبيب ولا فطن أريب يوجد تحت ايوان بالمدائن فيقاس بالذرعان فى وسط الايوان لازيادة ولا نقصان فاحفر المدر واقلع الحجر فاذا وصلت الى الساجه فاقلعها تجد الحاجة ولا تلزم الغير ها فيلزمك غب ضرها فأرسل المأمون الى ايوان كسرى فحفروا فى وسطه فوجدوا صندوقا صغيرا من زجاج عليه قفل منسه فحمل الى المأمون فقال لذوبان هذا بغيتك قال نعم أيها الملك قال خذها وانصرف فتكلم بلسانه ونفخ فى القفل فانفتح فاخرج منه خرقة ديباج فنشرها فسقط منها أوراق فعدها مائة ورقة ولم يكن فى الصندوق شئ غيرها فأخذ الاوراق وانصرف الى منزله قال الفضل بن سهل فجئته فسألته فقال هذا كتاب جاويدان خرد تأليف كيجور وزير ملك ايران شهر فطلبت منه شيأ فدفع الى ورقات منه وترجمها الى الخليفة بن على ثم اخبرت المأمون فقال احمل الى الورقات فحملتها اليه فقرأها فقال والله هذا الكلام لا ما نحن فيه من لى بالستنا

*(فصل)*من نوادر بزرجمهر حكيم الفرس نصحنى النصحاء ووعظنى الوعظاء شفقة ونصيحة وتأديبا فلم يعظنى احد مثل شيبى ولا نصحنى مثل فكرى ولقد استضأت بنور الشمس وضوء القمر فلم أستضئ بشئ أضوأ من نور قلبى وكنت عند الاحرار والعبيد فلم يلكنى أحد ولا قهرنى غير هواى وعدائى الاعداء فلم أر أعدى لى من نفسى اذا جهلت واحترزت لنفسى بنفسى من الخلق كلهم حذرا عليها وشفقة فوجدتها أشر الانفس لنفسها ورأيت انه لا يأتيها الفساد الا من قبلها ونجانى المضايق فلم ينجنى مثل الخلق السوء ووقعت من أبعد البعد

أطول العلول فلم أقع في شيء أضر علي من لساني ومشيت على الجمر ووطئت على الرمضاء فلم أر نارا أحر من غضبي اذا تمكن مني وطالبني الطلاب فلم يدركني مدرك مثل انساني ونظرت لهذا الداء القاتل ومن أين نالني فوجدته من معصية ربي سبحانه والتمست الراحة لنفسي فلم أجد شيأ أروح لها من تركها ما لا يعنيها وركبت البحار ورأيت الاهوال فلم أر هولا مثل الوقوف على سلطان جائر وتوحشت في البرية والجبال فلم ار مثل القرين السوء وعالجت السباع والضباع والذئاب وعاشرتها وعاشرتني وغلبتها فغلبني صاحب الخلق السوء وأكلت العلهز وشربت المسكر وعانقت الحسان فلم أجد شيأ ألذ من العافية والامن وتوسطت الشياطين والجبال والسباع فلم أجزع الا من الانسان السوء واكلت الصبر وشربت المر فلم أر شيأ أمر من الفقر وشهدت الحروب وتعبية الجيوش وباشرت السيوف وصارعت الاقران فلم أر قرنا أغلب من المرأة السوء وعالجت الحديد ونقلت الصخر فلم أر حملا أثقل من الدين ونظرت فيما يذل العزيز ويكسر القوي ويضع الشريف فلم أر أذل من ذي فاقة وحاجة ورشقت بالنشاب ورجمت بالحجارة فلم ار أنفذ من الكلام السوء يخرج من فم مطالب بحق وعرت السجن وشددت في الوثاق وضربت بعمد الحديد فلم يهدمني مثل ما هدمني الغم والهم والحزن واصطنعت الاخوان وانتخبت الاقوام للعدة والشدة والنائبة فلم أر شيأ أخير من التكرم عندهم وطلبت الغنى من وجوهه فلم أر أغنى من القنوع وتصدقت بالذخائر فلم أر صدقة انفع من رد ذي ضلالة الى هدى ورأيت الوحدة والغربة والمذلة فلم ار أذل من مقاساة الجار السوء وشيدت البنيان لاعزبه واذكر فلم أر شرفا أرفع من اصطناع المعروف ولبست الكساء الفاخرة فلم البس شيأ مثل الصلاح وطلبت أحسن الاشياء عند الناس فلم أجد شيأ أحسن من حسن الخلق وسررت بعطايا الملوك وحبائهم فلم اسر بشيء اكثر من الخلاص منهم

* (فصل) * ومن حكم شاباق السندي من كتابه الذي سماه منتخل الجواهر للملك بن قابص الهندي يا أيها الملك اتق عثرات الزمان وتحش تسلط الايام ولوم علية الدهر واعلم أن للاعمال جزاء فاتق العواقب وللايام عثرات فكن على حذر وللاقدار نهيبات فاستعدلها وللزمان منقلب فاحذر دولته لئيم الكرة تخف سطوته سريع الغرة فلا تامن دولته واعلم ان من لم يدا ونفسه من سقام الآثام في ايام حياته فما أبعده من الشفاء في دار لادواء لها بها ومن اذل حواسه واستعبدها فيما يقدم من خير لنفسه بان فضله وظهر نبله ومن لم يضبط نفسه وهي واحدة لم يضبط حواسه وهي خمس واذا لم يضبط حواسه مع قلتها وذلتها صعب عليه ضبط الاعوان مع كثرتهم وخشونة جانبهم فكانت عامة الرعية في قواصي البلاد واطراف المملكة أبعد من الضبط فليبدا الملك بسلطانه على نفسه فليس من عدو احق ان يبداه بالقهر من نفسه ثم يشرع في قهر حواسه الخمس لان قوة الواحدة منهن دون صواحبها قد تأبى على النفس القوية الحذرة فكيف اذا اجتمعت خمس أنفس على واحدة واعلم ان لكل واحدة منهن شهوة ليست للاخرى فميزها تسلم من شرها وانما يهلك الحيوان بالشهوات ألا ترى أن الفراش يكره الشمس فيسكن من حرها ويحبه ضياء النار فيدنو منها فتحرقه والظبي على نفار قلبه وشدة حرصه ينصت للسماع الموقع الملهي فيمكن القانص من نفسه وذباب الورد

المتبع لطيب الاراييح يطلب ما يقطر من اذن الفيل لطيب رائحته فانه فى طيب رائحة المسك فليهيه طيب الرائحة عن الاحتراس من تحريك الفيل اذنه فيتويل فى أصل اذنه فتقع عليه ضربة الاذن فتقتله والسمك فى البحر تحمله لذة الطعم ان يبتلعه فتحصل الصنارة فى جوفه فيكون فيه حتفه (وذكر الحكيم) ان خصال معروفة قتلت بالافراط فيها ملوكا معروفين فالصيد مات فيه قيده الملك والافراط فى العهارات منه سيب الملك والافراط فى السكرمات فيه حازق الملك وشدة الحرص مات منه مهريق الملك والغضب أخرسنى الملك والطمع وائل والفرح واطبات والانفة بوليس والتوانى زمير بهر واخلق يخصال أهلكت ملوكا ان يجتنبها الملوك * واعلم ان الرعية تستطى الى الملك العادل استطاء أهل الجدب الى الغيث ويتعيشون بطلعته عليهم كاتعاش النبات بما يناله من القطر بل الرعية بالملك العادل أنفع منها بالغيث لان لمنفعة الغيث وقتا معلوما وعدل الملك على الدوام لا يتعين له وقت ويحسن بالملك ان يشبه تصاريف تدبيره بطباع ثمانية أشياء وهى الغيث والشمس والقمر والريح والنار والارض والماء والموت فاما شبهه بالغيث فتواتره فى أربعة أشهر من السنة ومنفعته بجميع السنة كذلك ينبغى للملك ان يعطى جنده وأعوانه فى الاربعة أشهر تقديرا لتحة السنة فيجعل رفيعهم ووضيعهم فى الحق الذى يستوجبونه بمنزلة كما يسوى المطر بين كل أكمة مشرفة وغائط مستقل ويغمر كلا من مائه بقدر حبه ثم يستجبى الملك فى الثمانية الاشهر حقوقه من غلاتهم وخراجهم كما تسخن الشمس بحرها وشدة فعلها ماذاوة الغيث والامطار فى الاربعة الاشهر وأما شبهه الريح فان الريح لطيفة المداخل تسرح فى جميع المنافذ حتى لا يقوم لها مكان كذلك الملك ينبغى أن يتويل قلوب الناس بحواسيسه وعيونه لا يختفون عنه بشئ حتى يعرف ما يأتمرون به فى بيوتهم وأسواقهم وكالقمر اذا استهل أيامه فأضاء واعتدل نوره على الخلق وسر الناس بضوئه ينبغى أن يكون الملك بهجته وزينته واشراقه فى مجلسه وايناسه رعيته ببشره فلا يخص شريفا دون وضيع بعدله وكالارض فى كتمان السر والاحتمال والصبر والامانة وكالنار على أهل الدعارة والفساد وكعاقبة الموت فى الثواب والعقاب يكون ثوابه لا يقصر عن اقامة حد ولا يتجاوزه وكالماء فى لينه لمن لا ينه وهدمه واقلاعه عظيم الشجر لمن حاربه * واعلم أنه قد يكتنف السلطان من شرار الناس والاعوان على الحاجة اليهم من يستبشع ويستكره كالحيات تكتنف بالصندل فيقتلها الصندل بطيب رائحته وبرده ويبسه وينتفع الصندل بها اذا لم يقرب منه من يريد أن يقطعه * لكن فيك مع تلطفك تشديد البلاء فلا يتجرأ عليك فان القمر يستنار بضوئه ويظهر له لكن الشمس يستظل من حرها ويسكن لها وقد قالت العرب فى مثل هذا لا تكن حلوا فتسرط ولا مرا فتلفظ اجعل لكل طبقة من أعدائك اشباههم من أعوانك يسوسونهم فانهم كالماء فى الاذن لا حيلة فى اخراجه الا برفق من الماء الذى هو من جنسه * اذا عاديت رجلا فلا تعاد جنسه واستبق من دونه أحدا فعسى تنتفع به فان السيف القاتل من جنس الدرع الواقى ولا تطمعن فى الكذوب والمطبوع على الشر أن تعطفهما بالاحسان فانهما كالقرد كلما سمن باطعام الحلاوة والدسم ازداد وجهه قبحا * قدير الواحد كيد الجميع اذا كان عاقلا كما يرد الظل حر شعاع الشمس اذا كان وافيا غاية

أحى الناس ان يقتل بسهمه واحدا لكن رمية عاقل ذهن تقتل الجيش بأسره والملك الشريف العاقل لا يتقد فيه قدح أهل البغي من انقطع اليه ولزمه كان كالجوهر المضيء منوره لا طفئه عصوف الرياح من كان قابلا لما يورد عليه فى اصغائه الى كل قول يسمعه كان كالسراج يميل به كل ريح لينة ثم لا يلبث ان عصفت الرياح أن يطفأ * تدبير الملك الحازم فى سلطانه كتعاهد صاحب البستان بستانه يخرج ناحل عبدانه وشول شجره فيحيط به على ثمره وزرعه ليقمه من الشر والفساد كما يتخيف الملك أهل الشكيمة والشوكة فيجعلهم فى أقاصيه وحدوده ردأ للمملكة * وليكن الملك احذر ما يكون آمن ما يكون (قلت) وقد صدق الشاعر

أأمنت ريب المنون فيتم * ريب خوف مكمن فى أمان

كمال ألا ترى ان بهرشان الملك أنامت المرأة على فراشه رجلا فلما رام فراشه وثب عليه فقتله وباسراج الملك قتلته بخلخال مسموم ودروف الملك قتلته امرأته بمدية خبأتها فى عقاصها واعلم ان العدو قد علم منك مواضع الحذر وحالات الامن وانما ترصدك فى حالات الامن والمواضع التى تظن العدو لا يكمن فيها فكن أحذر ما يكون فيها وسائر حكم هذا الباب قد قدمتها فى تراجم كابنا

* (فصل) * قال غيره لا ينبغى للملك ان يكون له أيام معلومة يظهر فيها فان فى ذلك خصالا مذمومة منها انه قد يعوق عن ذلك اليوم عمل بهم أو بعض كسل أو لذة مغتنمة فيلزمه الخروج على كره ومنها انه اذا تخلف عن الظهور فى ذلك اليوم لامر ما تطاولت الاعناق من الرعية وكثر كلامها وقالوا مرض أو مات أو اصابته آفة فيكسب العدو جرأة وسرورا ويكسب الولى حزنا وجبنا ومنها انه قد يواعد عدوه ليوم يلتقيان فيه فلا يتم له ذلك * ولا ينبغى ان يكون الملك كثير التصرف عند فساد الزمان وخبث الرعية وعن هذا قالت الحكماء اذا كان الجمل كثير القفز كان نصيب الذئب

* (فصل) * من نوادر كلام العرب من حكم اكثم بن صيفى وهذا رجل كان له عقل وعلم ومعرفة بالتجربة وقد علق الناس عنه حكما لطيفة والفوا فيها تصانيف فمن حكمه قال من قسدت بطانته كان كمن غص بالماء أفضل من السؤال ركوب الاهوال من حسد الناس بدا بمضرة نفسه العديم من احتاج الى اللئيم مرلم يعتبر فقد خسر ما كل عثرة فقال ولا كل فرصة تنال لا وفاء لمن ليس له حياء قد يشهر السلاح فى بعض المزاح من وفى بالعهد فاز بالحمد الموت يدنو والمرء يلهو طول المخض يورث الوصب رب عتق شر من رق من اصطنع قوما احتاج اليهم يوما ما الكذب بهت والخلف مقت من لم يكف اذاه لقى ماساءه الحر يقاضى لك من نفسه واللئيم يستحسن تسويفه وحبسه ليس بانسان من ليس له اخوان ثق من ربيفسك ان صحبت من هو دونك عليك بالمجاملة لمن لا تدوم له مواصلة فى الاسفار يدو الاختبار أفسد كل حسب من ليس له أدب أفضل الفعال صيانة العرض بالمال ليس من حادث الجهول بذى معقول ليس للملحف مثل الرد من جالس الجهال فليستعد لقيل وقال ما جلا عنك النسيان مثل البيان ولا نفى عنك البهتان مثل البرهان لم ينج من الموت غنى لماله ولا فقير لاقلاله اذا أردت طرد الحر فسمه الهوان كثرة العلل آية البخل

كفر النعمة لؤم وصحبة الاحمق شؤم ان من الكرم لين الشيم اياك والخديعة فانها خلق لئيم المحض أخلك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة رب سباب قدها به العتاب الصدود آفة المقت سبب الحرمان التواني من سأل فوق قدره استحق الحرمان ليس كل طالب يصيب ولا كل غائب يؤوب ان من الفساد اضاعة الزاد من حلم ساد ومن تفهم ازداد لا ترغب فمن يزهد فيك رب بعيد أقرب من قريب المزاح يورث الضغائن سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار غنك خير من سمين غيرك من أجد المسير ادرك المقيل استر عورة أخيك لما يعلم فيك لا تكثر من المزاح فتذهب هيبتك ولا من الضحك فيستخف بك من أكثر من شئ عرف به كفى بالحلم ناصرا المنة تهدم الصنيعة نعم الشئ الهدية بين يدى الحاجة ربما نصح غير الناصح وربما غش المنصح الكلام فيما ينفعك خير من السكوت والسكوت عما يضرك خير من الكلام لا يغرنك من جاهل قرابة ولا جوار ولا الف فان أقرب ما تكون من النار قربا أقرب ما تكون منها تلهبا ارفض أهل الدناءة تلزمك المهابة دع مجالسة أهل الريب على كل حال فانك ان يسلم دينك لم تسلم من سوء المقال الكرم شكر البلاء واللؤم كفر النعمة أكرم الصنائع سلامة الصدور لن تسلم من الناس حتى يسلموا منك من عدم الايمان لم تجده الرواية فقها الحزن مفسدة للعقل ومقطعة للحيلة كثرة النوم اماتة للقلب شدة الحذر تدل على ضعف اليقين محادثة الحمق والسفها تورث سوء الخلق الدليل على الحمق اعجاب المرء بعقله من لم يسمع الحديث فارفع عنه مؤنته من حدث من لا يفقه كن قدم مائدة لاهل القبور من قطع عليك الحديث فلا تحدثه فليس بصاحب أدب من عرف بالصدق جاز كذبه ومن عرف بالكذب لم يقبل صدقه من وصل من يحسده قوى عدوه وقصر بنفسه اغتر زلة صديقك من غضب من غير شئ رضى من لا شئ من غضب على من لا يقدر عليه طال حزنه الرجل عبد هواه لولا جهل الجاهل ما عرف عقل العاقل من خاف ربه كف ظلمه كل الفقير هلاكه شح الغنى فضيحته من لم يتورع فى كلامه اظهر فجوره كل شئ لا يوافق الاحمق فاعلم انه صواب اذا غلبتك امرأتك فجاهدها فانها عدولك من لم يعرف الخير من الشر فالحقه بالبهائم من طلب ما عند البخيل مات جوعا جار الرجل الجواد كجاور البحر لا يخاف العطش وجار البخيل فى المقابر هالك اذا لم تنتفع بصداقة الاحياء فأت أهل القبور من عادى من فوقه ابغضه من تحته الرزق مقسوم والحريص محروم من كثر كلامه على المائدة غض بطنه وابغضه أصحابه العلم زين ومنفعة والجهل شين ومضرة الجاهل يستطع الشر والعاقل يمنع نفسه من الشر من لم يرتح للثناء فليس له نصيب فى المروأة اذا كان لك جار أو صديق لا تنتفع به فصوره مثله فى الحائط فانه أزين للحائط وأخف للمؤنة العاقل يرغب فى الادب والجاهل يهرب منه العاقل اذا فاته الادب لزم الصمت لا تستنطق من تكذبه العاقل يتهم رأيه فى نفسه والجاهل يقيم على جهله من لم يملكه عقله لم يملك نفسه من أظهر محاسنه ودفن مساويه كمل عقله من غلب هواه عقله افتضح من استشاره عدوه فى صديقه أمر بقطيعته مصادقة الكرام غنيمة ومصادقة اللئام ندامة لا تدخل على صديقك التهمة فيرجع لك عن النصيحة اذا انقطع رجاؤك عن صديقك فالحقه بعدوك من طلب

مرعاة الاخوان بغير شئ فليصادق أهل القبور العاقل ليس في مصادقته مخادعة رأس مال الاحمق الخديعة وفائدتها الغضب والحليم رأس ماله الصمت وفائدته الحلم اذا جهل عليك الاحمق فالبس له سلاح الرفق واللطف صديق كل امرئ عقله وعدو كل امرئ حمقه من أنزل نفسه عاقلا انزله الناس جاهلا من قنع يكذب الثناء أظهر للناس رفاعته السكوت عن الاحمق جوابه السكوت يزين الاحمق والكلام يشينه من استطال عليك بلسانه وتحلى بفضله فلا أكثر الله في الناس مثله الجواد محبب والبخيل مبغض اذا حملت البخيل مؤنة أبدى لك الحرمان والعداوة البخيل يمنع ما عنده ويبخل على الجواد بجوده من طلب من البخيل حاجة فهو أشر منه من بذل لبخيل صلته ورفع عنه مؤنته دامت له مودته ضيف البخيل آمن من التهمة من طلب من اللئيم حاجة كمن طلب السمك في المفازة عدة الكريم نقد وعدة اللئيم تسويف الكريم يوامي اخوانه في دولته واللئيم يقطعهم لا تخضع اللئيم فانه لا يعطيك انما الصديق الذي يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند البلية ويحفظك عند المغيب ويتقعك عند الرجاء اذا صادقت الوزير فلا تخش الامير من لم يتحبك في الصداقة فعاده من غشك في العداوة فلا تأمنه من كان الناس عنده سواء لم يكن له أصدقاء من صادق الاخوان بالمكر كافئوه بالغدر من لم يواس الاخوان في دولته خذل عند مأمنه اياك أن تبغي مودة من يحسدك فانه لا يقبل اخاءك من حسدك على عملك لم يسعفك حسدينك الحاسد يفرح بزلتك ويعيب صوابك اذا رأيت من يحسدك ويسرك ان تسلم منه فهم عليه أمورك من صبر على مودة الكاذب فهو مثله وكل شئ شئ ومودة الكاذب لا شئ من بدأ بجهله فكافئه بحلمك تغنم أول المروأة طلاقة الوجه والثانية التودد والثالثة الفصاحة الفاجر لا يبالي ما قال والورع يتعاهد كلامه من شغل مشغولا فقد أظهر ثقله من صبر على شغل سوء فقد نظر الى محنة عينه من لم يغلب الحزن بالصبر طال غمه من استطال على الناس بغير سلطان فليصبر على الذل والهوان لا تحقر الفقير السري ولا ترغب في الغني الدني من تشبه بالسراة وغلبت عليه الدناءة فلا تكرمه من أغضبته أنكرته من أغنيته أعطفته من تعرض لصاحب الدولة انقلب بهزيمة من صانع بماله لم يحتشم من طلب حاجته من صاحب الكتاب ماله ومن عاداهم أنكروه من شهد عليك بأنفه وطمع بصره ولم يدخل عليك فضله فليهن عليك سلبه السفيه يقطع مودته لم تزل ويكتسب عداوة لم تكن حمل المروأة ثقيل من سالم الناس غنم خذلان الجار لؤم ورجال البلاء قليل احفظ اخوانك تذل اعداءك ما أجمل الصبر على ما لا بد لك منه المحروم من طال نصبه وكان لغيره نشبه لا قوى أقوى ممن قوى على نفسه ولا عاجز أعجز ممن عجز عنها الخير في أهل غريب ما أضعف قوة من يغالب من لا يغلب

* (الباب الرابع والستون مشتمل على حكم منثورة) *

اعلم أيها المريد ان الله تعالى يمحن أنبياءه وأصفياءه بأعدائه ويضطر أولياءه واحباءه الى أعدائه رفعة وتقريبا لانبيائه وتمحيصا لهم قوات أولياءه وذخرا لهم عنده وزلفى لديه تعظيما لاقدارهم وتشريفا لمنازلهم وترفيعا لدرجاتهم قال الله سبحانه وتعالى تعزية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لعظيم ما كان يلقاه من سطوات أعدائه وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن

يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وقال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين يا محمد لا تستوحش منا ولا تهتم فى سيرتنا فمن نحبه ونحبنا فالبلاء على وجهين أحدهما الذنب والآخر رفع درجة وتوفير أجر ولذلك كان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالامثل فالبلاء بلا آن بلا مرحمة لتضعيف درجة وتمحيص سيئة وبلوغ فضيلة وعلو منزلة وبلا معقوبة لانتهاك حرمة واقتراف معصية لن تخلوا المكاره أن تكون لحادث رحمة فلا رغبة عما أنعم الله به منها أو لسيئة عن اضاعة فلا غنى عن زاجر عنها فلاى ذلك كان حاولها عظمت به المنة ووجبت لله به النعمة (وكان جعفر بن محمد) رضى الله عنه اذا وقع فى شئ يكرهه يقول اللهم اجعله أدبا ولا تجعله غضبا وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم لو كان المؤمن فى رأس جبل لقيض الله له من يؤذيه يا من ضاق صدره وحرج قلبه وساء خلقه من عدو أقلقه وحاسد حسده طب نفسا وقر عينا وانعم عينا بشهادة الرسول له بالايمان وعدو له بالنفاق يخ يخ ان عقلها أما لك فى الانبياء اسوة أما لك فى الصالحين قدوة فاولم تلق الله عز وجل من الحسنات الا بما اقترفناه اختيارا لقضينا الله تعالى فقرا من الحسنات ثقلا من السيئات قال الشاعر

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت * ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

قال بعض الحكماء الذى رأيناه نحب فيما نكره اكثر مما رأيناه نحب فيما نحب * وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ما أبهمنى ذنب امهلت بعده حتى أصلى ركعتين * السجود قبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء وأسعد الناس من كان القضاء له مساعدا وكان لمساعدته أهلا غلب على الكريم من بدا له الشماتة لؤم عوام الناس عدة تلوا صمم يحى * القدر يسبق الحذر من سخر من شئ حاق به من عير بشئ ابتلى به الخلق تهب المصائب مذاكرة الرجال تلقيح لالبابها أقل ما فى طلب الحيلة الخروج من الاستكانة جاف العقوبة على نفسه أعظم جرما عليها من المعاقب له عليها قرابة بغير منفعة بلية عظيمة النعمة منعة كفاك أدبا لنفسك ما كرهته من غيرك الجهة شؤبوب الجهول الافقة قوام السفه قل أنف لم يعقب ذلا الغادر كبين لا يؤمن من ازدام الكلام مضلة الصواب عجلوا القرى قبل سوء الظن والحاق السبة أعجب ما فى هذا الانسان قلبه وله مواد من الحكمة واضدادها من خلافها فان سنح له الرجاء اذله الطمع وان هاج به الطمع أهلكه الحرص وان ملكه اليأس قتله الاسف وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ وان استعذر الرضا نسى التحفظ وان ناله الخوف شغله الحذر وان اتسع له الامن استلبته الغرة وان حدثت له نعمة أخذته العزة وان امتحن بمصيبة فضحه الجزع وان أفاد مالا أطغاه الغنى وان عضته فاقة أشغله البلا وان اجهده الجوع قعد به الضعف وان أفرط فى الشبع كظته البطنة فكل تقصير به مضر وكل افراط له مفسد أفضل القول بديهة امرئ ورويت فى مقام خوف أشد الناس نحما الذى يرى غيره فى الموضع الذى هو فيه أولا ما أخذ الله طاقة أحد الا رفع عنه طاعته من العجب ان لا ترضى عمن استثنى رضاه وأعجب من ذلك ان تسخط عليه زئير الاسد يشبه صولته علامة العلم العمل بالاعراض عند المنادهة لا تعادوا حتى تروا لا تفخروا حتى تفعلوا لا تأنفوا حتى تظلموا أوجه الشفعاء براءة الساحة من لزم الصحة والاستقامة لزمته الغبطة والسلامة قصص الاولين مواعظ الآخرين البحث

قوله بالاعراض عند المنادهة هكذا فى النسخة التى بأيدينا ولم يظهر معناه فليحرر

يواسع الحق كما يورى النار القدح ليس مع الحسد سرور ولا مع الحرص راحة ولا مع السخط
عفة (قال جعفر بن محمد الصادق) عجبت لمن بلى بار بع كيف يغفل عن أربع لمن ابتلى بالضر
كيف يذهب عنه أن يقول مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين والله تعالى يقول فاستجبنا له
فكشفنا ما به من ضر وعجبت لمن بلى بالغم كيف يذهب عنه ان يقول لا اله الا أنت سبحانك انى
كنت من الظالمين والله تعالى يقول فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين وعجبت
لمن خاف شيأ كيف يذهب عنه ان يقول حسبى الله ونعم الوكيل والله تعالى يقول فانقلبوا
بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء وعجبت لمن مكر به كيف يذهب عنه أن يقول وأفوض
أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد والله تعالى يقول فوقاه الله سيأت ما مكروا وعجبت لمن أنعم
عليه بنعمة خاف زوالها كيف يذهب عنه أن يقول ولولا اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة
الا بالله كذا سنة الله سبحانه فمن صدق فى التجائه اليه ولم يتوكل فى مهماته الا عليه * العين
مأقمة أو مذمة ألذ الموارد منجاة من متلفة أو قدوم غائب بعد أن جاءت باليأس منه الركائب
وأشر المصادر ظفر على قنوط الطبيعة مخالفة للمروءة فاصبر لحق وجب عليك وان خالف هواك
بهاء المجلس الشريف بالرجل الفاضل اليقين راحة وروح العمل النافذ بالرجل المدبر كبهاء
الياقوت واللؤلؤ فى تيجان الملوك ما أنور الهدى ما أظلم العمى ما أكرم التقى ما أخدع
الهوى ما أسرع البلا ما أجلد الصبا الجود أن يهضم الروح حظ الجسد والاسراف ان
يهتضم الجسد حظ الروح والعدل ان يعطى كل واحد منهما حظه والشح أن تكف حظوظهما
عنهما عدو يخاف الله فيما تكره خير من صديق لا يخافه فيما تحب من العجب أن تطلب فى
صحة كل علم ما ينفعنا ونكل العلم الى الله تعالى من غير بحث عن صحته لا يرعك الباطل مما ترى
به ولكن احذر ان يصدع عليك بالحق فيشمد عليك عيناك ووجهك من بطل رشاؤه بطل منحه
الراغب فقير بقدر رغبته الحق يعطى ويمنع تجاوز عن ذنوب الناس لتحج عليهم واجتنب
الذنوب لتقل حجتهم عليك الفراغ الفاضل عن الحمام مفسدة الجمة احدى العلتين الفرق
ينجى الجفة حالى العلية فى كلامك وسوء بينهم وبين السفلة فى أحكامك سوت فى عز خير من
حياة فى ذل الاكفاء من كل نمط متباغضون ما ضاع امرؤ عرف قدر نفسه الدعة الهنية
تكون بعد انقضاء العمل لن يفارق الخير صاحبه حتى يفارقه خير الناس من تواضع عن رفعة
وعفا عن قدرة الحاسد يظهر وده فى كلامه وبغضه فى افعاله قاسم الصديق ومعنى العدو
الرياء يفسد العلانية والعجب يفسد عمل السريرة اذا كثرت القدرة قلت النهوة من عرف
قدره كفاه نفسه كفى بالظفر شفيعا للمذنب الى الحليم لسان الجاهل دليل حتفه لا ظفر مع
بغى ولا صحة مع نهم ولا ثناء مع كبر ولا صداقة مع خب من لم يعرف قدره فاكفه نفسك أحق
ما زدما خالف شهادة العقل قطع ظهرى وافسد الدين رجلان جاهل ناسك وعالم فاجر هذا يدعو
الناس الى جهله بنسكه وهذا ينفر الناس عن علمه بفسقه من قوى هواه ضعف حزمه من ظهر
غيظه قل كيده كفى بالظلم طاردا للمنفعة وداعيا للنقمة من قبل صلتك فقد باعك مروءته
الهدية تفقأ عين الحكيم عفو الرأى خير من استكراه الفكر من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ومن
حمد الله فقد فخر ما اكتسب بمثل الكبر من استغنى بالله افتقر الناس اليه التقصير يتخلل

عن الصواب الافراط يتعمك في الخطا ثلاث خصال ما اجتمعن الا في كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة المذلة كفى مخبرا عما بقي ما مضى وكفى عبرا لذوي الالباب ما جربوا التهاون بالمطلوب أول اسباب حرمانه الشبه ظلمة لن يضيع امرؤ صواب القول حتى يضيع صواب العمل خير الامور ما سر عاجله وحسنت عاقبته لا شرف مع سوء أدب ولا برء مع شح ولا اجتناب محروم مع حرص ولا محبة مع زهو باجالة الفكر يستخرج الرأي المصيب ويحسن التأني تدرك المطالب وبالنصفة يكثر المتواصلون الفاحشة عار الابد وعقوبة غد الشماتة تعقب الندامة من سخر ابتلي قال الله تعالى ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون اذا فقدت المتقضاون هلك المتجملون رب صيانة غرست من لحظة وحرب جنيت من لفظة ما شاهد على غائب بادل من طرف على قلب شر المال مالا ينفق منه أفضل المال ما صين به العرض وبالافضال تشرف الاقدار الذي يكون سببا لفساد نفسه أذل ممن يفسده عدوه أو دهره لا تعدن وديعة مالا الشهوة رق الحريص كلب يعبر على الانسان اللسان وعلى المودة العينان لا شرف أعلى من الاسلام ولا كرم أغلى من التقوى ولا شفيع أعنى من التوبة أولى الناس بامر من حافظ عليه الخير موضوع على من أراده موفور لمن عمل لله الرغبة مفتاح الطلب ومطية الحسرة الحرص داع الى الحرمان التنقل بالحسنة يمحى السيئة المكافأة بالسيئة دخول فيها البغي سائق الى الحين اصلاح الرعية انفع من كثرة الجنود حق المذموم التأنيب وحق المرحوم المعونة من الجهل والجفاء اظهار الفرح عند المحزون يحقد على الفرح ويشكر للمكتئب من ظل السلامة تدب أقاصي الآفات أعظم الناس قدرا من لم يجعل الدنيا لنفسه قدرا ما أحدث محدث بدعة الا ترك بها سنة عزائم الامور خيارها ومحدثاتها شرارها الملك يكتسب من اتفاقه والعامة تتفق من تكسبها من أفنى عمره في جمع المال مخافة العدم فقد أسلم نفسه للعدم

(قال الشاعر) ومن ينفق الساعات في جمع ماله * مخافة فقر فالذي فعل الفقر

من لم يقدر على جمع الفضائل فليكن فضائله ترك الرذائل اذا لم تكن ملما تصلح فلا تكن ذبابا تفسد استصلاح بعض العدو وأفضل من اهلاكه من سعادة المرء ان يطول عمره ويرى في عدوه ما يسره خير الكتب ما اذا أعدت فارنه النظر فيه زاد حسنه أو وقف على خبره أثقل الاحمال من اتسعت مروءته وقلت مقدرته استحى من الله بقدر قربه من عقله وأطعه بقدر حاجتك اليه وخفه بقدر قدرته عليك واعصه بقدر صبرك على النار واعمل للدنيا بقدر بقائك فيها واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها الملك يتفق ليكتسب والعامة تكتسب لتنفق الطاعة بقدر الفاقة يفحش زوال النعم اذا زال معها التجمل أولى الامور بك اوجبها عليك الدنيا العافية والشباب الصحة اذا أقبل الامر أسرع به واذا أدبر بصرح اذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية واذا جار لم يملك منهم الا الرياء والتصنع الصدقة من سعة وابدأ بمن تعول اذا أضرت النوافل بالفرائض تركت النوافل وقدمت الفرائض قدر الرجل على قدر همته وصدقه على قدر مروءته وشجاعته على قدر أنفته وعفته على قدر غيرته من أطاع الواشي ضيع الصديق ومن جعل لنفسه حظا من حسن الظن روح قلبه شر مالك ما لزمك اثم مكتسبه وحرمت منفعة انفاقه رب مغبوط بليلة قامت بواكيه في آخرها لا ترج خيرا من لا يرجو خيرك ولا تأمن جانب

من يأمن جانبك تارك الطلب خير الراجي للعود ثمن تاركه خوفا ثمرات الشهوات المخازي
الخصومة تمرض القلب أعم الأشياء نفعا فقد الاشراف من استكفى الكفاة كفي الاعداء خير
ما للنساء اعتزالك وخير منه ما وقاك صولة الكريم سليمة ذنب أسد خير من راس كلب بجبهة العير
يقدي سافر القرس من استبد برأيه خفت وطأته على اعدائه انما لك من دنياك ما أصلحت به
مثوالك من أمن الزمان خانه ومن تعزز عليه اهانه كما يجب ان تكون المرآة أضوأ من الناظر فيها
فكذلك يجب ان يكون المؤدب أفضل ممن يؤدب من ترك العمل بما ينبغي عومل بما لا ينبغي
ليس في الشراسة ولا في الخطاقدوة لن تكون لله ناصحا حتى تحب عدوك اذا أطاع الله في
عداوتك على عداوته وتقلع عما عاد الله عليه وتبغض وليك اذا عصى الله في موالاتك وتنزع
عما والاه عليه لا تكن على الاساءة أقوى منك على الاحسان الشقي من جمع لغيره وضيق على
نفسه شر أخلاق الكريم أن يمنع خيره من كانت الآخرة رأس ماله كانت الدنيا ربحه ومن
كانت الدنيا رأس ماله كانت الآخرة خسارته أفضل العلم وقوف الرجل عند علمه أفضل المال
ما طيبت به الحقوق البدع فخاخ مخبوءة قد علقت عليها ألفاظ ظاهرة رجاء العامة أمنية على
ضلالة ورجاء الخاصة يقين على ثقة القليل من الملك كالكثير من غيره عطاء المولى زينة وسؤاله
شرف وفي الامثال جاور بحرا أو ملكا اذا كذب السفير بطل التدبير اخبث الازمنة زمن
لا يزيد فيه الصواب الا تعطوا في الفضول ما خضم النجز عن الحقوق الآذان اقماع تؤدي
والقلوب قوابل تعي من أحب أن يسمي داهيا لم يظهر دهاءه لا دليل أهدى من التوفيق الجلاء
البلاء من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن الحفظ قيد العلم المداراة ذكاء الفهم
المقايسة احياء الفطن استدم النعمة بالشكر والقدرة بالعفو والطاعة بالتألف والنصر
بالتواصل لله والرحمة للخلق استقلال الكثير تعرض للتغيير ثلاثة أشياء تدل على عقول
أربابها الكتاب يدل على عقل كاتبه والرسول يدل على عقل مرسله والهدية تدل على عقل
مهديها لم يحكم على العقول حاكم كالعبر ولم يحكمها محكم كالتجربة من عاب سفله فقد رفعه
ومن عاب سيد افقد وضع نفسه أحق الناس أن يؤمن على الدنيا أهل الآخرة صح من صحت
سرائره وسقم من سقمت ظواهره بالكلام يعرف فضل العقل كما بالرسول يعرف قدر المرسل
ملاك أموركم الدين وعصمتكم التقوى وزينتكم الادب وحصن أعراضكم الحلم اذا
أعطيت ما لا ترضى فارض بما أعطيت كلما ازداد الخير كثرة كان الخارج منه أشد مرة
وبقدر السمو في الرفعة تكون وجبة الوقعة الابقاء على العمل أشد من العمل من التوقي
ترك الافراط في التوقي وتوريث الحرمة والذمام سنة في المروءة كما ان وراثة التركة فريضة
في الديانة لا تمدحن امرأ بأكثر من قدره فتكون مهينا لنفسك كذابا على غيرك لا تفرحن
بسقطة عدوك فانك لا تدري متى يحدثها الزمان بك من الجفاء الكلام في الامر الجسيم من غير
مشاورة أكثر الناس مخادعة لنفسه في أمر جسده عند الجبة وفي أمر مروءته عند الشهوة
وفي أمر دينه عند الشبهة المصائب يقظات العاقل المدبر أربح من الاحمق المقبل أشرف
الصنائع ما لم يكن مكافأة ملك ولا رياء لباق أرض النظير ثم كانئه وآنس الملهى ثم استمع
منه لم تكن غواية ولا هداية الا واليها سابق وعنها ناكص احسانك الى الحر يحوضه على

المكافأة واحسانك الى الخسيس يبعثه على معاودة المسئلة ليس يتحتم الاديب بأن يكون فاعلا للخير انما يتحتم بأن يكون تاركا للشر من صنع معك خيرا فاضعفه له والا فلا تعجزان تكون مثله الاشرار يتبعون مساوى الناس ويغفلون عن محاسنهم كما يتبع الذباب المواضع النغلة من الجسد ويدع صحيحه الظرف فطنة مازجتها عبادة مع حذر وتوق فاذا خلت الفطنة من التوقى فصاحبها لا يستمتع به أهل المروأة واذا خلت الفطنة من العبادة وقارنتها فصاحة فصاحبها غير طيب الظرف الالفاظ التى يرتفع عنها أهل الجلالة من المخلصين فى باطن الدنيا والمترفين فى ظاهر الحال (وسمعت القاضى) أبا العباس الجرجانى رحمه الله بالبصرة يقول أول من نطق بهذه الكلمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وذلك انه أتى بسارق فقال له أسرقت قل لا فقال الرجل لا فقال عمر اتك لظريف جهد البلاء الاقلال والعيال ينبغى للعالم ان يتطامن للجاهل بقدر ما رفعه الله عليه العقل أفقر الى الحكمة والادب من الجسد الى الطعام والشراب أعظم الناس غما من زالت نعمته وبعثت شهوته وضاقت مقدرته قلة العيال احد اليسارين معالجة الموجود خير من انتظار المفقود من عدم الحياء عند القضيحة والصبر عند النصيحة سهلت عليه المعاصى كلها العالم مثل السراج من مر به اقتبس منه من تقدم بحسن النية نصره التوفيق لن تكون لله ناصحا حتى تحب أن يكون عدوك مطيعا من اذى الناس بلا سلطان كان مصيره الى الهوان ما دخل بما ليس فيك مخاطب لغيرك فجوابه وثوابه ساقطان عندك المكر والخديعة فى النار الاحداث تأتى من على ما منه يوقى الحذر المأكول للبدن والموهوب للمعاد والمحفوظ للعدو ومن غضب على من لا يقدر على غمه عذب نفسه واشتد غيظه اطلب ما يعنيك واترك ما لا يعنيك فان فى ترك ما لا يعنيك درك ما يعنيك من انكا الاشياء لعدوك انك تريه انك لا تعاديه كل آت قريب الاستغناء عن الشئ خير من الاستغناء به ومن خير خبران تسمع بالمطر لا تخرج فيمايزول ولا غنى فيما لا يبقى شر العيوب ما كان معينا على العيوب شر الذنوب ما كان علة للذنوب أبلغ الرسل الكتب حاول الامور بالنصفة وأنا زعيم لك بالظفر من أراد جماله الا تهضمه الايام فليحجب المروأة والصيانة فهما ذورة الشرف رب امرله ما بعده من سبق اليك كان له صفوه من شروط المروأة التغابن للضعيف المروأة ترك الريبة يكاد استقضاء القوى على الضعيف أن يكون ظلما يكاد استيفاء الغنى من الضعيف ان يكون جورا القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق أوله حكم وآخره علم المحادثة على الطعام تزيد فى الشهوة وتذهب الحشمة وتزيل الانقباض لن تنال ما تحب حتى تصبر على كثير مما تكره ولن تجمع مما تكره حتى تصبر عن كثير مما تحب ذهاب البصر خير من كثير من النظر لا تعد العزم عزما اذا ساق غما مع الرأى الاول الوهم النظرة بعد النظرة تعقب بلا قبلها وتزيد بلا بعدها ليس مدح الرجل بما فيه تزكية انعم الناس من كفى أمر دنياه ولم يهمه دينه الغريب من فقد اخوانه ونظراءه وان كان فى وطنه الغريب من لا صديق له الغريب الفقير الغريب الاحق الغريب من لا ناصر له شيآن لا يستحى العاقل منهما المرض وذو القرابة الفقير من كانت الدنيا سبب صلته فانها سبب قطيعته فاحذران تجعلها وسطا بينك وبين أحد علامة الاشرار أن من خالطهم لا يسلم منهم

ومن تركهم لا يصرفوا شرهم عنه وأما الاخيار فمن خالطهم ربح عليهم ومن غالطهم ترك رشده
الرذالة الصدق في الغضب والجود في العسر والعفو عند القدرة من عتب على الزمان
طالت معتبته ستاق الى كل ما أتت لاق اذا صحب الارتياد الرشاد وجد المراد ما أعتق
من الذم من ملكه الجهل ولا ظفر بالعز من احتقل ما في المعصية من الذل ولا خير في الدناءة
من صرف جميع عقله الى الدنيا اخو الظلم مريب المسئلة آخر المكسبة ما عدد من أهل
الحجى من كان من أهل الهوى ولا كان من أهل التقى من حاد عن سبيل الهدى من ذم أدنى
الاحسان لامتناع أقصاه لم يحمد شيأ منه من دواعي الهلكة اضاعة المعرفة واعجب المن بيني
داره وجسمه يهدم ولمن يبرم أمور الدنيا واموره في نفسه تختل (قال علي رضي الله عنه) من
لم يكن معنا كان علينا والساكت أخو الراضي الكاتم للعلم كمن لا علم له أو هو غير واثق فيه
بالصواب المرء مخبوء تحت لسانه قيمة كل امرئ ما يحسن العلم بما في المصيبة من الثواب
يفني المصيبة شر من المصيبة سوء الخلق منها الحكمة ربيع القلوب الخصومة تكشف
العورة وتورث المعرة بلاء المؤمن من عافيته كالنار حريقها من نورها قد يكون اليأس
احدا كما اذا كان الطمع هلاكا من لم يرفع نفسه عن قدر الجاهل رفع الجاهل قدره عليه الذلة
مع القلة تجوع الحرة ولا تأكل بثديها موت عاجل خير من ضنى آجل الغضب عند
المناظرة منسأة للحجة الاختصار أثبت للمتكلم وأفهم للسامع الكلب في الحاضرة ينبح الضيف
ويدفع الزائر ويرد السائل والكلب في البادية يعين الصاحب وينذر بالضيف ويدفع
السارق لا تغتر بقول الجاهل لك ان في يدك لؤلؤة وأنت تعلم انها بعرة مثل الصلاة مع سائر
العبادات مثل السفينة مع جميع من فيها ان سلمت سلم الكل وان أصيبت أصيب الكل الحب
والبغض فتنة طلب المطمع حرمان وطلب المؤيس يعجز قد ينظر المنطق من يعنى به اذا فسد
الزمان كسدت الفضائل وضرت ونفقت الرذائل ونفعت وصار خوف الموسر أكثر من
خوف المعسر لقاء أهل الخير عمارة القلوب لا يصيد الكثير من لا يصيد لنفسه الواحدة بالعمل
يحسن المنطق وبالقوة يتم العمل الفكرة مرآة من أعظم الناس من قل ماله وكثر مجده
الادب مع العقل كالشجرة المثمرة والعقل بلا أدب كالرجل العقيم الماء ألين من القول
والقلب أقسى من الحجر وقد ينثلم الماء الحجر اذا كثر انحداره عليه اشد الاشياء اخفاء الفاقة
أولى الناس بالرحمة عالم يجري عليه حكم جاهل لم يغب من شهد رأيه ولم يفن من بقي أثره ولم يمت
من خلد علمه وقد سبق المثل ليس بهالك من ترك مثل مالك كما انه قبيح اذا ركبنا الخيل أن
نجري بنا حيث أرادت دون أن ندبرها كذلك قبيح أن يجري البدن والنفس بالعقل حيث
أرادت من الشهوات أشق الامور معرفة المرء بنفسه عائب المجتمع عليه محجوج ليس شئ
من البر الا ودونه عقبة من الصبر ضرب الانسان عار باق ووتر مطلوب (قيل للحكيم) هل للغضب
مائدة نحسنه قال نعم أن يعلم الانسان انه ليس يجب أن يكون مطاعا أبدا ولا يجب أن يخدم أبدا
ولا يجب أن يحتمل خطؤه أبدا ولا يجب أن يصبر عليه أبدا بل قد يطيع ويخدم ويتحمل الخطأ
ويصبر على النوائب فاذا عقل ذلك لم يغضب وان غضب فقليل السعيد من وعظ بغيره والشقي
من وعظ بنفسه لا تنفع كثرة العلم لمن لا يعمل كما لا يغني ضوء الشمس عمن لا يبصر رضي بالذل

من كشف ضره بترك التورع وأزرى بنفسه من استشعر الطمع البدع فخوخ يسترها زخرفة الكلام وخدع المال الناس فى الدنيا بالاخوان وفى الآخرة بالاعمال صديق الرجل عقله وعدوه جهله من اجتمعت اليه النعمة أديمت له الرغبة يحفظ الاحق من كل شئ الا من نفسه لاجود الا بمال ولا صداقة الا بوفاء ولا فقه الا بورع العليل الذى يشتهى أرجى من الصحيح الذى لا يشتهى قلوب الرجال وحشية فمن تألفها أقبلت عليه اجعلوا بينكم وبين الحرام سترة من الحلال لقاء الرجل احلامهم سلامة فلهم من لم يصلح على تدبير الله لم يصلح على تدبير نفسه والاحلام فرح وهم كاذب والعامل بها كالمعتمد على الظل الزائل الدنيا دول فما كان منها لك أتاك وما كان عليك لم تقو على دفعه العافية خير من الواقية الكريم لا يستحى من اعطاء القليل العفاف زينة الفقير الكرم حسن القطنة واللؤم سوء التغافل اختلاف كلام المرء دليل على ميل الهوى به من حق النعمة أن يرى أثرها من كان شبعه فى الطعام لم يزل جائعا ومن كان غناه فى المال لم يزل فقيرا ومن كان قصده بحوائجه الخلق لم يزل محروما ومن استعان فى أموره بغير الله لم يزل مخذولا من خاف من فوقه خافه من تحته ومن لم يخف من فوقه لم يخفه من دونه ما تحسنه وما تعمل به لغيرك نوره وعليك بوره واعجبا لمن يختار الذلة فى طلب ما يفنى على العز فى طلب ما يبقى من حذرك كن بشرك الشفيع جناح الطالب اذا أقبلت الدنيا عليك فانفق منها فانها لا تفنى واذا أدبرت عنك فانفق منها فانها لا تبقى قال الشاعر

فانفق اذا أيسرت غير مقتر * وانفق على ما خلت حين تعسر
فلا الجود يفنى المال والحظ مقبل * ولا البخل يبقى المال والحظ مدبر

(ولغيره)

لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة * فلن يضرك بها التبذير والسرف
وان تولت فحرى ان تجود بها * فالشكر منها اذا ما أدبرت خلف

الغريب فى كل مكان مظلوم من سلك الحذار أمن العثار لم يحرر اكتساب القصد عجبا للئيم يستعجل الفقر الذى منه هرب ويفوته الكرم الذى أتاه يطلبه فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء ويحاسب فى الآخرة حساب الاغنياء من بطل ذليل يكثر ويله (وقال على رضى الله عنه) ما يزال فعل الله ينطق به عنك خير من سعى غيرك ان احببت ان لا يفوتك ما تشتهى فاشته ما يمكنك من قصد اسهل ومن أسرف اوعر القصد اخو الحمام شر السير الحقنة بوئ لنفسك فى المجالس مجلسا لا يقصر بك ولا تقام عنه اقطع الشر من صدر غيرك يقطعه من صدرك وازجر المسيء بإنابة المحسن لكى يرغب فى الاحسان لن يهلك من مالك ما وعظك الخلاف يهدم الرأى خير الناس لغيره خيرهم لنفسه احسان الله مكفور عند من أصبح مصرا على ذنب مستور يصير الخلق خلقا بالاجتهاد والاعتياد احجر الغصب فى البنيان رهن على الخراب ربما شرق شارب الماء قبل ريه رب راى انفع من مال وحزم أوقى من رجال من استوعب الحلال ناقت نفسه الى الحرام من ذم الزمان لم يحمد الاخوان بتقلب الاحوال تعلم جواهر الرجال من عرف الزمان لم يحتج الى ترجمان من عرف الايام لم يغفل عن الاستعداد رسول ترجمان عقلك الطاعة غنيمة الاكياس عند تفريط العاجز كلما اشتد الظلام حسن ضوء السراج

التماعا كثر من الاستحقاق ملق والتقصير عن الاستحقاق عمى أوحسد أولى الناس بالرحمة من احتاج اليها فحرمها من لم يدر قدرها البلية لم يرحم أهلها كفالك أدبا لنفسك ما كرهته لغيرها مجالسة الاحمق غرور والقيام عنه ظفر لا تسأل عما لم يكن فان فى الذى كان شغل الضل جامع لمساوى العيوب وهو زمام يقادبه الى كل سوء اذا صح القلب وصح العمل كان التوفيق احرازا لعواقب بالاجتهاد والاجتهاد ربح بضاعة التوفيق خير قائد كمال العمل التوفيق من ترفق فى استتمام الحظ من البغية أدرك وبلغ مقاربة الناس فى أخلاقهم من غوائلهم لا تنظر الى أحد الموضع الذى رتبه فيه زمانه ولكن انظر اليه بقيمته فى الحقيقة فانها مكانه الطبيعى أبعد الناس سفرا من سافر فى طلب أخ صالح ليست البركة من الكثرة لكن الكثرة من البركة (وقال داود عليه السلام) ان كان ماترى من الجهل يغيظ اذن يكثر الجهل ويطول غمك (قيل لبزرجمهر) مالكم لا تعاتبون الجهلة قال لانا ما نريد من العميان ان يبصروا العشق مرض نفس فارغة لاهمة لها اجالة الفكرة واستخراج الفطنة تتبع الاساءة بالندم وتتبع الندم بالاقلاع الامن بالبراءة وكثرة الصديق بالتواضع وأعم الاشياء نفعا فقد الاشرار من بذر عداوة حصد ندامة السمنة للنساء غلمة وللرجال غفلة (قال المسيح) عليه السلام ما حلم من لم يصبر عند الجهل وما قوة من لم يرد الغضب وما عبادة من لم يتواضع للربة سبحانه عبادة النوكى المجىء فى غير وقت والجلوس فوق القدر اذا وقعت الضرورة ارتفعت المشورة (قيل لحكيم) أخرج الهم من قلبك قال ليس باذنى دخل من اغتر بحاله قصر فى احتياله اياكم وطلب الامور من غير وجهها فيعنيكم طلبها ولا تدركوا حظا منها هيبة الرزل فوت الحصر (قيل للحكيم) لاى شئ تزوجت امرأة دميمة وأنت وسيم قال احترت من الشر اقله (وقيل لحكيم) ما تقول فى الرواج قال لذة تشهر وهم دهر فتنة عالم الى ابليس خير من غوايه ألف جاهل تمحى المعائب ولا تمحى المعاذير الموالاة فى الاسلام بمنزلة الحلف فى الجاهلية سب الجاهل للحكماء تشريف لهم عند أهل الفضل لان الجاهل منسوب الى فعله وكما ان الحكيم يتألم بحديث الجاهل كذلك الجاهل يتألم بسماع الحكمة اغنى الناس عن الحقد من عظم قدره عن المحاذاة الكبيرة الهمة من الرجال من كان عنف الناصح عنده الطف موقعا من ملق الكاشح ان كانت الجدود هى الحظوظ فما بال الحرص وان كانت الامور ليست بدائمة فما بال السرور وان كانت الدار غدارة فما بال الطمأنينة (وقال الشعبى) ما رأيت الله سبحانه وتعالى أعطى عباده أجل من الحلم (وقال عمر بن الخطاب) رضى الله عنه خمس من لم تكن فيه فلا ترجه لشئ من أمر الدنيا والآخرة من لم تعرف الوثيقة فى أرومته والدماثة فى خلقه والكرم فى طبعه والنبل فى نفسه والتحاقر عنده به (قال أبو عبد الله بن حمدون) كنت مع المتوكل لما خرج الى دمشق فركب يوما الى رصافة هشام بن عبد الملك فنظر الى قصورها ثم خرج فرأى ديرا قديما هنالك حسن البناء بين مزارع وانهار وأشجار فدخله فينا هو يطوف اذ بصر برقعة قد الصقت فى صدره فامر بقلعها فاذا فيها هذه الابيات

أيا منزلا بالدير أصبح خاليا * تلاعب فيه شمأل ودبور
كانك لم يسكنك بيض أوانس * ولم يتبخترفى فنائك حور

وأبناء أملاك غواشم سادة * صغيرهم عند الاله كبير
اذا لبسوا ادراعهم فعوابس * وان لبسوا تيجانهم فبدور
على انهم يوم اللقاء ضراغم * وانهم يوم النوال بحور
ليالى هشام بالرصافة قاطن * وفيك ابنه بادٍ وهو أمير
اذا العيش غض والخلافة لذة * وأنت طريب والزمان غرير
وروضك مرتاد ونورك مزهر * وعيش بنى مروان فيك نضير
بلى فسقاك الغيث صوب سحائب * عليك لها بعد الرواح بكور
تذكرت قومى فبكيتهم * بشجو ومثلى بالبكاء جدير
فعزيت نفسى وهى نفس اذا جوى * لها ذكر قومى انه لزفير
لعل زمانا جار يوما عليهم * لهم بالذى تهوى النفوس يدور
فيفرح محزون وينعم بائس * ويطلق من ضيق الوثاق أسير
رويدك ان الدهر يتبعه غد * وان صروف الدائرات تدور

فلما قرأها المتوكل ارتاع وتطير وقال أعوذ بالله من شر اقداره ثم دعا صاحب الدير فسأله عمن كتبها فقال لا علم لى به وأما الكتب وصفاتها فقبل عن الوصف ولقد أحسن ابن الجهم فى قوله

سمير اذا جالسته كان مسليا * فؤادك ممافيه من ألم الوجد
يفيدك علما أو يزيدك حكمة * ويغبر حسودا أو مصر على الحقد
ويحفظ ما استودعته غير غافل * ولا خائن عهدا على قدم العهد
زمان ربيع فى الزمان باسره * يبيحك روضا غير ذاوٍ ولا جعد
يثور احيانا بورد بدائع * أحص وأولى بالنفوس من الورد

وأنشد بعض العجم

اذا ما خلا الناس فى دورهم * بخمر سلاف وخود كعاب
وأنسهم فى ظلام الليال * لعبر النداى وزهو السحاب
خلوت وصحبى كتب العلوم * وبيت العروس بيت الكتاب
ودرس العلوم شراب العقول * فدوروا على بذاك الشراب
وما يجمع المرء فى دهره * سوى العلم يجمعه للتراب

ومن مليح ما ينشد فى الكتب

اذا ما خلوت من المؤنسين * جعلت المؤانس لى دفترى
فلم أخل من شاعر محسن * ومن عالم صالح منذر
ومن حكم بين أشتاتها * فوائد للناظر المفكر
وان ضاق صدرى باسراره * وأودعته السر لم يظهر
وان صرح الشعر باسم الحبيب لم أحتشمه ولم أحصر
وان عدت من ضجره بالهجا * وسب الخليقة لم أحذر

ونادمت فيه كريم المغيب * لنـدمائه طيب المخبر
فلست أرى مؤنسا ماحييت * عليه نديما الى المحشر

وأنشد ابن حزم لبعض الادباء

ان صحبنا الملوك ناهواعلينا * واستبدوا بالرأى دون الجليس
أوصحبنا التجار عدنا الى الفقـ * ـر وصرنا الى حساب الفلوس
فلزمنا البيوت نتخذ الحبر ونملا به وحوة الطروس
لوتركنا وذاك كنا ظفرنا * من أمانينا بعلق نفيس
غيران الزمان أعمى بنيه * حسدونا على حياة النفوس

وأنشد غيره

أنست الى التفرد طول عمرى * فمالى فى البرية من أنيس
جعلت محادثى وندىم نفسى * وانسى دفترى بدل العروس
فما استغنيت عن قرمى برجلى * اذا سافرت أوفعل كبوس
ولى عرس جديد كل يوم * يطرح الهم فى أمر العروس
فبطنى سفرتى والحر جسمى * وهمسانى نمى أبدا وكيسى
وبيتى حيث يدركنى مسائى * وأهلى كل ذى عقل نفيس

ولئن كان الناطقون قد وصفوا الجود وقالوا فابلغوا فلقد قصروا وأجل ممدوح من استقصر فى مدحه المنتهى واستزرى تفريطه المتفاول وكيف لا والكتاب نعم الانيس فى ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل وعالم فى عمل وظرف حشى ظرفا وانا ملئ مزاج وجذابستان يحمل فى ردن وروضة تنقلب فى حجر هل سمعت بشجرة تؤتى كلها كل ساعة بألوان مختلفة وطعوم متباينة هل سمعت بشجرة لا تذرى وزهرا لا يتوى وغرا لا يفنى ومن لك بجليس يفيدك التى وخلافه والجنس وضده ينطق عن الموفى ويترجم عن الاحيا ان غضبت عليه لم يغضب وان سخطت عليه لم يعب اكتم من الارض وانم من الريح والهى من الهوى واخدع من المنى وامتع من الضحى وانطق من سحبان وائل واعيى من باقل هل سمعت بعلم واحد تحلى بحلل كثيره وجمع أوصافا غزيره عرب فارسى هندى سندى رومى يونانى ان وعظ أسمع وان الهى أمتع وان ابكى أدمع وان ضرب أوجع يفيدك ولا يستفيد منك ويزيدك ويستزيدك ان جددت يسر وان مزح فنزهة فبر الابهر اروحز الودائع قيد العلوم وينبوع الحكم ومعدن المكارم ومؤنس لا ينام يفيدك علم الاولين ويخبرك عن كثير من أنباء الآخرين هل سمعت فى الاولين أو بلغك عن أحد من البالغين جمع هذه الاوصاف مع قلة مؤنته وخفة محمله لا يرزأك شيأ من دنياك نعم الذخر والعدة والمستغل والحرفة جليس لا يضربك ورفيق لا يملك يطيعك بالليل طاعته بالنهار ويطيعك فى السفر طاعته فى الحضر ان أدمت النظر اليه أطال امتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بنانك وفخم الفاظك ان القته خلد على الايام ذكرك وان درسته رفع فى الخلق قدرك وان حملته قوته عند هم بما همك يقعد العبد فى مقاعد السادة ويجلس السوقة

في مجالس الملوك فاكرم به من صاحب واعزز به من مرافق وقد قال فيه الاول

لنا جلساء ما نمل حديثهم * الباء مأمونون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ماضي * ورأيا وتاديبا وعقلا مسددا
بلا فتنة نخشى ولا سوء عشرة * ولا نتقي منهم لسانا ولا يدا
فان قلت أموات فما أنت كاذب * وان قلت احياء فلست مفندا

فهذا ما أردنا أن نمليه في هذا الكتاب فاكتبوا ان شئتم انتقاسه ان كانت الانفاس مما يكتب

*(قال المتوسل الى الله سبحانه بخير من وطئ البساط طه محمود قطربة
المنسوب نشأة الى دمياط المصحح بدار الطبع أدام الله جمال
سلوكه بدوام السماوات الربع والارض ذات الصدع)*

الهنا ياذا الحنان ويا نافذ الحكم وغالب الامر وقوى السلطان بسلطان يجدلك اعتزت كلمة أوليائك ونفذ أمرك في اهل أرضك وسمائك سبحانك وبحمدك أذلت الكون على ما رضيت ان يكون العباد وولیت الامر من تحقق بمزيد الصلاحية والقيام بحق السداد وانطت اقام الدين ونظام الدنيا بمن أصبح به لواء العزة بك منشورا وجعلت نفوذ الكلمة ميسورا ما كان الامر بين أهل شورى واقت أساس المنعة والبأس على عماد الاستنصار بقيوم أمرك وديمومة ملكك القائم على كل نفس ولك الشكر حتى تزلف لنا به من عنايتك غرف الاقدار على طاعة أهل حكمك وولايتك والبراءة اليك من شرة النفس الابية والعباد بك من ذل الهوى وظلم الطبع الذي ينتفز الحمية حمية الجاهلية ثم الصلاة على سيد خلقك قائد الغر المحجلين الى مواقف كرامتك وعلى آله وأصحابه الذائدين باسيافهم وأرواحهم عن كلمة الحق مخلصين له الدين وسلم اللهم تسليما واحد نايهم صراطا مستقيما هذا وان الكتاب الجليل الغني بوضوح فضله عن الاجمال في مدحه والتفصيل المسمى سراج الملوك كتاب لم يغادر من آداب الاخلاق وبدائع النصائح والامثال الرقاق من مفعول ولا مترول وكيف لا وهو لواحد العصر من له في تناتف المعارف الجمع والقصر من الى ضرب امثاله اليب وحي وجوشوشي الامام العلامة محمد بن الوليد أبي بكر الفهري المالكي الطرطوشي فلقد جادت يده بأجل كتاب جادت به يد تصنيف واوقر سفر قالت الحكمة تحت ظل نعيانه الوريف واجمع مؤلف ألف شمل الانباء بعد انفصادعها وأودع خزائن الافكار ودائع النصائح الرشاق أتم ايداعها اشتمل بشمال الابانة عن دقائق الحكم حيث اشتمل على رقائق مواعظ وأحاسن أخلاق من سلف من ملوك العرب والعجم فتسابقت في مضمار تنزيله الحكم فرسان الزواجر والعبر وسارقت الى رقة الفاظه رموز روادع العظة فكان من احدى الكبر لعمر الله لهو اجدران يكون لطموح الصدارة سراجا مشعلا ولوفود احسان السياسة ورقى درج الرآسة محلا آهلا محلى من ثم عنى بطبعه الابهى وتمثيله الارغد الاشهى منه له في آني المكارم الفاتحة والخاتمة حضرة الفاضل الشيخ صالح محمد باعيسى رئيس التجار الحضارمة جزاه الله مزيد الاجر وبين له الخيط الابيض

من الخط الاسود من الغبر وكان اجراء الطبع والتمثيل المصور به بالتهذيب الانيق والضبط والتحرير الوثيق المنفرد بالاصالة مما أزبدت أمواج بحر النيل بمطبعة بولاق مصر التي حطت عن أعناق الاقلام وهام البنان كل عب مواصر وغردت عليها بلابل الافادة والانتفاع وسطعت من سماء ازديانها شموس الجمالة على صفحات الابصار والاسماع كيف لا وقد أوبت بها انامل مراحم ولي كل نعمة رب المآثر المنشورة والمحامد الجمة عزيز الدنيا ومطيع أبصار العليا المخصوص بالهمة السامية والعزم الملي أفندينا اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على أيد الله بالصولة والمنعة دولته وبهج بجميل الذكر والكرامة طلعته وحرس اشباله وانجاله الذين هم انجز لوعده وأنجى له سيما الشبل الاسمى ومزنة نوء عدله الاهمى من به ثوب العدل صفيق سعادة المشير الافخم محمد باشا توفيق حفظه الله ونالة من الخير مناه منوطة تلك الدار بنظر صاحب المساعي المشكورة والمكارم الغزار من به صادق الرأي يستغني سعادة ناظر المطبعة والكاغدخانه حسين بك حسني موصولة النظر بوكالة وكيله المهتدي بدلالته الى سواء سبيله من اذا أشارت المعارف فاياه تعني حضرة محمد أفندي حسني مطوقة بعهدة ذي السعي الجميل والمقصد الاحمد جناب أبي العينين أفندي أحمد موكولة التصحيح المستطاب والتهذيب والتنقيح الذي ملأ الوطاب الى رياسة ذي الفكر الثاقب والفهم المدوار حضرة المولى الفاضل الشيخ ابراهيم الدسوقي عبد الغفار وما غرد طير الاكمال على غصون طبع صالح هذه الاعمال رحت مادحا مؤرخا حسن هذا الصنيع على لسان كل بصير بمقدارها سميع قائلا

يد المجد قد بجت طرزها * فهل من سعيد حسا كرزها
فكم قد رأى المجد قد رامرئ * تراه حصاف النهى برزها
وكم للسان العلا لهجة * تنادي ان استخرجوا كنزها
وما الناس الا امرؤ ان يذل * بدنياه ساقت له عزها
والقت اليه مقاليدها * وأدنت الى سعيه حوزها
وآخر يابى على نفسه * سما الضيم حتى يرى وخزها
يحمله الرأى ما لا يطيق * كما حملت الف همزها
وآخر أربى عليه هواه * وأمضى لفرصته نهزها
* أقام يشبب بالمحسنى * ويبض الدمى بالحسان لزها
يفوت بنكراء ما قوت ثغر * ممنعة احرزت حرزها
اذا مارنت عانت القلب منه * فهل تحسد القلب او غمزها
وان هي ماست فيا دوحة الحسن * بها عبث الدل أن هزها
يروعه بالضنا حصرها الشذى علمه به لغزها
ويعجزه بالملام العذول * يرى نفس من صابرت عجزها
وبات له ناظر قد أجاد * لابريز شهب الدجى فرزها
يقول لنجم السما راعنا * به عوز يجتدى عوزها

لمسكة من حشاوعزاه * لنقص بها ماغد اكرها
اذا نقد الصبر يا زيفها * وان بذل الوصل يافوزها
اذا الولع أربع وجى رأى من * عن الولع القلب قد نزها
وهات اجل لى من سراج الملوك * سناغرة أوضحت غزها
كتاب أتانا بحق اليقين * فأنى النهى ما به ابتزها
يكاد سنا برق انبائه * يجب القلوب يرى ازها
* ابان لنا زبر الاولين * وأبرز من طيها رمزها
فكم فيه من عبرة للبصير * ومن عظه تقتضى قزها
ومن حظة تستطير النفوس * لما قد دعى باغز بغزها
يورث علما بذات الصدور * ويحو بلين الهدى ترزها
اذا كان بالطبع من باب أولى * لتنشق منه النهى تأزها
* فلله در امرئ صالح * وصالحة فى السهى رزها
فجاء بجاءة طبع جميل * به للامانى قضى نجزها
فلا ريب يجزى جزاء وفاقا * ومن جاء شاكلة يجزها
ومذ أفرغوا حلة الانتهاء * على طبعه المقتدى ازنها
اشرت على الحال ارخ أضاء * سراج الملوك بطبع زها

٨٠٢ ٢٦٤ ١٢٧ ٨٣ ١٣

سنة ١٣٨٩

ووافق كمال طبعه المنير أواخر رمضان المحرم سنة التاريخ
المنظوم من هجرة البشير النذير صلى الله عليه وسلم وعلى
آله وصحبه ومن تبعهم على التى هى أقوم
ما حن مشتاق الى البكاء واشتاق
مهجور الى ابن ذكاء
والحمد لله رب
العالمين
م

5187

5A